
مواهب الرحمن
في
تفسير القرآن
تأليف
فقيه عصره آية الله العظمى
السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري
الجزء التاسع



تأليف

فقيه عصره آية الله العظمى

السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري قدس سره

الجزء التاسع

سرشناسه	سبزواری، عبدالاعلی، ۱۲۸۸؟ - ۱۳۷۲.
عنوان و نام پدیدآور	مواهب‌الرحمن فی تفسیرالقرآن/ تالیف عبدالاعلی الموسوی‌السبزواری.
مشخصات نشر	قم: دارالتفسیر،۲۰۰۷م. -= ۱۴۲۸ق. -= ۱۳۸۶ -
مشخصات ظاهری	۱۴ج.
شابک	دوره: 978-964-535-051-0
یادداشت	عربی.
یادداشت	ج.۶(چاپ دوم : ۱۳۸۶)
یادداشت	ج. ۱۲ (چاپ دوم: ۱۴۲۸ق. = ۲۰۰۷م. = ۱۳۸۵).
یادداشت	ج. ۱ الی ۱۴ (چاپ سوم: ۱۳۸۹) (فیپا).
مندرجات	ج. ۱. فاتحه- البقره.- ج. ۲- ۴. بقره.- ج. ۵ و ۶. آل عمران.- ج. ۷. آل عمران- نساء.- ج. ۸ و ۹. نساء.- ج. ۱۰. نساء- مائده.- ج. ۱۱ و ۱۲. مائده.- ج. ۱۳ و ۱۴. انعام
موضوع :	تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴
رده بندی کنگره :	۱۳۸۶ ۸م۲۳س/BP۹۸
رده بندی دیویی :	۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی :	۱۰۵۳۵۷۱

منشورات دارالتفسیر

قم - خیابان معلم - میدان روح ا... - تلفن :۷۷۴۴۲۱۲

مواهب الرّحمن في تفسير القرآن ج/۹

آية الله العظمى السيّد عبد الأعلى الموسوي السبزواري

□ الطبعة الخامسة: ١٤٣١ هـ = ٢٠١٠ م

□ المطبعة: نگين

□ الكميّة: ٢٠٠٠دورة (١٤-١)

□ رقم الايداع الدّولي للدورة ISBN Vols: 978-964-535-051-0

□ رقم الايداع الدّولي للجزء التاسع ISBN Vol 9: 978-964-535-076-3

١ـ لا يجوز طبع هذا الكتاب الّا باذنٍ خاص من مكتب السيد السبزواري في النجف الأشرف.

٢ـ يوزع هذا الكتاب:

العراق ـ النجف الأشرف، سوق الحويش، مكتبة المهذّب، الجوّال ٠٧٨٠١٥٤١٥٢٣

ايران ـ قم، شارع معلم، ميدان روح‌الله، انتشارات دارالتفسير، تليفون ٧٧٤١٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ٦٩ ـ ٧٠

﴿وَمَنْ يُطِعْ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِك مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِك رَفِيقاً ﴿٦٩﴾ ذَلِك الْفَضْلُ مِنْ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً ﴿٧٠﴾﴾.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى وجوب طاعة الله والرسول، وأحكم عزّ وجلّ هذا الحكم الإلهي المهمّ بعدّة أُمور، ووعد عليه الوعد الحسن من الأجر العظيم، والهداية إلى الصراط المستقيم، يبيّن جلّ شأنه في هاتين الآيتين الشريفتين حقيقة الهداية، ونوع ذلك الجزاء، وأنّ ذلك الصراط المستقيم هو الذي سار عليه أخلص عباد الله المصطفين الأخيار، الّذين أنعم الله عليهم الهداية عرفان الحقّ والعمل به وفعل الخيرات، وهم الّذين يأمل كلّ إنسان ويتمنّى أن يرافقهم في جميع العوالم، وقد بيّن عزّجلّ أن هذا هو الفضل الّذى لا يمنحه جلّ شأنه لأحد، إلّا مع الحكمة البالغة والعلم الأتمّ.

***

التفسير

قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يُطِعْ اللهَ وَالرَّسُولَ﴾**.

وعد حسن لَمن أطاع الله تعال والرسول، وهو بأُسلوبه البديع ومضمونه

الرفيع، يقابل الصورة التي ذكرها القرآن الكريم للمنافقين، الّذين يزعمون الإيمان ويتحاكمون إلى الطاغوت، فتضمّنت صورة طاعة الله والرسول على أُمور مهمّة تكشف عن أهمّية الموضوع في حياة الإنسان في جميع المراحل والعوالم، كنوع الجزاء، والأصناف التي يجب أن ترافق الفرد، والصراط الذي لابدَّ أن يتّخذه المطيع سبيلاً يسير عليه، والغاية التي يجب أن يتوخّاها، وما يجب أن يفعله حتّى يتهيّأ لفضل الله تعالى والفيض الربوبيّ العظيم.

وظاهر الآية الشريفة أنّها في مقام بيان الصراط المستقيم، الذي ورد ذكره في الآية السابقة، أي أنّ الصراط المستقيم هو الصراط الذي سار عليه النبيّون والصديقون والشهداء والصالحون، وهم الّذين أنعم الله عليهم بالهداية.

وإنّما جمع سبحانه وتعالى بين طاعة الله وطاعة الرسول؛ لبيان أنّ طاعته طاعة الله تعالى، وأنّهما أصلان يكمّل أحدهما الآخر، ولا سبيل للتفكيك بينهما، ولتأكيد مضمون قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾**[1]، فرجع الختام إلى ما بدأ به الكلام، وهو من الأساليب الحسنة في الكلام.

وأنّ الآية السابقة قد تعرّضت لحال المنافقين الّذين أعرضوا عن طاعة الرسول فقط؛ لأنّهم لم يتجاهروا بالإعراض عن طاعة الله تعالى، فنزل فيهم الحكم الصريح بأنّه لا فائدة في تلك الطاعة الموهومة الكاذبة، ولكن هذه الآية الشريفة تبيّن الشرط الذي لابدّ منه في اكتساب تلك السعادة التي يتوخّاها المؤمن المطيع في صحبة مَن أنعم الله عليهم الجزاء الحسن.

قوله تعالى: **﴿فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾**.

---

١. سورة النساء: الآية ٥٩.

بيان لأمر حقيقي ، وهو أنّ الطاعة لله والرسول تستلزم الدخول في مسلك من أنعم الله عليهم . وسياق العبارة يدلّ على أنّ المطيعين ملحقون بهم، وهم معهم في جميع العوالم ، وهم منهم دون الصيرورة ، والإشارة بـ(أُولئك) لبيان علوّ درجة المطيعين وبعد منزلتهم فضلاً وشرفاً .

والمراد من النعمة ـ التي ظاهر العبارة الدالّ على عظمتها وقصور اللفظ عن بيانها وتفصيلها ـ هي تلك النعمة التي تفضّل عزّجلّ بها على أفراد معينين ، وهم المخلصون الّذين آثروا حكم الله تعالى ورسوله على حكم الطاغوت ، وسلّموا أمرهم الى الله تعالى ، وهي التي نوّه عزّ وجلّ بها في قوله تعالى : **﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾**[1] ، وهي النعمة التي تؤهّل الفرد في سلوك هذا الصراط وقبول الفيض الربوبيّ ، وقد أشار إليها عزّ وجلّ في مواضع متعدّدة في القرآن الكريم ، وهي تنحصر في نعمة الولاية .

قوله تعالى : **﴿مِنْ النَّبِيِّينَ﴾** .

بيان للمنعم عليهم ، وهو حال إما من «الّذين» ، أي أنّهم أنعم الله عليهم حال كونهم من النبيّين . أو من ضميره . وأجاز بعضهم أن يتعلّق الظرف بقوله تعالى : **﴿وَمَنْ يُطِعْ اللهَ وَالرَّسُولَ﴾** ، أي من النبيّين ومَن بعدهم ، فيكون قوله «أُولئك» إشارة إلى الملأ الأعلى ، ولكن هذا الوجه خلاف الظاهر كما هو واضح .

وقد ذكر عزّ وجلّ أربعة طوائف ممّن أنعم عليهم بالهداية والتوفيق ، وقد اتّصفوا بمكارم الأخلاق إلّا أنّ كلّ طائفة تختلف عن الأُخرى ببعض الأُمور الموجبة لاختلاف في المنزلة والدرجة ، فلا وجه للقول بأنّ الصدّيقين والشهداء

---

١ . سور الحمد : الآية ٧.

والصالحين أوصاف متداخلة لموصوف واحد، فهم في الحقيقة فريقان، الأنبياء، والمتّصفون بالصفات الثلاثة، فإنّ هذا القول خلاف ظاهر الآية الشريفة، ولعلّ ذكرهم للإعلام باختلاف درجات المطيعين، كما عرفت سابقاً.

والنبيّون هم أصحاب الوحي، الّذين وصفهم الله تعالى في قرآن الكريم بأوصاف متعدّد تدلّ على عظم شأنهم جلالة قدرهم وعلوّ منزلتهم، بل هم في أعلى عليّين، لما لهم من النفس القدسية التي استمدّت قدسيّتها من القوّة الإلهيّة، فهم قد رأوا الأشياء عياناً.

وإنّما ذكر عزّ جلّ النبيّين دون نبيّنا الأعظم ﷺ ـ مع أنّ الكلام في بيان طاعة الرسول ـ للإعلام بأنّ طاعته متضمّنه لطاعتهم عليهم السلام.

قوله تعالى: ﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾.

وهم الطائفة الثانية. والصدّيقين جمع الصدّيق، مبالغة في الصدق، أي الّذين طابق قولهم فعلهم، وظاهرهم باطنهم، فلا يصدر منهم إلّا الحقّ اعتقاداً وقولاً وفعلاً؛ لصفاء سريرتهم وعدم صدور الكذب عنهم وممارستهم الصدق، فأُلهموا الصواب، فميّزوا الحقّ عن الباطل الخير عن الشرّ، فهم شهدوا الحقائق، فكانوا صادقين بالحقّ، فصاروا صدِّيقين شهداء الحقائق والأعمال.

وقد فسّر بعض العلماء الصدّيق بمَن كثر صدقه، أو مَن لا يتأتّى منه الكذب لتعوّده على الصدق، ولكن ما ذكرناه أولى، فإنّه قد يكون الفرد كذلك، لكن لا يصل الى درجة الصدّيق الذي له مرتبة الشهادة على الأعمال والحقائق. والذي تكون منزلته دون منزلة الأنبياء ورتبته دون مرتبتهم، كما هو ظاهر الآية الشريفة.

قوله تعالى: ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾.

وهم الطائفة الثالثة، أي الّذين تولّاهم الله تعالى بالشهادة، وجعلهم من

المقرّبين، فشهدوا الحقّ وأُريقت دماؤهم في سبيله، لنيل رضاءه وحبّه جلّت عظمته.

وذكر بعض المفسّرين أنّ المراد بالشهداء هم شهداء الأعمال، ولكن ذكرنا في أحد مباحثنا السابقة أنّ الشهيد في سبيل الحقّ وإعلاء كلمة الله تعالى، يكون شهيداً على الأعمال أيضاً، فبينهما تلازم في الجملة.

قوله تعالى : ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾.

وهم الّذين صلحت نفوسهم واستقامت أحوالهم وطريقتهم، باتّباعهم شريعة الله جلّ شأنه والدوام على طاعته، فصاروا حججه على خلقه، يحتجّ بهم على مَن يخرج عن الصراط المستقيم، وبتزكية نفوسهم بصالح الأعمال، فتأهّلوا لفيضه عزّ وجلّ وتهيّؤوا لنعمه وكرامته. وهذه الطائفة هي آخر الطوائف التي هي صفوة الله تعالى من عباده.

والصالحين : جمع الصالح، وهو الذي صلحت حاله واستقامت طريقته. وأمّا المصلح، فهو الفاعل لما فيه الصلاح.

قوله تعالى : ﴿وَحَسُنَ أُوْلَئِك رَفِيقاً﴾.

الرفيق كالصديق والخليط، بمعنى الصاحب، سمّي بذلك للارتفاق به، وهو منصوب على التمييز، وفعيل يستوي فيه الواحد وغيره، وفي التمييز أيضاً يكتفى بالواحد عن الجمع، وقيل : إنّه منصوب على الحال، أي حال كونهم رفقاء أُولئك الطوائف الّذين تقدّم ذكرهم.

والرفيق جماعة الأنبياء الّذين يسكنون أعلى علّيّين، وفي حديث الدُّعاء : «والحقني بالرفيق الأعلى»، وقيل في معنى ذلك : ألحقني بالله تعالى، يقال : الله رفيق بعباده، من الرفق والرأفة، فهو فعيل بمعنى الفاعل، ومنه حديث عائشة :

«سمعته ﷺ يقول عند موته : بل الرفيق الأعلى» . وذلك أنّه ﷺ خُيّر بين البقاء في الدُّنيا وبين ما عند الله ، فاختار ما عند الله تعالى .

ولكنّ الرفيق في الآية المباركة اسم جاء على فعيل ، بمعنى الخليط والصديق ، يطلق على الجماعة المذكورة فيها لا بمعنى الرفق .

وفي الآية الشريفة من التشويق والترغيب والوعد الكبير ما لا يخفى ، وقيل : إنّ فيه معنى التعجيب ، أي وما أحسن اُولئك رفيقا .

والمعنى : حسن مرافقة اُولئك الطوائف الّتى يرتفق بهم لرفع كلّ ما يوحب الخوف والحزن .

وإنّما وصف رفقتهم بالحسن؛ لاحتياج الإنسان بالرفقة في السفر الطويل الذي يستقبله ، فتفيض تلك الطوائف على مَن يرافقهم ممّا أنعم الله تعالى عليهم؛ ولأنّ في رفقة هؤلاء الخير الكثير؛ ولتأثير الرفيق في صاحبه أثراً كبيراً ، فإذا كان ممّن أنعم الله عليهم ، كان أثره في صاحبه حسناً؛ ولارتفاق الأصحاب بعضهم بعضاً .

ولاتختصّ الآية الكريمة بعالم دون عالم ، فتشمل عالم الدُّنيا والبرزخ والآخرة ، فإنّ في جميعها يحتاج الإنسان إلى رفيق يرافقه في مسيره الاستكمالي ، ليدله على الطريق الصحيح ويرشده إلى ما هو خير له ، ويجنّبه عن المخاطر . وفي الآية المباركة التفات من الغيبة الى الخطاب . كما أنّ في الآيات السابقة موارد مختلفة من الالتفات الدالّ على عظمة الخطاب وأهمّية الموضوع .

قوله تعالى : ﴿**ذَلِك الْفَضْلُ مِنْ اللهِ**﴾ .

الاسم (ذلك) إشارة إلى الجراء الذي ثبت للمطيعين ، ومنه مرافقة مَن أنعم الله عليه ، والفضل الذي تفضّل الله تعالى عليهم . أي أنّ ذلك الجزاء هو الفضل الذي

لا يكون غيره فضلاً ، ولا يعلوه فضل آخر ، وليس له حدّ ، فإنّ فيه غاية السعادة، ومنتهى الكمال الذي يتفاضل به الناس ، وهذا الفضل هو من الله تعالى تفضّل به على عباده المطيعين؛ ثواباً لهم على إطاعتهم وأعمالهم الصالحة .

وفي إتيان اسم الإشارة الدالّ على البعيد ، ودخول اللّام في الصفة (الفضل) أو الخبر ، يدلّ على تفخيم هذا الفضل وتعظيمه ، كأنّه هو الفضل دون غيره .

قوله تعالى : ﴿**وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً**﴾ .

لأنّ درجات الإيمان وثواب المطيعين واستحقاقهم، ومقاديره ومراتب خلوصهم وإخلاصهم، لا يمكن لأحد العلم بها إلّا الله تعالى ، وكفى به عزّوجلّ عليما .

وفي الآية الشريفة تحريض المؤمنين المطيعين إلى الثواب العظيم والفضل الكبير لا يعلمه إلّا الله تعالى؛ ولتطمين نفوسهم فتنشط وتقبل على الله تعالى بالعمل بمواعظه ، وفيها توعيد للمنافقين ، فإنّ الله تعالى يعلم ما في قلوبهم .

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يُطِعْ اللهَ وَالرَّسُولَ﴾** على أهمّية الطاعة لله والرسول، ببيان عظيم الأجر والثواب وحسن العاقبة، فيدلّ على أنّ لها الأثر الكبير في حياة الإنسان في جميع العوالم التي يرد عليها.

والآية المباركة تثبت مضمون جميع ما ورد في الآيات السابقة وتؤكّده، وتبيّن الأثر الكبير للطاعة في شؤون الإنسان.

الثاني: يستفاد من قوله تعالى: **﴿فَأُوْلَئِك مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾** مطلق المعيّة المعنويّة والظاهريّة، فإنّ المطيع لله والرسول مع الّذين أنعم الله عليهم في الدُّنيا وعالم البرزخ وعالم الآخرة، يستفيد من فيض علومهم، ويستضيء من أنوارهم القدسيّة في تكميل نفسه، وتزيينها بالكمالات، وتحليتها بالأخلاق الفاضلة.

الثالث: يبيّن قوله تعالى: **﴿مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾** مصاديق المطيعين ودرجاتهم، فإنّ من يطيع الله تعالى والرسول، لا يخلو أن يكون أحد هؤلاء الأربعة، فإنّ النبيّين هم في أعلى درجات الطاعة والإخلاص، وهم السادة، ثمّ الصدّيقين وهم شهداء الحقائق، ثمّ الشهداء وهم الشهداء الأعمال، ثمّ الصالحين وهم المتهيئون للفيض والكرامة الإلهيّة.

الرابع: إنّما أطلق عزّ وجلّ النعمة التي أنعمها الله تعالى على تلك الطوائف الأربعة، ليشمل النِعَم الظاهريّة والمعنويّة، وهي النعم التي تجلب السعادة وتؤدّي

إلى الكمال والطمأنينة ، ويستفاد منه أنّ المطيع لله تعالى والرسول يحظى بتلك النعم لطاعته .

الخامس : يدلّ قوله تعالى : ﴿وَحَسُنَ أُوْلَئِك رَفِيقاً﴾ على لزوم الارتفاق للإنسان في حياته الظاهريّة الدنيويّة والأخرويّة ، وأنّ للرفقة الأثر الكبير فيه ، وأنّ أحسن رفقة يرتفق بهم هم الّذين ذكرهم الله تعالى في هذه الآية الشريفة ، وأنّ ما يوجب الإعداد للارتفاق بهم هو الطاعة لله والرسول ، وإطلاق الحسن يشمل جميع أنحائه وكلّ ما يمكن تصويره فيه .

السادس : يبيّن قوله تعالى : ﴿ذَلِك الْفَضْلُ مِنْ اللهِ﴾ أنّ ما ذكر في الآية من شمول النِّعم للمطيع لله والرسول ورفقة مَن ذكر في الآية الكريمة ، هو الفضل الذي لا بد للإنسان أن يسعى إليه، ويعدّ نفسه لنيله والدخول في هذه الكرامة الإلهيّة .

السابع : مقتضى التعبير الكلامي في صفات المدح الارتقاء من الأدنى إلى الأعلى ، والآية المباركة على عكس ذلك ، فإنّها من الأعلى إلى الأدنى ، ولكن يستفاد من سياقها أنّها في مقام الإخبار عن كون المطيعين لله تعالى والرسول يكونون مع الأشراف والخواص ، فالمقصود الإخبار في الجملة ، وليست في مقام تعداد الصفات الأشراف فالأشرف .

***

بحث روائي:

في «الكافي» بسنده عن أبي الصباح الكناني، عن أبي جعفر عليه السلام، قال : «أعينونا بالورع ، فإنّه من لقى الله عزّجلّ منكم بالورع ، كان له عند الله فرحاً ، إنّ الله عزّ وجلّ يقول : ﴿وَمَنْ يُطِعْ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِك مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِك رَفِيقاً﴾ ، فمنّا النبيّ ، ومنّا الصدّيق ، ومنّا الشهداء ومنّا الصالحون» .

أقول: ترتّب الفرح في الآخرة على الورع، من باب ترتّب المسبّب على السبب؛ لأنّ الورع ملاك الدين وقوامه، وبه يحصل الكفّ عن محارم الله تعالى والاجتناب عنها، وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «صونوا دينكم بالورع»، أي احفظوه، والورع عن محارمه تعالى هو طاعته.

ثمّ إنّ الورع على أقسام:

الأوّل: ورع التائبين، وهو ما يخرج المكلّف به عن الفسق، ويوجب قبول شهادته.

الثاني: ورع الصالحين، وهو ما يخرج المكلّف به عن الشبهات.

الثالث: ورع المتّقين، وهو ترك الحلال الذي يتخوّف انجراره إلى الحرام، وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «لا يكون الرجل من المتّقين حتّى يدع ما لابأس به مخافة أن يكون فيه بأس»، مثل أن يترك الكلام مع الغير مخافة الوقوع في شبهة الحرام.

الرابع: ورع الصدّيقين، وهو الإعراض عن غير الله تعالى خوفاً من ضياع ساعة من العمر فيما لا فائدة فيه. رزقنا الله تعالى رشحةً من رشحاته.

ولكلّ من هذه الأقسام مراتب ودرجات. كما أنّ الفرح كذلك، خصوصاً عنده جلّت عظمته، ولكن رحمته سبقت كلّ شيء وفضله عمّ.

وذيل الرواية من باب ذكر أكمل الأفراد وأجلّ المصاديق، وبهذا المعنى وردت روايات أُخرى، ففي بعضها أنّ رسول الله ﷺ من النبيّين، وعليّ عليه السلام من الصدّيقين، والشهداء الحسن والحسين عليهما السلام، والصالحون حمزة، وحسن أُولئك رفيقاً سائر الأئمّة عليهم السلام. وفي بعضها: والصالحون هم الكمّل من المؤمنين. وفي بعضها: الصالحون ابنتي فاطمة عليها السلام وأولادها، فلا منافاة بينها لما تقدّم.

وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام: «المؤمن مؤمنان، مؤمن وفى الله بشروطه

التي اشترطها عليه، فذلك مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقا، وذلك ممّن يشفع ولا يشفع له؛ وذلك ممّن لا تصيبه أهوال الدُّنيا ولا أهوال الآخرة. ومؤمن زلّت به قدم، فذلك كخامة الزرع كيف ماكفأته الريح انكفأ، وذلك ممّن يصيبه أهوال الدُّنيا وأهوال الآخرة، ويشفع له، وهو على خير».

أقول: لعلّ المراد من أهوال الدُّنيا أهوال البرزخ، وإلّا فقد ورد: «أنّه كلّما زيد في إيمان المؤمن، زيدَ في بلائه»، وقد ورد: «أنّه هل كتب البلاء إلّا على المؤمن». أو أنّ المراد بأهوال الدُّنيا ما يوجب ضعف عقيدته والتشكيك في دينه.

وكيف كان، فإنّ التقسيم الوارد فيها حسب مراتب الإيمان، فإنّ أجلّ مراتبه وأكمله ما ورد في المؤمن الذي وفى الله تعالى بشروطه، كما في الرواية، وفي هذا المعنى ورد قوله تعالى: **﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾**[1]، وقد وردت روايات كثيرة عن الأئمّة الهُداة عليهم السلام: «المؤمن يشفع يوم القيامة» لأنّ للإيمان الحقيقي الواقعي آثاراً، منها أنّه تعالى يخوّل إلى المؤمن صحائف الخلق في يوم المعاد، فيشفع فيهم حسب إرادته عزّ وجلّ.

والخامة: ألفها منقلبة عن واو وهي الغصنة اللّينة من الزرع، وفي الحديث: «مثل المؤمن مثل الخامة يفيئها الرياح».

وفي «أمالي الشيخ» بإسناده إلى عليّ عليه السلام، قال: «جاء رجل من الأنصار إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، ما استطيع فراقك، وإنيّ لأدخل منزلي فأذكرك فأترك ضيعتي وأقبل حتىّ أنظر إليك حبّاً لك، فذكرت إذاكان يوم القيامة أدخلت الجنّة فرفعتَ في أعلى علّيين، فكيف لي بك يا نبيّ الله؟! فنزل قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ**

---

١. سورة يونس: الآية ٦٣.

﴿وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِك رَفِيقاً﴾، فدعا النبيّ ﷺ الرجل فقرأها عليه وبشّره بذاك».

أقول: وقريب منه ما في «الدرّ المنثور» و«أسباب النزول» للواحدي وغيرهما باختلاف يسير لا يضرّ بأصل المعنى، فإنّ الحبّ الواقعي الذي يوجب اتّباع المحبوب في كلّ ما يريده، يستلزم عدم الفراق بينهما في العوالم كلّها، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «المرء مع مَن أحبّ». وعن سيّد العرفاء عليّ عليه السلام في دعائه الملكوتي: «فهبني يا إلٰهي .. صبرت على عذابك، فكيف أصبر على فراقك»، فتكون الآية المباركة من باب التطبيق.

وفي «صحيح مسلم» و«سنن النسائي» وغيرهما، عن ربيعة بن كعب الأسلمي، قال: «كنت أبيت عند النبيّ ﷺ فآتيه بوَضوئه وحاجته. فقال ﷺ: سل، فقلت: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنّة. قال: أوَ غير ذلك؟ قلت: هو ذاك، قال: فأعنّي على نفسك بكثرة السجود».

أقول: السجود لله تعالى مع شرائطه له آثار وضعيّة وثواب عظيم، منها ما ذكره النبيّ ﷺ، فالرواية من باب التطبيق.

أخرج ابن جرير عن الربيع، قال: «إنّ أصحاب النبيّ ﷺ قالوا: قد علمنا أنّ النبيّ ﷺ له فضل على مَن آمن به في درجات الجنّة ممّن تبعه وصدّقه، فكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنّة أن يرى بعضهم بعضاً؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية في ذلك، فقال له النبيّ ﷺ: إنّ العليّين ينحدرون إلى مَن هو أسفل منهم فيجتمعون في رياضها، فيذكرون ما أنعم الله عليهم ويثنون عليه».

أقول: على فرض صحّة الرواية، انحدار العليّين لأجل ذكر نِعَم الله تعالى عليهم وبيانهم لغيرهم والثناء عليه تعالى، أو لأجل اشتهائهم فتحصل المعاشرة والمصاحبة قهراً، والرواية من باب التطبيق، وأمّا صعود مَن هو أسفل إلى العليّين

في الجنّة فلا يتحقّق لأنّ لكلّ مؤمن درجة وشأناً ولياقة، وذلك لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾[1] فإنّ ذلك لا يتجازو حدود اللياقة والأهليّة إلّا إذا شاء تعالى.

العيّاشي عن عبد الله بن جُندب، عن الرضا عليه السلام، قال: «حقّ على الله أن يجعل وليّنا رفيقاً للنبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً».

أقول: المراد من صدر الرواية أنّه تعالى ألزم على نفسه حسب إرادته أن يجعل المؤمن الواقعي رفيقاً لتلك الطوائف في الجنّة، وذلك من باب ترتّب المسبّب على السبب، والرواية من باب ذكر أجلى المصاديق وأكملها.

***

بحث عرفاني:

المراد من الطاعة ـ التي هي الوسيلة للوصول إلى الدرجات الرفيعة السامية والأُفق القريب منه جلّ شأنه، وهي التي أكّدت عليها الآيات الشريفة، ودعى إليها الأنبياء والأولياء بألسنة مختلفة واهتمّوا بها؛ لأنّها المبعث لتكريم الإنسان ونيله أشرف المراتب وأجلّ المقامات، وهي الانقياد الكامل والامتثال مع الإخلاص لجلب رضا الحقّ وترك ما سواه.

ولها مراتب كثيرة ـ بل متفاوتة ـ حسب إخلاص العبد ومقام العبوديّة، بل حسب درجات الحبّ والمحبّة له جلّت عظمته، ففي الأثر: «إنّ الله تعالى أودع أنوار الملكوت في أصناف الطاعات». فأعلى مراتبها قتل النفس في الحقيقة وقمع هواها التي هي حياتها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[2]، وبالخروج عن عالم المادّة. ومن مراتبها تسليم النفس إليه تعالى

١. سورة فصلت: الآية ٣١.

٢. سورة الشمس: الآية ٩ ـ ١٠.

ودوام المراقبة لها ، كما ورد ذلك في الأثر : «كنّا في طريق مكّة ، فإذا بشاب قائم في ليلة يُناجي ربّه ويقول : يا من شوقي إليه ، وقلبي محبّ له ، ونفسي له خادم ، وكلّي فناء في إراداتك ومشيئتك ، فأنت ولا غيرك ، متى تنجيني ـ إلى آخره ـ قلت له : رحمك الله ما علامة حبّه؟ قال : اشتهاء لقائه . قلت : فما علامة المشتاق؟ قال : ليس له قرار ولا سكون في ليلٍ ولا نهار من شوقه إلى ربّه . قلت : فما علامة الفاني؟ قال : لا يعرف الصديق من العدوّ ، ولا الحلو من المرّ من فنائه عن رسمه وجسمه . قلت : فما علامة الخادم؟ قال : إنّه يرفع قلبه وجوارحه وطعمه من ثواب الله ـ إلى آخره» ، وعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله : «لا يكون أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل ، ولا كالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل» . وعن سيّد العرفاء عليّ عليه السلام : «إلٰهي عبدتك لا خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك ، بل وجدتك أهلاً لذلك فعبدتك» .

وبالطاعة الحقيقيّة ينال الإنسان الدرجات الرفيعة والمراتب الشريفة ، ويتجاوز عن حدّ الكمال ويصل إلى درجة التكميل ، فتكون له المعيّة في الدرجة لا في الاتّحاد ـ كما في بعض الروايات ـ لأنّ التساوي في كلّ جهة معه محال ، كما ثبت في الفلسفة الإلهيّة .

كما أنّ العصيان والتجرّي بالإعراض عن طاعة الرحمان، والإقبال على طاعة الشيطان ، يصل الإنسان إلى أسفل الهاوية ومنتهى الهلاك ، وإنّ له أيضاً مراتب ، وعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله : «كلّ أُمتي يدخلون الجنّة إلّا مَن أبى . قيل : يا رسول الله ، ومَن أبىٰ ؟ قال : مَن أطاعني دخل الجنّة ، ومَنْ عصاني فقد أبى» ، فإنّ إطاعته إطاعة الله تعالى ، كما أنّ عصيانه كذلك ، كما تقدّم .

وإنّما جعل سبحانه وتعالى في هذه الآية المباركة جزاء الطائعين لله والرسول، مرافقة الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين ، ولم يجعل ـ كما في غير الطاعة ـ الجنّات التي تهفوا إليها القلوب وتخلد فيها النفوس؛ لأنّ الطاعة

ليست تكليفاً محضاً حتّى يجعل في مقابلها جزاءً، وإنّما هي وسيلة لرقي النفس، وسبيل للوصول إلى المرتبة الكاملة والنيل إلى لمرتقى.

ومعنى رُقيّ النفس ورفعها بالوصول إلى الشاهق الأعلى، هو معاشرتها ومصاحبتها مع سنخها من النفوس القدسيّة، كالأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، لما ثبت في الفلسفة الإلهيّة وغيرها من أنّ السنخيّة في جميع الأشياء وفي جميع العوالم لازمة وموجودة، فمقتضى قانون السنخيّة في عالم المصاحبة والمعاشرة ـ الذي يكون في عالم الشهادة وعالم البرزخ وعالم الآخرة ـ هو أن تكون النفوس الخيّرة مع أمثالها، والنفوس الشرّيرة كذلك؛ لما بينهما من التباعد والتباين، فلا تلائم بين الصنفين أيضاً، فإنّ أرواح المطيعين ونفوس المؤمنين لا تميل ولا تستقرّ إلّا مع النفوس التي تماثلها، وتكون قريبة بينهم وفي أُفقهم، أي من سنخهم، وهي النفوس الرفيعة القدسيّة.

على أنّ ذلك يلازم دخول الجنّات التي تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. ولعلّ التعبير بقوله تعالى: **﴿أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾**، وقوله تعالى في ذيل الآية المباركة: **﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ﴾**، يدلّان على ما ذكرناه، والله العالم بالحقائق.

وفي الآية الشريفة إشارة إلى أنهّ ينبغي للمؤمن أن يسعى في تكميل نفسه بالصلاح، ويترقّى إلى مرتبة الشهادة، ثمّ إلى مرتبة الصديقيّة التي ليست بينها وبين مرتبة النبيّين أية واسطة إلّا الوحي.

والحسن الوارد في قوله تعالي: **﴿وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً﴾** من الصفات التي لها مراتب متفاوتة شدّة وضعفاً وكمالاً. وأنّ المراد من الحسن الحسن في الرفاقة في عالم الدُّنيا، ويستلزم الحسن في عالم الآخرة، بل لا يتمّ حسن إلّا به.

***

الآية ٧١ ـ ٧٦

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعاً ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴿٧٦﴾﴾.

بعدما بيّن سبحانه وتعالى أصول الحكومة الإسلاميّة، وأمر المسلمين بوصايا ينتظم بها شؤونهم وتصلح أُمورهم، ووعد الأجر الجزيل والثناء الجميل للمطيعين لله تعالى والرسول، وشدّد النكير على مَن يرغب عن حكم الله تعالى وحكم الرسول إلى حكم غيره من أهل الطغيان.

وفي هذه الآيات الشريفة يوجّه عزّ وجلّ المؤمنين للقتال، ويحثّهم على الجهاد، ويستنهض هممهم في إنقاذ المؤمنين المستضعفين، ويأمرهم بوصايا تتعلّق بشأن القتال، وأخذ الحذر من أعداء الله تعالى، وتجنيد المؤمنين والتهيّؤ للقتال

والتعبئة له، وبيّن عزّ وجلّ أحوال المجتمع، ويقسّمه إلى المؤمنين الصادقين والمؤمنين الضعاف الإيمان، والمنافقين المثبطين العزائم، فأرشدهم إلى مكائدهم وسوء سريرتهم وخبث باطنهم، وأمرهم بما يوجب تنشيط عزائم المؤمنين وتعبئتهم، بأمرهم بالقتال في سبيل الله تعالى، ومدافعة أعداء الله الّذين يقاتلون في سبيل الطاغوت، ووعدهم الأجر الجزيل.

وهذه الآيات المباركة تبيّن القواعد التي يبتني عليها الجهاد في الإسلام، والغاية المتوخّاة منه، وهي من الآيات المعدودة التي تتكفّل قواعد التعبئة العامّة في الإسلام، وهي تعبئة عقائديّة وروحيّة وجسمانيّة حربيّة. ولا يخلو وجه ارتباط هذه الآيات بالسابقة، فإنّها كارتباط ذي المقدّمة بالمقدّمة.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾.

خطاب توجيهي إلى الّذين آمنوا، أي هم الّذين أحبّوا الإيمان وآثروه على الكفر والطغيان، فأسلموا أمرهم إلى الله تعالى أطاعوه في تنفيذ أوامره وأحكامه، فأمرهم عزّ وجلّ أن يأخذوا حذرهم من الأعداء بما تقتضيه طبيعة كلّ جهاد ومعركة في سبيل الله تعالى، وقد صدّر عزّ وجلّ الخطاب بالإيمان لإرشادهم إلى كلّ ما يتعلّق بالإيمان، من التوجيهات الأخلاقيّة والتشريعيّة، التي لا يلتزم بها إلّا أهل الإيمان.

ومادّة (حذر) تدلّ على الترهيب بالاحتراز عن كلّ ما يخاف منه، ويختلف ذلك باختلاف المقامات والحالات، ويلازم الحذر الاحتراز والاستعداد.

والحذر (بالتحريك) والحذر بمعنى واحد، وهما مصدران، كالأثر والإثر، وقيل: إنّ الأوّل مصدر والثاني ما يحذر به، وهو آلة الحذر، ورجل حذر، أي

محترز ومستعدّ.

وقد اختلف المفسّرون في معنى ذلك:

فقيل: إنّه السلاح، بحذف المضاف، أي آلة حذركم، والمروي عن أبي جعفر عليه السلام: «خذوا عدّتكم من السلاح». ولكن عطف السلاح على الحذر في غير هذه الآية الكريمة يقتضي المغايرة، قال تعالى: **﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾**[1].

وعن بعض: **﴿خُذُوا حِذْرَهُمْ﴾**، أي ما فيه الحذر من السلاح.

وقيل غير ذلك.

وكيف كان، لا اختلاف بين الأقوال، فإنّ الحذر من العدوّ يستلزم الاحتراس والاستعداد، ويختلف ذلك فقد يكون بالقول كالكناية ونحوها، أو بالفعل، كمعرفة حال العدو ومعرفة وسائل كيده ومعرفة أماكنه. وقد يكون بالاستعداد كجمع السلاح وتهيأة العدّة، وهو المراد في المقام بقرينة الآيات التالية، وما ورد في تفسير الآية المباركة من الأئمّة المعصومين عليهم السلام، فيكون المعنى: خذوا حذركم من العدو واحترزوا منهم واستعدوا لهم واحترسوا منهم، ومن المعلوم أنّ أخذ الحذر منهم، يستلزم معرفة أحوالهم وسبل كيدهم، كما يستلزم معرفة ما يحترس به، وما يتحذّر به من أنواع السلاح وكيفية استعمالها، وعير ذلك ممّا هو داخل في تثبيت الحذر منهم.

قوله تعالى: **﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعاً﴾**.

بيان لما أمره عزّ وجلّ باتّخاذ الحذر من العدو بالتهيّؤ التامّ للخروج إلى الجهاد والحرب مع أعداء الله تعالى، فيكون المراد من الحذر، التهيّؤ والاستعداد

---

١. سورة النساء: الآية ١٠٢.

للحرب والقتال، ومنه أخذ السلاح وحمله، كما عرفت.

ومادّة (ن ف ر) تدلّ على الانزعاج عن الشيء كالفزع، قال تعالى: ﴿صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾[1]، أي ينفرون على القرآن إلى غيره، وفي الحديث، «بشّروا ولا تُنفّروا»، أي لا تلقوهم بما يحملهم على النفور. والنفر في الجهاد إنّما يكون إلى الحرب لا عنها، وقد يستعمل النفر في الخيرات كلّها، والمعروف أنـّهم كانوا إذا استنفروا الناس للحرب ينادون: النفير النفير، وفي الحديث: «واذا استنفرتم فانفروا»، أي إذا طلب منكم النصرة فأجيبوا خارجين إلى الاعانة.

والثبات: جمع ثُبَةٍ، على وزن فعلة كحُطمَة، حذفت لامها وعوض عنها تاء التأنيث، ولامها إمّا واو، من ثبأ يثبو، كحلا يحلو، أو ياء مشتقّة من ثبيت على الرجل اذا أثنيت عليه، فإنّك جمعت محاسنه، وهي الجماعة على تفرقة أو منفردة، قال الشاعر:

❊ وقد أغدوا على ثُبَةٍ كرام ❊

وثبات وجميعاً منصوبان على الحال، أي انفروا جماعة بأن يكونوا فصائل وفرقاً، أو انفروا مجتمعين.

واختلاف النفر كذلك إنّما يكون حسب مقتضيات الحال والظروف الحربيّة، كما أنـّه قد يقتضي الحال أن يكون النفير عامّاً أو يكون محدوداً على قدر الحاجة، بأن تكون سرية أو طائفة ونحو ذلك، ومنه يظهر الترديد في الآية الشريفة.

والآية الكريمة وإن كانت في الحرب، ولكن تدلّ على المبادرة إلى الخيرات كلّها أيضاً، لأنّ الحرب والجهاد في سبيل الله تعالى من أكمل الخيرات

---

١ . سورة الإسراء: الآية ٤١.

وأجلاها، فلا ينافي المبادرة إلى مطلق الخيرات أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾.

بيان لحال بعض الأفراد، ووصف دقيق لنفسيّتهم التي تكون مصدراً لحركات خاصّة وتصرّفات مخصوصة في حالة الحرب التي تتطلّب الثبات في العزيمة.

والآية الشريفة تصوّر تلك الحالة النفسيّة بأحسن صورة وأكملها، بحيث لا تتأدّى تلك في عبارة أُخرى مهما بلغت من الوجهة البلاغيّة، فإنّها تدلّ على أنّ عملية الإبطاء التي تصدر من ضعفاء النفوس التي سيطر الخوف عليهم، والخور والفشل قد تمكّنا في نفوسهم.

وتمثل الآية المباركة في الذهن صورة ذلك الشخص المتردّد المتثاقل الخائف، الذي يبطأ عن الحركة، ويزيده بعداً عن الصفوف المتراصة التي تحارب في سبيل الله تعالى، فهو يبطئ عن القتال ويبطئ غيره عنه أيضاً، فإذا خلص من الحرب تنفّس الصعداء ورجع فرحاً مسروراً وحمد نفسه إذا سمع بوقوع القتل في صفوف المسلمين، فيقول: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً﴾، وأمّا إذا سمع بنصرهم ورجوعهم مظفّرين فيحملون النصر والغنيمة، فعندئذٍ يتحسّر على ما فاته من الغنيمة والرجوع عن ساحة الحرب من دون أن يصيبه أذىً، ويتمنّى ويقول: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾. صورة رائعة تصوّرها الآية المباركة عن الحالة النفسيّة والشعور المتباطي وحالة الخوف لهؤلاء المبطئين، فهو لا يفكر إلّا في نفسه، لعدم تعمّق الإيمان في قلبه.

والخطاب في ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ عامّ متوجّه إلى الجميع من دون إشارة إلى طائفة معيّنة منهم، ولم يقل: (فيهم)، وهو توجيه تربويّ متين؛ ليعرف

المؤمنين الأقوياء الصادقين أنّ فيهم مَن تكون فيه هذه الحالة ، ويصفهم بذلك الوصف الدقيق ليعلم أنّ الحديث موجّه إليهم ، وأنّه هو المقصود ، وهذا أسلوب من الأساليب التربويّة الإصلاحيّة ليعدل مَن فيه هذه الصفة، موقفه ويستقيم ويرجع الى صفوف المؤمنين، ويسلك السلوك القويم ، ولا يستفاد من الآية الشريفة ما يدلّ على أنّ هؤلاء المبطئين هم المنافقون فقط ، كما زعمه بعض المفسّرين ، بل هو عامّ يشمل المنافقين وغيرهم من ضعاف الإيمان ، فإنّ في كلّ مجتمع يوجد الصالح والطالح ، ويختلف الأفراد من حيث الصفات الروحيّة والنفسيّة والأخلاق والملكات .

و(يبطئن) من بطأ وهو التأخر عن الانبعاث في السير ، والتبطّي يطلق على البطء والإبطاء معاً ، والاتيان بصيغة التشديد لما عرفت آنفاً من تمكنّ عملية الإبطاء في نفوسهم واستحكام هذه الصفة فيها .

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ .

بيان لسوء سرائرهم وضعف نفوسهم ، فإنّه في حالة الخوف يجهد نفسه عندما يهرب، ولم يصبه ما أصاب المؤمنين من قتل أو جرح .

قوله تعالى : ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً﴾ .

أي : حاضراً معهم فابتلي بمثل ما ابتلى به المؤمنون ، وهذا القول منهم يكشف عن عدم ثبات الإيمان في قلوبهم . ومثل هذا القول يصدر عن كلّ من ضعف الإيمان فيه .

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ﴾ .

من النصر والغنيمة ونحوهما ، وفي نسبة الفضل إلى الله تعالى دون المصيبة ،

مراعاةً لحسن الأدب مع الله جلّ شأنه .

قوله تعالى : ﴿ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ .

جملة معترضة بين القول ومقوله من كلامه عزّ وجلّ ، وفيها التفاتة تدلّ على زيادة قبح فعلهم ، وضمير الخطاب للمؤمنين ، وضمير الغيبة للقائل ، أي ليقولن قول مَن لا تجمع بينه وبينكم أيّة مودّة ولو كانت ضعيفة ، فإنّها لو كانت ولو على هذه الدرجة لكانت مانعة عن هذا التمنّي ، فإنّ الإيمان من أقوى الروابط وأحكمها ، ولضعف هذه الرابطة فيهم لا يرون لأنفسهم أيّة رابطة أُخرى تربطهم بالمؤمنين ، فيتمنّى الأجنبي ما لأجنبي آخر من الفضل .

وإنّما أدرج عزّ وجلّ هذه الجملة بين القول والمقول، لئلّا يتوهّم أحد أنّ تمنّيهم المعيّة مع المؤمنين، ليس لأجل النصرة والمظاهرة على ما تقتضيه العادات والتقاليد في تلك العصور ، بل كان لأجل الحرص على حطام الدُّنيا .

قوله تعالى : ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ .

المراد من الفوز العظيم هو حطام الدُّنيا على طريق التهكم وتعظيم هذا الأمر منهم ، وجعل المصيبة التي أصابت المؤمنين نعمة يدلّ على ضعف إيمانهم .

قوله تعالى : ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ .

بعدما بيّن خطأ سلوك المبطئين الّذين يريدون من عملية الإبطاء التخلّف عن القتال ، وذمّهم وشنّع عليهم بأبلغ أُسلوب ، وأرشد المؤمنين إلى أنّ العقدة الحقيقة في تخلّفهم عن الطريق الصحيح هو الحرص على متاع الحياة الدُّنيا .

يبيّن عزّ وجلّ في هذه الآية المباركة الحقيقة المطلوبة ، وهي أنّ المؤمنين يبيعون متاع الحياة الدُّنيا ليشتروا به النعيم الأبدي الحقيقي ، وفي الآية الكريمة

الحثّ على الجهاد في سبيل الله تعالى، بتذكيرهم أنّ المؤمنين قد شروا بالإيمان الحياة الدُّنيا بالآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[1].

وفي الآية الشريفة توجيه تربويّ متين، فإنّ الله تعالى لما خاطب الجميع بما فيهم الضعفاء والأقوياء، ثمّ وصف أفعال الضعفاء وتمنّياتهم وحكى أقوالهم، دون أن يشير إلى أعيانهم لما في ذلك من أثر نفسي كبير ـ كما عرفت ـ ثمّ أهملهم في هذه الآيات ليرجعوا إلى أنفسهم فيشعروا بالإثم، ويطهّروا نفوسهم من الذنب العظيم، ذنب التبطّي عن القتال و القعود عنه، ثمّ وجّه الخطاب إلى المؤمنين ووصفهم بصفات المسلم بالآخرة. وهذا التحوّل في الخطاب من أهمّ السبل التربويّة لتحوّل المذنب عن موقفه إلى الموقف المطلوب.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾.

حثّ على الجهاد في سبيل الله تعالى، وبيان للغرض من القتال في الإسلام، وأنّه ليس لحميّة ولا عصبيّة ولا للحظوظ الدنيويّة، وأنّ الفائدة المتوخّاه منه هي الأجر العظيم في الآخرة، لا يعلم أحد كميّته ولا كيفيّته إلّا الله تعالى، وقد ذكر عزّ وجلّ أنّ العاقبة المحمودة من الجهاد إمّا القتل أو النصر، وعلى كلتا الحالين فللمجاهد الأجر العظيم.

وإنّما قدّم عزّو جلّ القتل، مع أنّ المقام مقام الحثّ والتشجيع، وهو يقتضي ذكر النصر أوّلاً، وتأخير ذكر القتل الذي تنفر منه النفوس، للإرشاد إلى أنّ المؤمن ينبغي أن يكون همّه أحد الأمرين، إمّا إكرام نفسه بالقتل والشهادة، أو إعزاز الدِّين بالنصر، ولا يحدّث نفسه بالهرب كما كان عليه المبطئون، وأنّه لابدَّ له من الثبات

---

١. سورة التوبة: الآية ١١١.

والعزيمة والتجرّد عن المادّة والخلوص لله تعالى، فلا يغري نفسه بالنصر فقط، بل يوطّنها على القتل.

ومن ذلك يعلم أنّه لم يذكر عزّ وجلّ الاحتمال الثالث ـ وهو الانهزام ـ لأنّ المؤمن قويّ العزيمة ثابت على الإيمان، لا ينهزم ولا يحدّث نفسه بالهزيمة لأنّها خيانة، والمؤمن بريء منها.

ومن هذه الآية الشريفة نستفيد أمراً تربويّاً دقيقاً، فإنّ الله تعالى إنّما وضع الجهاد وكتب القتال على المؤمنين؛ لأجل التجرّد الكامل لله تعالى، وبيع الحياة الدُّنيا بما فيها من رغبة النصر والاستيلاء على أعداء الله تعالى، حتّى يحظى برضوان الله تعالى ويشتري بها الحياة الآخرة، فكأنّ ذكر القتل ابتداءً وقع من ذكر النصر، وله الأثر الكبير في النفوس وتشجيع الهمم وحثّ المتثاقلين، فإنّ الذي يذهب للجهاد ليموت، لم يتغيّر موقفه حتّى يرزق النصر، بخلاف مَن يذهب للنصر والغنيمة، فإنّه يتغيّر موقفه حين يقابل الموت، فيحدّث نفسه بالهزيمة.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾.

أي نعطيه الأجر العظيم ولا يفوته ذلك، وفي الالتفات مزيد حثّ وترغيب، وإنّما وصف الأجر بكونه عظيماً؛ لأنّه لا يعرف حدوده في الكم والكيف أحد إلّا الله تعالى، وهذا الوعد منه عزّ وجلّ مترتّب على كلا الاحتمالين القتل والنصر.

نعم، الذي غلب في سبيل الله تعالى فأمره مراعى في استيفاء ذلك الأجر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾.

زيادة في الحثّ والتحريض المستفاد من الالتفات إلى الخطاب، بعد توضيح القواعدة في الجهاد في الإسلام. وقد ذكر في هذه الآية المباركة فائدة أُخرى شريفة تصبوا إليها النفوس العالية، وهي نصرة المستضعفين والمظلومين.

ومعنى الآية الكريمة: أن لا عذر لكم في ترك القتال في سبيل الله تعالى .

ويستفاد من هذه الآية الشريفة انحصار القتال في سبيل الله ، وهذا ما يؤكّده القرآن الكريم في مواضع متعدّدة ، وإذا عطف عليه شيء آخر في بعض الآيات ـ ومنها المقام ، أي نصرة المستضعفين والمظلومين ـ فإنّما هو لأجل أنّ ذلك من مصاديق سبيل الله تعالى ، ومن طرق إقامتة ، فإنّ سبيل الله لا يمكن أن ينال حتّى يستنقذ المستضعفون من الظلم .

قوله تعالى : ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ .

طريق آخر في إقامة كلمة الحقّ وتثبيت لسبيل الله تعالى ، وهو يعمّ كلّ خير ، ومنه إنقاذ المظلومين ، كما أنه لا يؤمّن سبيل الله إلّا باستنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان من ظلم العتاة والجبابرة .

وفي الآية المباركة استنهاض للمؤمنين وتهييج لهممهم ، وإغراء لهم بأنّ أهليكم وإخوانكم يعانون الأمرّين من ظلم الظالمين ليفتنوهم عن دينهم ، فيجب استنقاذهم لأنـّهم منكم ، وقد جمعتكم رابطة الدين التي هي من أقوى الروابط ، فإنّ الإسلام قد أهمل كلّ نسب وسبب غير الإيمان بالله تعالى .

وإنّما ذكر تعالى الولدان ـ جمع ولد ـ وهم الصبيان بالخصوص ، لأجل بيان فرط ظلم الكفّار ، وأن ظلمهم وأذاهم وقع على النساء والصبيان غير المكلّفين أيضاً ، والّذين هم يحتاجون إلى الرعاية والترحّم والانعطاف أكثر من غيرهم ، ولعلّ في ذلك إرغام لآبائهم وأُمّهاتهم وبُغضاً لمكانتهم .

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ .

استنهاض آخر لهم في تقديم المعونة للدين، تربطهم معهم رابطة الإيمان، مضافاً إلى أنـّهم منهم ، وهم أبعاضهم وأفلاذهم ، ومؤمنون بالله العظيم يدعونه

خوفاً وطمعاً بعدما انقطعت بهم الأسباب؛ لأنّهم فقدوا من قومهم كلّ عون وحرموا كلّ مغيث، فكانوا مذللين معذّبين لأجل دينهم، يستغيثون الله تعالى بقولهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾.

والآية المباركة بأسلوبها الرفيع وفصيح عبارتها، بيّنت كمال انقطاعهم إلى ربّهم وقوّة إيمانهم، حيث لم يستغيثوا إلّا بمولاهم الحقّ ليفرّج عنهم كربهم، ويخرجهم من تلك القرية التي هي وطنهم الظالم أهلها لهم، ولم يذكروا شيئاً آخر ممّا كان دائراً في العصر الجاهلي من العصبيّة ونحوها، فلم يقولوا: ياقوماه، أو ياللرجال ونحو دلك.

والمراد من القرية مكّة المكرّمة التي ظلم أهلها المشركون المؤمنين أشدّ أذيّة ليردّوهم عن دينهم. وإنّما وصف أهلها بالظلم دون القرية، كما في غير هدا الموضع قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾[٢]؛ لأنّ مكّة مكرّمة فلا يقال لها قرية ظالمة، وإنّما اختصّ أهلها بالظلم.

قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً﴾.

دعاء آخر منهم، يطلبون منه جلّت عظمته أن يجعل منهم وليّاً يلي أمرهم ليرشدهم إلى أُمور دينهم ودنياهم، فإنّه أعلم بمصالحهم من غيره.

قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾.

دعاء ثالث يطلبون منه أن يجعل لهم نصيراً ينصرهم على مَن أذاهم، فاستجاب لهم ربّهم دعاءهم، فجعل لهم خير ولي وخير نصير، فحماهم ونصرهم

---

١. سورة الحج: الآية ٤٥.

٢. سورة الحج: الآية ٤٨.

بمحمّد ﷺ حتّى صاروا أعزّ أهلها بعد ما كانوا أذلة ضعفاء.

وفي تكرار الفعل ومتعلّقيه مبالغة في التضرّع والابتهال، وحصر الطلب فيه عزّ وجلّ، فإنّهم يتمنّون الوليّ والنصير، لكنّهم لا يرضون إلّا أن يسألوا ربّهم.

قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾.

بيان لحقيقة من الحقائق الإيمانيّة، وهي في نفس الوقت توجيه للمؤمنين بأنّ قتالهم لابدّ لا يكون لغرض دنيويّ، بل يكون دائماً في سبيل الله تعالى والتقرّب إليه عزّ وجلّ، وقياس بين الطائفين المؤمنة التي لا تقاتل إلّا في سبيل الله، والكافرة التي ليس لهم أي غرض سوى الأغراض الدنيويّة الوهميّة، فيعلم شرف الطائفة الأولى على الثانية؛ لأنّ سبيل الله يوصل لا محالة إلى الله تعالى، بخلاف سبيل الكفّار التي لا توصلهم إلّا إلى الهلاك والبوار. ولا ضير في اختلاف الدوافع عند المؤمنين في القتال:

فتارةً: يريدون من القتال الدفاع عن الحقّ.

وأُخرى: دفع عدوان الكافرين.

وثالثة: لاستنقاذ المستضعفين.

ورابعة: لإزالة القوى التي تقف في سبيل الدعوة والحقّ.

وغير ذلك ممّا هو كثير، فإنّها جميعاً من وجوه سبيل الله ومصاديقه، بل لا تحقّق له إلّا بذلك.

قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ**﴾.

بيان لحقيقة أُخرى بالنسبة إلى الفئة الكافرة التي لا تقاتل إلّا في سبيل الطاغوت الذي هو سبيل الشيطان، ولا يوصلهم إلّا إلى الهلاك، ولا فرق في قتالهم بين أن يكون مع الإسلام والمسلمين ودين الحقّ، أو كانوا يقاتلون بعضهم بعضاً،

فلا يكون قتالهم إلّا في سبيل الطاغوت، وإنّ كلّ قتال لهم لا يكون إلّا كذلك ما داموا مُعرضين عن الإيمان بالله تعالى ورسوله، ومهما كانت شعاراتهم وأقوالهم، وهذا ما نراه في الجاهليّة المعاصرة التي استمدت شعارات برّاقة ليقاتل تحتها المؤمنين المستضعفين، وهي شعارات زائفة من سبل الطاغوت، فالآية المباركة تبيّن حقيقة كلّ واحد من الفريقين وأهدافهم ليعلم غيرهم ذلك، ويثبت المؤمنين على طريقتهم، ويعرضوا عن طريق أعدائهم، ويرجع المخدوعون إلى الحقّ ويسيروا على نهج المؤمنين وهديهم.

قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾.

تحريض آخر للمؤمنين بالقتال ببيان ضعف سبيل الكافرين، وتأكيد للحكم المزبور ـ وهو القتال في سبيل الله تعالى ـ وبيان للقاعدة التي يستند إليها المؤمنون الّذين هم أولياء الله تعالى، وصلابتها أمام تلك التي يقف عليها أعداؤهم الّذين هم في ضلال، لأنّهم أولياء الشيطان، خارجون عن ولاية الله تعالى، فيجب قتالهم حتّى لا تكون فتنة ويكون الدين كلّه لله تعالى، فهؤلاء يقاتلون في سبيل الله، والكفّار يقاتلون في سبيل الطاغوت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾.

لأنّ الشيطان مهما تجبّر وتكبّر فهو ضعيف في حدّ نفسه؛ لأنّه باطل ولا قوّة له، فضلاً عن القياس إلى قدرة الله تعالى وعظمته الذي يقاتل أولياؤه في سبيله وهو وليّهم، والشيطان وليّ الكافرين.

وفي الآية الكريمة كمال العناية بالمؤمنين؛ لأنّ الله تعالى القوي القدير هو وليّهم يرعى شؤونهم. وتحريض لهم بأنّ الشيطان مهما تجبّر وتطاول، فإنّه ضعيف، فلا يرهبكم مكائده وحيله مهما بلغ في العدّة والعدوان، فإنّ الله على

نصركم لقدير.

ولمثل هذه الجملة أثر نفسيّ كبير في نفوس المؤمنين الّذين يريدون القتال في سبيل الحقّ، وهم يذعنون بأنّهم أقوياء لا يغلبعم الباطل، فتطمئن نفوسهم بالغلبة والنصر مهما كان في جانب الباطل من القوّة في العدد والعدّة.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

ذكرنا ما يتعلّق باشتقاق كلمة الثبات والنفر، والقراءة المعروفة في الأخيرة هي كسر الفاء في (انفروا) في الموضعين، وقرأ بعضهم بالضمّ فيها.

وأمّا ثبات، فالمعروف بكسر التاء، وهي بحسب القاعدة في جمع المؤنّث، وحكى بعضهم الفتح.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾، فإنّ اللام الأُولى لام التأكيد التي تدخل على خبر إن أو اسمها إذا تأخّر، والثانية جواب قسم. وقيل زائدة، وجملة القسم وجوابه صلة الموصول.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾، من الدقّة في تصوير المعنى ما لايخفى، وتعتبر من الوجهة البلاغيّة في أعلى درجات الفصاحة، فإنّ في هذه الصياغة تستفاد الصورة الكاملة من اللفظ والمعنى لعمليّة الإبطاء المتتابعة، كما عرفت في التفسير.

وأمّا قوله تعالى: ﴿كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾، فإنّه اعتراض بين القول والمقول، جيء به لزيادة قبح فعلهم والتشنيع عليهم، وفيه وجوه بلاغيّة، مثل الالتفات، وتنكير المودّة، والتشبيه الفصيح، ونفي الكون، وغير ذلك من الوجوه التي جعلت الجملة في أعلى درجات البلاغة، فإنّ فيها من التقريع والتوبيخ بألطف القول وأحسن عبارة وأرقّها، ممّا تؤثّر في النفس ما لا يؤثّر النبز بالألقاب، والطعن بالقول السيء.

و ﴿كَأَنْ﴾ حرف تشبيه تأتي ثقيلة ومخففة، فإن وليها ما كان يليها وهي

ثقيلة، فإنّها ترفع الجملة على الابتداء والخبر، ويكون اسم كأن ضمير الشأن محذوفاً، وتكون الجملة في موضع خبر كأن، وإذا لم ينو ضمير الشأن جاز لها أن تنصب الاسم إذا كان مظهراً وترفع الخبر، فنقول: كأن زيداً قائم، والتفصيل مذكور في كتب النحو.

و (يشرون) في قوله تعالى: **﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ﴾** مضارع شري، وهو من الأضداد يأتي بمعنى باع، كما في قوله تعالى: **﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾**[1]، وبمعنى اشترى، والمراد من الموصول المنافقون حيث أُمروا بترك النفاق والمجاهدة في سبيل الله تعالى.

وأمّا قوله تعالى: **﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾**، فهو إمّا عطف على اسم الجلالة، أي في سبيل الله، وفي سبيل المستضعفين وهو تخليصهم من الظلم والأسر، أو عطف على (سبيل) بحذف مضاف، أي في خلاص المستضعفين، ويجوز نصبه بتقدير فعل ـ كأعني وأخصّ ونحوهما ـ وقوله تعالى: **﴿مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾** بيان للمستضعفين.

والوصف في قوله تعالى: **﴿مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾** صفة قرية، وتذكيره لتذكير ما أُسند إليه، فإنّ اسم الفاعل والمفعول إذا أُجري على غير مَن هو له، فتذكير وتأنيثه على حسب الاسم الظاهر الذي عمل فيه، ولم ينسب إليها الظلم تشريفاً وتكريماً، فإنّ مكّة مكرّمة.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ**

---

١ . سورة يوسف: الآية ٢٠.

انفِرُوا جَمِيعاً﴾ على القاعدة التي يعتمد عليها الجهاد في الإسلام، وهي الدفاع عن كيد الأعداء وظلم الظالمين، وربط هذه القاعدة بالإيمان بحيث لا تخرج عن التوجيهات الإيمانيّة، فإن الإيمان يرتبط بتوجيهات أخلاقيّة وأحكام تشريعيّة لا يلتزم بها إلّا المؤمنون.

وفي الآية المباركة التذكير الدائم للمؤمنين وتحديد مهمّتهم. ولم يذكر سبحانه وتعالى كيفيّة الحذر ولا خصوصيّاته؛ إيكالاً لما تتطلّبه الظروف الحربيّة في كلّ مكان وزمان. فالآية الشريفة على إيجازها البليغ تحدّد المسؤوليّة في الجهاد بأن لا يخرج عن الحدود الإيمانيّة، والغرض من الجهاد وهو الدفاع والحيطة من الأعداء.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ ـ بضميمة صدر الآية الشريفة ـ على وجوب الاستعداد للجهاد وبذل كلّ جهد في سبيله، لئلّا تموت العزائم في إقامة الحقّ، وتخور القوى في تطهير الأرض من الظلم.

الثالث: تدلّ الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ على أنّ في صفوف المؤمنين مَن لا يفكّر إلّا في نفسه؛ لأنّ الإيمان لم يتعمّق في قلبه، متذبذب في تفكيره ومتردّد في أفعاله، يتبع المصلحة الوقتيّة الماديّة، فتارةً يتمنّى الدخول في سلك المؤمنين إن أصابوا المغانم، مع كمال البُعد بينه وبين المؤمنين، وأُخرى يفتخر ويتشدّق بعدم الانخراط فيهم، فلم يصبه من القتل والجراح في سبيل الله تعالى، فالآية المباركة تصوّر واقع هؤلاء بأحسن تصوير، وتبيّن حالتهم النفسيّة بأوجز عبارة وأبلغ أسلوب، ولا تختصّ بعصر النزول، فإنّ مضمون الآية المباركة عامّ يشمل جميع الأعصار، كما لا تختصّ بالمنافقين وإن كانوا أجلى الأفراد؛ لأنّ الآية الشريفة تخبر عن تلك الجماعة التي لم يتعمّق الإيمان في قلوبهم، وهو أعمّ من النفاق؛ لأنّ في كلّ قوم صالحاً وطالحاً.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿**كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً**﴾ على كمال البُعد بينهم وبين المؤمنين، وأنّ تفكيرهم المادّي هو الذي أوجب هذا البُعد، فإنّ الله تعالى جعل رابطة الإيمان من أقوى الوشائج التي تجمع بين أفراد المؤمنين؛ لأنّها تنبع من القلب ويكون خالصة من كلّ الظواهر المادّية التي تؤول إلى التفكّك، والبعد بينهم وبين المؤمنين، فلا يتمنّون ما لا ينبغي لهم أن يتمنّوه، فإنّ قصدهم كان لأجل حطام الدُّنيا التي تؤول إلى الزوال.

الخامس: يدلّ قوله: ﴿**فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ**﴾ على أنّ القتال في الإسلام إنّما يكون في سبيل الله، ولا يقوم بهذه المهمّة إلّا مَن باع الحياة الدُّنيا الفانية الزائلة بالآخرة الباقية الدائمة، فالآية الكريمة على إيجازها البليغ تتضمّن جميع جوانب الجهاد والقتال في الإسلام من العلّة الفاعليّة، وهي المؤمنون الّذين يشرون الحياة الدُّنيا بالآخرة، والعلّة الغائيّة وهي طلب رضاء الله تعالى والسعي في سبيله، وقد عدّ عزّ وجلّ في المقام من وجوه سبيل الله تعالى القتل والغلبة، وإنقاذ المستضعفين من المؤمنين. والعلّة الصوريّة وهي النفر ثباتاً أو النفر جميعاً وفق الظروف الحربيّة، والعلّة المادّية وهي الحذر والاستنهاض في الاستعداد بجميع صوره، وسيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام في الجهاد في الإسلام إن شاء الله تعالى.

والآيات الشريفة تتضمّن الأُسس التربويّة في هذا المضمار، وكلّ ما يتطلّبه الوضع الحربي من إعداد النفوس وتقويتها واستنهاضها للقتال، وطلب العون والنصرة من الله العليّ القدير، وأدب الدُّعاء من الخضوع والخشوع لدى جنابه، فهي من الآيات المعدودة التي تشتمل على جميع ما يتطلبه الحرب والجهاد، كما هو المعروف.

السادس: يدلّ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً**﴾ على وجود

الضعف في كيده دائماً بل هو لازم ذاته، وتتضمّن الآية الكريمة نكتة لطيفة قرآنيّة، وهي أنـّه سبحانه وتعالى وصف كيد النساء بالعظمة، قال تعالى محكيّاً عن عزيز مصر: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[1]. ووصف كيد الشيطان في هذه الآية المباركة بالضعف.

ولكن الضعف إنّما يكون في جنب نصرة الله تعالى لأوليائه وحفظه لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[2]، وعظمة كيد النساء بالنسبة إلى الأُمور الماديّة والشهوانيّة، فيكون كيدهن عظيم بالإضافة.

السابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ أنّ كلّ قتال مع المؤمنين إنّما يكون من كيد الشيطان، الذي يوحي إلى أوليائه سُبل المكر والخداع ويزيّن فهم الباطل ويبثّ بينهم طرق البغي والطغيان، فيوهمهم بوسوسته في الحرب مع المؤمنين، ويخدعهم بأنّ فيه الصلاح لهم، كما يوهن قوى المؤمنين بإلقاء الشبه عليهم.

والآية المباركة في مقام إبطال جميع وساوس الشيطان ومكره وخداعه، وتثبيت للمؤمنين وتقوية لهم بأنّ كيد الشيطان مهما بلغ من القوّة والعظمة، فإنّه ضعيف في مقابل نصرة الله؛ لأنّ كيده من الباطل الذي لا قوّة فيه ولا بقاء له، فالمؤمنون يطلبون شيئاً ثابتاً فيه القوّة والبقاء؛ لأنـّهم على حقّ. وقد جرت سنّة الله تعالى في مصارعة الحقّ والباطل أن يغلب الحقّ على الباطل لا محالة، كما أنّ سنن الوجود تؤيّد ذلك.

وهذه الآية الشريفة لها من التأثير النفسي في ميدان القتل والجهاد والحرب ما لا يكون في غيرها وقد أتعب علماء التربية أنفسهم وغيرهم ممّن لهم الصلة في

---

١. سورة يوسف: الآية ٢٨.

٢. سورة الحجر: الآية ٤٢.

هذا الميدان على صياغة عبارات تؤدّي مثل هذا الأثر ، ولم يكن بوسعهم ذلك ، فسبحان الله الذي أُحكمت آياته وجلّت عظمته .

الثامن : تدلّ الآيات المباركة المتقدّمة على الأُسس التي يقوم عليها القتال في الإسلام والقاعدة العريقة التي لا يتخطّاها ، وهي كونه في سبيل الله تعالى ، ولإشاعة العدل ، وتثبيت الحقّ ، وأنّ القتال في الإسلام لا يقوم إلّا عند فشل جميع السبل في تثبيت كلمة الله تعالى ونشر العدل ، وهذا المقصد أمر ثابت لا يتغيّر ، والقتال الخارج عن هذه الطريقة لا يكون إلّا قتالاً باطلاً ليس فيه قصد إلّا طلب الدُّنيا ، ولأجل الاستعلاء والغلبة بغير حقّ ، وإهلاك الحرث والنسل . وهذا ليس له أساس ثابت يقتضيه التكوين والطبيعة وسنن الوجود ، وبالآخرة يحكم عليه بالفشل والزوال .

التاسع : يمكن أن يستفاد من قوله تعالى : **﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾** أنّ المراد من اتّخاذ الحذر والاستعداد أعمّ من المادّي ، كتهيئة الجيوش وإعداد السلاح ونحو ذلك . والمعنوي وهو ترويض النفس على الأخلاق الفاضلة ، وإعدادها لقبول الكمالات ، فإنّ لهذا القسم أثراً كبيراً على الأعداء وإرغامهم على قبول الإيمان والحقّ .

***

بحث روائي:

في «مجمع البيان» قال : «سّمى الأسلحة حذراً؛ لأنّها الآلة التي بها يتقي الحذر» ، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام .

أقول : هذا من باب التفسير بالمصداق ، وإلّا فإنّ الحذر أعمّ من الأسلحة وما يحصل في النفس من الخوف ، أي أنّه أعمّ من النفسيّ ـ والمعنويّ ـ والمادّي ، وتقدّم في التفسير ما يتعلّق به .

وفيه عن أبي جعفر عليه السلام: أنّ المراد بالثبات السرايا، وبالجميع العسكر.

أقول: هذا من باب ذكر أحد المصاديق كما تقدّم. ومثله ما في «الدرّ المنثور» من أنّ المراد من الجميع «إذا نفر رسول الله صلى الله عليه وآله معهم».

وفي «تفسير العيّاشي»، عن سليمان بن خالد عن الصادق عليه السلام:

«في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾**، فسمّاهم بمؤمنين وليس هم بمؤمنين، ولا كرامة، وقال تعالى: **﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعاً ـ إلى قوله تعالى ـ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾**، ولو أنّ أهل السماء والأرض قالوا: قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن مع رسول الله صلى الله عليه وآله لكانوا بذلك مشركين، وإذا أصابهم فضل من الله قال: يا ليتني كنت معهم فأقاتل في سبيل الله».

أقول: المراد بتسميتهم بالمؤمن، لأنّهم تلبّسوا بأدنى مرتبة الإيمان في الظاهر، وليسوا هم بمؤمنين، أي واقعاً وحقيقة، وتقدّم في التفسير أيضاً، والمراد من الشرك المرتبة الأُولى منه، التي لا تنافي إجراء أحكام الإسلام عليه؛ لأنّ للشرك مراتب متفاوتة، وفي كلّ مرتبة درجات، وفي كلّ درجة فيها شدّةً وضعفاً.

وعن أبي علي الطبرسي، قال: «قال الصادق عليه السلام: ولو أنّ أهل السماء والأرض قالوا: قد أنعم الله علينا إذ لم نكن مع رسول الله صلى الله عليه وآله، لكانوا بذلك مشركين».

أقول: لأنّ ذلك خلاف التوحيد الكامل والعبوديّة المحضة، فإنّهم أظهروا الفرح على عدم إصابتهم المصيبة معه صلى الله عليه وآله، وشأن المؤمن أن يشارك معه، وتقدّم أنّ للشرك مراتب تختلف حسب مَن يتلبّس به، وحسب العقيدة وغيرهما.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم» قال الصادق عليه السلام: «والله، لو قال هذه الكلمة أهل المشرق والمغرب لكانوا بها خارجين عن الإيمان، ولكن قد سمّاهم مؤمنين بإقرارهم».

أقول: المراد من الخروج عن الإيمان، الخروج عن طاعة الله ورسوله، أو الخروج عن حدّ الكمال والمرتبة الأعلى منه ـ كما مرّ ـ فإنّ للإيمان مراتب متفاوتة جدّاً.

البيهقي في «سننه» بطريقه عن ابن عبّاس في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعاً﴾** عصباً فرقاً. قال: نسخها **﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾**[1].

أقول: ليس بينهما شرائط النسخ، إذ آية الحذر في الحرب والقتال، وآية النفر في التفقّه في الدين وتعلّم الأحكام، وعلى فرض وحدة الموضوع بينهما، فهما من باب التقييد والتخصيص لا النسخ، إلّا أن يراد به هما.

العيّاشي بسنده عن علي بن الحسين عليهما السلام، قال: «كانت خديجة ماتت قبل الهجرة بسنة، ومات أبو طالب بعد موت خديجة بسنة، فلمّا فقدهما رسول الله صلى الله عليه وآله سئم المقام بمكّة، ودخل في حزن شديد، وأشفق على نفسه من كفّار قريش، فشكى إلى جبرئيل عليه السلام ذلك، فأوحى الله تعالى إليه: يا محمّد، أخرج من القرية الظالم أهلها وهاجر إلى المدينة، فليس لك اليوم بمكّة ناصر، وانصب للمشركين حرباً، فعند ذلك توجّه رسول الله صلى الله عليه وآله الى المدينة».

أقول: الرواية من باب التطبيق، وإلّا فالآية الكريمة عامّة، وتوصيف أهل مكّة بالظلم تشريفاً للبلد الأمين الذي هو مكّة المكرّمة، كما مرّ.

وعن أبي جعفر عليه السلام في رواية حمران، قال: «**﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾** أهلها فأولئك نحن».

---

١ . سورة التوبة: الآية ١٢٢.

أقول: الرواية من باب ذكر أحد المصاديق، أي المستضعفين ظاهراً في هذه الدينا، وقد ورد عن ابن عبّاس في «الدرّ المنثور» أنّه قال: «أنا وأُمّي من المستضعفين»، وكانا كذلك أيضاً لأنّهما كانا من المسلمين الّذين كانوا بمكّة لايستطيعون الخروج منها، وكانوا في ضيق من العيش.

وعن سماعة، قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن المستضعفين، قال: هم الولاية، قلت: أي ولاية تعني؟ قال: ليست ولاية ولكنّها في المناكحة والمواريث والمخالطة، وهم ليسوا بالمؤمنين ولا الكفّار، ومنهم المرجون لأمر الله. فأمّا قوله تعالى: **﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾** فأُولئك نحن».

أقول: صدر الرواية يبيّن المستضعفين في الإيمان، أي مَن له أدنى مرتبة الإيمان، فإنّ له مراتب كثيرة كما تقدّم، وأمّا ذيلها فإنّه من باب التطبيق وذكر أجلى المصاديق وبيان ما طرأ عليهم من غصب حقوقهم عليهم السلام.

وفي «الدرّ المنثور» عن سعيد بن جبير: «في قوله تعالى: **﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾**، يعني يقاتل المشركين **﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾**، قال: في طاعة الله، **﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ﴾**، يعني يقتله العدو، **﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾** يعني يغلب العدوّ من المشركين، **﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾** يعني جزاءً وافراً في الجنّة، فجعل القاتل والمقتول من المسلمين في جهاد المشركين شريكين في الأجر».

أقول: الرواية من باب التفسير الآية المباركة، وتقدّم أنّ القتل في سبيله تعالى يكون من إحدى الحسنيين، وكذا مَن يقتل من العدو أو من وقع في الأسر في يد العدو، فكلّ مشقّة يتحمّلها المجاهد في سبيل الله تعالى فله أجره عند ربّه، كما تقدّم في الآيات السابقة.

وعن ابن عبّاس قال: «إذا رأيتم الشيطان فلا تخافوه واحملوا عليه **﴿إِنَّ**

كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾».

أقـول: كيد الشيطان بالنسبة إلى نصرة الرحمن وهدايته كان ضعيفاً، وأمّا بالنسبة إلى المؤمن فهو تابع لإيمانه، فكلّما اشتدّ إيمان المؤمن بالله تعالى وكثر إخلاصه له سبحانه ووفى بعهد الربوبيّة وزاد في توكّله عليه، علا شأنه وضعف كيد الشيطان وأمَن من مكره، وإذا قلّ إيمانه بالله تعالى ولم يف بعهد الربوبيّة، قوي كيد الشيطان بالنسبة له، وهذا ما يستفاد من الآيات الكثيرة المتواترة عن المعصومين عليهم السلام، ولدفع الشيطان وبُعده عن الإنسان طرق كثيرة معروفة عند أهل العرفان.

***

بحث كلامي:

الآية المباركة تدلّ على وجوب اتّخاذ الحذر، وهو حكم عقلي ـ بل أمر فطري ـ كشف عنه الشرع، والحذر: هو طريق الاحتياط، يعمّ في جميع الأشياء ويختلف حسب متعلّقه، أي المخوف.

والفرق بينه وبين الكيد، هو أنّ الكيد يحتال الإنسان ليوقع غيره في مكروه، والحذر هو احتيال الشخص لخروج نفسه عن مكروه، فالتنافي بينهما واضح. فما قيل من أنّه نوع من الكيد، غير صحيح.

والتقديرات من الله سبحانه وتعالى لا يرفعها الحذر أصلاً؛ لأنّها كائنة حتّى في ظرف الحذر، بل المقدّرات الإلهيّة غير مربوطة بالظروف التي حصلت باختيار الإنسان بنفسه، كما عن نبيّنا الأعظم: «المقدور كائن والهم فضل» ـ وما قيل: «الحذر لا يغني القدر»، فالتقديرات الإلهيّة كائنة مهما كانت الظروف والحالات.

إن قلت: لو كان التقدير في الحرب مثلاً الغلبة، فلا فائدة في الحذر، وإن كان مقتضاه المغلوبيّة فلا نفع فيه، فلا فائدة في الحذر على التقديرين.

قلت: الأمر بالحذر لا ينافي التقدير كما مرّ. وإنّ الأوامر التشريعيّة التي هي في مقام تكميل العبد، غير مرتبطة بالأمور التكوينيّة التي منها التقديرات، وقد يكون الحذر من مقدّمات الفعل الذي تعلّق القدر به، وقد يكون نفس الحذر أيضاً مقدّراً.

وبالجملة: أنّ القدر هو جريان الأُمور وفق نظام معيّن متين فيه الأسباب والمسبّبات، والله تعالى قدّر أن يكون الفعل واقعاً إذا لم يتّخذ الإنسان الحذر، ولم يتهيّأ في دفع الضرر عن نفسه، فيكون الحذر من جملة الأسباب ويكون العمل بالحذر عملاً بنفس القدر، لا أن يكون منافياً له أو لا نفع فيه، هذا موجز الكلام في المقام، ويأتي التفصيل في مسألة القضاء والقدر التي تأتي في الموضع المناسب إن شاء الله تعالى.

***

الآية ٧٧ ـ ٨٠

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ﴿٧٩﴾ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴿٨٠﴾﴾.

بعدما حثّ المؤمنين على الجهاد، وأمرهم باتّخاذ الحذر من الأعداء، وذكر حال المبطئين لضعف إيمانهم، وبيّن عزّ وجلّ نواياهم وفساد عقيدتهم، ثّم أمر المؤمنين بالقتال في سبيله وإنقاذ المستضعفين.

تعقيباً لتلك الأوامر والتوجيهات الربوبيّة، ذكر جلّ شأنه في هذه الآيات حال طائفة أُخرى من ضعاف الإيمان التي بقيت من رواسب الجاهيّة في نفوسهم، فكانت تطفو وتظهر في الأحيان، فلما دخلوا في الإيمان خمدت نفوسهم

واستثقلوا القتال، ولم يكن عندهم حماسة له، لخوفهم على ما كان عندهم من متاع الحياة الدُّنيا. وهذه الآيات المباركة تبيّن سبب ذلك، وهو حبّهم للدنيا والمتاع القليل المستحوذ على جميع مشاعرهم.

وفي هذه الآيات توجيهات قيّمة لهؤلاء، وقد أمرهم عزّ وجلّ بجملة من الأُمور التي تهذّب نفوسهم، وبيّن لهم بعض الحقائق الواقعيّة التي تصلح نفوسهم. و لا يخفىٰ ارتباط هذه الآيات بسابقتها.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾.

الخطاب يقصد به الّذين لم يستقر الآيمان في قلوبهم، وهم فئة ضعيفة الإيمان، قد كانت تدفعها إلى القتال دوافع كانت معروفة في الجاهلية، من نزعة العصبيّة، والحميّة، والكبرياء ونحو ذلك، وهي نزعات سيّئة جاهليّة بقيت عالقة في نفوسهم، لم يمحها الإيمان لعدم رسوخه في قلوبهم، فكانوا يطلبون القتال جرياً على ما تعوّدوا عليه، فعندما استقرّبهم المقام في مدينة الرسول ﷺ وطاب لهم العيش وركنوا إلى الحياة الدُّنيا، فلم يعد لهم ذلك الحماس وكرهوا الجهاد، خوفاً على ما حصلوه من المتاع، لئلّا يضيّعه القتال، فرضوا ما كتب عليهم من الجهاد.

والمراد بكفّ الأيدي الإمساك عن القتال والاعتداء، وربما يكون ذلك كناية عن ترك مطلق ما لا يكون مرضيّاً لله تعالى، ولعلّه لأجل ذلك ورد في تفسيره عن الصادق عليه السلام: «كفّوا ألسنتكم»؛ لأنّ كفّ اللِّسان موجب لكفّ الأيدي، بل هو السبب التامّ في كفّ الأيدي.

وكيف كان، فالآية المباركة في مقام التعجيب من حالهم ابتداءً؛ لأنّهم كانوا

يستعجلون قتال الكفّار ويرفضون الإمساك. وترشدهم إلى ما هو الأصلح لهم، وما يوجب تمكين الإيمان في قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

إرشاد لهم بالاشتغال بما يوجب زيادة الإيمان واستقراره في قلوبهم، وقد ذكر عزّ وجلّ أمرين هما من أهمّ الأُمور في هذا الدين:

أحدهما: يهتمّ بما يرتبط بين العبد وخالقه ـ وهي الصلاة التي فيها الخشوع، والخضوع، والعبادة لله الواحد الأحد.

والثاني: يعتني بما بين أفراد المؤمنين، وهي الزكاة التي تزيد في تماسكهم، وتحتوي روح التعاون والتراحم بيهم. وهما من شعائر هذا الدين القويم تزيدان في إيمان المؤمنين وتمكّنه في قلوبهم، وبهما يشتدّ أمر الدين ويقوم صلبه، وتتهيّأ نفوسهم للقتال ومصارعة الباطل في ميدان الجهاد، وبدون ذلك ليس لهم أي استعداد للقتال، كما أنّه لولا ذلك لآل أمر الدِّين إلى الزوال، وانفصمت عراه وانهدمت أركانه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾.

تصوير لحالهم من داخل نفوسهم، وإظهارها بأنّها لم تكن على استعداد للقتال.

والمراد من الناس هم الكفّار، أي أنّهم يخافون الكفّار لئلّا يقتلوهم، وهذا يكشف عن اشتغال نفوسهم وتعلّق ما يبيّنه عزّ وجلّ في الآية التالية، وهو متاع الدُّنيا الفانية الزائلة.

قوله تعالى: ﴿كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾.

أي يخشون الكفّار كما يخشون الله تعالى بأن ينزل عليهم عذابه بتركهم

أوامره وإعراضهم عن طاعته ، ولما كان التساوي بين أمرين يقتضي الميل إلى أحدهما تارةً والى الآخر أُخرى ، إلّا أنّهم رجحّوا خشية الناس ، فكانت خشيتهم أشدّ من خشية الله تعالى؛ لأنّ الجبن قد تمكن في قلوبهم .

و (خشية) منصوب على الحاليّة أو على التمييز ، كما سيأتي .

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ .

عطف على جواب (لّما) ، أي فلمّا كتب عليهم القتال قالوا : ربّنا لِمَ كتبت علينا القتال ، ويحتمل أن يكون عطفاً على قوله : ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ .

وكيف كان ، فالآية الشريفة تحكي مقالتهم في تعبير دقيق ينبئ عن تقاعسهم وتكاسلهم الشديدين ، حيث صدر عنهم هذا الاعتراض على حكمه تعالى ، والإنكار على إيجابه القتال ، وهو دليل على ضعف إيمانهم ، فإنّ مَن خلص إيمانه لا يعترض على حكمه عزّ وجلّ .

قوله تعالى : ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ .

بيان لموقفهم المتثاقل المتلهّف على تأجيل القتال ولو كان الأجل قريباً ، فهم إنّما يتمنّون التخفيف برفع القتال عنهم لمحض الهرب ، حبّاً منهم في البقاء .

فالآية الكريمة ببلاغتها وأُسلوبها البديع فيها تصوير عجيب لنفسياتهم الضعيفة ، وشدّة تكاسلهم . وظاهرها أنّهم يطلبون الهرب و الاستزادة في كفّهم عن القتال والتخلّص عنه ، وليس المراد منها تأخيرهم إلى بلوغ أجلهم وموتهم حتف أنفهم ، ولو كان أجلاً قريباً ـ كما ذكره جمع من المفسّرين ـ لأنّهم إنّما يتمنّون رفع القتال لأجل البقاء والتمتّع وبالحياة الدُّنيا ، فكيف يطلبون الموت العاجل .

قوله تعالى : ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ .

بيان للعلّة الحقيقيّة لهذا الموقف المتقاعس المتثاقل فيه إلى تأجيل القتال ،

لأنّ نفوسهم تعلّقت بالحياة الدُّنيا وأحبّوها حبّاً استحوذ على أحاسيسهم، فتمنّوا الإستزادة في حياتهم إلى أقصى ما يمكن، فطلبوا منه عزّ وجلّ إمهالهم إلى وقت آخر.

وإنّما وصف عزّ وجلّ الحياة الدُّنيا بالمتاع القليل ـ وهو تعبير قرآني دقيق ـ لأنّه مهما طال بهم العمر وتمتّعوا بها، فإنّها زائلة سريعة الانقضاء بالنسية إلى الحياة الآخرة التي هي الباقية.

وإنّما أمر عزّ وجلّ نبيّه الكريم بالردّ عليهم، تزهيداً لهم عمّا يؤملونه؛ وتبييناً لهم خطأ رأيهم فيه، فإنّ المتاع الذي يتمنّونه ويتطلّعوا إليه إنّما هو قليل ومتاع مشوب بالضياع، وهو في القلق الدائم من الحرمان منه، فلا يكون في هذه الحياة متاع خالص من المنغّصات والمكدّرات، ففي هذا التعبير أثر نفسي كبير لمَن تعلّق حسّه بهذا العيش الدنيوي، فإنّه مهما طلب المزيد فإنّ هناك عيشاً آخر أكبر ممّا بين يديه وأوسع وأشهىٰ وأبعد من المنغّصات، ولا يكون مشوباً بالحرمان، ولمثل ذلك يزهد الإنسان عن هذه الحياة، ويرغب الأجر الدائم في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى﴾.

بيان للعلّة في نيل تلك الحياة الحقيقيّة والعيش الهنيء، وهي التقوى بالعمل بالتكاليف الإلهيّة، وترك ما يوجب سخطه، والابتعاد عن ما لا يرضاه.

وإنّما أطلق سبحانه وتعالى (خير) ولم يقيّده بشيء؛ للبيان بأنّ التقوى خير من جميع الجهات وكلّ ما يخطر على البال، فهي خير في النوع، وخير في بُعده عن المنغّصات والكدورات، وخير في دوامه وبقائه، وخير بأنّه المستقرّ بعد التعب الشديد، وخير بأنّ فيه القرب إلى الله تعالى والتمتّع برضوانه عزّ وجلّ، فلا ينبغي لهم ترك القتال والقعود عن الجهاد والتأخير إلى الأجل القريب لأجل التمتّع

بالحياة الدُّنيا؛ إعراضاً عن ذلك النعيم الأبدي الذي هو خير من جميع الجهات.

وفي الآية الشريفة كمال الترغيب إلى التقوى، فإنّها الوسيلة الوحيدة للوصول إلى رضوان الله تعالى والتمتّع بالحياة الحقيقيّة. وفيها التعريض بأنّهم ركنوا الى الداني وأعرضوا عن الخير الحقيقيّ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾.

حقيقة من الحقائق الواقعيّة، فإنّ الذي يحرم عن متاع من أمتعة الدُّنيا لأجل سبيل الله تعالى، لا يضيّع جزاءه عند الله عزّ وجلّ، وأنّ الأجر محفوظ عنده بأضعاف مضاعفة، فلماذا التحسّر؟! إذ لا خسران ولا ظلم هناك.

والآية المباركة ترغيب إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، وردّ على مَن يحجم عنه خوفاً على ما حصل من متاع الدُّنيا.

والفتيل ما يكون في شقّ نواة التمر، أو ما يفتل بالأصابع من الوسخ على ما عرفت سابقاً، ويكنّى به عن القلّة والحقارة، يقال: «ما أغني عنك فتيلاً»، أي شيئاً بقدر الفتيل.

قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾.

بيان لحقيقة أُخرى من الحقائق التي يدركها جميع أفراد الإنسان، وهي أنّ الموت حتم لا مفرّ منه ولا مهرب عنه، ولو اتّخذ لنفسه ما يتّقي به كلّ مكروه فإنّه واقع حسب سير التكوين، وأنّه مهما غفل عنه الإنسان أو تغافل عنه حسباناً منه أنّه بعيد، فإنّه ستجيء اللّحظة التي يتنبه فيها ويدرك تلك الحقيقة، وتكون فيها نهايته.

والآية الشريفة بأُسلوبها البديع توقظ الناس وترشدهم إلى تلك الحقيقة وتجسّمها لهم، بحيث لا تدع أيّ مجال للشكّ والارتياب، فتستقرّ في أنفسهم أنّ

متاع الدُّنيا قليل.

والبروج: جمع البرج، وأصله التبرّج بمعنى الظهور، ومنه تبرّجت المرأة إذا أظهرت محاسنها. ومنه بروج النجوم لمنازلها المختصّة بها، قال تعالى: **﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾**[1]؛ أي الكواكب العظام سّميت بها لظهورها، وقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾**[2]؛ أي منازل للشمس والقمر.

والمراد منه هنا البناء المعمول، وهو الحصن، والبروج المشيّدة هي القصور المرتفعة الحصينة التي أُحكمت ورفع بناءها ليأوي إليها الإنسان لدفع المكروه عنه من عدوّ ونحوه.

ويمكن أن يُراد منها بروج النجوم، فيكون استعمال لفظ (المشيّدة) فيها على سبيل الاستعارة، فتكون الآية للمبالغة، وقد أشار إلى ذلك الشاعر:

ومَن هاب أسباب المنايا يَنلنه   ولو نال أسباب السماء بسلّم

ولكن سياق الآية المباركة يأبى ذلك.

ومعنى الآية الكريمة: أنّ الموت أمر لا مفرّ منه، يأتيكم ولو كنتم متحصّنين في القصور المشيّدة، والملاجي المحكمة المتينة، فلا تعرضوا عن القتال في سبيل الله تعالى، ولا تتوهمّوا أنّكم إن لم تشتركوا فيه ولم تشهدوه، تكونوا في مأمن من الموت، فإنّ أجل الله آت ولا سبيل للهرب منه، فيلحقكم الموت ويحلّ بكم.

قوله تعالى: **﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾**.

بيان لحال طائفة أُخرى أهمّتهم أنفسهم، لا يرضون بحكم الله فيهم، والتي حكي عنها عزّ وجلّ في آية أخرى، فقال تعالى: **﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ**

---

١ . سورة البروج: الآية ١.

٢ . سورة الحجر: الآية ١٦.

يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾[1]. وفي المقام يحكي عزّ وجلّ عنهم بعض نواياهم الفاسدة، وأمر نبيّه صلى الله عليه وآله أن يجيبهم ويرشدهم إلى الحقيقة والواقع. وإنّما أمر رسوله الكريم بالجواب؛ لأنّه واسطة الفيض، ولأنّهم كانوا يعتقدون أنّ السيّئة التي تصيبهم إنّما هي من ناحية وجود الرسول صلى الله عليه وآله فيهم.

وهذه الآية المباركة وإن كانت مع الآية الشريفة السابقة في سياق واحد تدلان على كراهيّة الطائفتين للقتال، إلّا أنّ الطائفة الأُولى كرهت القتال وطلبت التأجيل، وهذه الطائفة تزعم أنّ السيّئة التي تُصيبهم إنّما لأجل وجود الرسول صلى الله عليه وآله أو من ناحية أوامره وأحكامه. وذكر جمع من المفسّرين أنّ الآية الكريمة تدلّ على أنّ هذه الطائفة هي الأُولى، ولكن يمكن أن يستفاد من القرائن التعدّد كما عرفت.

وكيف كان، فإنّ مثل هذا الوهم قد تخيّله جمع من أقوام الأنبياء السابقين، قال تعالى حكاية عن قوم موسى: **﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾**[2].

والحسنة ما يحسن عند صاحبه من الصحّة والغنى والرخاء والخصب ونحوها، سواء كانت مادّية ظاهريّة أو باطنيّة. والسيّئة ما يصيب الإنسان من مكروه وسوء، كالمرض والفقر والجذب ونحوها.

وهذا الكلام إنّما يصدر عمّن لم يستقرّ الإيمان في قلبه، قد أهمّته نفسه يدفع عنها كلّ مكروه ويجلب لها كلّ حسنة ورخاء، ويهتّم لذلك كلّ اهتمام، فإذا

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٥٤.

٢. سورة الأعراف: الآية ١٣١.

أصابه المكروه ولم يجد لذلك حلاً لدفعه واستنفذ قواه، التمس لذلك سبباً ولم يجد، ولضعف إيمانه يجعله على الرسول ﷺ، أو المؤمن الذي يريد له الصلاح والكمال، وهو يغفل أو يتغافل أنّ السبب من عنده الذي لم يؤمن بالله القادر على كلّ شيء.

وإنّما نسبوا الحسنة التي أصابتهم إلى الله تعالى غروراً، وزعماً منهم بأنّ الله أكرمهم بها عناية بهم، فلم ينسبوها إليه تعالى بشعور التوحيد والإيمان الخالص. أو لئلّا تنسب إلى الرسول الّذى هو واسطة الفيض، وقد أحاطهم برعاية فحباهم الله تعالى ببعض الحسنات، كما يراه المؤمنون.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾.

السيّئة ما يسوء الإنسان من شدّة أو بلاء أو فقر أو مرض أو قتل أو جدب ونحو ذلك من الضرر الدنيوي، الذي كان يستقبلهم بعد ما أتاهم النبيّ ﷺ وشيّد أركان هذا الدِّين، وأمرهم بالأوامر التي ترشدهم إلى ما هو الأصلح لهم، فكانوا ينسبونها إلى وجود الرسول فيهم أو بسبب تعليماته وأومره، وكانوا يعتقدون أنّه لولا ذلك لما أصابتهم السيِّئات وأراحهم الله تعالى منها.

وهذه المقالة تصدر عن كلّ مَن ضعف الإيمان في قلبه، ولا تختصّ بهذه الأُمّة، فقد صدرت من اليهود وغيرهم، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1].

والمعنى: وإن تصبهم بلية كالمرض والقحط وغيرهما، يتشائمون بك يا رسول الله لجهلهم وضعف عقيدتهم بك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾.

---

١. سورة البقرة: الآية ١١٨.

بيان لحقيقة من الحقائق الواقعيّة التي أمر عزّ وجلّ رسوله الكريم ﷺ بتبليغها إلى أُولئك ، وهي أنّ كلّ ما يحدث في هذا العالم لا يحدث إلّا بقدر الله تعالى وقضائه ، ويدخل في نظام كوني دقيق متقن ، وكلّ ما يصيب الإنسان من حسنة أو سيّئة هو من عنده جلّت عظمته لا من غيره ، فهو عزّ وجلّ يقبض ويبسط ما يشاء .

وهذه الحقيقة تملأ مشاعر المخلصين المؤمنين ، ولا بدّ أن تستقرّ في أفكار غيرهم حتّي يكمل إيمانهم، ويستقرّ في قلوبهم، وترتاح خواطرهم، وتطمئن نفوسهم ، ولكن ليعلم أنّ هذه الحقيقة لا تنافي قانون الأسباب والمسبّبات ، ولا تمنع الأنسان من اتخاذ الأسباب ، كما ذكرنا ذلك في أحد مباحثنا السابقة .

قوله تعالى : ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ .

تنديد لهؤلاء الّذين يظنّون ظنّ الجاهلية بأُسلوب يقرع سمعهم ويوبخهم باستفهام ينكر عليهم مقالتهم ، ويصفهم بأنّهم لا يفقهون حديثاً على الإطلاق؛ لأنّه غابت عنهم تلك الحقيقة الكبرى التي يدركها كلّ من رجع إلى نفسه والى ما يحيط به من الحوادث ، فماذا أصاب عقولهم من فهمها ، ولماذا خمدت فطنتهم وتاهت فطرتهم؟! وقد نبّههم الرسول الكريم ﷺ بتلك الحقيقة ، والتي بها يزيل عنهم كلّ شك وريب ، ولكنّهم أعرضوا عن ذلك، وشغلوا فكرهم بمتاع الحياة الدُّنيا ، حتّى عُدّوا كالبهائم التي لا فهم لها بما يحيط بها من صروف الدهر .

قوله تعالى : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ .

شرح لتلك الحقيقة، وبيان لها ببيان واضح جلي . وردّ على مقالة تلك الطائفة التي ينسب الشرّ إلى الرسول الكريم ﷺ تطيّراً منهم به ، أو لأغراض أُخرى

خبيثة مثل تنفير الناس عنه، أو التجريح في قيادته ونحو ذلك.

وقد أعرض عزّ وجلّ في هذه الآية الكريمة عن خطابهم لسقوط فهمهم، كما أنّها تصحّح وتوضّح لهم معالم تفكيرهم، فإذا ضممنا هذه الآية الشريفة إلى سابقتها، تبيّن القاعدة العريضة في الإسلام في نسبة الحوادث الكونيّة مطلقاً إلى الله تعالى وإلى الإنسان، فإنّ الآية الأولى تبيّن إنّ كلّ ما يقع من الحوادث الحسنة والسيّئة إنّما هي بتقدير الله تعالى وقضائه، وهذه الآية الكريمة تبيّن إنّ كلّ حسنة وخير يصيب الإنسان من عافية أو نعمة أو رفاهية وغيرها، فإنّما هي من الله تعالى وبفضل منه جلّ شأنه، الذي سخّر لنا الأرض وما عليها، وهيّأ لنا أسباب الانتفاع منها، ومنح لنا القدرة على ذلك. وأمّا السيّئات فإنّما هي آثار الأعمال التي يعملها الأنسان، وقد وضع قانوناً متيناً يوضح لنا المنهج، فهو تعالى يعلم الخير وخصوصيّاته كما يعلم الشرّ وأسبابه، و يعلم أين يكمن كلّ واحد منهما، وبمقتضى علمه الأتمّ وضع لنا منهجاً ربّانيّاً يوضّح لنا طريقاً يحقّق لنا خير الدُّنيا والآخرة، فمن اتّبع هذا المنهج فقد جلب الخير لنفسه وتحقّق مقصده، وأمّا مَن خالف وأعرض عن ذلك فقد جلب الشرّ النفسه، ويكون من عند نفسه لعدم اتباعه شريعة الله تعالى ومنهجه القويم، ومن ذلك يتّضح ما في هذه الآية الشريفة من دلالة حكيمة، فهي تبيّن أنّ الحسنة من الله جلّ شأنه، والسيّئة من عند الإنسان، فلا تعارض بين هذه الآية وسابقتها، فإنّ الجميع إنّما يكون بمشيئة الله تعالى، ويبيّن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾[١]، وسيأتي في الموضع المناسب تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿**وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً**﴾.

---

١ . سورة الشورى: الآية ٣٠.

خطاب للرسول الكريم، ولكن المقصود بيان الأمر للناس كافّة، وتنزيه لمقام الرسول ﷺ عن ما وصمه المنافقون وضعاف الإيمان، فلا يتّصف الرسول ﷺ إلّا بما وصفه الله تعالى به، وهو أنّه رسول للناس كافّة، يبلغ عن الله تعالى الشريعة، فليس له من الأمر شيء حتّى يوصم بالشؤم ونحوه، كما يزعمه هؤلاء، وإنّما أراد عزّ وجلّ من إرسال الرسول الخير للناس، وأمر بتبليغ منهج ربانيّ قويم، فمَن اتبعه فقد جلب الخير لنفسه، ومَن أعرض عنه فقد جلب الشرّ لنفسه، وهو تعالى شهيد على ذلك، وهذه الآية المباركة تأكيد لما ورد في سابقتها.

قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾.

تعليل لما سبق وتأييد منه عزّ وجلّ على ثبوت تلك الحقائق المتقدّمة، فإنّه تعالى شهيد على إرساله ﷺ نبيّاً رسولاً للناس كافّة. وكفى بالله تعالى شهيداً، لأنّه عالم بجميع الحقائق، قيوم عليها، فلا ينبغي بعد ذلك أن يخرج أحد عن طاعة الرسول.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾.

بعد أن أثبت عزّ وجلّ رسالته وأيّدها بالشهادة، كان وجه الخطاب في هذه الآية الكريمة مع الناس لإعلامهم بلزوم طاعة الرسول، وأنّه لا عذر لهم في تركها، وأنّ طاعة الرسول ﷺ طاعة الله تعالى؛ لأنّه يبلغ عن ربّه ولا يأمر ولا ينهى من عند نفسه، والله تعالى هو الآمر والناهي، فهو الذي يطاع في الحقيقة؛ لأنّه ربّ العالمين، وإلهم عالم بصالحهم، فالآية المباركة بمنزلة التعليل لما ورد في الآية المتقدّمة وتثبيت لمضمونها.

وفي الآية الكريمة إيحاء شديد في النفس بتوقير الرسول؛ لإنّ طاعته هي الطريق الموصل إلى رضاء الله تعالى، ويظهر ذلك بوضوح بعد ما وصمه أعداؤه

من المنافقين وغيرهم بما حكاه عزّ وجلّ منهم في الآية السالقة.

قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً**﴾.

تأكيد لوجوب طاعة الرسول، فإنّ لزوم طاعته يستلزم عدم جواز التولّي عنها، فمَن أعرض عن طاعته التي هي من طاعة الله تعالى، فإنّه لا يضرّ إلّا نفسه؛ لأنّ مهمة الرسول هي التبليغ عن الله تعالى، وليس له سلطان على الناس يقهرهم على ترك المعاصي والآثام، بل الإيمان والطاعة من الأُمور الاختياريّة التي تتبع قناعة النفس وميلها، قال تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[1]، فالهداية من اختصاص الله تعالى وتوفيقه الذي يتفضّل بها على من يختاره لها؛ لأنّه العالم بمصالح عباده.

وإنّما قال عزّ وجلّ: ﴿**حَفِيظاً**﴾، أي مبالغاً في الحفظ دون حافظ؛ لأنّ الرسالة لا تنفك عن الحفظ؛ لأنّ الأحلام الإلهيّة تحفظ الإنسان المؤمن بها عن ارتكاب المعاصي والآثام.

***

---

١ . سورة القصص: الآية ٥٦.

بحوث المقام

بحث أدبي:

(لمّا) في قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ**﴾ حرف وجوب، لوجوب لا ظرف بمعنى حين، فإنّه لو كانت كذلك لكان لها عامل، وإذا الفجائية لا يعمل ما بعدها في ما قبلها، كما هو معروف في علم النحو.

و (أشد) في قوله تعالى: ﴿**أَوْ أَشَدَّ**﴾ على الحاليّة من قوله تعالى: ﴿**خَشْيَةً**﴾ التي هي منصوبة على التمييز، أي يخشون الناس خشية مثل خشية الله أو خشيةً أشدّ خشية من خشية الله، فأشدّ أفعل التفضيل، والمفضل عليه محذوف وتقديره من خشية الله.

وجوّز بعضهم: أن يكون هذا العطف من عطف الجمل، أي يخشون الناس كخشية الله أو يخشون أشدّ خشية، على أن يكون الأوّل مصدر والثاني حالاً.

وأورد عليه: بأنّ حذف الجمل بعيد، وأنّ حذف المضاف أهون منه.

وقيل: إنّ التمييز بعد اسم التفضيل قد يكون ما انتصب عنه، نحو: ﴿**فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً**﴾، فإنّ الحافظ هو الله تعالى، كما لو قلت: الله خير حافظ بالجر، فلا مانع على هذا أن تكون الخشية نفس الموصوف من أن يكون للخشية خشية أُخرى، كأن يقال: أشدّ خشية بالجرّ، والمسألة مفصّلة في علم النحو.

و «أو» في قوله تعالى: ﴿**أَوْ أَشَدَّ**﴾ بمعنى بدل، وقيل: للتفريع، وقيل: للتخيير.

وجملة: ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمُ الْمَوْتُ**﴾، قيل: إنّها لا محلّ لها من الإعراب، وقيل: إنّها داخلة في حيز القول المأمور به، فمحلّها النصب، وذكر جمع من العلماء

أنّ ما تقدّم على هذه الجملة جواب لقولهم: «لِمَ كتبت علينا القتال»، فالجواب: «قل متاع الدُّنيا»، وهذه الجملة جواب لقولهم: «لو لا أخّرتنا».

واختلف في تخريج الرفع في «يدرككم»، فقيل: إنّها على حذف الفاء، وقيل: إنّه على تقدير مبتدأ معها، أي «فأنتم يدرككم»، وقيل: هو مؤخّر من تقديم وجواب الشرط محذوف، أي: يدرككم الموت أينما تكونوا يدرككم.

وأُشكل عليه بوجوه، والمسألة محرّرة في كتب النحو، فمَن شاء فليراجعها.

والمعروف قراءة: «مشيدة» بالتشديد، وقرأ بعضهم بالتخفيف وفتح الميم، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾[1]، وقرأ آخر بكسر الياء على التجوّز، كقوله تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾[2].

و«أين» في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا﴾ ظرف مكان، وتأتي شرطاً فيزاد «ما» بعدها، وقد تخلو عن «ما» وتكون استفهاماً، ولم يسمع زيادة «ما» بعدها، و«لو» وصليّة، لا أن تكون شرطية.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ بليغ جدّاً؛ لأنّ نفي المقاربة أبلغ من نفي الفعل، كما هو واضح.

ونصب «رسولاً» في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾ على الحال المؤكّدة للجملة التي هي: «وأرسَلناك».

***

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة أُمور:

الأوّل: يستفاد من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ

---

١ . سورة الحج: الآية ٤٥.

٢ . سورة القارعة: الآية ٧.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ الحالة النفسانيّة لبعض المؤمنين الّذين يندفعون في ابتداء الأمر إلى الإيمان اندفاعاً لم يكن على استقرار وثبات، وإنّما كان لأجل أُمور وقتيّة، فلما يأتي الاختبار الإلهي إذاهم يحجمون عن العمل بالتكليف، والقرآن إنّما يريد من المؤمن أن يكون على ثبات واستقرار، يتبع أوامر الله تعالى بدقّة واتقان، وإنّما يكون كذلك إذا كان مستسلماً لله تعالى عاملاً بشريعته، فإنّ للعمل والطاعة الأثر الكبير في استقرار الإيمان في القلب والثبات عليه؛ ولذا كانت الأحكام الإلهيّة اختبارات واقعيّة لبيان درجات الإيمان عند المؤمنين، تبعاً لشدّة إخلاصهم وضعفه.

وهذا لا يختصّ بالإسلام، بل هو أمر طبيعي في كلّ دين وملّة، خالقيّة كانت أم خلقيّة، فإنّه لابدّ من الاختبار ليعرف مدى استقامة الشخص وثباته عليه.

وتعدّ هذه الآية الشريفة من الآيات المعدودة التي تشرح تلك النفوس الضعيفة التي آمنت بالإسلام، ولم يكن بعد قد استقرّ في القلوب؛ ولذا كانت على خوف من الله تعالى لعلمهم بأنّه سيؤاخذهم على كلّ صغيرة وكبيرة. وعلى خوف من الناس؛ لأنّ الجبن قد تمكّن في نفوسهم، فهي لا تقدر أن تقابلهم في ميدان القتال، وهم على خوف من القتل، فكانوا يطلبون التأخير ليضمنوا لأنفسهم الأمرين، أي عدم وقوعهم في مخالفة الله تعالى، و النجاه من القتل. والآية المباركة تبيّن إنّ المطلوب منهم غير ذلك، وهو الثبات والاستقامة لا الترويغ والمناورة، فالدين ليس اندفاعاً شخصيّاً أو جماعيّاً لأجل أمر قد يتوّهم أنّه الصالح لهم، وليس هو من مقاييس البشر النفعيّة، بل الدين تابع لمقاييس ربّانيّة حكيمة موضوعة لصالح الناس، ولا بد أن يكون الدين مأخوذاً من صاحب الشرع؛ لأنّه أعلم بمصالحهم، وقد نبّه عزّ وجلّ في هذه الآية الشريفة أنّ الأصلح لهم في ابتداء الأمر بترويض نفوسهم بالطاعة والعمل بالصلاة وأداء الزكاة، فإنّ

لهم الأثر الكبير في ذلك، ثمّ انتظار ما يقضي به الله تعالى من الأحكام، فإنّ الدين هو الطاعة لله ولرسوله.

الثاني: يستفاد من قوله تعالى: **﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾** إنّ العلّة في الإعراض عن الطاعة هي التوجّه إلى الدُّنيا والتطلّع على متاعها وحبّها، فإنّ ذلك هي العلّة التامّة للوقوع في المخالفة.

وربّما يكون التوصيف بالقليل؛ لأنّه مقابل الآخرة التي لها الدوام والتأبيد، ففي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «مثلي ومثل الدُّنيا كراكب قال قَيلولة تحت شجرة ثمّ راح وتركها».

والآية الكريمة بأُسلوبها البليغ، لها الإيحاء النفسيّ بأن الانهماك في طلب هذا المتاع، والانقطاع إلى الحياة الدُّنيا، وعدم الإحساس بالاستكفاء، بل لطلب المزيد أيضاً، لابدّ أن يكون له حدّ، وأنّه يتوقّف في زمن ما، وأنّ الذي استحوذ عليه قليل، وأنّ هناك ما هو أكبر وأشهى وألذ وأمتع وأدوم، فيحسّ بالنقصان والضياع والقلق الدائم من الحرمان منه، ولذا نرى أنّه لا يصفو للإنسان في الأرض متاع خالص من المنغّصات، وأنّ ذلك قد ارتكز في قرار النفس الإنسانيّ، فتكون لهذه الآية المباركة الأثر التربويّ والنفسيّ على الإنسان، ليحسّ بما وراء هذه الحياة الفانية الزائلة ويعمل له، وينحصر الطريق إليه بالتقوى التي تجلب للإنسان الطمأنينة من جميع الجهات، وهي التي ترفع نكد العيش في هذه الحياة، فتكون حياة آمنة مطمئنة لا ظلم فيها ولا بخس، وإنّ كلّ متاع حرم منه هذا الشخص في الدُّنيا لا يضيع عند الله عزّ وجلّ، فلا تكون هناك خسارة حتّي يتحسّر الإنسان عليها، هذه هي التوجيهات الإلهيّة في هذا الميدان الذي يتطلّب ثبات النفس واستقرارها وعلمها بعدم الحرمان والخسارة.

ولعمري، إنّه لو اجتمع جميع العلماء لإرساء قاعدة واحدة من تلك القواعد

في ميدان الجهاد والقتال، من دون الاعتماد على الوحي الإلهيّ، لعجزوا عن ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[1].

الثالث: يستفاد من قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ نظرية الإسلام في هذه الحياة، فإنّها لا تدعو إلى الانصراف عنها وتركها والرضا بكلّ عيش نكد وشديد، بل حتّى الرضا بالظلم والعذاب في الدُّنيا لأجل التنعّم في الآخرة، فإنّ ذلك ليس من الإسلام، بل هو يدعو إلى التمتّع بالدنيا في حدود الأُسس التي يضعها الإسلام، وهي أن لا تكون موجبة للصدّ عن الله تعالى وآياته، أو تكون محرّمة، وإلّا أُورد صاحبها الهلاك.

والقرآن لا يذمّ الدُّنيا إلّا في هذين الموردين، **الأوّل**: ما إذا كانت موجبة للصدّ عن ذكر الله تعالى.

والثاني: ما إذا كانت محرّمة على صاحبها، أو بالتعبير القرآني الذي ينهي عن الفتنة بمتاع الدُّنيا، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2]. وهذه الآية المباركة لم تذمّهم على تمتّعهم بما في الدُّنيا، بل لأنّها صارفة عن الطاعة والعمل بأحكام الله تعالى، وسيأتي تفصيل الكلام في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ على أنّ الموت واقع على الإنسان على كراهيّة منه، وأنّه يطارده حتّى يدركه في أي مكان كان، كمطاردة الأسد فريستَه حتّى يدركه. كما يستفاد من

---

١ . سورة الإسراء: الآية ٨٨.

٢ . سورة الأعراف: الآية ٣٢.

قوله تعالى: ﴿يُدْرِكُّمْ﴾ أنّ الموت يتربّص بالإنسان، يحوك حوله الدوائر حتّى يوقعه في شباكه فيدركه، وأنّه إذا لم يدركه فلا موت وإن طلب الإنسان لنفسه جميع أسبابه، فلا اختيار له في دفعه، فإذا انقضت الآجال فلابدّ من الموت ومفارقة الروح الجسد بأيّ سبب كان، كالقتل أو شرب سم أو مرض وكلّ ما جرى عادته عزّ وجلّ يزهقها به.

وهذه الآية الكريمة ردّ على كثير من مزاعم بعض الفلاسفة والمتكلّمين في الموت والآجال، منهم القدريّة في الآجال، المعتزلة في قولهم: إنّ المقتول لو لم يقتله القاتل لعاش، ويردّه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾.

ولا يخفىٰ أنّ في تعقيب هذه الآية الشريفة بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ من اللّطف، فإنّه يستفاد منه أنّ الحسنة والسيّئة اللتين تصيبان الإنسان لا دخل للاختيار فيهما أيضاً، فإنّ ذلك خاضع لإرادة البارئ عزّجلّ ومشيئته، وإن كانت لأعمال الإنسان المدخليّة في تحقيق موضوعهما، وسيأتي في الموضع المناسب تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى.

الخامس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ جواز اتّخاذ الحصون والقلاع والبلاد ونحو ذلك، ليتمتع بها ويحفظ فيها الأموال والنفوس، وهي من سنن الله تعالى في عباده، هذا لا ينافي التوكّل على الله تعالى كما عرفت في بحث التوكّل، فإنّ من حقيقته اتّخاذ الأسباب ثمّ ترك النتيجة إلى إرادة الباري عزّ وجلّ، وهذه الآية المباركة ردّ لمَن زعم أنّ التوكّل يكون بترك الأسباب.

السادس: يدلّ قوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ أنّ لبعض الاعتقادات والأقوال الأثر في سلب فهم الإنسان، وتكون سبباً في منع وصوله إلى الحقيقة والواقع، فلابد حينئذٍ من الرجوع إلى مَن يرشده إليها، وهم

الأنبياء والمرسلون. ويدلّ على ذلك ذيل الآية الكريمة، قوله تعالى: **﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾**، فإنّ الرسول يرفع الجهل بما يبلغه عن الباري عزّ وجلّ، ويزيل الغشاء عن الفهم.

السابع: يستفاد من قوله تعالى: **﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾** منضمّاً مع قوله تعالى: **﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾**، أنّ هنا حقيقتين لابدّ من الالتفات إليهما والاهتمام بهما، وإلّا اتّصفنا بسوء الفهم، وشملنا قوله تعالى: **﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾**، والحقيقتان هما:

الأولى: أنّ كلّ شيء من الله تعالى؛ لأنّه خالق الأشياء وربّ العالمين، يعلم خصوصيّات الأشياء وآثارها، وقد وضع نظاماً دقيقاً متقناً للوصول إليها، ولابدّ للإنسان أن يسعى لمعرفتها، وبدون ذلك لا فائدة في سعيه ويلحقه الضرر والأذى، وقد كانت الحسنة من الله تعالى، لأنّه عزّ وجلّ تفضّل علينا بجميع الوسائل والأسباب للوصول إلى ما نبتغيه من الحسنات.

الثانية: أنّ الإنسان لا يقع في السوء والضرّاء إلّا بفعل نفسه وتقصير منه؛ لأنّه أهمل طريق الوصول إلى الأشياء، وأعرض عن استخدام الأسباب، وجهل استعمال السنن، فالسوء إنّما يعرض للأشياء بفعل الإنسان نفسه وتصرّفه.

ويستفاد من الآية المباركة أنّ السيّئة لا تكون وصفاً ذاتياً للأشياء، وإنّما تأتي من ناحية الإنسان ويستند إليه، ولا ينافي هذا ما ذكرناه آنفاً من أنّ جميع الأشياء تنسب إليه عزّ وجلّ؛ لأنّ الله تعالى خلقها ووضع لها أسباباً وقواعد ونظاماً معيّناً للأسباب والمسبّبات، ولكن السيّئة تستند إلى الإنسان لأنّه أهمل ذلك النظام، فحصل السوء من فعله، وللتوضيح نذكر مثالاً نأخذه من القرآن الكريم، وهو ما أصاب المسلمين في غزوة أُحد من السوء والضرر نتيجة تقصيرهم في تنفيذ أوامر الرسول ﷺ، حيث ترك الرماة موقعهم عند الجبل، وإلّا كان الفوز

والظفر حليفهم، فتركوا هذا الأمر الإلهي الذي كان يرشدهم إلى الحسنة والفوز بالظفر والغلبة.

وبالجملة: أنّ كلّ ما يجده الإنسان من لذّة وفرح وسرور وحسنة، سواء كانت حسيّة أم عقليّة روحية، فهو من الفضل الذي ساقه الله تعالى إليه واختاره له عزّ وجلّ للتخلّق بالخلق الأفضل؛ ليكونوا سعداء بما وهب الله تعالى لهم من أنواع النِّعم، وأمّا ما يجده من السوء والضرر فمن نفس الإنسان، ولو أمعن النظر في ما أصابه من الحزن لكان فرحه به مثل فرحه بالسار. وهذا بحث دقيق سوف نتعرّض له إن شاء الله تعالى.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: **﴿مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾** أنّ من أسباب النعم والفوز بالحسنة الطاعة لله والرسول، وأنّ عصيانهما يجلب السيّئة والنقمة، وأنّ الأنسان لا يعرف مواطن الخير ولا يميّز الخير من الشرّ؛ لأنّه يقصر نظره، فقد يختار ما هو خير لنفسه وهو في الواقع شرّ لها، قال تعالى: **﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾**[1]، ولا يقدر الإنسان أن يميّز الخير من الشرّ إلّا بإطاعة الله وطاعة رسوله، ومن تولّى عن ذلك يقع في السوء والسيّئات، ولا يكون إلّا من سوء اختياره؛ لأنّه أعرض عن نظام الأسباب والمسبّبات الذي جعله الله عزّ وجلّ وسيلة لنيل الخير والحسنات. والرسول ﷺ ليس له سلطان على ردعه عن ذلك وإكراهه على الوصول في الطاعة، فإنّ ذلك ليس من سنّة الله تعالى في النظام التشريعيّ، فكانت هذه الآية المباركة بمنزلة الشرح للآية الكريمة السابقة، فسبحان مَن أحكم آياته.

التاسع: يستفاد من قوله تعالى: **﴿مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾** شأن نبيّنا

---

١ . سورة البقرة: الآية ٢١٦.

الأعظم ﷺ ومنزلته عند الله تبارك وتعالى، حيث لم يفصل بين طاعة الرسول ﷺ وطاعة نفسه جلّت عظمته، فجعل طاعته إطاعة لنفسه عزّ وجلّ، ولم يرد مثل هذا الشأن والمنزلة في سائر الأنبياء.

العاشر: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾** على نظرية الإسلام في الطاعة والإيمان، فإنّها تنفي الطاعة عن القهر والإكراه، ولا تؤمن إلّا بالإيمان الصادر عن الاختيار ورضاء النفس، ويستفاد من قوله تعالى: **﴿حَفِيظاً﴾**، أنّ إحساس الشخص بكونه مراقباً وحفيظاً عليه ـ يجبره على الإيمان والطاعة ـ يجعله ذليل النفس ويخمد وجدانه عن الإحساس بالمسؤوليّة والتكليف عنده، ففي الإسلام لا يكون الرسول ﷺ حفيظاً حتّى لا يشعر الفرد بذلك، وهذا ما أثبته علماء التربية في العصر الحديث، وقد سبقهم الإسلام بقرون كثيرة، فقالوا إنّ الطاعة الصادرة عن الحرية والاختيار ترفع طبع الإنسان، وأمّا الإذعان الناشئ عن القهر يحطّه ويستلزم اخماد الوجدان في نفسه، لا سيما إذا طال أمد القهر، فإنّه يشعر بأنّه لا يحتاج إلى الرجوع إلى وجدانه واستفتاء قلبه وميل فكره مادام هناك جبر وإلزام بالامتثال.

وعلى أية حال، فنظرية الإسلام في هذا المجال تدلّ على أنّه لا جبر على الإيمان والطاعة من الأنبياء والمرسلين، ولم يبعث الله الرسول حفيظاً ومراقباً على الناس ليراقب أفعالهم فيشعروا بالذلّ والهوان وفقدان الإحساس.

نعم، لابدّ من إعلامه بأنّ المخالفة تستتبع العقاب حتّى ينبع الوازع الديني من وجدان الشخص ونفسه، لا من الخارج.

***

بحث روائي:

في «الكافي» بإسناده عن الفضيل عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «يا فضيل، أما

ترضون أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتكفّوا ألسنتكم وتدخلوا الجنّة، ثمّ قرأ هذه الآية: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾** أنتم والله أهل هذه الآية».

أقول: الأسباب التي ذكرها عليه السلام لدخول الجنّة لابدّ من توفّر الشروط فيها من الايمان والولاية والصحّة وغيرها، كما ذكرت في روايات أُخرى مفصّلة، وإنّما خصّ عليه السلام الأسباب المذكورة لأهمّيتها.

وأمّا تفسير الأيدي بالألسن كما ورد في رواية الحلبيّ عن الصادق عليه السلام أيضاً في قول الله عزّ وجلّ: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾**، قال: «يعني كفّوا ألسنتكم»، لأنّ كفّ الألسن أو الحرب باللسان مقدّمة لكفّ الأيدي، كما مرّ في التفسير، فإن كفّت الألسن عن الحقّ أو الدين، أخذ كلّ منهما مكانه واشتدّ قوامه وكثر أعوانه.

وعن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «والله الذي صنعه الحسن بن عليّ عليه السلام كان خيراً لهذه الأُمّة ممّا طلعت عليه الشمس، والله لفيه نزلت هذه الآية: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾** إنّما هي طاعة الإمام عليه السلام، فطلبوا القتال، فلمّا كتب عليهم القتال مع الحسين عليه السلام قالوا: **﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾**، وقوله: **﴿لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ﴾** أرادوا تأخير ذلك إلى القائم».

أقول: الروايات في ذلك متضافرة متقاربة في المعنى، وأنّها من باب التطبيق وذكر المصداق، لما تقدّم من أنّ الآيات المباركة تنطبق على جميع العصور والأزمان، ولا تختصّ بعصر النبي صلى الله عليه وآله، وأنّ طاعة الإمام عليه السلام هي طاعة النبيّ صلى الله عليه وآله.

وعن علي بن إبراهيم: «أنّها ـ الآية المباركة ـ نزلت بمكّة قبل الهجرة،

فلمّا هاجر رسول الله ﷺ الى المدينة وكتب عليهم القتال فنسخ هذا، ففزع أصحابه من هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ﴾ بمكّة ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾، لأنّهم سألوا رسول الله ﷺ بمكّة أن يأذن لهم في محاربتهم، فأنزل الله: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، فلمّا كتب عليهم القتال بالمدينة: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، فقال الله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الفتيل القشر الذي في النواة، ثمّ قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ يعني: الظلمات الثلاث التي ذكرها الله، وهي المشيمة والرحم والبطن».

أقول: لا تختصّ الآيات المباركة بمورد النزول فقط، بل تعمّ غيره كما تقدّم، وتفسير البروج بالمشيمة والرحم والبطن تفسير بأحد المصاديق والأفراد، لأنّ الموت يصيب الإنسان حتّى لو حفظته الطبيعة في محلّ مأمون عن الكوارث والحوادث.

البيهقي في «سننه» عن ابن عبّاس: «أنّ عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبيّ ﷺ فقالوا: يا نبي الله، كنّا في عزّ ونحن مشركون، فلمّا آمنّا صرنا أذلّة، فقال: إنّي أُمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم، فلمّا حوّله الله إلى المدينة أمره الله بالقتال فكفّوا، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾».

أقول: المراد من العزّة ـ في حال الشرك وحالة البُعد عن الصفات الحسنة كما قاله ابن عوف ـ هي العزّة الوهميّة، لا العزّة الواقعيّة الدائميّة؛ لأنّ العزّة كذلك لاتكون إلّا بالإسلام، والذلّة في حال الإسلام، أي الذلّة في الشعور والخيال، ولعلّ عفو رسول الله ﷺ كان لمقالة ابن عوف.

وكيف كان، فالرواية من باب التطبيق لا التخصيص.

وفي «الدرّ المنثور» عن قتادة، قال: «كان أُناس من أصحاب النبيّ ﷺ وهم يومئذٍ بمكّة قبل الهجرة يسارعون إلى القتال، فقالوا للنبيّ ﷺ: ذرنا نتّخذ معاول فنقاتل بها المشركين ـ وذكر لنا عبد الرحمن بن عوف ـ كان فيمَن قال ذلك ـ فنهاهم نبيّ الله ﷺ عن ذلك قال: لم أُومر بذلك، فلمّا كانت الهجرة وأُمروا بالقتال، كره القوم ذلك وصنعوا فيه ما تسمعون، قال الله تعالى: **﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾**».

أقول: يستفاد منها أنّ إصرارهم على القتال في مكّة كان لأجل الغنيمة الدنيويّة، ولم يكن لوجه الله عزّ وجلّ.

وفيه أيضاً: عن هشام، قال: «قرأ الحسن: **﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾** قال: رحم الله عبداً صحبها على ذلك، ما الدُّنيا كلّها من أوّلها إلى آخرها إلّا كرجلٍ نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحبّ، ثمّ انتبه فلم يرَ شيئاً».

أقول: هو مأخوذ من قول نبيّنا الأعظم ﷺ: «الناس نيام إذا ما توا انتبهوا».

وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران، قال: «الدُّنيا قليل، وقد مضى أكثر القليل وبقي قليل من قليل».

أقول: المراد من القليل في مقابل الآخرة.

العيّاشي عن صفوان بن يحيى، عن أبي الحسن عليه السلام، قال: «قال الله تبارك وتعالى: يابن آدم، بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء وتقول، وبقوّتي أدّيت إليّ فريضتي، وبنعمتي قويت على معصيتي، ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيّئة فمن نفسك، وذاك أنّي أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيّئاتك منّي، وذاك أنّي لا أُسئل عمّا أفعل وهم يُسألون».

أقول: ما ورد في الرواية من القدسيات وتقدّم في المباحث السابقة مكرّراً

أنّ كلّ شيء من الله تبارك وتعالى لأنّه الربّ والخالق والعالم والمدبّر. وقد جعل للإنسان الاختيار ليميّز الخبيث من الطيّب بعقله، فإذا سلك الإنسان الطريق الفاسد كان باختياره وهو المسؤول، وإذا سلك الطريق الصحيح فمنه تعالى؛ لأنّه تفضّل علينا بخلقه وإرائته، بل أنّه تعالى أنعم علينا بالاختيار لما نختار، فهو تعالى لايُسأل عمّا يفعل، لأنّ أفعاله لا تصدر إلّا عن مصلحة وحكمة، ولكن العباد يُسألون لما اختاروا.

وفي «الدرّ المنثور» أخرج ابن أبي حاتم من طريق عليّ عليه السلام عن ابن عبّاس في قوله تعالى: **﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾** يقول: «الحسنة من عند الله، أمّا الحسنة فأنعم الله بها عليك، وأمّا السيّئة فابتلاك الله بها». وفي قوله تعالى: **﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللهِ﴾** قال: «ما فتح الله عليه يوم بدر، وما أصاب من الغنيمة والفتح». **﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾** قال: «ما أصابه يوم أُحد أن شجّ في وجهه وكسرت رباعيّته».

أقول: المراد من الابتلاء الامتحان، والرواية موافقة للروايات الصادرة عن الأئمّة الهُداة عليهم السلام كما تقدّم.

وعن قتادة في قوله تعالى: **﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾** قال: عقوبتك بذنبك يا آدم، قال: وذكر لنا أنّ نبيّ الله صلى الله عليه وآله كان يقول: «لا يصيب رجلاً خدش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عِرقٍ إلّا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر».

أقول: المراد من قول نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله إنّ ما يعرض على الإنسان من المكاره في هذه الدُّنيا إنّما هو جزاء ما اختاره من الأعمال السيّئة، فيكون نحو كفّارة، وتقدّم تفصيل ذلك.

عن الحسن بن علي الوشا، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في قوله تعالى: **﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾** قال تعالى: «وأنت أولى

بسيّئاتك منّي عملت المعاصي بقوّتي التي جعلت فيك».

وهناك روايات كثيرة جدّاً تدلّ على أنّ البلاء يختصّ المؤمن حسب مراتب إيمانه حتّى ورد في بعضها: «أن الله إذا أحبّ عبداً غتّه (غمسه) بالبلاء غتّاً»، وفي بعضها الآخر يتعاهده بالبلاء كما يتعهد الرجل أهله بالهدية من الغيبة، فكلّ ذلك إمّا تكون هذه البلايا حسنات له مثل زيادة الأجر، كما عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «لو كان المؤمن على جبل لقيّض الله عزّ وجلّ له مَن يؤذيه ليأجره على ذلك».

أو كفّارة لما صدر عنه من المعاصي، فتكون البلية من نفسه.

أو لأجل الاختبار والامتحان، حتّى يعرف مدى حبّه لله ورسوله صلى الله عليه وآله وأوليائه، ورسوخ قدمه في الإيمان.

أو لأجل التذكية وتخفيف الشدائد في عالم البرزخ أو الآخرة.

أو لأجل رفع الدرجة؛ ولذا قد يكون البلاء مستمرّاً. ولابدّ في البلاء ما يكون مجانساً للمؤمن وحسب شأنه، وإلّا أوجب انخرام قاعدة التناسب التي تقدّم الكلام فيها.

وفي «الكافي» بإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضى الرحمن، طاعة الإمام ومعرفته، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: **﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾**، أما لو أنّ رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدّق بجميع ماله وحجّ جميع دهره، ولم يعرف وليّ الله فيواليه ويكون جميع أعماله بدلالته، ما كان له على الله حقّ في ثوابه ولا كان من أهل الإيمان، ثمّ قال: المحسن منهم يدخله الجنّة بفضل منه».

أقول: المراد من معرفة وليّ الله هو معرفة الرسول، والعمل بأوامره مع

العقيدة الكاملة، وأن معرفة أوليائه يستلزم معرفة النبيّ ﷺ، وكذا العكس، ولو لم يعرف وليّ الله فيواليه، لا يكون أعماله وفق النظام الصحيح الكامل، والمنهج الربّاني المنزّل على رسوله الكريم ﷺ، فلا يستحق الثواب كما في الصحيح عن أبي جعفر عليه السلام: «كلّ مَن دان الله عزّ وجلّ بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله، فسعيه غير مقبول وهو ضالّ متحيّر».

وذيل الرواية متعلّق بصدرها، أي الّذين عرفوا الإمام عليه السلام، المحسن منهم يدخل الجنّة، وفي «تفسير الصافي»: «أنّه ﷺ قال: مَن أحبّني فقد أحبّ الله، ومن أطاعني فقد أطاع الله، فقال المنافقون: لقد قارف الشرك وهو ينهى عنه، ما يريد إلّا أن نتّخذه ربّاً كما اتّخذت النصارى عيسىٰ، فنزلت الآية».

أقول: إنّ إطاعة الرسول من إطاعة الله تعالى؛ للتلازم العقليّ بينهما، فإنّه ﷺ في الحقيقة والواقع مبلّغ له، فالآمر و الناهي هو الله جلّ شأنه، فإطاعة أوامره وعصيانها هو إطاعة الله وعصيانه، ولا يمكن التفكيك بينهما، ولا يرضى سبحانه وتعالى العمل إلّا عن طريق رسوله ﷺ وبما بيّنه، وإنّ شأن الأنبياء كلّهم ذلك.

وفي «الدرّ المنثور» أخرج ابن المنذر والخطيب عن ابن عمر، قال: «كنّا عند رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال: يا هؤلاء، ألستم تعلمون أنّي رسول الله إليكم؟ قالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أنّ الله أنزل في كتابه أنّه مَن أطاعني فقد أطاع الله؟ قالوا: بلى نشهد أنّه من أطاعك فقد أطاع الله، وأنّ من طاعته طاعتك، قال: فإنّ من طاعة الله أن تطيعوني، وأنّ من طاعتي أن تطيعوا أئمّتكم وإن صلّوا قعوداً فصلّوا قعوداً أجمعين».

أقول: الرواية في مقام وجوب اتّباع الأئمّة الهُداة المنصوص عليهم في لسان النبيّ ﷺ، وعدم جواز التخطّي عن نهجهم، والروايات من الفريقين في ذلك

كثيرة جدّاً، فعن أبي إسحاق النحوي، قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أنّ الله أدّب نبيّه على محبّته، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. قال: ثمّ فوّض الأمر إليه فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، وقال: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾. وإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله فوّض إلى عليّ عليه السلام والأئمّة، فسلّمتم وجحد الناس، فو الله لنحبّكم أن تقولوا إذا قلنا وأن تصمتوا إذا صمتنا، ونحن فيما بينكم وبين الله. والله ما جعل لأحدٍ من خير في خلاف أمره».

أقول: المراد من التفويض الوارد فيها هو ما كان في إبلاغ المشروع لا في أصل الشرع والجعل؛ لأنّه الرسول فيتبع ما يوحى إليه، وذكرنا ذلك مفصّلاً في محلّه، وكما أنّ المراد من التفويض إلى الأئمّة عليهم السلام التفويض في بيان الأحكام وإقامة الحقّ وتمييزه عن الباطل؛ لأنّهم الأدلاء إلى الله تعالى.

وكيف كان، فالرواية تدلّ على أنّ اتّباعهم تقرّب إلى الله جلّ شأنه، وأنّه اتّباع للرسول الكريم.

وفي «الدرّ المنثور» عن ابن زيد: «أنّه سُئل عن قوله تعالى: ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾، قال: هذا أوّل ما بعثه، قال: أنّ عليك إلّا البلاغ، ثمّ جاء بعد هذا يأمره بجهادهم والغلظة عليهم حتّى يسلّموا».

أقول: للغلظة مراتب متفاوتة، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾.

وفيه أيضاً: عن ربيع بن خُثَيم، قال: حرف وأيما حرف ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾، فوّض إليه فلا يأمر إلّا بخير.

أقول: هذا يؤيّد ما قدّمناه.

***

بحث فلسفي:

كانت مسألة الموت والحياة على بساط الجدل بين الفلاسفة من زمان بعيد،

فذهب كلّ جيل إلى مذهب، بل كلّ فيلسوف إلى رأي، حتّى أن ظهرت الأديان السماويّة وحلتَها بما جاء عن خالق الموت والحياة، وبيّنت حقيقة الموت بأنّه ليس فناء وأمراً عدمياً فحسب، وإنّما هو انتقال الروح من عالم الشهادة، إلى عالم البرزخ والآخرة في الإنسان، وفي غيره كما تقدّم في البحث الفلسفي في آية ١٨٥ ـ ١٨٩ من سورة آل عمران. واتّفقت في ذلك، وقد اتّجهت الأجيال والفلاسفة إلى ما قرّرته الأديان السماويّة، وليس هنا موضع لتفصيل آراء الفلاسفة السابقين، بعدما اتّفقت الأديان كلّها وأجمعت على أنّه انتقال الروح من هذا العالم إلى عالم آخر، بعد أن تتجرّد من هذا الثقل الجسمي.

حقيقة الموت ومظهره:

الموت هو مفارقة الحياة ونهاية كلّ حي ـ ما سواه تعالى ـ في هذا الوجود، حتّى أنّ المجرّدات التي لها الحياة كالملائكة مصيرهم إلى الموت في وقت معيّن.

وأنّ المتّفق عليه في حقيقته هو انتقال الروح من الهيكل البدني ـ عندما يصبح غير مؤهّل لبقاء الروح فيه ـ إلى عالم وراء هذا العالم، وينقطع عن هذا العالم بالمرّة وإن بقى له نوع علاقة بهذا العالم، حسب الروايات الواردة، كما يأتي في البحث الروائي في الآيات الآتية.

ومظهره: خمود الشعور ودخول الجسد الحيوانيّ إلى حالة التحلّل والاستحالة إلى الأُصول التي تكوَّن منها، وإن كان في نظرية الإسلام بل الأديان الإلهيّة كلّها، أنّ هذه الاستحالة والتحلّل لم يكن دائماً، وإنّما يكون دوراً خاصّاً ومحدّداً بزمن معيّن، ثمّ يرجع الهيكل الذي كان يعيش به في عالم الشهادة ويتشخّص في يوم الجزاء به، ويُسأل منه ما صدر عنه من الأفعال، على ما أثبته الفلاسفة في البحث عن المعاد الجسمانيّ في آية ٨ ـ ٩ من سورة آل عمران.

الحذر من الموت:

يدرك كلّ حيّ ـ مهما كان شعوره ودرجته الحيوانيّة ـ بثقل الموت وشناعته وجزعه منه، قال تعالى: **﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾**[١]، فتراه يهرب منه بتمام جهده، ويدافعه بكلّ ما عنده من الوسائل. إلّا أولياء الله تعالى ومَن كان مرتبطاً بصلة خاصّة مع مبدئ الحياة وخالقه، حتّى أنّه يحنّ أيضاً، ولكن من ألم فراق التقرّب إليه جلّ شأنه بالموت، وإن كان هو آنس بالموت من الطفل بثدي أُمّه. والآية الشريفة: **﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾**. تبيّن السبب من الحذر والخوف من الموت، وهو حبّ البقاء الموجود في نفس كلّ كائن حيّ، ويكشف هذا الحبّ عن خلود الروح، كما أثبته كثير من الفلاسفة، إذ لو لم يكن الخلود مقدّراً للروح لما شعر الإنسان ـ أو الكائن الحي ـ به، ومالت النفس إليه، فإنّ الشعور مهما كان جزافاً ـ والجزاف مستحيل في صنع الله تبارك وتعالى، بل مستحيل في النواميس الكونيّة التي تقود هذا الوجود وتربط بعضها مع بعض ـ لا يستطيع أن يصنع هذا الميل الشديد وذعرها العظيم من الفناء.

فلا معنى للقول بأنّ الخلود هوىً من أهواء النفس، كما ذهب إلى ذلك بعض الفلاسفة المادّيين، لما عرفت من أنّ حبّ الخلود لا يكون عبثاً، بل مستنداً إلى خلق، وأنّ هوى النفس لا تستطيع أن تكون منشأً لذلك الذعر العظيم والحبّ الواقعي.

وهذا الحبّ والذعر من الموت لا يتغيّر ولا يختلف في أدوار العمر الذي يمرّ على الإنسان ـ الذي هو أوسع فكراً وإحساساً من بقية الكائنات الحيّة ـ فإنّه مهما بلغ من الشيخوخة يخاف الموت ويحبّ البقاء، وإن كانت الدواعي مختلفة.

نعم، قد يكون في الموت جانب من الراحة، فيتمنّى الإنسان الموت كما

---

١. سورة الجمعة: الآية ٨.

يتمنّى التعبان الراحة، ولكن ذلك لأجل عامل خارجي، كفقد الإحساس، وسيطرة المرض أو غير ذلك، قال الشاعر:

وإذا الشيخ قال أُفٍ فما ملّ حياة وإنّما الضعف ملّا
آلة العيش صحّة وشباب فإذا وليا عن المرء ولىٰ

ولكن أولياء الله تعالى الّذين تقرّبوا إلى الملأ الأعلى وذاقوا طعم الحياة الأبديّة والعيش السرمديّ، ووصلوا إلى الروح والراحة، يستوحشون من هذا العالم، ولا يهابون الموت، فإنّهم علموا أنّ ما ﴿عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾[1]، وإن كانوا يحزنون من الاستكمال المعنويّ في هذه الدُّنيا.

وقد كتب ابن مسكويه رسالة في علاج الخوف من الموت لغير أولياء الله تعالى، ومن شاء فليرجع إليها، وتقدّم في البحث العرفاني في آية ١٧٥ من سورة آل عمران ما يرتبط بالمقام.

أنواع الموت:

الموت يقع حسب أنواع الحياة:

فمنها: إرادي وهو إماتة الشهوات وترك التعرّض لها، كما أنّ الحياة الإراديّة ما يسعى لها الإنسان في الحياة الدُّنيا من المآكل والمشارب وغيرهما للعيش.

ومنها: الموت الطبيعي، وهو ما تقدّم من استرجاع الروح الكائن في الحي، كما أنّ الحياة الطبيعيّة هي بقاء النفس السرمديّة باستكمالها من العلوم والتبرّؤ من الجهل؛ ولذا أوصى إفلاطون طلّاب الحكمة: «مت بالإرادة تحيىٰ بالطبيعة».

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٩٨.

ومـنها: زوال القوّة العاقلة، كقوله تعالى: ﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْـيَيْنَاهُ**﴾[1] أي رفعنا عنه الجهالة بحياة العلم.

ومنها: الحزن والخوف المنغّص من الحياة والمكـدرات للـعيش، كـقوله تعالى: ﴿**وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ**﴾[2].

وقد يستعار الموت للأحوال الشاقّة والمتعبة، كالفقر والسؤال والذلّ والهرم وغير ذلك.

ولعروض الموت، وانتقال الروح المأنوسة بالجسد إلى عالم الآخرة، تمرّ حالات شاقّة على الإنسان إلّا أنـّها تخفّ وتسهل حسب اطمئنان النـفس بـالله تعالى والإيمان به، قال الصادق عليه السلام: «الموت للمؤمن كأطيب ريح يشمّه فيغص لطيبه فينقطع التعب والألم كلّه عنه، وللكافر كلسع الأفاعي ولدغ العقارب وأشدّ»، وتستمرّ الحالات في عالم البرزخ على ما فصّل في محلّه، بل لعروض المـوت على الحيوان فيه نوع مشقّة له، لأنّ الروح كان مأنوسا بالجسد، وللبحث تتمّة تأتي في محلّها المناسب إن شاء الله تعالى.

***

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

٢. سورة إبراهيم: الآية ١٧.

الآية ٨١ ـ ٨٤

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴿٨٢﴾ وَ إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٨٣﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴿٨٤﴾﴾.

الآيات المباركة تحدّث عن تلك الطائفة التي تكون داخلة في صفوف المؤمنين، والتي تكلّم عنها عزّجلّ في ما سبق من الآيات الكريمة. وهي فرقة منافقة تظهر الطاعة والولاء بمحضر الرسول ﷺ، ولكنّها تنوي المخالفة وتتآمر ضدّ الإسلام ورسوله.

والآيات الشريفة تطمئن الرسول ﷺ بعدم إصابته آذاهم، وتأمره بالإعراض عنهم والتوكّل عليه، وسوف يحاسبهم على كلّ ما يصدر عنهم، وقد ألزمهم عزّ وجلّ الحجّة بالرجوع إلى القرآن وتعاليمه وآدابه وإحكامه، فإنّه لا اختلاف فيها من جهة من الجهات. وتأمر بالتفكّر في ما أنزله الله تعالى على

رسوله ليملأ مشاعرهم وتتهذّب نفوسهم، فيتركوا النفاق ويخلص إيمانهم، ثمّ يأمرهم بالرجوع إلى الله تعالى والى الرسول في مالم يعلموه من القرآن، وسوف يرشدهم الّذين يستنبطون الدقائق والرموز من القرآن الكريم بما منحهم الله تعالى من الفهم الثاقب وصفاء النفس، وهذا هو الفضل الكبير الذي تفضّل الله تعالى علينا، وهو ذو الفضل العظيم.

***

التفسير

قوله تعالى: **﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾**.

بيان لصفة أُخرى من صفاتهم الذميمة، وهي النفاق والتظاهر أمام الرسول ﷺ بالطاعة وتبطين المخالفة، فهم يدرجون أنفسهم في المسلمين، ويقولون للرسول ﷺ: إنّ شأننا الطاعة لأوامرك.

وإنّما جعل المصدر مكان اسم المفعول، أي أمرك مطاع للمبالغة، فهم يدّعون في حضرة الرسول الكريم كمال الطاعة ومنتهى الإنقياد، والتعبير بـ«طاعة» لشدّة تظاهرهم بكمال الانقياد.

و«طاعة» على الرفع ـ وهي القراءة المعروفة ـ خبرٌ لمبتدأ محذوف، وقرأ بعضهم على النصب، أي نطيع طاعةً.

قوله تعالى: **﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾**.

مادة (ب ر ز) تدلّ على الظهور، ومنها البراز بفتح الباء، وهو الفضاء من الأرض، والمراد به في المقام الخروج من مجلس الرسول ﷺ منصرفين.

ومادة (بيّت) تدلّ على التدبير والتقدير والإبرام في الليل، يُقال: أمر بُيّت بليل، إذا أحكمه ودبّره في اللّيل، قال تعالى: **﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ

﴿وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾[1]، وإنّما خصّ الليل بذلك؛ لأنّه وقت يصفو فيه الذهن ويتفرّغ فيه، ومنه التبييت والبيات، وهو إتيان العدو ليلاً، كما أنّ منه تبييت الصائم، أي القصد إلى الصوم ليلاً.

والمراد به في المقام هو عقدهم على مخالفة الرسول ﷺ وفي الخفية، كالّذي يدبّر في اللّيل والظلام، وبينما هم في تبييتهم وظلامهم إذ القرآن يفاجئهم ويكشف عن نواياهم السيّئة.

والمعنى: أنّهم إذا خرجوا من عندك، عقدوا العزم على مخالفة ما قلته لهم من الأحكام والأوامر، ويستلزم ذلك أنّهم خالفوا أنفسهم أيضاً في ما أظهروه من الطاعة. ويحتمل إرجاع الضمير في «تقول» إلى الطائفة.

وإنّما اقتصر على ذكر مخالفة ما قاله الرسول ﷺ للأهميّة، ولبيان قبح ظلمهم، وإنّما عدل عزّ وجلّ عن الماضي في قوله تعالى: **﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾**؛ لبيان أنّ قصدهم الاستمرار على ذلك.

كما أنّ إسناد ذلك إلى طائفة منهم دون الجميع؛ لأجل أنّ هؤلاء هم الرؤساء الّذين كانوا يتصدّون ذلك والباقون أتباع لهم.

قوله تعالى: **﴿وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾**.

توعيد لهم على قبح أفعالهم، التي هي ثابتة في علم الله تعالى، وأنّه يعلم مكرهم ويكتب في صحائفهم ما يضمرون من النوايا الفاسدة، وسيحاسبهم عليها في الدُّنيا أو الآخرة، أو فيهما معاً. والكلام كناية عن التوعيد والمجازاة.

قوله تعالى: **﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾**.

إرشاد إلى الرسول الكريم ﷺ بالإعراض عنهم وعدم الاكتراث بهم،

---

١. سورة النساء: الآية ١٠٨.

والتوكّل عليه عزّ وجلّ وتفويض الأمر إليه.

وإنّما أظهر اسم الجلالة للإشارة إلى علّة الحكم، فإنّه المستجمع لجميع صفات الكمال، وهو القادر على كفاية أمر رسوله الكريم منهم، وإنّه جلّ شأنه يكفيك شرّهم ويبعد عنك كيدهم.

قوله تعالى: **﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾**.

لأنّه عالم بجميع الحقائق محيط بعباده، وقادر على كلّ شيء، فهو يحمي رسوله من كلّ سوء وضرر، ويكف أذى الأعداء عنه. والآية المباركة تطمئن الرسول ﷺ بأنّه لم يصيبه أذاهم.

قوله تعالى: **﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾**.

تحريض لهم بالتدبّر في القرآن الكريم والتأمّل في معانيه، لاستيعاب ما ورد فيه من الإرشادات والتوجيهات والأحكام المستندة على المصالح والمفاسد والدستورات المتكفّلة لسعادة الدارين، وأنّ العمل بها يوجب الفلاح، ويثبت الإيمان في قلوبهم، فتتخلص من شوائب الكفر والنفاق.

وإنّما أُمروا بالتدبّر في القرآن لفساد زعمهم؛ لأنّهم كانوا يظنون أنّ الرسول ﷺ كان يُشرّع لهم من نفسه، وأنّ القرآن، الذي هو مفتاح اليقين والإخلاص، والفائق في جميع تعبيراته وتنسيقاته على مستوى واحد غير متفاوت، وفي غاية الكمال، لا يمكن أن يكون من صنع البشر أو عمل مخلوق مهما بلغا من الشأن في عالم التفكّر والتنسيق اللفظي أو الأدبي أو المعنوي: **﴿قُل لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾**[1]؛ لأنّ الطبيعة مهما بلغت من الكمال، فهي مختلفة في

١. سورة الإسراء: الآية ٨٨.

المستويات ومتفاوتة، فتكون نتاجها كذلك، كما أثبته علماء الفلسفة، فيستحيل أن يكون القرآن من عند غير الله تعالى، إلّا أنّه يحتاج إلى تدبّر وتفهّم، فأنّهم لو تدبّروا القرآن وتأمّلوا معانيه، لعلموا أنّه منه جلّت عظمته، وأنّه يهدي إلى الحقّ ولا يمكن أن يكون من عند غير الله تعالى ـ لما عرفت ـ ولكنّهم لم يتدبّروه، فعابهم عزّ وجلّ عليه، والسبب في ذلك ما ذكره سبحانه وتعالى في آية أُخرى، قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[1]، فهم قد أقفلوا قلوبهم عن فهم معاني القرآن ونصائحه وإرشاداته، لتبطينهم النفاق والكفر، ولإصرارهم على ارتكاب الآثام.

قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً**﴾.

خصيصة من خصائص القرآن الكريم، ومزيّة له أمتاز بها على سائر الكتب، فإنّ بشراً على وجه هذه البسيطة لا يمكنه أن يخرج كتاباً يسلم فيه من الاختلاف كهذا الكتاب العزيز، فهو معجز بجميع جهاته بأُسلوبه وكلماته، وبفصاحته وبلاغته؛ وبأحكامه وآدابه، وبقصصه وإرشاداته وبأُصوله وفروعه، وبحقائقه وواقعيّاته، وغير ذلك ممّا لا يبلغ حدّ الإحصاء، ويكفي في صدق ذلك أنّ الآية الكريمة تقرّر أنّه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

والمراد من الاختلاف، الأعمّ من التناقض في المعنى، ونفي بعضه بعضاً، والتفاوت في النظم والأُسلوب، بخروج بعضه عن الفصاحة والبلاغة ونحو ذلك، وليس المراد بالاختلاف خصوص التناقض كما يبدو لأوّل وهلة، فإنّ القرآن هدفه واضح، وهو إثبات الأُلوهية وعبادة الله الواحد الأحد، المتّصف بجميع صفات الكمال، فهو لم يخرج عن وجهته هذه، ولكن الاختلاف أعمّ من ذلك، فهو

---

١. سورة محمّد: الآية ٢٤.

يشمل جميع المستويات من غير استثناء، فإنّه يحوي من الإتقان والإحكام في تعاليمه ونصائحه وإرشاداته ما لم يحوه كتاب آخر، ولو تدبّرت في أيّة ناحية من نواحي الحياة التي تمتّ بصلة للإنسان، من التربويّة والنفسيّة ـ بجميع ميادينهما ـ والاجتماعيّة والطبيعيّة وما وراءها، لوجدته يحوي تلك باتّفاق، ولا اختلاف لجانب على جانب آخر، فهو معجزة من حيث كونه كتاباً واحداً يحتاج إليه الإنسان في عصر نزوله، كما يحتاج إليه الإنسان في العصر الحاضر الذي يرى نفسه أعقل وأكمل من أمس، فهو امتداد واحد في الوجود، وهذا ما لا يتّصف به كتاب آخر، فإنّ كلّ كتاب يخرج إنّما يفيد في برهة معيّنة من الزمن، ثمّ يأتي كتاب أفضل آخر، فتقلّ أهمّية الكتاب الأوّل، وهذا هو الناموس في السير التكاملي الذي يسير عليه الإنسان.

ثمّ إنّ المنفي من القرآن الاختلاف بجميع وجوهه، وإنّما وصفه بالكثرة، لأنّ الكلام مشتمل على جوانب متعدّدة، فلابدّ أن يكون الاختلاف كثيراً، كما في كلّ كلام آدمي إذا كان مشتملاً على وجوه متعدّدة، فليس المراد نفي الاختلاف الكثير دون الاختلاف القليل اليسير، وهذا واضح بأدنى تأمّل.

والمستفاد من الآية الشريفة أمور:

الأوّل: أنّ القرآن ممّا يناله الفهم العادي، فلو لم يكن كذلك لما أمر سبحانه وتعالى الناس بالتدبّر والتأمّل فيه لمعرفة الحقّ، وأن التأمّل فيه يهدي صاحبه إلى كون القرآن من عند الله تعالى، العليم بمصالح عباده الذي يهديهم بما يصلح أمرهم.

الثاني: أنّ ما اشتمل عليه القرآن الكريم ممّا تنادي به الفطرة وملائمة للمصلحة؛ ولذا أوجب الكمال والهداية.

الثالث: أنّ القرآن الكريم كامل مكمّل من جميع الجهات، لا يقبل

الاختلاف ولا التغيير ولا التحوّل والنسخ ولا الابطال ولا التهذيب ولا التكميل، فلا حاكم عليه أبداً؛ لأنّ ذلك كلّه من شؤون الاختلاف، فإذا كان منفياً عنه بالكلّية، فلا يقبل القرآن أيّاً منها، ويستلزم ذلك أنّ ما فيه من الشريعة والأحكام باقية ومستمرّة إلى يوم القيامة، وهذا ما تؤكّده جملة من الآيات المباركة، والسنّة الشريفة.

الرابع: أنّ القرآن لما كان كاملاً، لابدّ أن يكون نازلاً من عند الكامل المستجمع لجميع صفات الكمال، الذي لا يتصوّر النقص فيه أبداً؛ لأنّ ما نزل من عنده كامل، كما أنّه لابدّ أن يكون من نزل عليه كاملاً؛ لأنّه يتحمّل أعباء التفسير والتوضيح والابلاغ إلى الناس، وإلّا استلزم الخلف، وتدلّ عليه آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[1].

الخامس: أنّ المنفي عن القرآن الكريم جميع وجوه الاختلاف، كالاختلاف في الوصف واللفظ أو المعنى، بتناقض الأخبار أو الوقوع على خلاف المخبر به وعدم المطابقة للواقع، أو اشتماله على ما لا يلائم ولا يلتئم مع الفطرة والعقل السليم، كما أنّه لا يقبل المعارضة، كما تحدّى به الرسول الكريم بالإتيان بمثله أو بعشر سور من مثله.

السادس: أنّ القرآن الكريم كتاب هداية وتربية وتوجيه، وقد أنزله الله تعالى لتربية هذه الأُمّة وإنشائها وإعدادها إعداداً كاملاً؛ لتكون أُمّة صالحة، فلابدّ أن يكون جامعاً وحاوياً لجميع ميادين التربية في حياة الإنسان، فهو كتاب توحيد خالص من شوائب الشرك والإلحاد، وكتاب حكمة ومعارف حقّة، وكتاب تربية الروح والعقل، وتزكية النفس وتربية الجسد، وكتاب تربية الفرد والاجتماع،

---

١. سورة القلم: الآية ٤.

وسوق كلّ منهما إلى منتهى الكمال، وكتاب أخلاق يحتوي على جميع الفضائل العامّة الإنسانيّة.

كما أنّه كتاب يوازن بين مطالب الجسد ومطالب الروح، وبين الدُّنيا والآخرة، بلا اختلاف يتداخل فيه جميع الشؤون المرتبطة بالإنسانيّة على نحو الإعجاز في كلّ جانب، فهو كتاب كما وصفه عليّ عليه السلام: «ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، لا تُكشف الظلمات إلّا به»؛ فهدفه إعداد الإنسان الصالح، وترقّيه من حضيض الرذيلة إلى أوج الشرف والكمال.

السابع: أنّ مثل هذا الكتاب لا يمكن أن يصدر من عند غير الله تعالى، سواء كان إنساناً أو ملكاً أو مخلوقاً آخر، لأنّ غيره قرين النقص والاختلاف، فلا يمكن أن يصدر منه ما ليس فيه الاختلاف، وأنّ الكمال مهما بلغ من الشأن في المخلوق محدود، القرآن بعجائبه وغرائبه غير محدود، فهو المعجزة الخالدة، يخضع له العلماء وجهابذة الفكر، والمرتبطون باللاهوت السرمدي الأبدي، والمتّصلون بالمبدأ الحيّ القيوم في جميع العصور غاية الخضوع، ويستنيرون عقولهم منه، ويعجبون به أشدّ الإعجاب.

قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ**﴾.

سجيّة أُخرى لتلك الطائفة التي اتّصفت بالنفاق، ويمكن أن تكون الآية المباركة في مقام بيان طائفة أُخرى من طوائف المجتمع الإسلامي، التي تكون ضعيفة في التنظيم، تقبل كلّ أمر يرد عليها، سهلة الانقياد للإشاعة، تبثّ كلّ ما تسمعه دون تحفّظ وتدبّر، فلا انتظام لها في شؤونها، فكانت تذيع كلّ ما يرتبط بالأمن أو الخوف ونحوهما، ممّا يرتبط بشؤون الأُمّة والمجتمع المسلم.

وإنّما اقتصر على الأمن أو الخوف، لأهميّتهما فيشيعون بالأخبار الكاذبة ما يوجب تزلزل الأمن في موضع الاستعداد والأُهبة، فتزول عنهم هذه الحالة، أو

يشيعون ما يوجب الخوف، فيستعدون لمنازلة العدو وهم في غنى عنه، فكم من إشاعة تلحق الضرر بالأُمة.

والآية الكريمة في مقام التعيير والذمّ لهذه الطائفة في فعلتهم هذه، وإن كانت حسنة النيّة فيما تفعل، ولم تقصد إلى هذه النتيجة السيّئة التي تترتّب على الإشاعة، وهي الاضطراب والخلخلة في الصفوف.

ويستفاد من الآية الكريمة أنّ ما أُشيع به لا حقيقة له، بل هو من الأراجيف التي كان يبثّها أعداء الإسلام في صفوف الأُمة المتراصّة لإيجاد الوهن في عزائمها، ولعلّ هذه الحالة كانت موجودة في أكثر من واقعة، فتنطبق على واقعة بدر الصغرى التي تقدّم الكلام فيها في سورة آل عمران، كما ذكرها المفسّرون.

قوله تعالى: **﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾**.

الضمير في (ردّوه) راجع إلى الأمر الشائع من الأمن أو الخوف، وردّ الشيء إرجاعه وإعادته، ويتضمّن معنى التفويض أيضاً.

وأمّا أُولو الأمر، فقد اختلفوا فيهم كاختلافهم في المراد بهم في قوله تعالى: **﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾**[1].

فقيل: هم أهل الرأي والمعرفة بالأُمور العامّة، والقدرة على الفصل فيها.

وقيل: هم أهل الحلّ والعقد، الّذين تثق بها الأُمّة في سياستها وإدارة أُمورها.

وقيل: هم أُمراء السرايا والولاة.

وقيل: هم العلماء وحملة الفقه والحكمة.

---

١. سورة النساء: الآية ٥٩.

وقيل: هم كبار الصحابة.

وقيل: هم الخلفاء الراشدون.

وقيل غير ذلك.

والحقّ أنـّه لا دليل على كلّ واحد من تلك الأقوال، ويكفي في وهنها تعارضها في ما بينها، وعدم مناسبتها للآية الشريفة، يضاف الى ذلك أنّ بعضها حدث بعد عصر نزول القرآن بزمان كثير، فكيف يصحّ سلخ الآية الشريفة عن معناها وتطبيقها على مورد يتحقّق بعد نزولها.

فالصحيح هو القول بأنّ أُولي الأمر في المقام هم أنفسهم في قوله تعالى: **﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾**[١]، وهم الأئمّة المعصومون الّذين يستنبطون من القرآن، ويعرفون الحلال والحرام بما وهبهم الله تعالى من الذهن الثاقب والذوق الرفيع، واختارهم لهداية الناس، فراجع تلك الآية الشريفة.

ولم يذكر سبحانه وتعالى في المقام الردّ إلى الله تعالى كما ذكره في الآية السابقة: **﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾** لأنّ الردّ في المقام لا يتضمّن حكماً مولوياً شرعيّاً، بخلاف الردّ في الآية السابقة، فإنّه ردّ الحكم الشرعي، ولا سلطة لأحد فيه إلّا الله تعالى والرسول.

قوله تعالى: **﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾**.

المراد من العلم هو معرفة الحقّ والصدق ممّا أُشيع، وتمييزهما من الباطل والكذب. والإستنباط هو الاستخراج، مأخوذ من استنبطت الماء إذا استخرجته، والنبط هو الماء المستنبط وأوّل ما يخرج من ماء البئر، وسّمي النبط نبطاً؛ لأنـّهم كانوا يستخرجون ما في الأرض من الماء، واستنباط الحكم هو بذل الجهد في

---

١. سورة النساء: الآية ٥٩.

الحصول على الحكم من الأدلّة الشرعيّة.

والاستنباط في الآية الكريمة، إمّا وصف للرسول ﷺ وأُولي الأمر، أو يكون وصفاً للرادّين، أي أنّ الّذين أشاعوا الأخبار الكاذبة ـ إحداث البلبلة والفوضى في صفوف المؤمنين ـ لو ردّوا تلك الأخبار إلى الرسول ﷺ وإلى أُولي الأمر من المؤمنين بدلاً من إشاعته، لعرفوا حقيقته من دون الوقوع في الإشاعة والآثار السيّئة المترتّبة عليها، لأنّ قيادتهم يعرفون الحقّ والصدق فيها بحكم ما اكتسبوه من التجارب، وما أفاضه البارئ عليهم، أو يكون المعنى لعرف الرادّون الأخبار الصحيحة، واستخرجوها من الأخبار الكاذبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾.

بيان لرعايته عزّ وجلّ لهذه الأُمة، فإنّها هي التي تبعث الأمل فيهم، وتحفظهم من الانهيار والضياع، وتصونهم من الآثار المترتّبة على كيد المنافقين وزيغهم وأباطيلهم.

وفضل الله تعالى إن كان المراد منه الرسول الكريم والقرآن المجيد، فالمراد من الشيطان أولياء الضلال، كأبي سفيان ونحوه، وإن كان المراد به ظاهر الإسلام فالمراد بمتابعة الشيطان العود إلى الكفر والجاهلية الأُولى.

وعلى أي تقدير، فالمقصود بالمتابعة المنفية هي المتابعة في ظاهر الإسلام، لا المتابعة في الأحكام العمليّة وفروع الدين، فأنّ أكثر الناس متابعون الشيطان إلّا النادر كما هو المعلوم، ومنه يظهر وجه الاستثناء من غير حاجة إلى تكلّف.

وممّا ذكرنا يظهر الوجه في الاستثناء، فيكون المعنى: لولا فضل الله عليكم في الهداية والتوفيق للمتابعة، لاتبعتم الشيطان، وخرجتم عن الصراط المستقيم إلّا قليلاً منكم، وهم الّذين أخلصوا في إيمانهم، وسلّموا أمرهم لله تعالى والرسول ﷺ.

ومضمون الآية الكريمة عامّ يمكن أن يشمل جميع الموارد، ولها مظاهر مختلفة، فلا تختصّ بمورد خاصّ، وإن كان نزولها في أمر خاص، وتشير إلى قصة بدر الصغرى وبعث أبي سفيان نعيم بن مسعود الأشجعي إلى المدينة لبسط الخوف والوحشة بين الناس، وتحريضهم إلى عدم الخروج إلى بدر، لما أخبر بأنّ أبا سفيان قد جمع الجموع وجهّز الجيوش، كما أخبر عزّ وجلّ في القرآن الكريم.

وقد ذكر المفسّرون للاستثناء وجوهاً:

فقيل: إنّ ظاهر الآية الشريفة أنّه امتنان خاص في أمر قد انقضى.

وفيه: أنّه لا ينافي الأخذ بالعموم لتشمل الجميع، فتكون لله تعالى توفيقات خاصّة على المؤمنين، وأنّ له فضلاً كبيراً عليهم.

وقيل: إنّ الآية الكريمة على ظاهرها، فإنّ المؤمنين سواء المخلصون منهم أم غير المخلصين، يحتاجون إلى فضله ورحمته، وإن كان غير المخلصين يحتاجون إلى عناية زئداة.

وفيه: أنّه خلاف ظاهر الآية الشريفة.

وقيل: إنّ المراد بالفضل والرحمة القرآن والنبيّ ﷺ.

وقيل: إنّ المراد بهما الفتح والظفر، فيكون وجه الاستثناء بناءً عليهما واضحاً.

وقيل: إنّ الاستثناء إنّما هو في اللّفظ دون الواقع، نظير الاستثناء في قوله تعالى: ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ**﴾[1]، فإنّ الاستثناء يفيد عموم الحكم بنفي النسيان، وفي المقام الاستثناء يفيد الجمع والإحاطة.

وجميع هذه الوجوه بعيدة عن سياق الآية المباركة.

---

١. سورة الأعلى: الآية ٦ ـ ٧.

قوله تعالى : ﴿**فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ**﴾ .

توجيه تربويّ آخر يهمّ الرسول القائد ﷺ أكثر من غيره ، فيوجّه سبحانه وتعالى الأمر له ليعطي درساً للقدوة الواقعيّة ، ويبيّن تلك الطائفة المؤمنة التي خلصت لربّها في إيمانها ، وسلمت من الأوصاف التي وصف بها جلّ شأنه تلك الطوائف المنافقة الضعيفة في الإيمان ، فقد أمره عزّ وجلّ بالتحريض للقتال .

والفاء في «فقاتل» للتفريع ، والأمر بالقتال متفرع على المتحصّل من الآيات السابقة . ويحتمل أن يكون تفريعاً على قوله تعالى : ﴿**وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**﴾ ، أي من أجل ذلك فقاتل في سبيل الله تعالى .

ويحتمل أن يكون تفريعاً على قوله تعالى : ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ ، أي فقاتل إعلاءً لكلمة الله ، واستنصر الله تعالى عليهم للمستضعفين ، ولا بأس بذلك .

ولكن الأولى هو الأوّل ، فإنّه بعد أن أمر المؤمنين بالقتال ، وبيّن مواقفهم المتقاعسة والمتخاذلة ، وبيّن أنّما بعث لا بلاغ الرسالة ، وليس شأنه الرقابة والجاءهم الى الطّاعة . ففي هذه الآية الكريمة يأمره سبحانه وتعالى بتنفيذ التكليف والقتال في سبيل الله تعالى ـ لأنّه القدوة في كلّ مجال ـ وأنّك الرقيب على نفسك ، ولا يضرّك تثاقلهم في القتال ، وإحجامهم عن تنفيذ أوامر الله تعالى ، وإنّما عليك التوجيه والتحريض لغيرك .

وقوله تعالى : ﴿**لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ**﴾ ، إمّا بمعنى لا تكلّف بشيء إلّا أن تكلّف نفسك ، فالأوّل مجهول والثاني معلوم . و«تكلّف» مرفوع ؛ لأنّه مستقبل ، ولم يجزم ؛ لأنّه ليس علّة للأوّل . وقرئ بالجزم على أنّ (لا) ناهية والفعل مجزوم بها ، أي لا تكلّف أحداً إلّا نفسك ، و«نفسك» منصوب على أنّه مفعول لفعل معلوم

مقدّرٍ يفسّره الفعل المجهول الظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

التحريض الحثّ على الشيء، أي حثّهم على القتال بالترغيب والوعظ والوعد في الطاعة، والتوعيد على المخالفة.

والمراد بالمؤمنين همّ تلك الطائفة المخلصة الصادقة في إيمانها، والخالصة عن تلك الأوصاف التي وصف بها سبحانه وتعالى الطوائف الزائفة.

قوله تعالى: ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

المعروف أنّ (عسى) من الإنسان للترجّي، ومن الله تعالى الحتم؛ لأنّ الترجّي الحقيقي محالٌ عليه عزّ وجلّ المحيط بكلّ شيء، ولكن ذكرنا غير مرّة أنّ (عسى) وغيرها من أدوات الترجّي والتمنّي تستعمل في معانيها الحقيقيّة الإنشائيّة، فهي إبراز المقصود والمطلوب بدواع مختلفة، كالترجّي والتمنّي ونحو ذلك، بلا فرق بين أن تكون تلك المعاني قائمة بنفس المتكلّم أو المخاطب أو بمقام التخاطب، فيكون مفهوم (عسى) في الخالق والمخلوق على حدٍّ سواء، بلا ارتكاب مجاز في الأوّل.

والمراد بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم مشركوا قريش وطواغيت الباطل، والبأس القوّة والنجدة.

والآية الشريفة تزيد في تحريض المؤمنين على القتال واستعدادهم له، فإنّ العامل النفسي له الأثر المهم في الحروب، فإذا اطمئن العدوّ أنّ المؤمنين على أتمّ استعداد، وقد وطّنوا أنفسهم على القتال في سبيل الله تعالى، وكان الباعث على ذلك هو الإيمان والاعتقاد الجازم بالنصرة الإلهيّة لهم، من دون أن يكون إلزام وسيطرة خارجيّة عليهم، صاروا أشدّ بأساً وأتمّ استعداداً للقاء العدو، ولذلك

التأثير الكبير في وهن العدو وخوفه.

ومن ذلك يعلم أنّ هذه الآية المباركة من الآيات المعدودة التي نزلت في القتال، وراعت الجانب المعنويّ والنفسيّ في هذا المجال.

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾.

التنكيل من النكال وهو العذاب والعقاب بما يكون عبرة لغيره. وأصله من التعذيب بالنكل، وهو القيد، فعمّم لكلّ عذاب مع هذه الخصوصية.

وفي الآية الكريمة كمال التشجيع ببعث الرأفة والاطمئنان في نفوس المؤمنين، بأنّ الله تعالى القادر على كلّ شيء هو أشدّ قوّة من الأعداء، وأشدّ تعذيباً لهم، هو الذي ينصرهم على أعدائهم، فهو عزّ وجلّ يمنعهم من أعدائهم.

كما أنّ فيها كمال التهديد للأعداء وبعث الرعب فيهم والتقريع لهم، ويستفاد ذلك من إظهار اسم الجلالة، وتعليل الحكم، واستقلال الجملة، وتذكير الخبر.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة أُمور:

الأوّل: يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾** منزلة من منازل الإيمان، وهي ما إذا لم يستقرّ الإيمان في القلب، ولم يستوعب المشاعر، هي المنزلة الضعيفة التي يكون فيها الفرد المؤمن قد اكتفى من الإيمان بالاسم، وفي اللسان فقط يتظاهر بالطاعة، وأمّا حالته النفسيّة فهي على تذبذب ونفاق، يعطى الموافقة اللسانيّة ويضمر المخالفة، وسرعان ما يظهر عدم موافقته على ما أبداه أمام الرسول القائد ﷺ، ويدلّ قوله تعالى: **﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾** على سرعة المخالفة وإضمار الشرّ ضدّ الإيمان والمؤمنين.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: **﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾** على أنّ تلك الطائفة المنافقة وغيرها من ضعفاء الإيمان، وأصحاب الشرّ والفساد لا تأثير لهم في الإسلام، ولم يصيبوا الرسول ﷺ والمؤمنين أذىً ومكروهاً؛ ولذا أمر عزّ وجلّ رسوله الكريم بالإعراض عنهم والتوجّه إليه تعالى، فإنّه جلّ شأنه يتولّى جزائهم ويكفي المؤمنين أذاهم، قادر على حماية الرسول ﷺ والمؤمنين بالله تعالى.

الثالث: يستفاد من قوله تعالى: **﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾**، أنّ للقرآن الكريم الأثر الكبير في إصلاح النفوس المريضه، وأنّ الكتاب التكوينيّ كالكتاب التشريعيّ لا اختلاف فيهما، فإذا كان التدبّر في القرآن العظيم موجب الرفع الشك والتردّد، كذلك له الآثر في رفع

شكوك النفوس وتثبيتها على الإيمان. ويستفاد من الآية السابقة الدالّة على اختلاف الجنان مع اللّسان، ومن تعقيبها بهذه الآية الدالّة على أنّ التدبّر في القرآن الموجب لرفع الشكّ وجلب اليقين في عدم اختلافه، أنّ الرجوع إلى القرآن والتدبّر فيه والتفكير في معانيه والعمل بما ورد فيه، توجب رفع الشك واختلاف النفوس وضعف الإيمان، وتورث ثبات القلوب واستقامتها، والطاعة التامّة لله والرسول.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: **﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾** على لزوم النظر في الجملة في الحجج والأمارات، وبطلان التقليد في أُصول المعارف الإلهيّة، كما أثبتوه في علم الكلام.

الخامس: ذكرنا أنّ الآية الكريمة المتقدّمة تدلّ على أنّ القرآن ممّا يناله الفهم، وهذا لا ينافي ما ورد أنّ للقرآن بطناً لا يمكن الوصول إليه إلّا بتفسير المعصوم عليه السلام، فإن للقرآن ظاهراً يناله الفهم العادي، وعليه تدور المحاورات واستفادة الأحكام الشرعيّة.

السادس: يدلّ قوله تعالى: **﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾** على معجزة القرآن، فإنّه مضافاً إلى كونه لا اختلاف فيه من جانب واحد، كذلك لا اختلاف فيه من حيث اجتماعه على جميع الجوانب المتّصلة بالإنسان، في الحياة الدُّنيا والحياة الآخرة، ولا اختلاف في توجيهه لجانب مع توجيه لجانب آخر، وتحتاج معرفة ذلك إلى التدبّر دون القراءة المسترسلة أو بقلوب مطموسة، فلا يتبيّن له ما فيه الحقّ الذي لا اختلاف فيه، فيكون القرآن معجزة خالدة فيها الدلالة الواضحة على صدق من جاء به، وهو الرسول الكريم خاتم الأنبياء سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله.

السابع: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾** على ذمّ إذاعة الأنباء، ونشر الأخبار التي لم يتأكّد الإنسان من حقيقتها، أو تكون

موجبة لإشاعة البلبلة في صفوف المؤمنين، وقد ورد في الحديث: «كفى بالمرء كذباً أن يحدّث بكلّ ما سمعه»، بل يستفاد منه أنّ ذلك من سبل الشيطان الذي يريد إيقاع المؤمنين في التعب والمشقّة، وقد بيّن عزّ وجلّ أنّ المنهج القويم في مثل تلك الحالات هو الإرجاع إلى الرسول القائد، ومن يكون على معرفة من الأُمور بحقائقها، وهم الصفوة من الأُمّة الّذين وهبهم الله تعالى الذهن الثاقب، وألهمهم فهم الكتاب المبين، وهم الأئمّة المعصومون عليهم السلام قرناء القرآن العزيز، الّذين ما أن تمسّك بهم أحد لم يضلّ أبداً.

الثامن: إنّما ذكر سبحانه وتعالى الأمن والخوف لأهمّيتهما بالنسبة إلى حفظ الأُمّة وكيانها واستقلالها واستعدادها للقاء العدو، ولأنّ الآية الشريفة تشير إلى قضية بدر الصغرى، وتذكّر المؤمنين بما جرى عليهم من المحن في غزوة اُحد، إثر إشاعة الخوف وتخاذل الناس عن الرسول صلى الله عليه وآله، وقد تقدّم في سورة آل عمران عند قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾**[1].

ويمكن أن يتعدّى من مورد الآية المباركة إلى كلّ ما يوجب انهيار كيان الأُمّة، وما يوجب البلبلة في الصفوف والرعب والتخاذل عن الحقّ والتخويف ونحو ذلك.

التاسع: يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾**، أنّ المؤمن لابدّ أن يكون على استعداد لتلقّي الفيض الإلهي والفضل الربوبيّ بالعمل بالشريعة واتّباع الرسول، وترك الاعتماد على النفس الأمّارة وما يوجب البعد عن الله تعالى.

١. سورة آل عمران: الآية ١٧٢.

وقد ذكر عزّ وجلّ جملة من ذلك في الآيات السابقة ، منها إذاعة الخوف أو الأمن وترك الايتمار بأوامر الله عزّ وجلّ والرسول، والتثاقل في تنفيذها .

العاشر : يستفاد من قوله تعالى : **﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾** شدّة التعبير من الله سبحانه للمتثاقلين الّذين أعرضوا عن القتال، واحتالوا في تركه ، كما حكى عزّ وجلّ عنهم في الآيات السابقة، فقد أمر جلّ شأنه الرسول الكريم بتنفيذ هذا الحكم الالهي بنفسه بالقتال لوحده والإعراض عن المتثاقلين ، فإنّه ﷺ ليس له إلّا التبليغ والتحريض ، فمَن أطاع فقد أطاع ومَن عصىٰ فقد عصىٰ ، ولا يضيق صدره من ذلك فليس له إلّا تكلّف الجهاد بنفسه .

الحادي عشر : يستفاد من قوله تعالى : **﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾** أنّ الله تعالى إنّما كلّف نبيّه الكريم ﷺ بمباشرة القتال وحده مع الكافرين لما أعطاه من القوّة والشجاعة ما لم يعط أحداً من العالمين ، وسيرته ﷺ تدلّ على ذلك ، قال علي عليه السلام : «كنّا إذا اشتدّ البأس اتّقينا برسول الله ﷺ» .

كما يستفاد من الآية الشريفة أهمّية التحريض العملي ، أي فقاتل أنت امتثالاً لأمر الله تعالى ، وحرّض بعملك المؤمنين على ذلك، وحثّهم على الجهاد وقتال الأعداء .

***

بحث روائي:

في «تفسير علي بن إبراهيم» في قوله تعالى : **﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾** ، أي : يبدلون» .

أقول : المراد من التبديل التغيير ، وأنّ ذلك من شعب النفاق .

وفي «الدرّ المنثور» عن ابن عبّاس في قوله تعالى : **﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾** ، قال : «هم

أُناس كانوا يقولون عند رسول الله ﷺ: آمنّا بالله ورسوله، ليأمنوا على دمائهم وأموالهم، فإذا برزوا من عند رسول الله ﷺ ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ خالفوهم إلى غير ما قالوا عنك، فعابهم الله فقال: ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾، قال: يغيّرون ما قال النبيّ ﷺ».

أقول: إنّهم كانوا يغيّرون ما يقوله النبيّ ﷺ ويبدّلون ما عهدوا إلى النبيّ ﷺ؛ لأجل النفاق الكائن في نفوسهم القابل للإزالة.

وفي «الكافي» بسنده عن سليمان الجعفري، قال: «سمعت أبا الحسن عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ قال: يعني فلاناً وفلاناً ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾».

أقول: مراد الإمام عليه السلام مَن كان من أهل النفاق في أي عصر كان وفي أي مكان، وذكر المصداق لا يوجب التخصيص.

وفي «الدرّ المنثور» في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾، أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحّاك وعن قتادة أيضاً: «إنّ قول الله لا يختلف، وهو حقّ ليس فيه باطل، وإنّ قول الناس يختلف».

أقول: لا يمكن الاختلاف في القرآن بجميع أقسامه؛ لأنّه الميزان لتمييز الحقّ عن الباطل، وأنّه من الحقّ والى الحقّ وفي الحقّ، وما هو كذلك لا يتصوّر فيه الاختلاف، وإنّما ينشأ الاختلاف من ناحية اختلاف العقول وتفاوت الاستعدادات، وتقدّم كلام عليّ عليه السلام في وصف القرآن.

وفي «الكافي» بسنده عن عبد الله بن عجلان، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّ الله عيّر أقواماً بالإذاعة في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾، فأيّاكم والإذاعة».

أقول: المراد من الإذاعة الإشاعة التي توجب الخوف والرعب أو الترهيب في النفوس وإفشاء الباطل والفساد، سواء كانت في حالة الحرب أو في حالة السلم؛ لأنّ ذلك من شعب النفاق أو من ضعف الإيمان.

وفي «الدرّ المنثور» عن ابن عبّاس في قوله تعالى: **﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾** قال: «هذا في الإخبار، إذا غزت سرية من المسلمين خبّر الناس عنها، فقالوا: أصاب المسلمين من عدوّهم كذا وكذا، وأصاب العدو من المسلمين كذا وكذا، فأفشوه بينهم من غير أن يكون النبيّ ﷺ هو يخبرهم به».

أقول: هذا من باب ذكر أحد المصاديق، لا من باب الحصر والتخصيص.

وفي «الكافي» بسنده عن عبد الحميد بن أبي الديلم، عن الصادق عليه السلام، قال: «قال الله تعالى: **﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾**، وقال عزّ وجلّ: **﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾**، فردّ أمر الناس إلى أُولي الأمر منهم، الّذين أمر بطاعتهم والردّ إليهم».

أقول: إنّها تفسّر الآية بآية أُخرى، فإنّ القرآن يُفسّر بعضه بعضاً.

وفي «الدرّ المنثور» عن ابن عبّاس في قوله تعالى: **﴿وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾**: «أُولي الفقه في الدِّين والعقل».

أقول: ينحصر ذلك في من له ارتباط كامل معه سبحانه وتعالى، وأفاض عليه العصمة.

وفي «تفسير العيّاشي»، عن عبد الله بن عجلان عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: **﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾** قال: «همّ الأئمّة».

أقول: الرواية من باب التفسير بالمصداق الحقيقيّ للآية الشريفة والحصر فيهم واقعي؛ لأنّهم يعرفون الحلال والحرام، وهم حجّة الله على خلقه، وهم الصفوة. وقد روي هذا التفسير في روايات أُخرى، وتقدّم في الآية الشريفة:

﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ما يتعلّق بذلك.

وعن عبد الله بن جندب، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في كتاب كتبه إليه في أمر الواقفيّة: «إنّ الله يقول في محكم كتابه: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾، يعني آل محمّد، وهم الّذين يستنبطون من القرآن ويعرفون الحلال والحرام، وهم الحجّة لله على خلقه».

أقول: قريب منه ما رواه المفيد في «الاختصاص»، عن إسحاق بن عمّار عن الصادق عليه السلام في حديث مفصّل، وجميعها تدلّ على ما تقدّم؛ لأنّهم يعرفون الحقيقة والحقيقة تعرفهم، وهم الّذين يفهمون الكتاب والكتاب يعنيهم.

وفي «الدرّ المنثور» عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ﴾ قال: «فانقطع الكلام، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾، فهو أوّل الآية يخبر عن المنافقين. قال: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ قليلاً، يعني بالقليل المؤمنين».

أقول: يستفاد منه أنّ في الآيه الكريمه تقديماً وتأخيراً، وهو بعيد عن سياق الآيه المباركة كما مرّ في التفسير. إلّا أن يُراد منه المعنى، أي لولا فضل الله عليكم ورحمته لأغواكم الشيطان إلّا قليلاً، كالّذين أخلصوا دينهم لله تعالى وتوجّهوا إليه سبحانه، وهم الصفوة من الخلق كالأنبياء والمعصومين عليهم السلام، وهذا له وجه، وتدلّ على ذلك آيات كثيرة كما يأتي التعرّض لها.

وفي «تفسير العيّاشي»، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: « ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ قال فضل الله رسوله، ورحمته ولاية الأئمّة».

وفيه أيضاً: عن محمّد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ قال: «الفضل رسول الله، ورحمته أمير المؤمنين».

أقول: في مضمون ذلك روايات كثيرة، وجميعها من باب ذكر المصداق الحقيقيّ؛ لأنّ بهما تتحقّق العدالة الاجتماعيّة وتظهر آثارها، وتتنعّم البشرية بنعيم الدُّنيا ونعيم الآخرة وتطمئن نفوسها، وأمّا أنّه صلى الله عليه وآله فضل؛ لأنّه واسطة في الفيض والمبلّغ لما فيه التهذيب والرقي، فهو السبب للكمال. وأمّا عليّ عليه السلام رحمته، فلأنّه واسطة في الإفاضة، وسبب الدوام والبقاء والنهج العمليّ للوصول إلى الكمال. وقد يطلق الرحمة على رسول الله صلى الله عليه وآله والفضل على أمير المؤمنين عليه السلام كما عن العبد الصالح عليه السلام في رواية محمّد بن الفضيل، قال: «الرحمة رسول الله صلى الله عليه وآله والفضل عليّ بن أبي طالب»، والمراد من الرحمة فيها هي الرحمة الرحيميّة، وقد سمّاه الله تعالى في كتابه الكريم بالرحمة، فقال: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾[1]، وقد يطلق الفضل على القرآن أيضاً.

في «الكافي» بإسناده عن مرازم، قال الصادق عليه السلام: «إنّ الله كلّف رسول الله ما لم يكلّف به أحدا من خلقه، ثمّ كلّفه أن يخرج على الناس كلّهم وحده بنفسه وإن لم يجد فئة تقاتل معه، ولم يكلّف هذا أحداً من خلقه قبله ولا بعده، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿**فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ**﴾، ثمّ قال: وجعل الله له أن يأخذ ما أخذ لنفسه، فقال عزّ وجلّ: ﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾، وجعل الصلاة على الرسول بعشر حسنات».

أقول: في مضمونها روايات أُخرى وهي تدلّ على كمال قربه صلى الله عليه وآله إليه تعالى وشرفه على سائر الأنبياء، حيث لم تكن لهم هذه المزيّة وسائر المزايا التي له صلى الله عليه وآله.

وفي «الدرّ المنثور» أخرج ابن سعد عن خالد بن معدان: «انّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: بعثت إلى الناس كافّة، فإن لم يستجيبوا لي فإلى العرب، فإن لم يستجيبوا لي

---

١. سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

فإلى قريش، فإن لم يستجيبوا لي فإلى بني هاشم، فإن لم يستجيبوا فإليّ وحدي».

أقول: الرواية نصّ في أنّه ﷺ حجّة على أهل الدُّنيا كافّة، وأنّ رسالته لم تختصّ بقوم دون قوم، وبعصر دون آخر، لأنّ دينه ورسالته السابقة توافق الفطرة الخاصة المستقيمة، فإذا ظهر اعوجاج فيها وانحرفت عن استقامتها، بعدت عن الإيمان به، وقد تختصّ رسالته لنفسه؛ لأنّ عنده الفطرة المستقيمة واللبّ الكامل، وتدلّ على ذلك كثير من الآيات الشريفة، مثل قوله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾**[1].

وفي «تفسير العيّاشي» عن سليمان بن خالد، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول الناس لعليّ إن كان له حقّ فما منعه أن يقوم به؟ قال: فقال: إنّ الله لا يكلّف هذا الإنسان وحده إلّا رسول الله ﷺ، قال: **﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾** فليس هذا إلّا للرسول، وقال غيره: **﴿إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ﴾**، فلم يكن يومئذٍ فئة يعينونه على أمره».

أقول: يستفاد منه أنّ إقامة الحقّ وتثبيت قوائمه في المجتمع النائي عنه، لا يتمّ إلّا بالإعانة والاستعانة مع الآخرين، وهذا لا ينافي التوكّل عليه تعالى والتفويض إليه جلّ شأنه، كما ثبت في محلّه، وإن لم يظهر له أعوان ينبغي حفظ صاحب الحقّ حقّه بما يراه من الطرق حتّى يفيقوا من غيّهم، ويستعدّوا للانقياد للحقّ ويتقرّبوا إليه.

وأخرج ابن منذر عن أُسامة بن زيد أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه ذات يوم: «ألا هل مشمّرٍ للجنّة، فإنّ الجنّة لا خطر لها، هي وربّ الكعبة نورٌ تتلألأ وريحانة تهتزّ، وقصر مشيّد، ونهرٌ مطّرد، وفاكهة كثيرة نضيجة، وزوجةٌ حسناء

---

١. سورة سبأ: الآية ٢٨.

جميلة، وحِللٌ كثيرة في مقام أبداً، في خيرٍ ونضرة ونعمة، في دار عالية سليمة بهيّة. قالوا: يا رسول الله، نحن المشمّرون لها. قال: إن شاء الله، ثمّ ذكر الجهاد وحضّ عليه».

أقول: ما ذكره ﷺ جملة من صفات الجنّة؛ إمّا لأجل الترغيب والتحريض للجهاد أو للموعظة، وإمّا أنّ المخاطب ليس له استعداد للتلقّي بأكثر منه، فيكون من باب: «إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نُكلِّم الناس على قدر عقولهم»، وإلّا فصفات الجنّة لا تُعدّ ولا تحصىٰ، كما يأتي شرح ذلك في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

وفي «تفسير العيّاشي» عن أبان، عن الصادق عليه السلام: «لمّا نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿**لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ**﴾ قال: كان أشجع الناس مَن لاذَ برسول الله ﷺ».

أقول: ومن تلك يعرف مقدار تضحيته للإسلام وتفديه لله تعالى بعد إعراض الناس عنه ﷺ.

وفيه أيضاً: عن أبي حمزة الثمالي عن عيص، عن الصادق عليه السلام، قال: «إنّ رسول الله كُلّف ما لم يكلّف أحد أن يقاتل في سبيل الله وحده، وقال: ﴿**حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ**﴾، وقال إنّما كلّفتم اليسير من الأمر، أن تذكروا الله».

أقول: الرواية في مقام الامتنان؛ لأنّه تعالى كلّفه بالتحريض.

وفي «تفسير العيّاشي» عن جعفر بن محمّد عليه السلام، قال: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط؟ فقال: لا، إن كان عنده أعطاه، وإن لم يكن عنده، قال: يكون إن شاء الله، ولا كافئ بالسيّئة قط، وما لقي سرّية مذ نزلت عليه: ﴿**فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ**﴾ إلّا وليّ بنفسه».

أقول: ما ورد في هذه الروايه من كمال الأدب الذي خصّه الله تعالى به، حيث قال ﷺ: «أدّبني ربّي فأحسن تأديبي»، وقد سار على هذا النهج آله

الطاهرون والعلماء العاملون والعرفاء الشامخون، بل المؤمنون المتوجّهون.

***

بحث فلسفي:

قد ثبت في الفلسفه الإلهيّه ـ وغيرها ـ أنّ كلّ ما في عالم الشهاده ـ وغيرها ـ من المسبّبات والمعلولات تتبع في كمالاتها ورقيّها ـ بل في تجرّدها وبساطتها ـ أسبابها وعللها، فكلّ ما في العلّة أو السبب من الكمال والرقي والشرف والعلوّ، كان للمعلول أو للمسبّب نصيب منها حسب اللياقة والنسبة، وقد جعلوا ذلك قاعدة مسلّمة عندهم غير قابله للاختزام ـ كما هي شأن جميع القواعد الفلسفيّة مطلقاً ـ لأنّ التخلّف عنها يستلزم سقوط التناسب والعلاقة بين الأسباب والمسبّبات والعلل والمعلومات، فيوجب الخلف أو الانفكاك بينهما لفرض التفكيك.

ولا تنافي بين هذه القاعدة وبين قوله تعالى: ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ**﴾[1]؛ لأنّهما من الأُمور الإضافيّة، ولكلّ منهما مراتب متفاوتة ودرجات مختلفة.

وقد مثّلوا للقاعدة في العلل المادّية بقولهم: «كلّ إناء بما فيه ينضح»، وتجري هذه القاعدة: «قاعدة التناسب» في جميع أقسام المسبّبات والمعلولات، بلا فرق فيها.

نعم، إنّ الكمال متفاوت وله مراتب شدّة وضعفاً، حقيقة ومجازاً، مادّياً ومعنويّاً، أو قد يكون خفيّاً مستوراً، وقد يكون ظاهراً.

وتجري هذه القاعدة في المجرّدات أوّليّة كانت أو ثانويّة ـ وعليها بنوا أنّ الصادر الأوّل من المبدأ الفياض الأزلي، لابدّ وأن يكون فيه الكمال المطلق ـ بل

---

١. سورة الروم: الآية ١٩.

عن بعضهم هو عين الكمال المطلق ـ وهو العقل الأوّل الذي هو جامع لجميع ما يليق به من الكمال ، ومنه ينحدر بقيّة العقول العشرة حتّى يصل إلى العقل المادّي الفعّال .

حتّى أنّ بعضهم بنوا على هذه القاعدة اختلاف رتب الملائكة ، وإن كان في ذلك بحث عندنا ، كما سيأتي في محلّه .

وعلى هذه القاعدة لا يمكن نقص ـ من الاختلاف في البيان أو الموضوع أو غيرهما ـ في القرآن الكريم؛ لأنّه الصادر من الحيّ القيوم الأزلي ، وكذا سائر الكتب السماويّة إن لم تمسّه يد التحريف ، والقرآن مصون منه بالأدلّة الكثيرة ، كما يأتي بيانها في المورد المناسب لها .

ولذا يكون كمال القرآن بذاته ولذاته صادر عن الحقّ بلا واسطة ، وإنّ إعجازه فيه وبه ومنه جلّ شأنه بلا فصل ، فيمكن أن تكون الآية المباركة : **﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾** إرشاداً إلى ذلك .

***

الآية ٨٥ ـ ٨٧

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً ﴿٨٦﴾ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً ﴿٨٧﴾﴾.

بعدما بيّن عزّ وجلّ بعض أحوال الطائفتين المؤمنة المستقيمة الثابتة في إيمانها والمطيعة لمولاها، والطائفة العاصية الزائغة في أقوالها وأفعالها.

يذكر جلّ شأنه في هذه الآيات المباركة وضع كلّ واحدة من الطائفتين من حيث العمل والجزاء، فإنّ الشفاعة الحسنة تؤدّي إلى الغاية الحميدة، وهي الشوق إلى الطاعة، وتحريض المؤمنين على قتال الأعداء، فيترتب عليها الجزاء الحسن.

وأمّا الشفاعة السيّئة فتكون نتيجتها الحرمان، وتخذيل الناس عن القتال ـ بحكم المناسبة مع الآيات السابقة ـ ويترتّب عليها الجزاء السيء.

ثمّ يذكر سبحانه وتعالى في ضمن هذه الآيات المباركة التحيّة، فإنّ فيها الحياة ونبذ الفرقة والاختلاف. وذكر هذه الآية الشريفة في هذا المقام لبيان القاعدة الأساسيّة في الإسلام، وهي السعي إلى السلام، إلّا إذا اضطرّ إلى الحرب والقتال، فهو إنّما يكون وسيلة لإقرار السلام، لا لأجل القتال.

ويذكر عزّ وجلّ القاعدة العريقة في القتل والجهاد والسلم والأمان، وهي إقرار توحيد الله تعالى، فهو التوجيه العقائدي الصارم في جميع ميادين هذا الدين، ولا يخلو ارتباط هذه الآيات الكريمة بسابقتها، كما عرفت.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾.

ماده (شفع) تدلّ على ضمّ شيء إلى شيء، ومنه الشفع، أي ضمّ واحد إلى واحد، وهو الزوج في العدد. والشفعة، لأنّها ضمّ الشريك نصيبه إلى نصيب شريكه.

وأمّا الشفاعة، فهي الانضمام إلى آخر ليكون ناصراً له أو دافعاً عنه، فهو نوع توسّط لترميم نقص أو حيازة مزيّة، وتقدّم في مبحث الشفاعة أنّ لها السببيّة في الجملة لإصلاح شأن من شؤون المشفوع له، وهذا هو مقصد الشفيع، فتكون الغاية من الشفاعة ايصال المنفعة إلى المشفوع له، فلابدّ وأن يكون للشفيع منزلة عند المشفوع، ويكون له نصيب من الخير أو الشرّ المترتّبين على الشفاعة.

والشفاعة إمّا تكوينيّة كما في قانون العلل والمعلولات، أو تشريعيّة، وهي التي تكون بإذن الله تعالى، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾[١]، فراجع بحث الشفاعة عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٢].

والنصيب والكفل بمعنى واحد، وهو الحظ. وقيل: إنّ النصيب هو الحظّ

١. سورة الأنبياء: الآية ٢٨.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٥٤.

المنصوب، أي المعيّن فيشمل الزيادة، والكفل هو المثل المساوي أو الحظّ الذي فيه الكفاية.

وإنّما ذكر النصيب في الحسنة، لأنّ جزاء الحسنة يضاعف، وذكر الكفل في السيّئة، لأنّ مَن جاء بالسيّئة لا يجزى إلّا مثلها، فتكون الآية المباركة إشارة إلى لطفه عزّ وجلّ بعباده.

وعموم الحَسَنة يشمل كلّ ما يطلق عليه الحسنة، ومنه الدُّعاء للمؤمنين.

والمعنى: مَن يجعل نفسه شفيعاً لآخر في حسنة، يكون له حظّ وافر ممّا يترتّب على شفاعته من الخير في الدُّنيا والثواب الجزيل في الآخرة؛ لأنّ الشفيع ذو نصيب من الخير والشرّ المترتبتين على شفاعته لما كان فيها نوع من السببيّة، كما عرفت.

واختلف العلماء في المراد من هذه الآية الكريمة، والمستفاد منها أنّها تدلّ على تحريض المؤمنين على مراعاة الحقوق إمّا بدفع الشرّ، أو جلب المنفعة ابتغاء وجه الله تعالى، وتنبّههم لأن يكونوا على يقظة من شفاعتهم، فلا يشفعوا حتّى يعرفوا الأثر المترتّب عليها، فإذا كانت في خير وحسنة فلا بأس بالشفاعة فيها، وإن كانت في شرّ وفساد فلابدّ من الاجتناب عنها، فإنّ فيها إشاعة للشرّ، وترويجاً للباطل وتأييداً لأهل الظلم والطغيان والنفاق، وفي ذلك الفساد العظيم.

وبمناسبة ذكر هذه الآية الشريفة بعد الآيات السابقة التي أمر فيها نبيّه الأعظم بالقتال منفرداً لأجل حفظ كيان هذه الأُمّة، تأتي هذه الآية الكريمة وتأمر المؤمنين بنصرة النبيّ ﷺ، والانضمام إليه في هذا الخير العظيم، فإنّ فيه نصرة الحقّ وإقامة شريعة الله تعالى، فيكون لهم الشرف والنجاة في الدُّنيا والثواب الجزيل في الآخرة، ففي الآية الشريفة تحريض للمؤمنين على قتال أعداء الله تعالى، وأنّه يكون لهم الجزاء الحسن عنده تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾.

بيان للشفاعة المخالفة للشفاعة الحسنة، وتشمل كلّ ما كان سيّئة، كالانضمام إلى العدو، وتخذيل المؤمنين، والإعانة على السيِّئات، والدّعاء على المؤمن، ومنها الشفاعة في إسقاط حدّ من حدود الله تعالى، ففي الحديث: «مَن حالت شفاعته دون حدّ من حدود تعالى، فقد ضادّ الله تعالى في مُلكه، ومَن أعان على خصومة بغير حقّ، كان في سخط الله تعالى حتّى ينزع»، فمَن يشفع الشفاعة السيّئة يكن له مثل الوزر المترتّب على تلك السيّئة، فإنّ الكفل والنصيب والمثل واحد.

وفي اختلاف التعبير في المقامين لبيان أنّ من يجري الشرّ في أفعاله، فله من فعله كفيل يسأله ويحاسبه، فلا يمكن التخلّص من عقوبته.

وكيف كان، فالآية المباركة بعمومها تشكّل جميع أنواع الشفاعات الدائرة بين الناس، وهي قسمان الحسنة والسيّئة، فيدخل فيها الدُّعاء للأخ أو عليه، ولعلّ أبرزها التبطئة عن القتال، وإظهار الأعذار عن الدخول في الجهاد، فإنّها من الشفاعة السيّئة. ولم يبيّن سبحانه تعالى الحسنة والسيّئة في المقام؛ اعتماداً على معروفيّتهما عند الناس.

كما أنّ الآية المباركة تحرّض المؤمنين على الشفاعة الحسنة، وتنهى عن الشفاعة السيّئة، التي هي شفاعة أهل الظلم والطغيان والمفسدين في الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً﴾.

تقرير لما سبق، وتأكيد له، والمقيت: المقتدر الحافظ، ومن أسمائه جلّت عظمته (المقيت)، أي الحفيظ، وفي الحديث: «كفى بالمرء إثماً أن يضيّع مَن يقيت»، أي مَن تلزمه نفقته من أهله وعياله وعبيده، ممّن هو تحت قدرته، وقال

الزبير بن عبد المطلب:

وذي ضغن كففت النفس عنه وكنت على مساءته مقيتاً

أي قديراً. وقيل: إنّ مقيتاً من أقته أقاته، فأنا قائت ومقيت.

وكيف كان، فإنّ فيه معنى الحساب، أي قادر على كلّ شيء على حساب دقيق يعطى على قدر الحاجة، قال الشاعر:

إليّ الفضل أم عليَّ إذا حو سبت أبي على الحساب مقيت

والآية الكريمة تقرّر مضمون ما قبلها وتؤكّده كما ذكرنا، أي أنّ الله تعالى قادر وشهيد على الشفعاء، يعلم محسنهم عن مسيّئهم ويُجازيهم على فعلهم.

والآية الشريفة بمجموعها تقرّر حكماً اجتماعيّاً وسنّة طبيعيّة، وفيها تلخيص موقف المؤمنين المحسنين المقاتلين في سبيل الله تعالى، وموقف المنافقين المسيّئين المتخاذلين عن القتال، الّذين حكى عنهم عزّ وجلّ في الآيات السابقة، وبيّن نهاية كلّ واحد من الفريقين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ﴾.

حكم اجتماعي، به تشتدّ أواصر الثقة بين الأفراد، ويظهر حسن الأدب بينهم، وفي هذا الحكم تظهر نعمة السلام بعد انتهاء القتال، كما أنّ منه يستفاد القاعدة الأساسيّة في الإسلام، الذي يسعى إلى السلام الذي يرضاه الله تعالى، وفيه تشيّد أركان الدِّين القويم، ويزال منه كلّ شرك وفتنة. ومن ذلك يعرف الوجه في تذييل آيات القتال بهذه الآية الآمرة بردّ التحيّة بمثلها أو بأحسن منها، وهي من سنخ الشفاعة الحسنة أيضاً التي أرشد الله تعالى المؤمنين باتّخاذها وسيلة لتثبيت النظام وتشييد الأركان، وترويض النفس على التخلّق بأخلاق الكرام.

والتحيّة: تفعلة مصدر حيَّىٰ يحيى تحية، كتزكية وتسمية، فادغموا الياء في الياء، وهي في الأصل الدُّعاء بالحياء وطولها، وصارت اسماً لكلّ دعاء وثناء،

ولها مظاهر مختلفة ، وفيها عادات متفاوتة ، فلكلّ قوم تحيّة معيّنة ، ولكن تحيّة المسلمين السلام ، قال تعالى : **﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾**[١] ، وقال تعالى : **﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾**[٢] ، وقيل : إنّ فيه مزيد على كلّ تحيّة؛ لأنّه اسم من أسمائه المقدّسة، ودعاء بالسلامة عن الآفات والعاهات ويستلزم طول الحياة ، ولأنّه ينبئ عن أنّ دين الإسلام دين الأمان والسلام ، وأنّ المؤمنين به همّ أُصول السلم ومحبّوا السلامة .

وظاهر الآية الشريفة أنّها تشمل كلّ أنواع التحيّة من السلام المعهود وتسميت العاطس ، وأنواع البرّ والصلات القوليّة منها والفعليّة ، ومنها تحيّة السلم والصلح التي تلقى إلى المسلمين ، فإنّ جميع ذلك من التحيّة ، وقد وردت في ذلك عدّة روايات ، كما سيأتي نقلها في البحث الروائي .

قوله تعالى : **﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾** .

يستفاد منه أنّ للجواب مرتبتين ، أدنا هما ردّها بعينها ، وأعلاهما الجواب بأحسن منها . ولم يعيّن سبحانه وتعالى الجواب؛ لأنّه يتبع العادات والتقاليد المعروفة ، وإن ورد في بعض الآثار أنّ الأحسن هو أن يقول : «السلام عليك ورحمة الله وبركاته» ، والردّ بالمثل هو أن يقول : «عليك السلام» .

وظاهر الآية المباركة أنّ الجواب فرض وإن كان أصل التحيّة تطوعاً ونفلاً ، وقد ورد في آدات التحيّة وكيفيتها وأحكامها الشيء الكثير ، وسنذكر جملة منها في البحوث المناسبة الآتية .

قوله تعالى : **﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾** .

---

١ . سورة النور : الآية ٦١.

٢ . سورة يونس : الآية ١٠.

تأكيد لمضمون الآية المباركة. والحسيب بمعنى الحفيظ المراقب، وهو من أسمائه تعالى، وقيل: هو فعيل من الحساب وقيل: إنّه بمعنى «الكافي»، فعيل بمعنى مُفعِل، من قولهم: أحسبني كذا، أي كفاني.

وقيل: إنّه بمعنى الكافئ، والظاهر التلازم بين تلك المعاني، فإنّ المحاسب المراقب لأفعال العباد يكون كافياً في إيصال ما يكافئه.

وكيف كان، فالمعنى: أنّ الله تعالى على كلّ شي رقيب وحافظ، يرقب أفعالكم ـ ومنها الصلة بالتحيّة ـ فيحاسبكم عليها وعلى غيرها، فيدلّ على شدّة الاعتناء بهذا الحكم الاجتماعي الذي يحفظ الترابط ويرفع التنافر بين الأفراد.

قوله تعالى: ﴿**اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾.

توجيه عقائدي يهدي الإيمان في قلوب المؤمنين ويثبته، وهو يشتمل على ركنين من أهمّ أركان الإيمان. وهما التوحيد، والإيمان بالبعث والجزاء في الدار الآخرة، وهما الركنان اللّذان أمر الله تعالى أنبياءه العظام بتبليغهما الناس وإقامتها، وهما من أهمّ الروابط بين آيات الكتاب المبين، ويكونان وقفة بين الآيات الشريفة، يتوقّف فيها المؤمن بعد السير الطويل في جملة من الأحكام الإلهيّة؛ لبيان أنـّها هي التي تدعم هذين الركنين.

والآية الشريفة بمنزلة التعليل لجميع تلك الأحكام التي شرّعها عزّ وجلّ، والإرشادات الربوبيّة والتوجيهات الإلهيّة، فتكون الباعث القوي على العمل بتلك الأحكام، لا سيما أحكام القتال مع أعداء الله تعالى، وتكون تثبيتاً للمشاعر الإيمانيّة، وتقوية للنفس على احتمال تبعات تلك التكاليف وثقلها مادامت تؤدّي إلى عبادة الله الواحد الأحد، وما دام الجزاء محفوظاً عنده عزّ وجلّ، يجازي العباد على ما عملوا في يوم القيامة الذي سيجمع الناس فيه.

والآية المباركة بمنزلة القاعدة العريضة التي تبتني عليها جميع التكاليف

الإلهيّة، وأنّ كلّ قتال وجهاد لابدّ وأن يكون على هذا الأساس، فمضمونها قانون عامّ تظهر فيه جميع الأحكام.

والمعنى واضح، فهو الله لا إله إلّا هو، لا يعبد غيره، ولا يجوز التقصير في عبادته، ويجب الخضوع لأمره، فإنّه شرّع لكم من الأحكام ما يوجب سعادتكم في الدارين.

قوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

تهديد لمَن أعرض عن الأحكام الإلهيّة وعبادة الله الواحد الأحد، وتوكيد لما ورد في الآيات السابقة، فإنّ مَن يطع الله ويعمل ويجاهد في سبيله يؤمن من فزع يوم الحشر.

الجمع: في المقام بمعنى الحشر، ولذا عدّي بـ(إلى)، كما عدّي الحشر بها، قال تعالى: ﴿لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾[١]، وقيل: إنّ (إلى) بمعنى (في)، أي ليجمعنكم في يوم القيامة.

وقيل: إنّ (إلى) صلة في الكلام، والمعنى ليجمعنكم يوم القيامة.

واللام في (ليجمعنكم) لام القسم، وكلّ بعدها نون مشدّدة فهي لام القسم.

والقيامة من القيام والتاء فيه مصدرية كزيادة، وكرامة. وسمّيت القيامة قيامة لأنّ الناس يقومون فيه لربّ العلمين، قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢]، وقيل: سُمّي يوم القيامة لأنّ الناس يقومون من قبورهم، وعلى هذا يصحّ أن يقال بأنّ الجمع إنّما عُدّي بإلى لتضمينه معنى الإفضاء المتعدّى بها، أي ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب

---

١ . سورة آل عمران: الآية ١٥٨.

٢ . سورة المطففين: الآية ٤ ـ ٦.

يوم القيامة ، أو مفضى إليه .

قوله تعالى : ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ .

تأكيد آخر بعد تأكيده بالقسم الذي هو من أقوى المؤكّدات لدفع كلّ شكّ وارتياب في وقوع ذلك الحشر والحساب والجزاء على الأعمال ، فلا ريب في ذلك كلّه .

وإنّما أتى عزّ وجلّ بالوقت ـ وهو يوم القيامة ـ للتحريض على العمل ، والجدّ فيه ، ويرغبوا إليه ويرهبوا عن تركه .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً﴾ .

استفهام إنكاري ، والمقصود تثبيت كونه صادقاً ، وبيان إنّه يجب أن يكون تعالى صادقاً ، وأنّ الكذب قبيح بالنسبة إليه ، فهو محال عليه .

والتفضيل لبيان شدّة تنزّهه عن الكذب وعدم الخلف لوعده ، فليس المقصود منه الكمّية ولا الكيفيّة . والصدق معلوم ، والحديث أعمّ من القول والخبر والوعد ، فهو عالم بجميع الحقائق ، غني عن العالمين ، يستحيل على مثله الكذب والخيانة ، والمعنى : لا أحد أصدق من الله تعالى .

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: ﴿**مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا**﴾ على أنّ الآثار المترتّبة على المشفوع لأجله ـ سواء كانت خيراً وصلاحاً، أم كانت شرّاً وفساداً ـ إنّما تلحق بالشفيع؛ لأنّ الشفاعة نوع توسّط ولها السببيّة في إصلاح شأن أو ترميم نقيصة أو حيازة مزيّة، التي هي من مقاصد الشفيع والمشفوع له. فلابدّ أن يلاحظ الآثار المترتّبة على قبول وقوعها.

كما أنّ الآية المباركة تدلّ على قبول كلّ شيء للشفاعة، إلّا ما خرج بالدليل، ممّا لا تقبل الشفاعة ولا يسقط إلّا بفعل الإنسان نفسه، مثل ما ورد في أنّه لا شفاعة في حدّ، ونحو ذلك.

كما أنّ الآية الشريفة تثبت الشفاعة التكوينيّة، وتقرّر قانون الأسباب والمسبّبات الذي يبتني عليه النظام الكياني لهذا العالم، وتثبت الشفاعة التشريعيّة، وتزيد درجات الشافعين في الشفاعة الحسنة، ومن ذلك يعلم درجة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله في يوم القيامة، لما منحه الله تعالى من الشفاعة العظمى، فتكون له حسنات تلك الشفاعة ممّا تزيد بها درجته.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً**﴾ على أنّ الشفاعة كسائر الأُمور، لا تؤثّر أثرها إلّا بإذن من الله تعالى المقتدر والحافظ للحدود والجزاء، وتفسّر هذه الآية الكريمة الآيات الثلاث الشريفة التي تدلّ على أنّ الشفاعة لابدّ أن تكون بإذن الله تعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ**

ارْتَضَى﴾[1]، وقال تعالى: **﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾**[2].

الثالث: يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾** وجوب ردّ كلّ تحيّة، سواء كان بالكلام أم بالفعل، ممّا هو المتعارف عند كلّ قوم، أم بالإشارة، بل عمومها يشمل كلّ برّ، إلّا أنّ تحيّه الإسلام هو إلقاء السلام الذي هو علامة السلم والمسالمة، و قد أمر الله تعالى نبيّه الكريم بإلقائه على المؤمنين، فقال عزّوجلّ: **﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾**[3]، وهو من بقايا الدِّين الحنيف، قال جلّ شأنه حكاية عن إبراهيم عليه السلام فيما يحاور أباه: **﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾**[4]، و قال تعالى حكاية عن الملائكة التي جاءت إبراهيم: **﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ﴾**[5].

ويستفاد من الآيات الواردة في مقامات مختلفة، أنّ السلام كان قبل ذلك، وأنّه ممّا جعله الله تعالى تحيّة لنفسه، وأنّه من تحيّة الأنبياء:

قال تعالى: **﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾**[6].

وقال تعالى: **﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾**[7].

---

١. سورة الأنبياء: الآية ٢٨.

٢. سورة الزمر: الآية ٤٤.

٣. سورة الأنعام: الآية ٥٤.

٤. سورة مريم: الآية ٤٧.

٥. سورة هود: الآية ٦٩.

٦. سورة الصافات: الآية ٧٩.

٧. سورة الصافات: الآية ١٠٩.

وقال تعالى : ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾[٣] .

وأنّه من تحيّة الملائكة ، قال تعالى : ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾[٤] .

وأنّه من تحيّتهم للمؤمنين في الجنان ، قال تعالى : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾[٥] .

وهو من تحيّة المؤمن بعضهم على بعض في الجنان ، قال تعالى : ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[٦] .

وقال تعالى : ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً﴾[٧] .

وعموم الآية الشريفة يشمل وجوب الردّ على كلّ تحيّة ، إلّا إذا أسقط الشارع الأقدس احترامه ، مثل تارك الصلاة ، وظاهرها أنّ السلام تطوّع والردّ فريضة ، وأنّ الردّ الأولى هو أن يكون بالأفضل ، والثانوي أن يكون بالمثل .

الرابع : يدلّ قوله تعالى : ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أنّ الأصل في كلّ تشريع إلٰهي ـ بل المقصود منه فروع الدِّين ـ هو إقامة أُصوله من

---

١ . سورة الصافات : الآية ١٢٠ .

٢ . سورة الصافات : الآية ١٣٠ .

٣ . سورة الصافات : الآية ١٨١ .

٤ . سورة النحل : الآية ٣٢ .

٥ . سورة الرعد : الآية ٢٣ ـ ٢٤ .

٦ . سورة يونس : الآية ١٠ .

٧ . سورة الواقعة : الآية ٢٥ ـ ٢٦ .

الإيمان بالله تعالى وتوحيده والاستعداد ليوم الجزاء، فبهما تتمّ تحقيق الشريعة وإقامة الحقّ وتثبت الإيمان.

***

بحث روائي:

في «تفسير علي بن إبراهيم» في قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾**، قال: «يكون كفل ذلك الظلم الذي يظلم صاحب الشفاعة».

أقول: الكفل (بالكسر) الحظّ الذي فيه الكفاية أو النصيب، كما في قوله تعالى: **﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾**[1]، أي كفلين من نعمته في الدُّنيا والآخرة، والمراد من الرواية التنبيه على أنّ مَنْ ينضمّ إلى غيره معيناً له في فعل سيّئة، يناله منها حظّ من الشدّة والظلم؛ لأنّ ذلك من التسبيب للوقوع في السيّئة، وهو منهي عنه.

وفي «الخصال» عن الصادق عن آبائه عليهم السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «من أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو دلّ على خير أو أشار به، فهو شريك، ومن أمر بسوء أو دلّ عليه أو أشار به، فهو شريك».

أقول: لابدّ من حمل الرواية على التسبيب للوقوع في الحرام، وإلّا فمجرّد الإشارة إلى السيّئة أو الأمر بها لا يترتّب عليه إثم.

وفي «الجوامع» عن الصادق عليه السلام: «مَن دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب، استُجيب له، وقال له الملك: ولك مثلاه، فذلك النصيب».

أقول: الروايات في ذلك كثيرة، وهي نوع من الشفاعة الحسنة التي تقدّم البحث عنها.

وفي «الكافي» عن علي بن الحسين عليه السلام: «إنّ الملائكة إذا سمعوا المؤمن يدعو لأخيه بظهر الغيب ويذكره بخير، قالوا: نِعَم الأخ أنت لأخيك، تدعو له

---

١. سورة الحديد: الآية ٢٨.

بالخير وهو غائب عنك وتذكره بخير، قد أعطاك الله تعالى مِثْلي ما سألت له، وأثنىٰ عليك مِثْلي ما أثنيت عليه، ولك الفضل عليه، وإذا سمعوه يذكر أخاه المؤمن بسوء ويدعو عليه، قالوا: بئس الأخ أنت لأخيك، كف أيها المستر على ذنوبه وأربع على نفسك، واحمد الله الذي ستر عليك، واعلم أنّ الله أعلم بعبده منك».

أقول: هذه الرواية لا تنافي قوله تعالى: **﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾**[1]، لأنّها في مقام بيان استجابة دعاء المؤمن لأخيه المؤمن بظهر الغيب، وإنّ للداعي مثليَ ذلك، مُنحاً منه جلّت عظمته له للترغيب أو للجزاء، أو يكون من قبيل الأمر الوضعي للدُّعاء له.

وَ رَبَع كمنَعَ بمعنى وقف واقتصر، ومنه المثل المشهور: «حدّث امرأة حديثين فإن أبت فأربع»، أي: حدّثها حديثين فإن أبت فامسك ولا تتعب نفسك، وقيل: كرّر القول عليها أربع مرّات، فهو مَثَلٌ يُضرب للبليد الذي لا يفهم إلّا بالتكرار.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم»: «في قوله تعالى: **﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً﴾** أي: مقتدراً».

أقول: والروايات في تفسير الآية المباركة بذلك كثيرة، فعن نافع أنّه سأل ابن عبّاس عن قوله تعالى: **﴿مُقِيتاً﴾**، قال: «قادراً مقتدراً».

وفي «الدرّ المنثور» عن مجاهد في قوله تعالىٰ: **﴿مُقِيتاً﴾**، قال: «شهيداً حسيباً حفيظاً».

أقول: الرواية لا تنافي ما تقدّم؛ لأنّها من باب ذكر المصاديق للقدرة.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم» قوله تعالى: **﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا**

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾، قال: «السلام وغيره من البرّ».

وعن الصادقين عليهما السلام: «إنّ المراد بالتحيّة في الآية السلام».

أقول: الرواية من باب ذكر أحد المصاديق لما تقدّم في الرواية الأُولى، وفي «الكافي» بإسناده عن السكوني عن الصادق عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: السلام تطوّع، والردّ فريضة».

أقول: أمّا كون السلام تطوّعاً؛ لأنّه تحيّة، وأنّ المجتمع البشري ـ مهما كانت حضارته أو تخلّفه ـ لا يخلو من تحيّة يتعارفون بها عند ملاقاة بعضهم مع بعض، وهي على أقسام وأنواع، من رفع اليد، وضرب الرجل على الأرض، أو الإشارة بالرأس، أو رفع القلنسوة من الرأس، أو غيرها من الأُمور التي تختلف حسب العرف والعادة السائدة في ذلك المجتمع الإنساني، وجميعها تكشف عن نوع من الخضوع والاحترام للطرف المُسَلّم عليه. وقرّر الإسلام هذه الطريقة وحبّبها وجعل التحيّة إلقاء السلام الذي ينبأ عن الأمن بين المتلاقيين، فإنّ الأمن هو الأساس والركيزة الأُولى للمجتمع مهما كان شأنه ورقيّه، فيأمن بعضهم بعضاً في عرضه ونفسه وماله عند التلاقي، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾**[1]، وقد فسّر الإستيناس في الروايات بوقع النعل، وهو تفسير بأحد المصاديق، وقال تعالى: **﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾**[2].

وأمّا كون الردّ فريضة، لعلّ الحكمة فيها أنّ العقل والفطرة يحكمان بأنّه لابدّ

---

١. سورة النور: الآية ٢٧.

٢. سورة النور: الآية ٦١.

من إبراز قبول التحيّة الملقاة على الإنسان وهو يردّها ، ولا تكون إلّا بتحيّة قوليّة مثلها ، والأدلّة الشرعيّة منزلة عليهما .

وفي «كشف الغمّة» بسنده عن إسحاق بن عمّار، قال : «دخلت على أبي عبدالله عليه السلام وكنت تركت التسليم على أصحابنا في مسجد الكوفة ، وذلك لتقيّة علينا فيها شديدة، فقال لي أبو عبد الله عليه السلام : يا إسحاق متى أحدثت هذا الجفاء لأخوانك، تمرّ فلا تسلِّم عليهم؟ فقلت له : ذلك لتقيّة كنت فيها ، فقال : ليس عليك في التقيّة ترك السلام ، وإنّما عليك في الإذاعة ، إنّ المؤمن ليمرّ بالمؤمنين فيسلّم عليهم فتردّ الملائكة : سلامٌ عليك ورحمة الله وبركاته» .

أقول : تستفاد من هذه الرواية أُمور :

الأوّل : استحباب التسليم على المؤمن ولو كان في حال التقيّة ، وأنّ استحبابه ثابت في الجملة في ظرفها، إن لم يطرأ عليه عنوان آخر من الإيذاء والوقوع في الضرر وغيرهما؛ لأنّه نوع من المودّة والخضوع للمسلّم عليه كما تقدّم ، ويستفاد ذلك من قوله تعالى : ﴿**فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ**﴾[1]، وقال تعالى : ﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً**﴾[2].

الثاني : أنّ ترك التحيّة والسلام نوع من الجفاء ، وهو لا يكون بين المؤمنين؛ لأنّه تعالى يبغضه ، وللجفاء مراتب ، ولكلّ مرتبة درجات .

الثالث : أنّ الروحانيّين يردّون تحيّة المؤمنين ، وإن كانت الحجب ساترة وتمنع عن السماع ، وقد ترتفع لبعض أوليائه كما ثبت في محلّه .

الرابع : أنّ الأفضل في جواب التحيّة وردّها أن يكون بالأحسن ، وإلّا فبالمثل ، كما دلّت عليه الآية المباركة أيضاً .

---

١ . سورة الزخرف : الآية ٨٩.

٢ . سورة الفرقان : الآية ٦٣.

في «الكافي» بإسناده عن عليّ بن رئاب عن الصادقعليه السلام، قال: «إنّ من تمام التحيّة للمقيم المصافحة، وتمام التسليم على المسافر المعانقة».

أقول: يستفاد منه أنّ التحيّة والسلام من الأُمور الإضافيّة التي تتّصف بالكمال والنقصان، والأكمل والأتمّ، وأنّ المستحبّ فيها مجرّد وجودها، وأنّ الكمال والأكمل فضل.

وفي «تفسير القمّي» عن أبي جعفرعليه السلام، قال: «إذا دخل الرجل منكم بيته، فإن كان فيه أحد يسلّم عليهم، وإن لم يكن فيه أحد فليقل: السلام علينا من عند ربّنا، يقول الله تعالى: ﴿مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾[1]».

أقول: يستفاد منه أنّ استحباب التحيّة والسلام لا يدور مدار وجود الطرف المقابل أو المسلّم عليه، بل السلام أو التحيّة مستحبّ سواء كان المسلّم عليه موجوداً أو لم يمكن، أي يسلّم على نفسه كما في الحديث، ويمكن أن يكون السلام المذكور فيها دعاء خاصّ للدخول في البيت الذي لم يكن فيه أحد لا التحيّة الخاصّة.

وفي الحديث: «ما من عبد يمرّ بقبر رجل كان يعرفه في الدُّنيا فيسلّم عليه إلّا عرفه وردَّ عليه السلام».

أقول: يستفاد من هذا الحديث ـ مع قطع النظر عن السند ـ أُمور:

الأوّل: أنّه متى جاء الزائر علم به المزور سمع كلامه وردّ عليه، وهذا بالنسبة إلى الشهداء في الحقّ ونصب العدل والأولياء من المؤمنين، لا إشكال فيه؛ لاستيناس أرواحهم الشريفة مع عالم الشهادة، وإن كان مقرّها في العليّين، وعند الرفيق الأعلى كما تقدّم سابقاً، وأمّا بالنسبة إلى غيرهم من الكفّار والمنافقين

---

١. سورة النور: الآية ٦١.

والعصاة، فلا يكون كذلك لأنّ أرواحهم معذّبة إلى يوم القيامة، فليحق بها أجسامهم، وإنّ انقطاعهم عن عالم الشهادة نحو تعذيب لأرواحهم.

الثاني: أنّ الجواب إنّما يكون بلسان الحال لا بالتلفّظ والمقال، وفي بعض الأخبار أنّهم يتأسّفون على انقطاع الأعمال عنهم حتّى يتحسّرون على ردّ السلام وثوابه، فكما أنّ تأسّفهم حالي لا مقالي، كذلك سائر حالاتهم.

الثالث: أنّ الكمالات لا تنسلخ بالموت، وأنّ العلوم والمشاعر الروحيّة بكون مع الإنسان في جميع العوالم.

الرابع: أنّهم يسمعون السلام ويستأنسون به، وفي بعض الآثار يسمعون صوت نعلكم وحكاياتكم، ولذا ورد في زيارة أهل القبور من السلام عليهم وأنّهم يردّون الجواب، والحجب مانع عن سمع جوابهم، وتقدّم في شهداء أُحد وغيرهم أنّهم كانوا يردّون السلام.

الخامس: وصول السلام إلى صاحب القبر إن مرّ على قبره، فإذا لم يمرّ عليه وسلّم، فإنّ وصوله يدور مدار إحاطة الروح وعلوّ شأنها، فقد يصل إليه كما ورد في السلام على النبيّ ﷺ أو بعض الشهداء، وقد لا يصل؛ لأنّ أرواحهم مستأنسة بمحلّ قبورهم ولم تحط، فإنّ الشهادة هو عالم تربية الروح وتزكيته.

وفي «الكافي» بإسناده عن جراح المدائني عن الصادق عليه السلام، قال: «يسلّم الصغير على الكبير، والمارّ على القاعد، والقليل على الكثير».

أقول: ومثله ما أخرجه البيهقي عن زيد بن أسلم عن رسول الله ﷺ كما في «الدرّ المنثور»، ولعلّ ذلك من باب تأكد الاستحباب وتعدّد المطلوب؛ لأنّ توقير الكبير وإجلال الكثير أو القاعد، واحترامهم مطلوب في الجملة عند الشارع في حدّ نفسه، إن لم يطرأ عناوين أُخرى، فلو وقع العكس لم يخرج السلام عن استحبابه، ويستفاد من الحديث أدب الإسلام.

وفي «الدرّ المنثور» عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «افشوا السلام بينكم، فإنّها تحيّة أهل الجنّة، فإذا مرّ رجل على ملأ فسلَّم عليهم، كان له عليهم درجة وإن ردّوا عليه، فإن لم يردّوا عليه، ردّ عليه مَنْ هو خيرٌ منهم، الملائكة».

أقول: ورد في كثير من الروايات أنّ أهل الجنّة يتزاورون ولهم تحية، وهي السلام كما في الدُّنيا، قال تعالى: ﴿**وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً**﴾، وأمّا إفشاء السلام فهو من الوقار والأدب الكامل للمسلم، ويوجب رفع التشاح والتباغض، كما هو المعروف.

وفي «الفقيه» بإسناده عن مسعدة بن صدقة، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه عليهما السلام، قال: «لا تسلّموا على اليهود، ولا على النصارى، وعلى المجوس، ولا على عَبدَة الأوثان، ولا موائد شرب الخمر، ولا على صاحب الشطرنج والنرد، ولا على المخنّث، ولا على الشاعر الذي يقذف المحصَنات، ولا على المصلّي؛ لأنّ المصلّي لا يستطيع أن يردّ السلام؛ لأنّ التسليم من المسلّم تطوّع والردّ فريضة، ولا على آكلّ الربا، ولا على رجل جالسٍ على غائط، ولا على الذي في الحمام، ولا على الفاسق المعلن بفسقه».

أقول: لعلّ الحكمه في النهي عن السلام على هؤلاء الأقوام، إمّا لأجل النهي عن تولّيهم، كما قال تعالى: ﴿**لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾[3]، وإمّا لأجل أنّ ترك السلام يوجب ردعهم عن المعاصي، فهو أفضل

١. سورة الممتحنة: الآية ١.

٢. سورة المائدة: الآية ٥١.

٣. سورة هود: الآية ١١٣.

من تطوّع السلام عليه ، وإمّا أنـّه لا يحبّ أن يراه أحد على ما عليه من الحـالة ، فالسلام عليه يوجب إيذائه ، وإمّا لأجل أنّ السلام يوجب التقرّب له والشارع لا يحبّ التقرّب إليه ، كـالتقرّب إلى الظـالمين ، إلّا إذا كـان لإلقـاء الحـجّة عـليهم وإسماعهم كلمة الحقّ ، كما أمر النبيّ ﷺ بذلك .

في «الكافي» بـإسناده عـن السكـوني، عـن الصـادق عليه السلام، قـال : «قـال رسول الله ﷺ : مَن بدء بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه ، وقال : ابدؤا بالسلام قبل الكلام ، فمَن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تُجيبوه» .

أقـول : المراد من السلام مطلق التحيّة ، وأنّ النهي تنزيهي يختصّ بـصورة العمد والاختيار ، فيكون ذلك من النهي عن المنكر عملاً؛ لأنّ تركه خلاف الأدب الذي يهتمّ به الإسلام . وقد ورد في بعض الأخبار أنّ ذلك نوع من البخل .

في «الكافي» بإسناده عن ابن درّاج، عـن الصـادق عليه السلام، قـال : «اذا سـلّم أحدكم فليجهر بسلامه ولا يقول سلّمت فلم يردّوا عليَّ ، ثمّ قال : كان عـليّ عليه السلام يقول : لاتَغضِبوا ولا تُغضبوا وأفشوا السلام وأطيبوا الكلام وصلّوا اللّيل والناس نيام ، تدخلوا الجنّة بسلام ، ثمّ تلا عليهم قول الله عـزّ وجـلّ : ﴿**السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ**﴾» .

أقول : يستفاد منه أنّ الجهر في كلّ من السلام والردّ مسـتحبّ ، كـما فـي البسملة ، والحمل على الإرشاد بعيد عن السياق ، وأمّا النهي عن الغضب ، فـلما تقدّم في أحد مباحثنا أنّ الغضب كلّ شرّ ، وأنـّه يوجب البُعد عن الرحمٰن واتّباع الشيطان ، وما ذكر فيها من الأسباب لدخول الجنّة توجب أيضاً تزكية النفس في هذه الدُّنيا ورقيّها كما مرّ .

في «الكافي» بإسناده عن أبي عبيدة الحذاء، عن أبي جعفر عليه السلام، قال : «مرّ أمير المؤمنين عليه السلام بقوم فسلّم عليهم ، فقالوا : عليك السلام ورحمة الله وبـركاته

ومغفرته ورضوانه ، فقال لهم أمير المؤمنين عليه السلام : لا تجاوزوا بنا مثل ما قالت الملائكة لأبينا إبراهيم ، قالوا : رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت» .

أقول :لعلّ الحكمة في النهي عن ذلك والتحديد بالسنّة المأخوذة من حنيفيّة إبراهيم عليه السلام كما قالت الملائكه؛ لبيان أنّ الردّ ـ كالتحيّة في الإسلام ـ ورد فيها كيفيّة من الشرع ، فاتّباعها أولى وأفضل ، أو لأجل دفع شبهة الغلو لو صدر عن بعض العوام .

وفي «الكافي» بإسناده عن الحسن بن المنذر، قال : «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : «مَن قال : السلام عليكم ، فهي عشر حسنات ، ومَن قال : السلام عليك ورحمة الله ، فهي عشرون حسنه ، ومَن قال : السلام عليكم ورحمه الله وبركاته ، فهي ثلاثون حسنه» .

أقول : ومثله ما رواه البخاري في «الأدب المفرد» عن النبيّ صلى الله عليه وآله ، والبيهقي في «شُعب الإيمان» ، ولعلّ زياده الحسنات إمّا لأجل زيادة الصفات التي يلقيها المسلّم على المسلّم عليه، الذي يستحق تلك الصفات لإيمانه كما هو الظاهر ، أو لأجل كثرة الإخلاص والتقرّب إليه تعالى؛ لأنّ احترام المؤمن بذلك يكون أكثر فيحصل به التقرّب أزيد .

وفي «الكافي» بإسناده عن منصور بن خازم عن الصادق عليه السلام، قال : «ثلاثة تردّ عليهم ردّ الجماعة وإن كان واحداً ، عند العطاس يقول : يرحمكم الله وإن لم يكن معه غيره ، والرجل يسلّم على الرجل فيقول : السلام عليكم ، والرجل يدعو للرجل فيقول : عافاكم الله وإن كان واحداً ، فإن معه غيره» .

أقول :التعبير بصيغة الجماعة في الموارد المذكورة، إمّا نحو احترام للطرف المقابل ، وإمّا لأجل أنّ المؤمن دائماً معه الملائكة، إمّا الحفظة ـ كما في بعض الروايات والدعوات المأثورة ـ أو الملائكة ، بالكرام الكاتبون ، ويدلّ على ذلك

ذيل الرواية، والمراد بالردّ الأعمّ، فيشمل الابتداء أيضاً.

وفي «الكافي» بإسناده عن جميل عن الصادق عليه السلام، قال: «اذا كان قوم في مجلس ثمّ سبق قوم فدخلوا، فعلى الداخل أخيراً (الأخير ـ كما في الوافي) إذا دخل أن يسلّم عليهم».

أقول: الرواية من باب الإرشاد إلى الآداب الإسلاميّة.

وفي «الخصال» عن الصادق قال: حدّثني أبي عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السلام: «إذا عطس أحدكم فسمّتوه، قولوا: رحمكم الله، وهو يقول: يغفر لكم ويرحمكم، قال الله عزّ وجلّ **﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾**».

أقول: يستفاد منه أنّ التحيّة الواردة في الآية المباركة أعمّ من السلام والتسميت وغيرهما كما تقدّم في التفسير، وتدلّ عليه الرواية الآتية.

وفي «المناقب»: «جاءت جارية للحسن عليه السلام بطاق ريحان، فقال لها: أنتِ حرّةٌ لوجه الله تعالى، فقيل له في ذلك، فقال عليه السلام: أدّبنا الله تعالى فقال: **﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾**، وكان أحسن منها إعتاقها».

أقول: هكذا تكون الفضائل، والطاق: الفرد الواحد من الشيء.

ويستفاد منه أنّ التحيّة أعمّ من القوليّة والفعليّة ومن السلام وغيره، ويأتي ما يدلّ على ذلك.

وفي «عيون أخبار الرضا» بإسناده عن أبي الحسن الرضا، قال: «مَن لقي فقيراً مسلماً فسلّم عليه خلاف سلامه على الغنيّ، لقى الله عزّ وجلّ يوم القيامة وهو عليه غضبان».

أقول: وقريب منه غيره، والوجه في ذلك أنّه نوع من النفاق والإهانة والتحقير للمؤمن، وأنّها مبغوض عند الله تعالى.

وفي «تفسير الصافي»: «إنّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ: السّلام عليك، فقال ﷺ: وعليك السّلام ورحمة الله، وقال آخر: السّلام عليك ورحمة الله، فقال: وعليك السّلام ورحمة الله وبركاته، وقال آخر: السّلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليك، فقال الرجل: نقصتني، فأين ما قال الله، وتلا الآية: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ فقال ﷺ: إنّك لم تترك لي فضلاً ورددت عليك مثله».

أقول: روي قريب منه في «الدّر المنثور» عن سلمان الفارسي، ويستفاد منه أنّ الردّ إذا كان بالأحسن، لابدّ وأن يكون من سنخ التحيّة الحنيفيّة الإبراهيميّة كما تقدّم، وإلّا كان لرسول الله ﷺ أن يردّ بالمغفرة والرضوان والعافية وغيرها للأخير.

وكيف كان، فالرواية تدّل على عظيم خُلقه.

وفي «الكافي» بإسناده عن عبد الله بن سنان عن الصادق عليه السلام، قال: «ردّ جواب الكتاب واجب، كوجوب ردّ السلام».

أقول: وأخرج البيهقي عن ابن عبّاس، قال: «إنّي لأرىٰ جواب الكتاب حقّاً كما أرى حقّ السلام»، وقد تقدّم أنّ التحيّة الممدوحة أعمّ من اللفظيّة والفعليّة أو الكتابيّة، والمراد من الحقّ المجاملي والأخلاقي.

***

بحث فقهي:

يستفاد من سياق الآية الشريفة: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ جملة من الأحكام الشرعيّة:

الأوّل: أنّ التحيّة هي نوع من العبادة، فيُثاب عليها إن لم يتحقّق مانع من ذلك، ويدلّ عليه قوله ﷺ: «المراد من التحيّة في الآية السلام وغيره من البرّ»، وتقدّم ما يدلّ على تحديد الثواب على اختلاف التحيّة بالسلام.

الثاني: أنّ السلام من المستحبّات الكفائيّة لظاهر سياق الآيـة المـباركة؛ ولقول الصادق عليه السلام: «إذا سلّم من القوم واحد أجزأ عنهم»، فلو كـان الداخـلون جماعة فسلّم أحدهم، يسقط استحبابه عن الباقين.

ولكن مقتضى إطلاق بعض الروايات، بقاء استحباب السلام بـالنسبة إلى الباقين، مثل قول أبي جعفر عليه السلام: «إنّ الله عزّ جلّ يحبّ إفشاء السلام»، وعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله قال: «السلام اسم من أسماء الله تعالى، وضعه الله في الأرض فافشوه بينكم»، مع أنـّه من الآداب المجامليّة الممدوحة عقلاً وشرعاً.

الثالث: وجوب ردّ التحيّة لظاهر الآية الشريفة، ولجملة من الروايات أيضاً كما مرّ بعضها، وعمومها يشمل كلّ أنواع التحيّة وفى جميع الحالات، إلّا أنّ في الصلاة تختصّ الرد بـ(سلام عيكم) فقط كما ذكرنا في كتابنا (مهذب الأحكام)، فلا تشمل غيره من أنواع البرّو الإحسان، وإن كان الأفضل والأولى الردّ؛ لما مرّ من قول الصادقين عليهما السلام: «المراد من التحيّة في الآية السلام وغيره من البر»، وتـقدّم التسميت في التعطيس، وذكرنا في (مهذب الأحكام) ما يتعلّق بذلك.

الرابع: يجب أن يكون الردّ في أثناء الصلاة بمثل ما سلّم، فلو قال «سلام عليكم»، يجب في الجواب والردّ أن يكون كذلك، ففي «صحيح» ابن مسلم، قال: «دخلت على أبي جعفر عليه السلام وهو في الصلاة، فقلت: السلام عليك، فـقال عليه السلام: السلام عليك، فقلت: كيف أصبحت؟ فسكت، فلمّا انصرف قلت: أيردّ السلام وهو في الصلاة؟ قال عليه السلام: نعم، مثل ما قيل له»، والمسألة مـحرّرة فـي كـتب الفـقه بشقوقها.

الخامس: يجب الردّ فوراً؛ لأنـّه المناسق من الأدلّة عرفاً، كما أنـّه مقتضى المرتكزات في ردّ التحيّات القوليّة، مضافاً إلى الاجماع.

السادس: ردّ السلام واجب كفائي، فيسقط بردّ واحد عن البقيّة، ويدلّ عليه

الإجماع، والنصوص الكثير، منها ما رواه غياث بن إبراهيم، عن الصادق عليه السلام:
«إذا سلّم من القوم واحد أجزأ عنهم، وإذا ردّ واحد أجزأ عنهم».
هذا بالنسبة إلى الوجوب.

وأمّا بالنسبة إلى استحباب الردّ، فالظاهر بقاؤه وعدم سقوطه عن الباقين؛ لأنّه نحو مجاملة وتودّد وتحبّب، ولا ريب في رجحان ذلك كلّه.

السابع: مقتضى عموم الآية الكريمة جواز سلام الأجنبي على الأجنبيّة وبالعكس، إذا لم يكن هناك ريبة أو خوف فتنة، ويدلّ على ذلك روايات كثيرة. وما دلّ على الخلاف مثل خبر غياث: «لا تسلّم على المرأة»، أو «لا تبدؤوا النساء بالسلام»، فمحمول على ما إذا تحقّق عنوان الريبة أو الخوف أو الفتنة، جمعاً وإجماعاً.

الثامن: يجوز السلام على الكافر، خصوصاً إذا استلزم ترغيبه للإسلام، فإنّه من مكارم الأخلاق التي اهتمّ بها الإسلام أشدّ الاهتمام، ودعى إليها الناس، وما ورد في بعض الأخبار من النهي عن السلام عليهم ابتداء، كما في خبر غياث، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تبدؤوا أهل الكتاب بالتسليم، وإذا سلّموا عليكم فقولوا: وعليكم»، ونحوه غيره، يمكن حملها على الكراهة بقرينة ما ورد في بعض الأخبار: «قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: أرأيت إن احتجت إلى الطبيب وهو نصراني، أُسلّم عليه وادعوا له؟ قال عليه السلام: نعم، إنّه لا ينفعه دعاؤك»، فإذا لم ينفعه السلام ولا الدُّعاء، لا وجه للحرمة. نعم هو مرجوح؛ لأنّه نحو اعتناء بالمسلّم عليه، فلا يليق بمَن يعادي الله وسوله ذلك، لو لم يكن جهة راجحة في البين، كالدعوة إلى الإسلام، والضرورة ونحوهما، وأمّا جواب سلام الكافر فواجب لما مرّ.

التاسع: استحباب الردّ بالأحسن في غير حال الصلاة، بأن يقول في (سلام

عليكم) : «سلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ، كما مرّ في البحث الروائي ، ويجوز الردّ بالمثل، ولو كانت التحيّة بالشرّ ، فالردّ الأحسن بالحلم والعفو أو المكافأة بالخير ، ولو أراد المثليّة تكون ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾ ، ولكن في وجوب ردّ مثل هذه التحيّة منع؛ لأنّ المنساق من أدلّة التحيّة ووجوب ردّها أن تكون التحيّة من الخير والبر كما مرّ ، وأمّا لو كان غير ذلك كما لو سلّم تحقيراً للمؤمن أو تهديداً للقتل أو قصد بسلامه إيذاء الطرف المقابل ، لا تشمله الأدلّة المتقدّمة ، وإنّ التمسّك بالعموم تمسّك بالعامّ في الشبهة المصداقيّة ، كما هو واضح .

وهناك فروع كثيرة متعلّقة بالسلام والتحيّة مذكورة في الكتب الفقهيّة والأخلاقيّة ، ومن شاء فليرجع إليهما .

***

الآية ٨٨ ـ ٩١

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً ﴿٩١﴾﴾.

الآيات الشريفة ترتبط بالآيات الكريمة السابقة، وكأنّها متفرّعة عليها بعد تعيين الحكم الحقّ وتشريع القتال، وبيان الطوائف التي كانت في المجتمع الإسلامي، ثمّ التعرّض للشفاعة الحسنة والشفاعة السيّئة، وأنّ كلتا الشفاعتين تعطي لصاحبها النصيب والكفل من حسناتها ومساءتها.

ويبيّن عزّ وجلّ في هذه الآيات الشريفة الفئات المختلفة داخل المجتمع

الإسلامي، ودعا المؤمنين إلى الاتّحاد، وعدم الاختلاف في أمر المنافقين والتحزّب الى حزبين، فئة ترى قتالهم وفئة تشفع لهم وتحرّض على ترك قتالهم وإهمالهم.

كما أنّ الآيات المباركة تحدّد موقف المسلمين أزاء الفئات خارج المجتمع الإسلامي، من الكفّار المخالفين لقوم بينهم وبين المسلمين ميثاق، وهم محايدون لا يريدون الكيد بالمسلمين والدخول في حرب معهم، ولا الحرب مع قومهم الّذين على دينهم، وفئة ثالثة يتلاعبون، يُظهرون الإسلام مع المسلمين، ويبطنون النفاق والكفر ليأمنوا الطائفتين، ثمّ يأمرهم بقطع مادّة الفساد بعد أن ردّهم عزّ وجلّ إلى الضلال؛ جزاءً بما كسبوا من السيّئات، ومَن يظلل الله فما له من سبيل إلى الهدى، فلا يُرجى منهم الخير.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾.

إنكار على ما حصل من المؤمنين من التفرقة في أمر المنافقين إلى فرقتين مختلفتين، فرقة تتبرّأ من المنافقين وترى قتالهم، وفرقة أُخرى تتولّاهم وتشفع لهم وترى ترك قتالهم، فلم يتّفقوا على كفرهم وقتالهم، واختلفت الروايات في شأن نزول الآية الشريفة، و لا بأس بحملها على تعدّد النزول وبيان بعض المصاديق إن صحّت تلك الروايات.

وكيف كان، فالآية المباركة تدلّ على توبيخ المؤمنين على تفرّقهم وعدم اجتماعهم في قطع مادّة الفساد، والإغماض عن شجرة الضلال بتركها حتّى تنمو وتقف عائقة في سبيل الدين الحقّ ونشر العدل.

كما أنّ الآية الشريفة ترشد المؤمنين إلى كيفيّة التعامل مع الفئات في داخل

المجتمع، وتأمرهم بالاتفاق والاتّحاد والتعاون بينهم مقابل الفئة، فإمّا الحكم عليهم بالكفر والقتال معهم، أو نبذهم والإعراض عنهم وعدم التعامل معهم.

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾.

تأكيد للإنكار السابق وبيان السبب له، والجملة حال من المنافقين، أي كيف تتفرّقون في شأنهم والحال أنّ الله أركسهم وقد ارتدّوا إلى الكفر.

ومادّة (ركس) تدلّ على التحوّل والانقلاب، أي قلب الشيء على رأسه وردّ أوّله إلى آخره، وهو:

تارة: ظاهري، كالردّ والقلب، كما في النكس الذي يكون الركس أبلغ منه؛ لأنّ من يرمي منكساً في هوّة، قلّما يتخلّص منها.

وأخرى: معنوي، كالتحوّل من الحالة العاديّة والفطرة المستقيمة إلى الحالة الرديئة، كما حكى عنها عزّ وجلّ في قوله تعالى: **﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**[1]، وهذا هو الانقلاب من الفطرة المستقيمة إلى غيرها وهو الركس، أي التحوّل المعنوي والانقلاب من الهدي والصراط المستقيم الى الكفر والضلالة، كما يدلّ عليه ذيل الآية الشريفة.

والمعنى: أنّ الله تعالى رماهم منكّسين إلى الضلالة، وحوّلهم من الإيمان إلى الكفر، جزاءً بما كسبوا من الخطايا والسيّئات التي أفسدت فطرتهم، فارتدّوا إلى الكفر وأوغلوا في الضلال وبعدوا عن الحقّ، فلا يرجى منهم الخير والهداية، ومثل هذا التعبير لم يرد في المنافقين، وهو يكشف عن شدّة غيّهم وضلالهم وغورهم في الكفر، وقد أهتمّ سبحانه وتعالى بالمنافقين وذكرهم في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم، وأفرد لهم سورة خاصة، وبيّن جميع ما يتعلّق بهم

---

١. سورة الملك: الآية ٢٢.

وكشف عن نواياهم وسوء سرائرهم.

وإنّما نسب عزّ وجلّ الركس إلى نفسه اهتماماً بهم، ولبيان أنّ الأعمال الاختياريّة التي ارتكبوها ما كانت لتؤثّر في نفوسهم، إلّا بإرادة منه عزّ وجلّ، ولسلب التوفيق منهم.

قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾.

توبيخ آخر لهم وبيان للركس الوارد في صدر الآية المباركة وتعجيز لهم، أي أنّ ذلك محال، فإنّ الذي ردّ إلى الضلالة والكفر ليس في استطاعتكم هدايته وتغيير سنّة الله تعالى فيه، فلا تفيد شفاعتكم في هداية هؤلاء الذين أضلّهم الله تعالى.

وتوجيه الإنكار إلى الإرادة، لبيان شدّته والمبالغة فيه، ببيان أنّ إرادة الهداية ممّا لا يمكن، فضلا عن إمكان نفسها.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾.

التفات من خطاب المؤمنين إلى الرسول الكريم ﷺ، وفيه إشارة إلى أنّ من تشفّع من المؤمنين في حقّهم لا يدرك هذه الحقيقة، وإلّا فلم يشفع لهم.

وهذه الآية الكريمة تبيّن حقيقة من الحقائق الواقعيّة الجارية في خلقه تعالى، وهي أنّ الذي أخزاه الله تعالى بسبب سوء أعماله الاختياريّة، فصار ضالاً عن الحقّ، لم يكن له سبيل إلى الهداية.

وإنّما نفى عزّ وجلّ وجود السبيل فضلاً عن نفس الهداية مبالغة، ولانسداد الطرق بالنسبة إليه؛ لأنّه خرج عن الفطرة المستقيمة، فلا تؤثّر فيه أيّة حجّة ودليل، فليس له من سبيل آخر يؤثّر فيه ويرجعه إلى رشده ليهتدي إلى الصراط المستقيم.

قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾.

وصف لنفسيّاتهم الضالّة المضلّة، وبيان لتماديهم في الكفر، وتصدّيهم لإضلال غيرهم بعد ما ضلّوا وكفروا، كما حكى عنهم عزّجلّ في ما سبق، فتكون الآية المباركة بياناً لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾، فهم يتمنّون أن يكون المؤمنون مثلهم في الكفر والنفاق على سواء، فلا أثر للهداية فيه؛ لأنّهم ليسوا من الكفّار الّذين يقتنعون بكفر أنفسهم فقط، بل ردّهم الله تعالى وحوّلهم من الصراط المستقيم والفطرة المستقيمة التي تدعو إلى تكميل النفوس والثبات على الحقّ.

وهذه الآية الشريفة تدلّ على أنّ الله تعالى صرف الهداية عنهم؛ لأجل اختيارهم الكفر واقترافهم السيّئات.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾.

إرشاد إلى المؤمنين بالبراءة منهم، وعدم اتّخاذهم أولياء في الخلّة والصداقة وإلقاء المودّة، بعدما عرفتم نفسياتهم من الوداد للكفر والنفاق حتّى يؤمنوا إيماناً صحيحاً بالهجرة في سبيل الله تعالى.

والمراد من الهجرة الأعمّ من ترك المعاصي والنفاق ونبذ الأهل والأوطان؛ لأنّها على أقسام، أهمّها الهجرة عمّا يوجب سخط الله تعالى والدخول في ما يرضيه، وهي هجرة الأنبياء والأولياء عليهم السلام والصالحين، ففي الحديث: «المهاجر مَن هجر ما نهى الله عنه»، وهي على مراتب متفاوتة ودرجات مختلفة. ومثل هذه الهجرة واجبة بظاهر الآية الشريفة، وإن كانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان متوقّفة على تحقّق شروطها المذكورة في كتب الفقه.

وقد تضمّنت الآية المباركة أهمّ حكم تربوي إصلاحي يعالج به الفئات الضالّة في داخل المجتمع، فإنّ البراءة منهم وترك اتّخاذهم أولياء، أو بالأحرى

هجرة أهل الإيمان عن أهل النفاق، لها الأثر النفسي الكبير في إصلاح نفوسهم المريضة المضلّة، وترويضها على قبول الحقّ؛ ولذا كانت البراءة منهم مقدّمة على هجرة أهل النفاق، فإنّها بدون البراءة لا يكون لها ذلك الأثر الكبير في إصلاح النفوس، فلابدّ وأن يكون الإرشاد والتوجيه على طبق ما ورد في الآية الشريفة؛ ليرجى منه الخير والصلاح والرشاد.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

أمر بالقتال حيث تحقّق شروطه، وهي الإعراض عن الإيمان المصاحب بالهجرة المستقيمة التي تكشف عن رسوخ الإيمان في القلب، ونبذ النفاق والعداء للحقّ وأهله، وقد أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بقتلهم حيث ما وجدوهم في الحلّ والحرم، كسائر الكفّار بعد نقض العهد منهم.

والآية الكريمة تأمر المؤمنين أن يطلبوا منهم الهجرة ومراقبة أعمالهم، وتبيّن العلّة في قتالهم والعذر في جهادهم، وقد ذكر عزّ جلّ بعض أحكام جهادهم في سورة التوبة كما سيأتي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾.

حكم اجتماعي تربوي لإصلاح النفوس وتهذيبها بالأمر بمقاطعتهم مقاطعة كلّية، والمجانبة عنهم أبداً بعدم قبول الولاية ولا النصرة منهم، وبدأ بالنهي بلفظ المضارع الدالّ على الاستمرار، وتكرار أداة النفي الدالّ على التأكيد على أهمّية الحكم، وتشجيع الهمم عليهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾.

استثناء من الضمير في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ﴾؛ لبيان

أنّ القتال مع المنافقين إنّما كان لضرورة ، فلابدّ وأن تتقدّر بقدرها ، وقد استثنى عزّ وجلّ طائفتين :

إحداهما : مَن ترك المحاربين ولحق بالمعاهدين مع المؤمنين : أي إلّا أُولئك المنافقين الّذين ينتهون إلى قوم معاهدين مع المسلمين ويدخلون فيهم ، وقد عاهدوكم على مفارقة المحاربة معكم .

والصلة أعمّ من الجوار والحلف والالتجاء والعهد ، ممّا كان متعارفاً في ذلك العصر ممّا يستجار ويؤمن به .

الثانيّة : الّذين لحقوا بالمؤمنين، وهم يتحرّجون عن مقاتلة قومهم ومقاتلة المؤمنين ، كما سيأتي .

وذكر بعض المفسّرين أنّ الاستثناء يرجع إلى المؤمنين الّذين لم يهاجروا ، فإنّ الله تعالى قد أوجب الهجرة على كلّ مَن أسلم ، فاستثنى مَن كان له عذر ، وهم الّذين قصدوا الرسول للهجرة والنصرة إلّا أنّه منعهم الكفّار الّذين يخافونهم ، فصاروا إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق ، وأقاموا عندهم ينتهزون الفرصة لإمكان الهجرة .

واستثنى أيضاً مَن صاروا إلى الرسول ﷺ والمؤمنين ولكن لا يقاتلون المسلمين ولا يقاتلون الكفّار معهم؛ لأنّهم أقاربهم أو تركوا عندهم الأهل والمال ، فيخافون الفتك بهم إذا هم قاتلوا مع المسلمين .

وهذا الوجه بعيد عن ظاهر الآية المباركة كما هو معلوم؛ لأنّ الكلام مع المنافقين الّذين أركسهم الله تعالى ، سواء كانوا في دار الكفر أو في دار الهجرة .

قوله تعالى : **﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾** .

هذه الفئة الثانية من المنافقين الّذين استثناهم عزّ وجلّ من القتل . والحصر (بفتحتين) هو الضيق والانقباض ، وحصرت الصدور، أي ضاقت ، والحصر في القول هو الضيق في الكلام ـ ومنه الحصر بالفتح فالكسر ـ أي الكتوم للسرّ ، والجملة حال من الضمير المرفوع في «جاءوكم» ، فلابدّ من إضمار «قد» أي جاءوكم وقد حصرت صدورهم ، وقيل غير ذلك كما يأتي في البحث الأدبي .

والمعنى : إلّا الّذين جاءوكم ولحقوا بكم كافّين عن القتال وقد ضاقت صدورهم عن قتالكم وقتال قومهم ، ويمكن أن يُراد بهؤلاء هم المتحرّجون عن القتال لا مع المؤمنين ولا عليهم ، فنفاقهم إنّما يكون بالولاء .

وكيف كان ، فهاتان الطائفتان مستثنون من الحكم المذكور في صدر الآية الشريفة .

والمستفاد منها اهتمام الإسلام بالعهود ومراعاة المواثيق، ومجانبة القتال مهما أمكن ، إلّا إذا دعت الضرورة إليه ، فحينئذٍ تتقدّر الضرورات بقدرها ، كما عرفت آنفاً .

قوله تعالى : ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ**﴾ .

منّة على المؤمنين ، أي من رحمته بكم أنّه تبارك وتعالى صرف تلك الفئتين عنكم لأسباب عديدة ، ولو شاء عزّ وجلّ ليسلّطهم عليكم بوجوه ، منها إزالة الرعب عنهم وتقوية عزيمتهم وبسط صدورهم لقتالكم، فلم يكفّوا عنكم ولم ينصرفوا عن قتالكم ، فإنّه على كلّ شيء قدير ، فهو قادر على أن يسلّط مَن يشاء على مَن يشاء اذا اقتضت حكمته المتعالية ذلك .

قوله تعالى : ﴿**فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ**﴾ .

أي : فإن لم يتعرّضوا لكم ولم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم والصلح ، بأن استسلموا ونبذوا العداء لكم .

قوله تعالى: ﴿فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾.

أي فما أذن الله لكم في الاعتداء عليهم وقتالهم، فإنّ الله تعالى لم يشرّع القتال إلّا إذا اعتدي على المؤمنين. وكان رسول الله ﷺ لا يقاتل أحداً وقد تنحّى عنه واعتزله حتّى نزلت سورة التوبة وأُمر بقتل المشركين، اعتزلوه أو لم يعتزلوه، إلّا مَن قد كان على عهدٍ مع رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[١].

قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾.

إخبار عن قوم لم يهتدوا بهدى الإسلام، ولم يستقرّ الإيمان في قلوبهم، فقد أسلموا رياءً ليأمنوا بطش المؤمنين، وكفروا بالحقّ ليأمنوا قومهم، فهم مذبذبون لا يهمّهم إلّا حفظ أنفسهم وسلامة أبدانهم، وقد أخبر عزّ وجلّ بأنّهم منافقون؛ ليحذر المؤمنون منهم فلا يوادعونهم كما لا يوادعونهم.

ومضمون الآية المباركة لا يختصّ بعصر النزول، فإنّ أهل الحقّ على ابتلاء بمثل هؤلاء الطائفة في كلّ عصر، وأنّهم يعانون من نفاقهم، وعدم خضوعهم أمام الواقع، وعدم إذعانهم بالحقّ واتباعه.

قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾.

أي: كلّما سنحت لهم الفرصة إلى الفتنة ـ وهي الكفر ومساعدة الكفّار على المؤمنين ـ تحوّلوا إليها بسهولة شرّ تحوّل، وانتكسوا من العهد والأيمان، وعادوا إلى الكفر أقبح عود.

والارتكاس هو: الانتكاس والقلب أقبح قلب وأشنعه. وهذا الوصف يكشف عن شدّة غيظهم وبُعدهم عن الحقّ، كما تكشف عنه الآية التالية أيضاً.

---

١. سورة التوبة: الآية ٥.

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ .

بيان لشروط قتال هذه الطائفة ، وتبديل الكلام فيها من الإثبات إلى النفي ، واختلافه عمّا ذكره تعالى في الطائفة السابقة ، قال تعالى : ﴿فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾؛ لإرشاد المؤمنين إلى خبث هذه الطائفة، وأخذ الحيطة عن هؤلاء، وتشديد الحذر منهم .

والشروط التي ذكرها عزّ وجلّ لترك قتالهم ، هي اعتزالهم عن المسلمين ، وعدم التحريض على قتلهم ، واستسلامهم بالمصالحة والموادعة مع المسلمين ، والانقياد لهم وكفّ أيديهم عن قتال المسلمين ، فإنّ بهذه الشروط يؤمّن جانبهم فلا يخاف غدرهم وشرّهم ، وإن لم يتحقّق شرط من هذه الشروط فقد تّمت الحجّة عليهم ، فيحلّ عليكم قتالهم ، كما أخبر عزّ وجلّ .

قوله تعالى : ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ .

جواب للشروط المزبورة ، أي فإن لم تتحقّق تلك الشروط، ولم يفعلوا ذلك ، فأسروهم واقتلوهم حيث وجدتموهم وتمكنتم منهم؛ لتمامية الحجّة عليهم .

قوله تعالى : ﴿وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً﴾ .

أي : جعلنا لكم على هذه الطائفة حجّة واضحة في التعرّض لهم بالسبي والقتل ، لظهور عدوانهم وكفرهم، وخيث سرائرهم إصرارهم على الغدر والإضرار بالإسلام وأهله ، ويمكن أن يُراد بالسلطان المبين هو التسلّط الظاهر عليهم ، حيث أذِنَ عزّ وجلّ في أخذهم وقتلهم ، ويؤيّده تقابل هذه الآية الكريمة بقوله تعالى في الآية السابقة : ﴿فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ .

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

«ما» في قوله تعالى: **﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾** استفهام إنكار وهو مبتدأ، و«لكم» خبره، و«فئتين» منصوب إمّا على أنّه حال من ضمير «لكم» المجرور، والعامل فيه إمّا الاستقرار أو الظرف. وإمّا منصوب على أنّه خبر (كان) مقدّرة، أي ما لكم في شأنهم كنتم فئتين.

وأُشكل على الوجهين بأمور ذكروها في كتب النحو، فراجع.

وجملة: **﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾** حال من المنافقين تفيد تأكيد الإنكار السابق، والباء للسببيّة، و(ما) إمّا موصولة أو مصدريّة.

و«لو» في قوله تعالى: **﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾** مصدريّة لا جواب لها، والفاء في قوله تعالى: **﴿فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾** للعطف لا للجواب، كقوله تعالى: **﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾**[1]، فيكون من عطف المصدر المقدّر على الملفوظ.

وقوله تعالى: **﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾** عطف على صلة **﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾**، والتقدير: (أو الّذين جاؤكم). **﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾** حال بإضمار (قد)، أو صفة لموصوف محذوف هو حال من فاعل «جاؤكم»، أي جاؤكم قوم حصرت، أو في موضع خفض على النعت لقوم.

واللام في **﴿فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾** لام المجازاة والازدواج كما ذكره جمع، أو لام الجواب لعطفه على الجواب؛ ولا حاجة لتقدير (لو).

و«يكفوا» في قوله تعالى: **﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا**

---

١ . سورة القلم: الآية ٩.

أَيْدِيَهُمْ﴾ عطف على المنفي لا النفي، بقرينة سياق الآية المباركة، وسقوط النون الذي هو علامة الجزم لا يدلّ على كون العطف على النفي؛ لأنّ الجملة مبدوّة بـأن الشرطية، وهي جازمة مطلقاً، سواء كان العطف على النفئ أو المنفي.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يستفاد من الآيات الكريمة حكم الإسلام مع الفرق المخالفة للمؤمنين، وتثبيت أركان القانون العامّ. ويؤكّد على الوفاء بالمواثيق، ويربّي المؤمنين على احترام العهود، ويأمرهم بالاتحّاد أمام الفرق المخالفة، وينهاهم عن الاختلاف في شأنهم بعد اشتراكهم في الكفر، ويأمرهم بالرجوع إلى الحقّ والدخول في صفوف المؤمنين وإلّا كان القتل، كما يأمرهم بعدم اتّخاذهم أولياء وأنصاراً إلّا مَن كان بينكم وبينهم عهد وميثاق، فلابدّ من احترامه وعدم نقضه، فإنّه يؤمّن جانبهم ما داموا على العهد، أو من كان منهم من لا يريد القتل ويشمئز منه، فإنّه يؤمّن أيضاً مادام معتزلاً عنه.

ثمّ يبيّن عزّ وجلّ حكم الطائفة الأُخرى التي تريد الغدر بالإسلام وأهله، واختلف الحكم فيهم عن الحكم في الطائفة الأُولى، فاعتبر في قتلهم أُمور عدميّة بخلاف السابق، وهي عدم الاعتزال، وعدم إلقاء السلام، وعدم كفّ الأيدي؛ لاختلاف الموردين، فإنّ الأُولى كانت عازمة على قتال المسلمين، وأمّا الثانية فقد كانت على غدر وخيانة ويريد القضاء على الإسلام. ومن هنا جاء اختلاف السياق في الموردين.

الثاني: يستفاد من قوله تعالى: **﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ﴾** أنّ اختلاف المؤمنين في شأن المنافقين، إنّما كان لأجل حبّهم لهدايتهم ورجوعهم

إلى الحقّ، والتجنّب عن سفك الدماء لا خوفاً ولا جُبناً، أو الإعراض عن حكم الله تعالى، بدليل قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾، ومع ذلك فقد وقعوا موقع التوبيخ؛ لأنـّه يرجع إلى تولّي أعداء الله تعالى.

الثالث: يدلّ قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾، على أنّ الأعمال لها الشأن الكبير في النكوص عن الحقّ، والإعراض عن طاعة الله تعالى، والدخول في سلك أعدائه عزّ وجلّ، وانسلاكه في زمرة المنافقين.

الرابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ أنّ جميع ما يعدّه الإنسان في هداية شخص، وما يبذله من جهدٍ في إراءة الطريق، لا يُجدي نفعاً إذا لم تسبقه هداية من الله تعالى وتوفيق منه عزّ وجلّ، فهي كالعلّة المـادّية لقبول الصور الواقعة عليها، التي تحصل من إيمان الفرد وجهده وعمله.

الخامس: يستفاد من مجموع الآيات الشريفة في المقام، أنّ المنافقين الّذين ورد ذكرهم فيها على فريقين:

فريق: دخلوا في الإسلام خوفاً من الحسام، وقد أبطنوا الكفر، يتربّصون بالمسلمين الدوائر، يظهرون المودّة لهم إذا ظهر لهم قوّة، وإذا تبيّن ضعفهم انقلبوا عليهم وأظهروا العداوة والبغضاء.

وفريق آخر: يظهرون الولاء للمسلمين طمعاً للمال أو المادّة، فهم يتبعونه أينما وجد، مذبذبون بين ذلك، لا إلى المسلمين ولا إلى الكفّار، فيأمنوا الجانبين، تراهم يردّون إلى الفتنة شرّ تحوّل مرة بعد أُخرى.

وهناك فريق ثالث: دخلوا في الإسلام ولم يهتدوا بهديه، تراهم ينكصون عن الطـاعة، ويـتمرّدون عـلى الشـريعة، ولم يسـتسلموا لأحكـام الله تـعالى ورسوله.

وفريق رابع: لاحظوا الجوانب المادّية والبُعد المادّي في الإسلام، ولكنّهم

يعرضون عن الجانب المعنوي الروحاني فيه، فتراهم يعملون ويطيعون لأجل البعد المادّي، قد فقد فيهم الخلوص، وهم منافقون في الأعمال، بخلاف القسم الأوّل الذي كان النفاق في الإيمان والأعمال، وهذان الفريقان وإن لم يذكرا في هذه الآيات المباركة، ولكن سبقت الإشارة إليهما في الآيات الكريمة السابقة، وسيأتي أقسام أُخرى نشير إليها في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى، ويستفاد من مجموعها اختلاف أغراض المنافقين وتعدّد سبل كيدهم وغدرهم.

السادس: تدلّ الآيات المباركة على شروط ترك القتال مع المنافقين، وهي مضافاً إلى كونها شروطاً لاعتزال القتال، هي في نفس الوقت أُسس تربويّة لإصلاح النفوس المريضة، فلم تكن مجرّد شروط يفرضها الحاكم على المحكوم للنيل منه أو دحره واحتقاره، بل هي أحكام تربويّة إصلاحيّة، فتكون من موارد تطبيق نظرية الإسلام في تشريع الأحكام.

وهذه الشروط هي: الاعتزال عن القتال وتركه، والصلح والانقياد، وكفّ الأذى عن المؤمنين، وكلّ ما يوجب الإهانة بالإسلام والمسلمين، وهذه الشروط الثلاثة من أهمّ الطرق لإصلاح النفوس وترويضها على الطاعة والانقياد.

السابع: يمكن أن يكون قوله تعالى: **﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾** كناية عن ترك جميع ما يمسّ بكرامة الإسلام والمسلمين من الأذى والنبز والإهانة والتعريض وجميع الدسائس، وبذلك يؤمن شرّهم ويترك القتال معهم بالصلح والانقياد معهم تصلح نفوسهم.

***

بحث روائي:

في «المجمع» في قوله تعالى: **﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾** قال:

«اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، نزلت في قوم قدموا المدينة من مكّة فأظهروا للمسلمين الإسلام ثمّ رجعوا إلى مكّة؛ لأنّهم استوخموا المدينة فأظهروا الشرك ثمّ سافروا ببضائع المشركين إلى اليمامة، فأراد المسلمون أنّ يغزوهم فاختلفوا، فقال بعضهم: لا نفعل فإنّهم مؤمنون، وقال آخرون: إنّهم مشركون، فأنزل الله تعالى فيهم الآية» وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام.

أقول: قريب منه ما رواه في «الدرّ المنثور»، ومعنى: «استوخموا المدينة» استثقلوها ولم يوافق هواؤها أبدانهم لمرض كالوباء أو غيره، وفي الحديث: «مَن أضلّه الله وأعمى قلبه، استوخم الحقّ»، أي استثقله ولم يقبله وصار الشيطان وليّه وقرينه.

وكيف كان، فالرواية من باب التطبيق وذكر المصداق للآية المباركة.

وفي «الدرّ المنثور» في قوله تعالى: **﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾** قال: «خطَب رسول الله صلى الله عليه وآله الناس فقال: مَن لي بمَن يؤذيني ويجمع في بيته مَن يؤذيني؟ فقام سعد بن معاذ فقال: إن كان منّا يا رسول الله قتلناه، وإن كان مَن إخواننا من الخزرج أمرتنا فأطعناك، فقام سعد بن عبادة فقال: ما بكَ يا ابن معاذ طاعة رسول الله، ولكن عرفت ما هو منك، فقام أُسيد بن حضير، فقال: إنّك يا ابن عبادة منافق تحبّ المنافقين، فقام محمّد بن مسلمة، فقال: اسكتوا أيّها الناس، فإنّ فينا رسول الله وهو يأمرنا فننفذ لأمره، فأنزل الله تعالى الآية».

أقول: لعلّ وجه استنصاره صلى الله عليه وآله بهم لامتحانهم بعد إتمام الحجّة عليهم، فبيّن الله تعالى ما كان في ضمائرهم وكشف عن حقيقتهم. والرواية من باب التطبيق والجري لا التخصيص والحصر.

وفي «تفسير القمّي» في قوله تعالى: **﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ**

سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ـ الآية ـ﴾: «أنـّها نزلت في أشجع وبني ضمرة، وهما قبيلتان، وكان من خَبرهم إنّه لمّا خرج رسول الله ﷺ إلى غزاة الحديبية أتى بدراً لموعد مرّ قريباً من بلادهم، وقد كان رسـول الله ﷺ هادن بني ضمرة ووادعهم قبل ذلك، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله، هذه بنو ضمرة قريباً منّا ونخاف أن يخالفونا إلى المدينة، أو يعينوا علينا قريشاً، فلو بدأنا بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: كلا، إنّهم أبرّ العرب بالوالدين وأوصلهم للرحم وأوفاهم بالعهد.

وكانت أشجع بلادهم قريباً من بلاد بني ضمرة من بطن كنانة، وكان أشجع بينهم وبين بني ضمرة حلف بالمراعاة والأمان، فأجدبت بلاد أشجع وأخصبت بلاد بني ضمرة، فصارت أشجع إلى بلاد بني ضمرة، فـلما بـلغ رسـول الله ﷺ مسيرهم إلى بني ضمرة تهيّأ للمسير إلى أشجع ليغروهم للموادعة التي بينه وبين بني ضمرة، فأنزل الله تعالى: ﴿**وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَـفَرُوا فَـتَكُونُونَ سَـوَاءً فَـلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً**﴾ ثمّ استثنى بأشجع فقال: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُـقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً**﴾، وكانت أشجع محالها البيضاء والحال والمستباح، وقد كانوا من رسول الله ﷺ فهابوا لقربهم من رسـول الله أن يبعث إليهم مَن يغزوهم، وكان رسول الله ﷺ قد خافهم أن يصيبوا من أطرافه شيئاً فهمَّ بالمسير إليهم، فبينما هو على ذلك إذ جاءت أشجع ورئيسها مسعود بن رجيلة وهم سبعمائة فنزلوا شعب سلع، وذلك في شهر ربيع سنة ست من الهجرة، فدعا رسول الله ﷺ أُسيد بن حصين، وقال له: اذهب في نفر من أصحابك حتّى تنظر ما

أقدم أشجع، فخرج أُسيد ومعه ثلاثة نفر من أصحابه فوقف عليهم، فقال: ما أقدمكم؟ فقام إليه مسعود بن رجيلة ـ وهو رئيس أشجع ـ فسلّم على أُسيد وعلى أصحابه، فقالوا: جئنا لنوادع محمّداً ﷺ، فرجع أُسيد إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: خاف القوم أن أغزوهم فأرادوا الصلح بيني وبينهم، ثمّ بعث إليهم بعشرة أحمال تمر فقدّمها أمامه، ثمّ قال: نِعَم الشيء الهدية أمام الحاجة ثمّ أتاهم فقال: يا معشر أشجع ما أقدمكم؟ قالوا: قريب دارنا منك وليس في قومنا أقل عدداً منّا، فضقنا لحربك لقرب دارنا منك وضقنا لحرب قومنا لقلّتنا فيهم، فجئنا لنوادعهم، فقبل النبيّ ﷺ منهم ووادعهم، فأقاموا يومهم ثمّ رجعوا إلى بلادهم، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ** ـ إلى قوله تعالى ـ **فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً**﴾».

أقول: الرواية من باب التطبيق لا التخصيص، ويستفاد منها أُمور:

الأوّل: إنّما وداع رسول الله ﷺ قبيلة بني ضمرة وعاهدهم لما فيهم من الصفات الحسنة التي تقرّبهم إلى الفطرة السليمة والإسلام، ولعلّ صلحه ﷺ معهم صار سبباً لإسلامهم فيما بعد.

الثاني: يستفاد من تقريره ﷺ للموادعة والمعاهدة التي كانت بين بني ضمرة وأشجع، أنّ كلّ معاهدة تكون بين الرهطين والقبيلتين تجوز إن لم تناف مع الأحكام الشرعيّة. والمراد من «ليغروهم» في الرواية، أي ليظهر ﷺ عجبه ورضاه للموادعة التي بين أشجع وبين بني ضمرة.

الثالث: يستفاد منها أنّ إهداء رسول الله ﷺ أحمال التمر لهم لأجل تأليف قلوبهم وترغيبهم لمناصرة الحقّ، أو لأجل أنّه ﷺ عَلم أنّ القوم بحاجة إلى ذلك، فأرسل إليهم ليسدّ حاجتهم حتّى يعرفوا بذلك خُلقه الكريم ومعالم دينه الحنيف.

وفي «المجمع»: المروي عن أبي جعفر عليه السلام، أنّه قال: «المراد بقوله

تعالى: ﴿قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ هو هلال بن عويمر السلمي وأوثق عن قومه رسول الله ﷺ وقال في موادعته: على أن لا نحيف يا محمّد مَن أتانا، ولا تحيف مَن أتاك. فنهى الله تعالى أن يتعرّض لأحد عهد إليهم».

أقول: المراد من الحيف الظلم والجور، وفي الحديث: «إنّا معاشر الأنبياء لانشهد على الحيف»، أي على الظلم والجور، والرواية من باب ذكر أحد المصاديق أو التطبيق.

وفي «الكافي» بإسناده عن الفضل أبي العباس، عن الصادق عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾، قال: «نزلت في بني مدلج؛ لأنّهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنّا قد حصرت صدورنا أن نشهد أنّك لرسول الله، فلسنا معكم ولا مع قومنا عليك، قال: قلت: كيف صنع بهم رسول الله ﷺ ؟! قال: وادعهم إلى أن يفرغ من العرب ثمّ يدعوهم فإن أجابوا وإلّا قاتلهم».

أقول: الرواية من باب التطبيق، وإن المعاهدة التي قرّرها رسول الله ﷺ كانت ماداميّة لمصلحة هي أهمّ من مقاتلتهم، كما مرّ في التفسير.

العيّاشي عن سيف بن عميرة، قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾قال: كان أبي عليه السلام يقول: نزلت في بني مدلج اعتزلوا فلم يقاتلوا النبيّ ﷺ ولم يكونوا مع قومهم، قلت: فما صنع بهم؟ قال: لم يقاتلهم النبيّ ﷺ حتّى فرغ من عدوّه، ثمّ نبذ إليهم على سواء، قال: و ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾وهو الضيق».

أقول: الرواية من باب التطبيق كما مرّ، والمراد من قوله عليه السلام: «ثمّ نبذ إليهم على سواء»، خالفهم وجاهر معهم الحرب.

البيهقي في «سننه» عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى

قَوْمٍ بَيْنَكُمْ﴾ قال: «نسختها براءة **﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾**».

أقول: إنّ الأمر بقتل المشركين بعد إتمام الحجّة عليهم، وأنّ رسول الله ﷺ لم يبتدأ بقتال أحد من المشركين إلّا إذا اعتدى المشركون على المؤمنين وتّمت الحجّة عليهم، فليس المراد من النسخ معناه المصلح، بل هو نوع من التخصيص كما مرّ.

وفي «تفسير القمّي» عن الصادق عليه السلام: «كانت السيرة من رسول الله ﷺ قبل نزول سورة البراءة ألّا يقاتل إلّا من قاتله، ولا يحارب إلّا من حاربه، وقد كان نزل في ذلك من الله سبحانه: **﴿فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾**، وكان رسول الله ﷺ لا يقاتل أحداً قد تنحّى عنه واعتزله حتى نزلت عليه سورة براءة وأمر بقتل المشركين، مَن اعتزله ومَن لم يعتزله، إلّا الّذين قد كان عاهدهم رسول الله ﷺ يوم فتح مكّة إلى مدّة».

أقول: الحديث طويل ويأتي بيانه في سورة براءة إن شاء الله تعالى، والمراد من قتل المشركين المعاندون الّذين تمت الحجّة عليهم، كما مرّ.

وفي «المجمع» عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: **﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾** قال: «نزلت في عيينة بن حصين الفزاري، أجدبت بلادهم فجاء إلى رسول الله ﷺ ووادعه على أن يقيم ببطن نخل ولا يتعرّض له، وكان منافقاً ملعوناً، وهو الذي سمّاه رسول الله ﷺ الأحمق المطاع في قومه».

أقول: الرواية من باب التطبيق، والمراد من بطن نخل، موضع بين مكّة وطائف.

وفي «الدرّ المنثور» في قوله تعالى: **﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ ـ الآية﴾** عن مجاهد

قال: «ناس من أهل مكّة كانوا يأتون النبيّ ﷺ فيسلمون رياءً ثمّ يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصالحوا».

أقول: الرواية من باب التطبيق وذكر أحد المصاديق.

***

الآية ٩٢ ـ ٩٤

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴿٩٤﴾﴾.

الآيات الشريفة تشتمل على أُمهات الأحكام وتتضمّن أصلاً مهمّاً من أُصول الشريعة الإسلاميّة، وهو احترام الدماء المصونة وحفظها، وبه تتمّ الأُصول الثلاثة التي عليها دين خاتم الأنبياء، وقد ذكر سبحانه وتعالى الأصلين الآخرين في الآيات السابقة، وهما احترام المال، واحترام العرض.

كما ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآيات المباركة حال المؤمنين بعد بيان حال الكفّار والمنافقين، كذلك بين أحكام قتالهم، وبهذه المناسبة بيّن عزّ وجلّ حكم القتل خطأً والقتل عمداً في ما يقع بين المسلمين بعضهم مع بعض، كما ذكر

حكم قتلهم لغيرهم، وشدّد جلّ شأنه في الدم، وحرَّم قتل المؤمن مطلقاً، وجعل عليه الكفّارة والدية، ولعن تعالى القاتل الذي قتل أخاه المؤمن عمداً وعدواناً، وأعدّ له العذاب العظيم بعدما غضب عليه.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً﴾.

بيان لأهمّ حكم من الأحكام الإلهيّة في أبلغ أسلوب وأفصح عبارة، فإنّها تدلّ على نفي الشأن الذي هو أبلغ من نفي الفعل، أي لا يوجد في المؤمن بعد دخوله في حريم الإيمان اقتضاء لقتل مؤمن أبداً، بل لا يليق بحاله، ولا ينبغي له قتل مَن تشرّف بالإيمان بالله ورسوله مطلقاً، أيُّ قتلٍ كان، ولو صدر منه في حالات خاصّة، كحالة الحرب وفي ساحة القتال.

ومثل هذا النهي الدالّ على نفي الشأن والاقتضاء كثير في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[2].

وإنّما ذكر عزّ وجلّ المؤمن لبيان أنّ الإيمان جُنّة واقية من كلّ ظلم وجريمة، وهو يمنع صاحبه من قتل أخيه المؤمن بعد أن دخل في حريم الإيمان وحماه.

والآية الشريفة وإن كانت لنفي الشأن والاقتضاء، لكنّها متضمّنة للحكم

---

١. سورة الأحزاب: الآية ٥٣.

٢. سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

التكليفي، فتنهى عن القتل، فيكون النفي بمعنى النهي للمبالغة وشدّة التنزيه عن ارتكاب القتل، أي يحرم على المؤمن قتل المؤمن إلّا إذا كان القتل خطأً غير مقصود له بعنوانه، فلا حرمة هنا، فلا يستفاد من الآية الكريمة عدم استحقاق الحرمة في هذا النوع من القتل، فلا حاجة لجعل الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ منقطعاً لدفع الاحتمال المزبور، بل الاستثناء على حقيقة، أي الاستثناء المتّصل ـ كما عرفت ـ فتكون الآية المباركة دالّة على عدم وضع الحرمة في الفعل غير المقصود.

ويحتمل أن يكون الاستثناء بمعنى النفي، أي ولا خطأً، كما استعمل فيه في غير موضع، ويدلّ عليه بعض الأخبار، كما يؤيّده تشديد الأمر في القتل وشدّة الاحتياط في الإسلام.

والخطأ اسم من خطأ يخطأ خطأً، وهو الفعل الخالي عن القصد بعنوانه الفعلي، ويلحق به ما إذا كان فيه القصد إلى شيء زعماً، وهو على خلاف الواقع، كما إذا زعم أنّ المقتول كافر جائز القتل، وهو في الواقع مؤمن محقون الدم، وغير ذلك كما ذكرنا في كتاب القصاص والديّات من (مهذب الأحكام).

والخطأ حسب التقسيم العقلي على أقسام:

الأوّل: أن يريد غير ما يحسن فعله، وإرادته فيفعله، وهذا هو الخطأ التامّ.

الثاني: أن يريد ما يحسن فعله، ولكن يقع منه خلاف ما يريد، فأصاب في الإرادة وأخطأ في الفعل.

الثالث: أن يريد ما لا يحسن فعله ويتّفق منه خلافه، فهذا الخطأ في الإرادة ولمصيب في الفعل، وهذا هو معنى (أراد) في قوله:

أردتَّ مساءتي فأجرتْ مسرّتي وقد يحسن الإنسانُ من حيث لا يدري

فهذه اللفظة مشتركة كما ترى، والجامع أنّ مَن أراد شيئاً فاتّفق منه غيره

يقال أخطأ . وإن وقع منه كما أراده يقال أصاب .

قوله تعالى : ﴿**وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ**﴾ .

التحرير الإعتاق ، وهو جعل المملوك حرّاً ، والرقبة وإن كانت بمعنى العنق ، ولكن شاع استعمالها في النسمة والنفس ، كما يعبّر بالرأس والظهر عن المركوب ، تعبيراً عن الكلّ باسم الجزء المقوّم له . وإنّما عبّر كذلك؛ لأنّ الرقيق يحني رقبته دائماً لمولاه .

والمعنى : ومَن قتل مؤمناً على الخطأ ، وجب عليه تحرير رقبة مؤمنة ، ويأتي تفصيل الكلام في البحث الفقهي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿**وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ**﴾ .

واجب آخر مضافاً إلى عتق الرقبة المؤمنة ، أي تسليم الديّة إلى أهل المقتول . والديّة ما يعطى عوضاً عن دم المجنيّ عليه ، نفساً كان أو عضواً ، وهي مصدر ودي القتيل يديه ودياً وديةً ، كعدة وزنة من الوعد والوزن .

ومن إطلاق الديّة وعدم تقييدها بشيء يستفاد حكاية كلّ ما يرضى به أهل المقتول ، ولكن السنّة الشريفة حدّدتها بأُمور خاصّة ، فهي من الذهب ألف دينار ، ومن الفضة عشرة آلاف درهم ، ومن الإبل مائة ، ومن البقر مائتان ، ومن الشاة ألف ، ومن الحُلّة اليمانيّة مائتا حُلّة ، ويعتبر في الإبل أن تكمل السنة الخامسة وتدخل في السادسة ، وكذا في البقر . وأمّا الشاة ، فلا يعتبر فيها شيء ويكفي المسمّى ، كما فصّل في كتب الفقه .

والمسلّمة ، أي : المدفوعة المؤدّاة إلى أهل المقتول ، وهو أولياءه وورثته الجامعون للشرائط المقرّرة في الشرع .

قوله تعالى : ﴿**إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا**﴾ .

أي : إلّا أن يتصدّق أولياء القتيل عليه بالدية ، وإنّما سمّى العفو عن الديـة بالصدقة حثّاً عليه ، فلا تجب على القاتل الديّة حينئذٍ ، ولما في الصدقة من الفضل والأجر ، فيكون في العفو كذلك ، فإذا عفى يكون له الفضل على القاتل .

كما يستفاد من الآية المباركة أنّ الديّة ممّا يقبل العفو ، وأمّا الكفّارة فلاتسقط بحال إلّا إذا عجز عنها ، كما ذكر في الفقه .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ .

أي : فإن كان المقتول خطأً مؤمناً وأهله من الكفّار المحاربين لكم ، بأن قتله وهو بين قومه ولم يعلم القاتل بكونه مؤمناً ، فلا ديّة فيه ، تخصيصاً لأدلّة الديّة ، كما ذكرنا في (مهذب الأحكام) ، ولكن عليه الكفّارة ، وهي تحرير رقبة وعتق نسمة مؤمنة كفّارة لقتله إيّاه .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ .

أي : وإن كان المؤمن المقتول من الكفّار الّذين بينكم وبينهم عهد ، فعلى القاتل الديّة والكفّارة . أمّا الديّة فتسلّم إلى أهله؛ لأنّهم أحقّ بها ، وأمّا الكفّارة فهي عتق رقبة مؤمنة ، فيكون حكم المعاهد حكم المؤمن ، وإنّما أفرده بالذكر تأكيداً لمراعاة العهود والمواثيق ، وأنّ كفرهم لا يمنع الديّة بخلاف غير المعاهد .

وإطلاق العهد يدلّ على كونه أعمّ من المؤقّت والمؤبّد ، وسواء كان العهد عهد ذمّة أم غيره ، فيشمل كلّ عهد قرّره الشارع الأقدس .

وإنّما قدّم تعالى هنا الديّة على الكفّارة عكس السابقة ، مراعاة لحقوق الذمّة والميثاق .

قوله تعالى : ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ .

الضمير يرجع إلى الرقبة؛ لأنّها أقرب، أي فمن لم يستطع التحرير بأن لم يوجد الرقبة أو لا يملك ما يتوصّل به إليها، فعلبه صيام شهرين متتابعين بدلاً عنه، وإطلاق الشهر ينصرف إلى القمري منه.

والتتابع: معروف، وهو عدم الفصل بين الأيام بالفطر، ولكن فسّرت السنّة التتابع بأن يصوم الشهر الأوّل من غير فطر، ويصوم شيئاً من الشهر الثاني ولو يوماً واحداً، فإن تحقّق بعد ذلك ما يخلّ به التتابع فلا يضرّ به، ويأتي نقل بعض الروايات الدالّة على ذلك.

قوله تعالى: ﴿تَوْبَةً مِنَ اللهِ﴾.

أي: أنّ ما شرّعه الله تعالى من الكفّارة والديّة في هذا الأمر الفظيع، إنّما هو رحمةً من الله تعالى عليكم ورأفة بكم، فتطهر نفوسكم وتتزكى، فتأخذوا الحيطة لئلّا تعودوا إلى القتل ولو كان خطأً.

ويحتمل أن يرجع هذا القيد إلى خصوص الأخير، أي أنّ إيجاب الصوم بدلاً عن عتق الرقبة إنّما هو توبة وعطف منه عزّ وجلّ عليكم، فكان تخفيفاً من الله تعالى عليكم.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

أي: أنّ الله تعالى عليم بمصالح العباد وأحوال النفوس، وحكيم في تشريع الأحكام، فهو جلّ شأنه يشرّع فيها ما يهديكم إلى الرشاد، وما تصلح به النفوس، وما يوجب سعادتكم في الدارين.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾.

بيان للقتل العمديّ المستفاد من الآية المباركة السابقة صدراً ومفهوماً، من

كونه ليس من شأن المؤمن أن يصدر منه هذا النوع من القتل.

والتعمّد: هو القصد إلى الفعل بالعنوان الذي له عن علم به، يقال: «فعله عمداً»، أي قصداً لا خطاءً ولا عن طريق الاشتباه، بل كان عن التفات ويقين.

والقتل: هو إزهاق الروح، وهو على قسمين ـ كما تقدّم ـ مقصود وهو العمد، وغير مقصود وهو القتل خطاءً.

وإنّما كان جزاء القتل العمد عظيماً لفظاعته، ولأنّه ينافي الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾.

أي: أنّه مضافاً إلى أنّ جزاءه جهنّم خالداً فيها، أنّه غضب عليه انتقاماً منه للقاتل لشناعة فعله، ولعنه تعالى فأبعده عن رحمته.

قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾.

لا يعلم قدره ولا كنهه أحد إلّا الله تعالى، والعذاب: هو كلّ ما شقّ على الإنسان واشتدّ عليه، وهو:

تارة: نفسي، كالمنع عن المراد مثلاً، وذلك على أنواع كثيرة.

وأُخرى: خارجي، كالتعذيب بالأشياء الخارجيّة، وكلّ منهما دنيوي وأُخروي.

وقد أغلظ سبحانه وتعالى في وعيد هذا الذنب العظيم بما لا يكون في غيره، ويستفاد منه تناسب الجزاء مع الفعل، فإنّه إزهاق لروح مؤمنة بريئة وتعطيل لها عن الكمال والوصول إلى ما تبتغيه، فكان الجزاء عذاب جهنّم وقطعاً للرحمة عنه، وغضباً منه عزّ و جلّ عليه.

ويستفاد من الآية المباركة عدم قبول توبته، ولكن ذكرنا في الآيات الشريفة السابقة لا سيما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ

ذَلِكَ﴾[١] وأمثالها بما تصلح أن تكون قيداً لهذه الآية، فيكون الوعيد حتماً إن لم تكن توبة نصوح في البين من القاتل، وإلّا فالتوبة مقبولة بمقتضى تلك الآيات الشريفة، أو يكون قتل المؤمن لأجل إيمانه، وسيأتي في البحث الروائي بعض الروايات الدالّة على ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا﴾.

إرشاد إلى حكم فطري، وهو أخذ الحيطة في الأُمور والتجنّب عمّا يوجب الندم، وبيان إلهي يهدي المؤمنين إلى التوقّف في مَن يريدون قتله إذا ظهرت عليه علامات الإيمان، من الشهادة والسلام الذي هو علامة الاستيمان وتحيّة الإسلام، حتّى يتبيّن الأمر ويتّضح عدم إيمانه فيجب التحفّظ وقتله، ولا يحملوا ما صدر منه على المخادعة، فإنّ الإسلام دين الأمان.

والضرب: هنا بمعنى السير في الأرض والسفر، وسمّي الضرب سفراً؛ لأنّه يحصل بضرب الأرض بالأرجل، وعن عليّ عليه السلام في غريب كلامه: «فإذا كان كذلك ضرب يعسوب الدين بِذَنَبِه، فيجتمعون إليه كما يجتمع فزع الخريف»، وتقدّم ما يتعلّق باشتقاق هذه المادّة.

والتقليد بكونه في سبيل الله تعالى، يفيد أنّه السفر إلى الجهاد والخروج إلى الغزو في سبيل الله تعالى، أو مطلق العبادة والتقرّب إليه عزّ شأنه.

والتبيين: التأنّي وترك العجلة، والتقرّب وهو التفعّل بمعنى الاستفعال الدالّ على الطلب، أي التدبّر للتمييز بين المؤمن وغيره.

وحكم الآية الشريفة يوافق الفطرة التي تدعو إلى التأنّي والرويّة وترك العجلة في مواطن الضرر، حتّى يتبيّن ويتّضح الأمر.

---

١. سورة النساء: الآية ٤٨.

والمعنى: يا أيّها الّذين آمنوا إذا سافرتم إلى الجهاد ومنازلة أعداء الله وقتالهم في سبيل الله تعالى، فتوقّفوا وتأنّوا حتّى تعلموا مَن يستحقّ القتل ومَن لا يستحقّه، فلا تقدموا على قتل أحد إلّا إذا علمتم كونه حرباً لله ورسوله.

قوله تعالى: **﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾**.

بيان لعلامة من علامات الإيمان، وهي التحيّة بإلقاء السلام، والسلم (بكسر) السين وفتح اللام) والسلم (بفتح السين) والسلام واحد، وقرئ بها كلّها، ومعناها الاستسلام والانقياد.

وكيف كان، فالمعنى: ولا تقولوا لمَن أظهر لكم ما يدلّ على إسلامه، لست مؤمناً، وإنّما كان عن خوف من القتل وطمعاً للبقاء.

قوله تعالى: **﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾**.

المراد بعرض الحياة الدُّنيا في المقام الغنيمة والمال، أي تقتلونه وتطلبون من قتله الغنيمة والمال.

والتعبير بالعرض لبيان كونه سريع الزوال، ويستفاد منه أنّ تلك هي العلّة في التعجيل في قتله، فلم يكن الغرض من القتال سبيل الله تعالى وإقامة دينه.

قوله تعالى: **﴿فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾**.

تعليل للنهي، ويتضمّن الوعد أيضا بما هو أكثر وأبقى وأدوم.

والمغانم: جمع المغنم، والمراد من الكثيرة الدائمة والباقية، فهي أفضل من مغانم الدُّنيا الزائلة، فلابدّ أن يكون مورد اختياركم، بل هي التي تستحقّ الإيثار دون غنيمة الدُّنيا الزائلة.

قوله تعالى: **﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾**.

أي : على هذا الوصف كنتم من ضعف الايمان، وابتغاء عرض الحياة الدُّنيا قبل الإسلام، ودخلتم فيه من غير أن تعلم مواطاة قلوبكم مع ألسنتكم ، وقبل أن يثبت الايمان في قلوبكم ، فقد منّ الله عليكم بإعلان الإيمان وثباته الصارف عن ابتغاء عرض الحياة الدُّنيا، حتّى طلبتم ما عند الله من المغانم الكثيرة ، فيجب عليكم أن تتبيّنوا ولا تتعجّلوا في الحكم ، وافعلوا مع الداخلين في الإسلام ما فعله الله بكم . وفي تكرار الأمر بالتبيّين لما فيه من الأهمّية وللتأكيد في الحكم .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ .

توعيد على المخالفة ، أي أنّ الله لا يخفى عليه شيء ، فيعلم جميع نواياكم وكلّ ما تعملونه فيجازيكم عليها .

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً﴾** على أنّ الإيمان جُنّة واقية يحفظ بها دماء المؤمنين، ويستفاد من نفي الاقتضاء المستفاد من (ما) النافية المتضمّن للنهي التكليفي أيضاً، أنّه لا يوجد في المؤمن بعد دخوله في حريم الايمان، وبعد أن حماه الإيمان اقتضاء للقتل أبداً، وأنّ المؤمن لا يقصد يقتل مؤمن أصلاً، فإذا تحقّق منه شئ من ذلك لكان قتلاً خطأً لعدم وجود قصد إليه، ويستفاد هذا من تكرار لفظ المؤمن أيضاً.

الثاني: يستفاد من تفصيل الحكم في قتل الخطأ ـ بين قتل المؤمن وهو من المؤمنين، فتكون فيه الديّة والكفّارة، وقتله وهو بين الأعداء، فإنّ فيه الكفّارة فقط، وقتله وهو بين المعاهدين ففيه الديّة والكفّارة معاً ـ أهمّية هذا الحكم، فإنّه لم يذكر في مورد الخطأ في الشريعة المقدّسة تفصيل بهذا المضمون، مع أنّ الحكم موضوع عن الفعل الخطأ، كما ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «رُفع عن أُمّتي تسع ـ وعدّ منها ـ الخطأ والنسيان»، فيستفاد من ثبوت الحكم في مورد الخطأ في المقام وتفصيل الحكم فيه أهمّية الدماء في الإسلام، وأنّه لا يجوز إراقة الدماء المحترمة إلّا إذا ورد من قبل الشارع الأقدس الإذن فيها صريحاً.

الثالث: يستفاد من ثبوت الديّة والكفّارة في قتل المؤمن خطأً وهو بين قومه من الكفّار المعاهدين، أهمّية العهد والميثاق، فلابدّ أن يحفظ ولا يجوز نقضه.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾** على أنّه لابدّ من رفع ما يوجب التنازع والخصام في هذا الموضوع القابل للجدال، بأن تكون الديّة حاضرة مسلّمة إلى أهل المقتول بلا تأخير فيها قطعاً للنزاع والخصام، إلّا إذا اتّفق الطرفان على التأخير.

الخامس: يستفاد من قوله تعالى: **﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾** أنّ العفو من الديّة في هذه الحالة التي تثور فيها الضغائن ويشتدّ فيها الغضب، من الصدقة التي أمر الله تعالى بها في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم، وأنّ فيها الفضل الكبير عند الله تعالى.

السادس: يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾** شدّة الحكم في القتل العمدي بما لم يكن في أي حرام آخر، فقد أوعد عزّ وجلّ على القاتل كذلك أربعة أنواع من العذاب، الخلود في جهنّم، وغضب الله تعالى عليه، واللعن، والعذاب العظيم، كلّ ذلك لأهمّية الدّماء في الإسلام واحترامها عند الله تعالى، وأنّ إزهاق الروح المحترمة في الشريعة كبيرة موبقة لا يعادلها شيء أبداً، وأنّ كلّ نفس في مقابل الدم المحترم قليل بالنسبة إليه، ولعلّ ما ورد عن الأئمّة الهداة المعصومين عليهم السلام: «التقيّة في كلّ شيء فإذا بلغت الدم فلا تقيّة»، ناظر إلى ذلك.

السابع: يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾** أهمّية السلام في الإسلام، فإنّه تحيّة تحقن الدم وتحفظ الذمام.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: **﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** أنّه ينبغي للمؤمن أن يكون غرضه من جهاده وكفاحه سبيل الله تعالى لا الدُّنيا الفانية الزائلة، فإنّ عند الله تعالى المغانم الكثيرة الدائمة الباقية.

التاسع: يدلّ قوله تعالى: **﴿تَوْبَةً مِنَ اللهِ﴾** بعد سرد جملة من الأحكام

الشرعيّة والكفّارة وبدل الكفّارة ـ وهو صيام شهرين متتابعين ـ أنّ تلك الأحكام توبة من الله تعالى للمجتمع وعناية بهم ورحمة لهم، فإنّ جعل الكفّارة في القتل الخطأ توبة وعناية من الله تعالى للقاتل فيما لحقه من آثار القتل ودرنه؛ ليكون سبباً في تحفّظه، فلا يعود إليه ثانياً، كما أن تحرير الرقبة التي هي عبءٌ ثقيل على المجتمع، فإنّ المملوك عضو ميّت وإن كان بصورة الأحياء؛ لأنّه ليس له كمال الاختيار بالتصرّف بما شاء، فيكون تحريره بمنزلة إحيائه بدل ما فقدوا منهم واحد، كما أنّ صيام شهرين متتابعين بدل عتق الرقبة؛ لأنّ له الأهمّية الكبيرة في ترويض النفس وإرغامها على قبول الفضائل وترك الرذائل، فهو من الأُمور التربويّة الإصلاحيّة.

العاشر: يشتمل قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾** على العظة والتوبيخ، ولايدلّ على كون القتل في هذه الآية المباركة من القتل العمد، فإنّ الظاهر أنّ القاتل زعم كون المقتول كافراً وأراد خلاص نفسه بإلقاء السلام، فلم يثق بكونه مؤمناً، فتكون الآية الشريفة ردّاً عليه، وتوبّخه بأنّ المدار في الإسلام على الظاهر. وأمّا الباطن والحقيقة، فلا يعلمهما إلّا الله تعالى.

وبناءً على هذا، يكون قوله تعالى: **﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** نازلاً على مقتضى الحال، أي حالكم في قتل من يظهر الإسلام مَن دون اعتناء بشأنه حال المؤمن الذي يجاهد في سبيل الغنيمة وجمع المال، فلا يكون قصده سبيل الله تعالى، فإنّ من سبيل الله هو الاعتناء بأحوال المؤمنين والأخذ بظاهر الإسلام، لا ما كان عليه حال المؤمنين قبل الإسلام، فإنّه لم يكن قصدهم إلّا ابتغاء عرض الحياة الدُّنيا إلى أن منَّ الله تعالى عليهم بالإيمان وهداهم برسول الله ﷺ.

ثمّ إنّ المراد من سبيل الله الأعمّ من السير في الأرض ـ كما هو الظاهر من

الآية المباركة ـ أو السير والسلوك إلى الله تعالى في طلب المعرفة والهداية إلى الحقّ والإيمان به، فيكون للسير والضرب حينئذٍ الدرجات بالارتقاء بأن يصير الإيمان به إيقاناً، والإيقان عياناً، والعيان غيباً، وصار الغيب شهادة، والشهادة شهوداً، والشهود شاهداً، والشاهد مشهوداً، وبهما أقسم الله تعالى: ﴿**وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ**﴾[1]، وهذا مقام لا يناله إلّا الأولياء والأخصّ من الخواص، فيكون المراد من التبيّن التثبيت، والمراد من السلام الاستسلام والعطف، أي ولا تنفّروا أحداً منكم وقولوا له كما أمر الله تعالى موسى وهارون: ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً**﴾[2]، وهذا المقام يستحقّ المنّ منه تعالى، كما دلّت الآية المباركة.

الحادي عشر: يمكن أن يستفاد من قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ**﴾ أنّ إلقاء السلام واعتزال القتال يكون إيذاناً بعدم الحرب، وهو كاف في عدم قتله، كما علم من الآيات الكريمة السابقة من النهي عن قتل الّذين يعتزلون القتال ويكفّون أيديهم عنه.

وبعبارة أُخرى: أنّ ذلك يكون كافياً في عدم انطباق عنوان الحربي عليه، فلاموجب لقتله، ويدلّ على ما ذكرنا عموم قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[3].

***

بحث روائي:

في «تفسير علي بن إبراهيم» في قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً**﴾: «لا عمداً ولا خطأ، وإلّا في معنى لا، وليست باستثناء».

---

١. سورة البروج: الآية ٣.

٢. سورة طه: الآية ٤٤.

٣. سورة الأنفال: الآية ٦١.

أقول: تكون الآية الشريفة نظير قوله تعالى: **﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾**[1]، أي ولا الّذين ظلموا منهم، فيكون التشريك في اللفظ والمعنى.

وفي «المجمع» عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «نزلت في عيّاش ابن أبي ربيعة المخزومي أخي أبي جهل لأُمّه، كان أسلم وقتل بعد إسلامه رجلاً مسلماً وهو يعلم بإسلامه، وكان المقتول الحارث بن يزيد أبو بنيشة العامري، قتله بالحرّة».

أقول: ذكروا في سبب نزول الآية المباركة أسباباً متعدّدة وجميع ذلك من التطبيق والجري، لا التعدّد الواقعي؛ لأنّ الآية الكريمة بمنزلة قاعدة عامّة لاتختصّ بمورد خاصّ ولا بعصر معيّن.

وفي «الدرّ المنثور» عن ابن جرير عن ابن زيد، قال: «نزلت في رجل قتله أبو الدرداء، كانوا في سرية فعدل أبو الدرداء إلى شعب يريد حاجة له فوجد رجلاً من القوم في غنم له فحمل عليه السيف، فقال: لا إله إلّا الله، فضربه ثمّ جاء بغنمه إلى القوم، ثمّ وجد في نفسه شيئاً فأتى النبيّ صلى الله عليه وآله فذكر ذلك له، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا شققت عن قلبه؟! فقال: ما عسيت أجد، هل هو يا رسول الله إلّا دم وماء؟! فقال: قد أخبرك بلسانه فلم تصدّقه؟! قال: كيف بي يا رسول الله؟ قال: كيف بلا إله إلّا الله؟ قال: فكيف بي يا رسول الله؟ قال: كيف بلا إله إلّا الله؟! حتّى تمنّيت أن يكون ذلك مبتدأ إسلامي. قال: و نزل القرآن: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً﴾**».

أقول: لابدّ من حمل الرواية على وجه ينطبق مع الخطأ، وإلّا فظاهرها أنّ الرجل قصد القتل بعد إعلان الشهادة.

وكيف كان، فعلى فرض صحّة الرواية فهي من باب التطبيق.

---

١. سورة البقرة: الآية ١٥٠.

وفي «أسباب النزول» للواحدي نزلت الآية في عياش بن أبي ربيعة، فقال: «إنّه أسلم وخاف أن يظهر إسلامه فخرج هارباً إلى المدينة، فقدمها ثمّ أتى أطُماً من آطامها، فتحصّن فيه، فجزعت أُمّه جزعاً شديداً، وقالت: لا بنيها أبي جهل والحارث بن هشام ـ وهما أخواه لأُمّه ـ: والله لا يظلّني سقف بيت، ولا أذوق طعاماً ولا شراباً، حتّى تأتوني به، فخرجا في طلبه وخرج معهم الحارث بن زيد بن أبي أنيسة حتّى أتوا المدينة، فأتوا عيّاشاً في الأُطَم، فقالا له: أنزل فإنّ أُمّك لم يؤوها سقف بيت بعدك، وقد حلِفتْ أن لا تأكلّ طعاماً ولا شراباً حتّى ترجع إليها، ولك الله علينا أن لا نكرهك على شيء ولا نحوُل بينك وبين دينك، فلمّا ذكرا له جزع أُمّه وأوثقا له نزل إليهم، فأخرجوه من المدينة وأوثقوه بنسع، وجلده كلّ واحد منهم مائة جلدة، ثمّ قدموا به على أُمّه. فقالت: والله، لا أحلّك من وثاقك حتّى تكفر بالذي آمنت به، ثمّ تركوه موثقاً في النفس وأعطاهم بعض الذي أراودا، فأتاه الحارث بن زيد وقال: يا عياش، والله إن كان الذي كنت عليه هُدىً لقد تركت الهدى، وإن كان ضلالة لقد كنت عليها، فغضب عياش من مقالته وقال: والله، لا ألقاك خالياً إلّا قتلتك، ثمّ إنّ عياشاً أسلم بعد ذلك وهاجر إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، ثمّ إنّ الحارث بن زيد أسلم وهاجر بعد ذلك إلى رسول الله بالمدينة وليس عياش يومئذٍ حاضراً ولم يشعر بإسلامه، فبينا هو يسير بظهر قباء إذ لقى الحارث بن زيد، فلمّا رآه حمل عليه فقتله، فقال الناس: أي شيء صنعت؟! إنّه قد أسلم، فرجع عياش الى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كان من أمري وأمر الحارث ما قد علمت، وإنّي لم أشعر بإسلامه حين قتلته، فنزل عليه جبرئيل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً**﴾».

أقول: الأُطم (بالضم) بناء مرتفع، وفي الحديث: «إنّ بلال كان يؤذّن على أُطم»، وآطام المدينة أبنيتها المرتفعة كالحصون والجبال. والظاهر أنّ عياشاً لم

يسلم مرّتين، وما أعطاهم من كفره لم يكن عن عقيدة وإنّما كان لدفع الظلم عن نفسه، وذلك لا يضرّ بإسلامه الذي كان عن عقيدة.

وكيف كان، فالرواية من باب التطبيق كما مرّ.

وفي «التهذيب» بإسناده عن الحسين بن سعيد عن رجاله عن الصادق عليه السلام، قال: «قال رسول صلى الله عليه وآله: كلّ العتق يجوز له المولود إلّا في كفّارة القتل، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾، يعني بذلك مقرة قد بلغت الحنث».

أقول: المراد من الرواية الرقبة التي ولدت من غير مسلم، فلابدّ فيها من البلوغ والإيمان حتّى يطلق عليها «مؤمنة»، فلا يجزى الصبي، وأمّا الرقبة المولودة بين المؤمنين أو بين مؤمن وكافر، فلا خلاف أنّه يحكم بالإيمان وإن كان صبياً، وعلى ذلك يحمل قول العبد الصالح عليه السلام: «تعرف المؤمنة على الفطرة»، فلاتنافي بين الروايتين. ويدلّ على ما ذكرنا ما عن ابن عبّاس: «يعني بالمؤمنة مَن قد عقل الإيمان وصام وصلّى، وكلّ رقبة في القرآن لم تسم مؤمنة، فإنّه يجوز المولود فما فوقه ممّن ليس به زمانه».

وفي «سنن البيهقي»: «أنّ رجلاً أتى النبيّ صلى الله عليه وآله بجارية سوداء. فقال: يارسول الله، إنّ عليّ عتق رقبة مؤمنة. فقال لها: أين الله؟ فأشارت إلى السماء بإصبعها. فقال لها: مَن أنا؟ فأشارت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وإلى السماء، أي أنت رسول الله. فقال: اعتقها، فإنّها مؤمنة».

أقول: هذا القدر يكفي في الحكم بالإسلام، فإنّ المناط إظهار الشهادتين بما هو مقدور، بل أنّ الكافر إذا عرض عليه الإسلام اقتصر على قوله: «إنّي مسلم» وكان جامعاً للشرائط، يؤخذ بإقراره ما لم تكن قرينة مانعة، أو يدلّ دليل على الخلاف.

وفي «الكافي» بإسناده عن الحلبيّ عن الصادق عليه السلام: «العمد كلّ ما اعتمد

شيئاً فأصابه بحديدة أو بحجر أو بعصى أو بوكزة ، فهذا كلّه عمد . والخطأ مَن اعتمد سيئاً وأصاب غيره» .

أقول : ذكرنا في (مهذب الأحكام) الفرق بين العمد والخطأ و شبه العمد ، وأنّ الرواية موافقة للقاعدة . كما تقدّم فيه مقدار الديّة وأصنافها ، فلا وجه لسرد الروايات الواردة في المقام هنا .

وفي «التهذيب» بإسناده عن الصادق عليه السلام «في رجل مسلم كان في أرض الشرك فقتله المسلمون ، ثمّ علم به الإمام بعده ، فقال : يعتق مكانه رقبة مؤمنة ، فذلك قول الله عزّ وجلّ : **﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾**» .

أقول : لابدّ من تقييد الرواية بأنّ قاتله لم يعلم بكونه مسلماً ، وهي تعطي للإنسان أهمّية، وتغلّب جانب الحرية بإعطاء الإسان قيمته وحياته بدلاً عن الضرر الواقع في حياة الأفراد .

في «الكافي» بإسناده عن محمّد بن سليمان عن أبيه، قال : «قلت لأبي عبدالله عليه السلام : ما تقول في الرجل يصوم شعبان وشهر رمضان؟ قال : هما الشهران اللذان قال الله تبارك وتعالى : **﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ﴾** ، قلت : فلا يفصل بينهما؟ قال : إذا أفطر من اللّيل فهو فصل ، وإنّما قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا وصال في صيام : يعني لا يصوم الرجل يومين متواليين من غير إفطار ، وقد يستحبّ للعبد السحور» .

أقول : تمسّك الإمام عليه السلام بالآية الشريفة لبيان أنّ شهري شعبان ورمضان متتابعان ، وهما من أفضل الشهور وفضّل الصيام فيهما ، وليس في مقام تحديد كفّارة القتل .

وفي «الكافي» بإسناده عن الصادق عليه السلام «إن كان على رجل صيام شهرين

متتابعين فأفطر أو مرض في الشهر الأوّل، فإنّ عليه أنّ يعيد الصيام، وإن صام الشهر الأوّل وصام من الشهر الثاني شيئاً ثمّ عرض له ما له عذر، فعليه أن يقضي».

أقول: لابدّ من حمل الرواية على الإفطار ـ في الصوم الذي يشترط فيه التتابع ـ لعذر من الأعذار ـ كالحيض والنفاس والمرض الذي لا يضرّه الصوم، فحينئذٍ لابدّ من الاستئناف، وأمّا لو كان الإفطار ـ في الصوم الذي يشترط فيه التتابع ـ لعذر من الأعذار ـ كالحيض والنفاس والمرض الذي يضرّه الصوم والسفر الاضطراري دون الاختياري ـ لم يجب استينافه، بل يبني على ما مضى؛ لقاعدة فقهيّة، وهي: «ليس على ما غلب الله عزّ وجلّ على العبد شيء»؛ ولنصوص كثيرة ذكرناها في المجلد العاشر من (مهذب الأحكام).

نعم، لو أفطر في أثنائه لا لعذر وجب الاستيناف. ويكفي في حصول التتابع فيهما صوم الشهر الأوّل ويوم من الشهر الثاني، كما ذكرنا في كتاب الصوم.

وفي «الكافي» عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً، وقال: لا يوفّق قاتل المؤمن متعمّداً التوبة».

أقول: الفسحة بالضمّ بمعنى السعة أو عدم الضيق، والمراد من الحديث: لا يزال المؤمن في سعة من دينه يرجى له الرحمة ويوفق للخيرات ولو باشر الكبائر ما لم يتعمّد قتل مؤمن، فإذا قتل بَعُد عن رحمته ولم يوفّق للخيرات، وهو في مقام التغليظ الشديد للقتل، وذيل الحديث محمول على الغالب والأكثر.

وفي «الكافي» أيضاً بإسناده عن ابن سنان عن الصادق عليه السلام، قال: «قاتل المؤمن متعمّداً له توبة؟ قال: إن كان قتله لإيمانه فلا توبة له، وإن كان قتله لغضب أو لسبب شيء من أمر الدُّنيا، فإنّ توبته أن يقاد منه. وإن لم يكن علم به أحد انطلق إلى أولياء المقتول فأقرّ عندهم بقتل صاحبهم، فإن عفوا عنه فلم يقتلوه أعطاهم الديّة وأعتق نسمة وصام شهرين متتابعين وأطعم ستّين مسكيناً، توبة إلى الله».

أقول: صدر الرواية محمول على ما إذا قتل المؤمن لأجل دينه وإيمانه ولم يندم ولم يؤد الديّة لأولياء المقتول مع رضائهم بها ،إلّا فتقبل توتبه بد تحقّق شرائطها ، كما تقدّم في البحث التوبة فراجع .

وعن علي بن جعفر، عن أخيه عليه السلام، قال : «سألته عن رجل قتل مملوكه؟ قال : عليه عتق رقبة وصوم شهرين متتابعين وإطعام ستين مسكيناً ، ثمّ يكون التوبة بعد ذلك» .

أقول: لا فرق في الكفّارة في القتل بين كون المقتول حرّاً أو عبداً ، صغيراً أو كبيراً ، كما ذكر في كتابنا (مهذب الأحكام) .

وفي «تفسير العيّاشي» عن الصادق عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : **﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾** قال : «جزاؤه جهنّم إن جازاه» .

أقول: معنى ذيل الحديث إن شاء عذّبه ، وإن شاء عفى عنه .

وأخرج البيهقي عن شهر بن حوشب : «أنّ أعرابياً أتى أبا ذرّ فقال : إنّه قتل حاج بيت الله ظلماً ، فهل له من مخرج؟ فقال له أبو ذر : ويحك! أحيٌّ والدك؟ قال : لا ، قال : فأحدهما ، قال : لا ، قال : لو كان حيّين أو أحدهما لرجوت ذلك لك ، وما أجد لك مخرجاً إلّا في إحدى ثلاث ، قال : ما هنّ؟ قال : هل تستطيع أن تحييه كما قتلته؟ قال : لا والله! قال : فهل تستطيع أن لا تموت؟ قال : لا والله ما من الموت بدّ ، فما الثالثة؟ قال : هل تستطيع أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء؟ فقام الرجل وله صراخ ، فلقيه أبو هريرة فسأله فقال : ويحك حيّان والداك؟ قال : لا ، قال : لو كانا حيين أو أحدهما لرجوت لك ، ولكن اغز في سبيل الله وتعرّض للشهادة فعسى» .

أقول: يستفاد من هذه القضية مقدار شأن الوالدين عنده تعالى ـ كما ذكره أبو ذر ـ وتشديد القتل بغير الحقّ ، ولا بد من حملها على عدم تحقّق التوبة مع

شرائطها وأداء الديّة، وإلّا فيسقط عنه الذنب إذا ندم وأدّى ما عليه من الحقوق، كما تقدّم.

وفي «المجمع» في قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾**. قال: «نزلت في مقيس ابن صبابة الكناني وجد أخاه هشاماً قتيلاً في بني النجار فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فأرسل معه قيس بن هلال الفهري، وقال له: قل لبني النجّار: إن علمتم قاتل هشام فادفعوه إلى أخيه ليقتصّ منه، وإن لم تعلموا فادفعوا إليه ديّته، فبلّغ الفهري الرسالة فاعطوه الديّة، فلما انصرف ومعه الفهري وسوس إليه الشيطان، فقال: ما صنعت شيئاً، أخذت ديّة أخيك فيكون سبّة (عار) عليك، اقتل الذي معك لتكون نفس بنفس، والديّة فضل، فرماه بصخرة فقتله وركب بعيراً ورجع إلى مكّة كافراً، وأنشد يقول:

قتلت به فهراً وحمّلت عقله ... سراة بني النجار أرباب قارع
فأدركت ثأري وأضطجعت موسد ... وكنت إلى الأوثان أوّل راجع

فقال النبيّ ﷺ: لا أؤمنه في حلّ ولا حرم، فقُتل يوم الفتح».

أقول: رواه في «الدرّ المنثور» وغيره من المفسِّرين عن ابن عبّاس وسعيد ابن جبير وغيرهما. والعقل الديّة. والسراة جمع السرى الأشراف والأكابر من القوم، وقارع علم لحصن. والرواية وإن لم تستند إلى معصوم ولكنّها من باب التطبيق.

وفي «تفسير القمّي» في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾** أنّها: «نزلت لمّا رجع رسول الله ﷺ من غزوة خيبر وبعث أُسامة بن زيد في خيل إلى بعض قرى اليهود في ناحية فدك ليدعوهم إلى الإسلام، كان رجل يقال له مرداس بن نهبك

الفدكي في بعض القرى، فلما أحسّ بخيل رسول الله ﷺ جمع أهله وماله في ناحية الجبل فأقبل يقول: أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، فمرَّ به أُسامة بن زيد فطعنه فقتله، فلمارجع إلى رسول الله ﷺ أخبره بذلك، فقال له رسول الله ﷺ: قتلت رجلاً شهد أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله؟! فقال: يا رسول الله إنّما قالها تعوّذاً من القتل. فقل رسول الله ﷺ: هلا كشفت الغطاء عن قلبه، ولا ما قال بلسانه قبلت، ولا ما كان في نفسه علمت، فحلف أُسامة بعد ذلك أن لا يقتل أحداً شَهِدَ أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، فتخلّف عن أمير المؤمنين عليه السلام في حروبه، فأنزل في ذلك الآية».

أقول: روي قريباً من هذا المعنى المحدّثون من المفسّرين، وإن اختلفوا في استناد القصة، فأسندوها تارةً لمقداد بن سويد كما ذكره السيوطي في «الدرّ المنثور». وأُخرى لمحلم بن جثامة كما عن البيهقي. وثالثة لمرداس وغيرهم.

وكيف كان، فإنّ جميع هذا من باب التطبيق لا التخصيص، لما تقدّم في التفسير من أنّ الحكم المذكور فيها أمر عقلي، وأنّ للدماء صيانة عقليّة فطريّة، إلّا ما أهدرها الشارع الذي هو خالق العقل وجاعل الفطرة.

ثمّ إنّ هناك روايات ذكرها السيوطي في «الدرّ المنثور»: «إنّ القاتل المذكور مات فدفنوه فلم تقبله الأرض وأصبح على وجهها ثلاث مرّات، فلمّا رأوا ذلك استحيوا وخزوا ممّا لقي، فحملوه وأتقوه في شعب من تلك الشعاب».

أقول: تلقّي أمثال هذه الروايات بالقبول مشكل جدّاً، ولعلّ الوجه في ذلك أنّه للعبرة والعظة، وإلّا فإنّ الأرض تستر مَنْ هو شرٌّ منه وأخبث، والله العالم بحقائق الأشياء.

***

بحث فقهي:

يستفاد من الآيات المباركة الأحكام التالية:

الأوّل: أنّ القتل ينقسم إلى أقسام:

فتارةً: القتل العمدي، ويدلّ عليه قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾**، وحكمه القود كما يستفاد من سياق الآية المباركة ومن قوله تعالى: **﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾**[1]. ويتحقّق العمد بقصد القتل غالباً، كما تدلّ عليه جملة من الأخبار.

وأُخرى: القتل الخطائي، وهو الخالي عن القصد إلى القتل، ويدلّ عليه قوله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً﴾**، وحكمه ثبوت الديّة على العاقلة والكفّارة، ففي صحيح الحلبي عن الصادق عليه السلام: «إنّ العمد كلّ من اعتمد شيئاً فأصابه بحديدة أو حجر أو بعصا أو بوكزة، فهذا كلّه عمد. والخطأ مَن اعتمد شيئاً فأصاب غيره»، وغيره من الروايات، كما ذكرنا في الفقه.

وثالثة: الخطأ الشبيه بالعمد، وهو أنّ يقصد الفعل دون القتل، وتدلّ عليه جملة من الأخبار، منها رواية العلاء بن الفضيل عن الصادق عليه السلام، قال: «الخطأ الذي يشبه العمد الذي يضرب بالحجر أو بالعصا الضربة أو الضربتين، لا يريد قتله»، وحكمه الديّة، ويدخل في هذا القسم علاج الأطباء المرضى فيتّفق الموت.

ثمّ إنّه يلحق بالخطأ المحض مَن ألقى الشارع قصده كفعل الصبي أو المجنون، وكذا يكون منه ما يصدر من النائم كالضرّة إذا انقلبت على غيرها فمات، على تفصيل مذكور في كتب الفقه.

الثاني: مقتضى الآيات الشريفة أنّه لا يجوز في الموارد التي ثبتت الديّة القصاص، وكذا العكس إلّا إذا رضي الطرفان بذلك، فيشمله الأصل والإطلاق والعموم.

نعم، لو لم يمكن القصاص في مورد، تثبت الديّة لا محالة لقاعدة: «عدم

---

١. سورة البقرة: الآية ١٧٩.

ذهاب الجناية هدراً في الشرع».

الثالث: صريح قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ اعتبار الإيمان بالمعنى الخاص، ويكفي الطفل المتولّد من المسلم للإطلاق، كما تقدّم في الفقه.

الرابع: لزوم الكفّارة والديّة في قتل الخطأ، وأنّ الكفّارة مترتّبة، وهي تحرير رقبة مؤمنة، فمَن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، كما هو مقتضى (ما) والشرط الدالّان على التعقيب، والشهر أعمّ من الهلالي والعددي، كما أنّ التتابع هو اتّصال أحدهما بالآخر، و هو يحصل بصيام الشهر الأوّل و اتّصاله بالثاني ولو بيوم واحد؛ لأنّ المأمور به التتابع بين الشهرين، لا بين جميع أيّامهما، ومع عدم القدرة على الصيام فإطعام ستين مسكيناً.

الخامس: الديّة في القتل العمدي من مال القاتل نفسه، وكذا ديّة القتل في شبه العمد، وأمّا ديّة القتل في الخطأ المحض فهي على العاقلة، ويدلّ على هذا التفصيل الأخبار الكثيرة الواردة عن الأئمّة الهداة عليهم السلام، كما ذكرناها في كتاب (مهذب الأحكام).

السادس: المقتول خطأً إن كان من قوم أهل الحرب وهو مؤمن، معاهدين ـ سواء كانوا من أهل الكتاب أم غيرهم ـ لهم عهد فتجب الكفّارة والديّة، كما لو قتل في دار الإسلام، وتكون ديّته لورثته المسلمين خاصّة إن وجدوا، وإلّا فهي للإمام عليه السلام، وعلى ذلك دلّت جملة من الروايات وقام الإجماع، فتكون هذه الآية المباركة تخصيصاً لأدلّة الديّة.

السابع: يستفاد من الآية المباركة أنّ الديّة لابدّ وأن تؤدّى إلى ورثة المقتول، يقتسمونها كسائر تركة الميت بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصية منها، كما فصّل في الفقه، ولو لم يكن للميت وارث تكون الديّة للإمام عليه السلام لأنّه وارث مَن لا وراث له.

الثامن: يستفاد من الآيات الكريمة أنّ الديّة حقّ الورثة، فيملكون إسقاطها بالعفو؛ ولذا حثّ سبحانه وتعالى على العفو عنها، سمي العفو صدقة تنبيهاً على فضله، وأنـّه «كلّ معروف صدقة»، بخلاف الكفّارة في التحرير والصوم، فإنّها حقّ الله تعالى، فلا تسقط بعفو الأولياء بالصدقة وإسقاطهم لها.

***

بحث عرفاني:

من أجلّ الصفات الإنسانيّة وأسماها الإيمان بالله جلّت عظمته، وهو انقياد النفس وخضوعها له تعالى بالالتزام بالشريعة والعمل بتكاليفه، وللإيمان آثار أهمّها الزجر والجذب.

أمّا الزجر: فهو الانتهاء عمّا يدعو إليه الشيطان من الأعمال القبيحة والعقائد الفاسدة والأخلاق الرذيلة، التي تصدّ الإيمان، وتعوق عن رقي المؤمن بالتقرّب إليه تعالى، كالرياء والعجب والبخل وغيرها، وكذا الأعمال التي فيها الفساد ـ اجتماعيّاً كان أو شخصيّاً ـ كهتك الأعراض وسلب الأموال وإراقة الدِّماء من غير مبرِّر شرعي، وكذا الأخلاق الرذيلة كالكبر، والأنانيّة وغيرهما. فإنّ المرحلة الأُولى من توجّه النفس وتربيتها تتوقّف على ترك تلك الأعمال القبيحة، وطرد تلك العقائد الفاسدة والبعد عن الأخلاق الرذيلة.

ولذلك عبّر القرآن الكريم في القتل: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً﴾**؛ لأنّ الإيمان به تعالى بنفسه زاجر عن القتل العمدي، فلا يليق بحال المؤمن أن يقتل مؤمناً، وإذا عرض له قتل المؤمن من باب الاتّفاق ـ أي الخطأ ـ لأنّ الإنسان مجبول على أن يكون محلاًّ لأن يعرض له الخطأ، يتداركه بالكفّارة التي هي نوع من العقوبة لما حصل له من التقصير بترك الاحتياط الذي صار سبباً لفقد حياة فرد من أفراد المجتمع، فيكون بذل المال بالتحرير نوعاً من تربية النفس

وتوجّهها إليه تعالى، فإن لم يجد ذلك ولا يمكنه نيل هذه المرتبة من التزكية، فلا أقل من ترك الدينا والتوجّه إليه جلّ شأنه بالصوم ليذوق وبال خطيئته، قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾[١]، ولذا قال علماء السير والسلوك: إنّ أوّل قدم السالك أن يخرج من الدُّنيا وما فيها، وثانية أن يخرج من النفس وصفاتها.

وأمّا الجذب: فهو القابلية للنيل إلى المقامات التي تحصل بها العبوديّة المحضة ومنتهى التقرّب إليه جلّت عظمته، بل الفناء في سبيله الذي يتحقّق بالخلع عمّا سواه تعالى. ولهما مراتب كثيرة جدّاً، ولكلّ مرتبة منها درجات حتّى تحصل المثليّة، كما في بعض الروايات الواردة في النوافل، والغور في البحث مستلزم الخروج عن الموضوع، ولم أر مَن يليق بذلك في زماننا هذا.

وبهما يتمّ الإيمان، وفي إحداهما ـ أي الزجر ـ دون الآخر لا يتحقّق الإيمان وإن اتّصف ذلك بالحسن، فإن ترك القتل حياءً أو لأجل القوانين الوضعيّة في حدّ نفسه حسن، ولكن لا يترتّت عليه الأثر المترتّب على الإيمان، وكذا البُعد عن الصفات الذميمة أو التخلّق بالأخلاق الحسنة لو حصلا من الكافر، فإنّه في حدّ نفسه متّصف بالحسن، وقد يترتّب عليه الأثر الوضعيّة المترتّبة على ذلك، ولكن الأثر الخاص المنبعث من الإيمان بالله تعالى لا يترتّب عليه، كما تقدّم في أحد مباحثنا السابقة.

***

١. سورة البلد، الآية ١١ ـ ١٤.

الآية ٩٥ ـ ١٠٠

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴿١٠٠﴾﴾.

الآيات الشريفة بأُسلوبها البليغ ومضمونها الرفيع، ترغّب المؤمنين إلى الجهاد وتحثّهم عليه، وتأمرهم بالهجرة من دار الإسلام.

كما تبيّن علو درجات المجاهدين على القاعدين عن الجهاد، والراضين بالقرار في أرض الشرك دون الهجرة إلى دار الإسلام مع القدرة عليها. وسمّاهم القرآن الكريم بـ«الظالمين» لأنّهم رضوا بالظلم، واستثنى المستضعفين الّذين

لا حيلة لهم واقعاً فعجزوا عن الهجرة.

ويستمرّ سياق الآيات المباركة في التشجيع على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وعدم الرضا بالظلم، ويبعث الطمأنينة في قلوبهم اذا خافوا الفقر، فإنّ الله تبارك وتعالى يبسط الرزق عليهم ويجزل العطاء لهم ويغفر لهم خطاياهم، فكانت الآيات الكريمة تتحدّث في موضوع واحد، وهو موضوع القتال والجهاد في سبيل الله تعالى، وإنّما أضاف عزّ وجلّ على ذلك الهجرة من دار الكفر الى دار الإسلام؛ لأنّ ذلك نوع خاص من الجهاد أيضاً.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾.

حثٌّ على الجهاد بأُسلوب بليغ، وتحريض عليه بعبارات فصيحة ليأنف المؤمنون عن تركه، ويرغبوا في ما يترتّب عليه من الأجر الكبير والهدف السامي العظيم، فإنّ في الجهاد في سبيل الله تعالى إقامة الدين ونشر العدل، وبسط الحقّ، وتطهير الأرض من الظلم والفساد، ولأجل ذلك لا يستوي القاعدون من المؤمنين ـ الّذين ليس فيهم عذر ومانع عن القتال والجهاد ـ والمجاهدون في سبيل الله تعالى؛ لعلوّ درجة الجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ وشرفه وبُعد منزلته، فإنّ فيه الهداية إلى الله التي هي أشرف الغايات وأنبل الأهداف، فلا يحدّه شيء ولا يصل إلى درجته أمر.

وهذه القضية فطريّة كشف عنها القرآن الكريم بعد أن طمستها الذنوب والآثام ودياجير الظلم والمادّة، كما هو الشأن في كثير من القضايا الفطريّة. وقد كان من شأن الأنبياء عليهم السلام تذكير الإنسان المادّي بمنسي الفطرة لينهض عن سباته ونومه و يرجع إلى رشده.

والمراد بالضرر في المقام، الموانع التي تمنع المؤمن من القتال، كالعمى والعرج والمرض وغير ذلك ممّا ورد في قوله تعالى: **﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾**[1]، وقد شرحتها السنّة الشريفة أيضاً.

قوله تعالى: **﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾**.

أي: لا يكون القاعدون مساوين للمجاهدين في سبيل الله تعالى، الّذين يبذلون أموالهم وينفقونها في سبيله تعالى للاستعداد بالجهاد وما يوهن كيد الأعداء والظفر بهم، ويبذلون أنفسهم للقتال وحملاتها للكفاح عند لقاء الله عزّوجلّ.

وأنّما أخّر سبحانه وتعالى المجاهدين في الذكر، إيذاناً بأنّ القصور في عدم الاستواء إنّما هو من جهة القاعدين، لا من جهة المجاهدين؛ وللتصريح بتفضيلهم على القاعدين.

وإنّما قدّم عزّ وجلّ ذكر الأموال على الأنفس وعكس في قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾**[2]، وغيره كما مرّ؛ لأنّ النفس أشرف من المال، فقدّم المشتري النفس للتنبيه على أنّ الرغبة فيها أشدّ وأكثر. و أخّر في المقام؛ لأنّ في البيع تكون المماكسة فيها أشدّ، فلا يرضى ببيعها إلّا مع فائدة جليلة.

قوله تعالى: **﴿فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾**.

بيان لجهة عدم الاستواء بين المجاهدين والقاعدين غير أُولي الضرر، وهي

---

١ . سورة الفتح: الآية ١٧.

٢ . سورة التوبة: الآية ١١١.

أنّ الله تعالى رفع المجاهدين درجة لا يعرف كنهها ولا قدرها ، فالمجاهدون لهم الفضل على القاعدين .

وتنوين الدرجة للتفخيم ، ونصبها على المصدرية لتضمّنها معنى التفضيل ووقوعها موقع المرّة ، مثل أن يقال : فضّلهم تفضيلاً .

قوله تعالى : ﴿وَكُلّاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾ .

أي : أنّ كلا الفريقين وعدهم الله تعالى المثوبة الحسنى وهي الجنّة؛ لإيمانهم وحسن عقيدتهم وخلوص نيّتهم ، وإن اختلفا في الفضيلة والدرجة ، فإنّه لا يساوي القاعدون المجاهدين أبداً ، كما تدلّ عليه الآية الشريفة التالية .

ومن ذلك يعرف أنّه لا وجه لحمل القاعدين في هذه الآية الكريمة على التاركين للخروج إلى القتال، عندما لا حاجة الى الخروج ، لخروج غيرهم على حدّ الكفايّة ، فإنّه خلاف ظاهر الآية الشريفة ، بل تدلّ على الوعد الجميل للمؤمنين جميعهم ، القاعدين والمجاهدين؛ لئلّا تحصل لهم حالة الإحباط والكسل ، والمقام يستدعي إيقاظ الهمم والتحريض على القيام بأمر الجهاد والمسارعة إليه والتسابق فيه ، ولا ينافي تقديم إحدى الطائفتين على الأُخرى .

قوله تعالى : ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ .

تحريض آخر ، وفيه التأكيد وبيان لقوله تعالى : ﴿دَرَجَةً﴾ ، وإنّما ترك عزّ وجلّ القيود التي ذكرها في ما تقدّم لإغناء حرف التعريف في «المجاهدين» عنها .

أي : فضّل الله تعالى المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من غير أُولي الضرر أجراً عظيماً .

وفي الآية الشريفة تأكيد آخر إلى الجهاد في سبيل الله تعالى ، بعد وعد الله عزّ وجلّ الكلّ المثوبة والجزاء الحسن . وفيها الإشارة إلى عدم الاكتفاء بالوعد

الحُسن الذي وعد الله المؤمنين به ، فإنّ للوعد منازل ودرجات ، ويتفاوت المؤمنون فيها ، ولا يمكن أن ينال تلك المنازل والدرجات العالية المتفاوتة إلّا بالجهاد الذي به تقام أركان الدين والشريعة ويزهق الباطل ، فللمجاهدين الفضل العظيم ، والتقرّب الخاص ، والمنزلة الرفيعة ، فلا يستهان بهم لبذلهم أموالهم وأنفسهم في سبيله وإعلاء كلمة الله تعالى ، فلا ينبغي التكاسل في نيل تلك المقامات السامية ، ولا التهاون بالبُعد عن الوصول إلى تلك الدرجات العظيمة ، فإنّ الإيمان الكامل لا يتحقّق إلّا بالجهاد ـ الأكبر منه أو الأصغر ـ لأنّ شرف النيل إلى جنّة المعارف أو جنّة الزخارف ، لا يحصل إلّا به .

قوله تعالى : ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ .

تفصيل بعد إجمال ، وبيان للأجر العظيم الذي فضّل الله المجاهدين به على القاعدين ، أي أعطى الله تعالى المجاهدين أجراً عظيماً ، ومفضّلاً إيّاهم على القاعدين بدرجة عظيمة . وهذه الدرجة متفاوتة لها مراتب ، فليست هي منزلة واحدة ودرجة فريدة ، بل منازل ودرجات كثيرة ، هي مركّبة من المغفرة والرحمة ، فإنّ كلّ ما يفاض على العبد في الدُّنيا والآخرة هو من مظاهر رحمته الواسعة ، ولا يمكن النيل به أبداً إلّا بإزالة الموانع والحجب ، وهي لا تحصل إلّا بالمغفرة ، كما أنّ تلك المنازل المتفاوتة هي رحمة إلهيّة ، وهذا هو السبب في اقتران المغفرة مع الرحمة في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾[2] .

---

١ . سورة المائدة : الآية ٩.

٢ . سورة البقرة : الآية ٢٨٦.

وقال تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ﴾[2].

واختلاف هذه الآيات الشريفة في الإبهام والتفسير، والإجمال والبيان فيه من اللّطف ما لا يخفى، وهو من أحد وجوه البلاغة، فإنّه عزّ وجلّ قيّد المجاهدين في الآية الأُولى بقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، كما قيّد عزّ وجلّ في الآية التالية بها أيضاً، بينما أطلق عزّ وجلّ في الموضع الثالث ولم يقيّده بشيء، ومع ذلك فقد ذكر عزّ وجلّ عدم استواء القاعدين مع المجاهدين، وذكر أنّ التفضيل إنّما هو درجة، ثمّ ذكر أخيراً أنّها درجات منه ومغفرة ورحمة.

والوجه في ذلك: أنّ الكلام في الآية الأُولى مسوق لبيان فضل الجهاد على القعود، وبيّن عزّ وجلّ أنّ الفضل للجهاد إذا كان في سبيل الله تعالى، وبذل أعزّ الأشياء عند الإنسان وهو المال، وببذل ما هو أشرف وأعزّ من الأوّل وهو النفس والروح؛ ولأجل ذلك ذكر عزّ وجلّ بما يرفع اللّبس والإبهام، فقال تعالى: ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، ثمّ ذكر عزّ وجلّ: ﴿وَكُلّاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾؛ لمسيس الحاجة إلى ذكره، ولما انتفت لم يذكر القيود في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾، واكتفى بالتعريف في المجاهدين، وإنّه بمنزلة ذكر تلك القيود.

وأمّا ما ذكره عزّ وجلّ في الآية الأُولى من إطلاق الدرجة، فهو يدلّ على أنّ التفضيل من حيث الدرجة والمنزلة وهي مبهمة، وهي على إبهامها فيه تفخيم تلك الدرجة وتعظيمها، وقد رفع هذا الإبهام قوله تعالى: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ﴾، وهو يبيّن قوله تعالى: ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾، فالمستفاد من المجموع أنّ التفضيل كان في

---

١. سورة الأنفال: الآية: ٤.

٢. سورة الحديد: الآية ٢٠.

درجة عظيمة، وأنّ فيها منازل ولها درجات من المغفرة والرحمة، وهي الأجـر العظيم الذي يثاب به المجاهدون.

ومن ذلك يعرف أنـه لا تناقض ولا إبهام في الآية الشريفة، وإنّما هي في أعلى درجات الفصاحة، وقد ذكر المفسّرون في بيان هذه الآيات وجوهاً لا تخلو من المناقشة.

منها: أنّ المراد بالدرجة في صدر الآية المباركة المنزلة عند الله تعالى التي هي أمر معنوي، والمراد بالدرجات، المنازل في الجنّة وهي حسيّة.

ومنها: أنّ المراد بالدرجة في الآيـة الأُولى المـنزلة الدنـيويّة، كـالغنيمة وحسن الذكر ونحوهما، وبالدرجات المنازل الأُخرويّة، وهي أكبر بالنسبة إلى الدُّنيا، فكانت درجات.

ومنها: أنّ المراد بالتفضيل في صدر الآية الكريمة تفضيل المجاهدين على القاعدين أُولي الضرر، وفي ذيل الآية الشريفة تفضيل المجاهدين على القاعدين غير أُولي الضرر بدرجات.

قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً**﴾.

تأكيد لما وعد به آنفاً من المغفرة والرحمة للمجاهدين، فهو تعالى غفور لمَن يستحق المغفرة، ورحيم بمَن يتعرّض لنفحات رحمته بإعطاء الثواب ومزيد الفضائل والعطايا ورفع الدرجات. ولا يخفى مناسبة الاسمين الشريفين لمضمون الآية الكريمة السابقة.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ**﴾.

بيان حال القاعدين عن الجهاد والمعرضين عن الهجرة.

والوفاة أخذ الشيء وافياً تامّاً، والمراد بها قبض الروح عند الموت، وتقدّم

الكلام في اشتقاق الكلمة في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾[١]، ولفظ «توفّاهم» يحتمل أن يكون ماضياً، كما يحتمل أن يكون مضارعاً فيكون أصله (تتوفّاهم)، نظير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣]، وحذفت أحد التائين من اللفظ تخفيفاً، ولا يضرّ التذكير والتأنيث، لجواز كلّ واحد منهما في المقام.

وإنّما نسب الوفاة إلى الملائلكة لأنّهم المباشرون في قبض الأرواح بعد أمر الله تعالى، فلا ينافي قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[٤]، فإنّ الفعل تارةً يُنسب إلى نفسه المقدّسة، وأُخرى: إلى الملائكة، وثالثة: إلى ملك الموت، قال تعالىٰ مخاطباً رسوله الكريم: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[٥]، ورابعة: إلى الرسل والأعوان أو الملائكة كما تقدّم، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[٦]، والجميع صحيح، فإنّ الله تعالى هو الآمر والفاعل الحقيقي، والملائكة والرُّسل والأعوان مباشرون قابضون للأرواح، لكن السبب الكامل والعلّة التامّة هو الله تعالى.

والمراد بالظلم في المقام ظلم النفس بترك الهجرة في سبيل الله تعالى لنصرة الدِّين، وترك إقامة شعائره عزّ وجلّ باختيار مجاورة الكفّار الّذين يمنعون من

---

١. سورة آل عمران: الآية ٥٥.

٢. سورة النحل: الآية ٢٨.

٣. سورة النحل: الآية ٣٢.

٤. سورة الزمر: الآية ٤٢.

٥. سورة السجدة: الآية ١١.

٦. سورة الأنعام: الآية ٦١.

تعلّم معارف الدِّين والقيام بوظائف العبوديّة لربّ العالمين، وبه يفسّر الظلم، حيث يطلق كما في قوله تعالى: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾[1]، فالمراد هو الإعراض عن دين الله تعالى وعدم نصرته وترك إقامته.

والمعنى: أنّ الّذين تتوفّاهم الملائكة بقبض أرواحهم حين استيفاء آجالهم، حال كونهم ظالمين أنفسهم بترك الهجرة في نصرة الدين، وتعلّم معارف سيد المرسلين وإقامة الشعائر، فاختاروا المقام عند الكافرين والمشركين، ورضوا بالذلّ والانظلام، فلم يقدروا على القيام بوظائف العبوديّة ونصرة الدين.

قوله تعالى: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾.

أي: قالت الملائكة لهؤلاء الظالمين أنفسهم: في أي شيء كنتم من أمر دينكم، ولماذا تركتم إقامته.

وفي الآية المباركة من التوبيخ والإهانة للظالمين ما لا يخفى، كما أنّها تدلّ على أنّهم لم يكونوا في شيء من الدين، فكان الاستفهام توبيخاً على شيء معلوم، لا استعلاماً عن شيء مجهول كما لا يخفى، بل يمكن أن تكون الاستفهام للتقرير.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.

اعتذار منهم عن تقصيرهم في ترك الهجرة ونصرة الدين وإقامة شعائره، وإن لم يكونوا على شيء من الدين ـ كما عرفت ـ فأجابوا بما يخفى حالهم، فوضعوا السبب موضع المسبّب، فقالوا: «كنّا مستضعفين في الأرض» التي كنّا نعيش عليها مقهورين من قبل الأعداء، فلم نتمكّن من نصرة الدين وتعلّم معارفه

---

١. سورة الأعراف: الآية ٤٤ ـ ٤٥، وسورة هود: الآية ١٩.

وإقامة شعائره، وعجزنا عن القيام بوظائف العبوديّة لسطوة الأعداء وشدّة فتكهم وقسوتهم واستضعافهم لنا. ولما كان الاستضعاف حاصلاً من حيث إخلادهم إلى أرض الشرك وتسلّط المشركين على الأرض التي كانوا يعيشون فيها، ولم تكن لهم هذه السلطة في أرض أُخرى، فلم يكونوا مستضعفين، وإنّما حلّ بهم ذلك لتركهم الخروج والهجرة من أرض الشرك، فردّت عليهم الملائكة ولم يقبلوا عذرهم، فقالوا كما حكى عزّ وجلّ عنهم.

قوله تعالى: **﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾**.

أي: أنّ عذركم مردود عليكم بترك الهجرة، فلم تحرّروا أنفسكم من الذلّ والظلم بالهجرة في أرض الله الواسعة، فترحلوا إلى أرض أُخرى يمكنكم فيها إقامة الشعائر عليها، فالاستفهام للتوبيخ، فإنّ استضعاف القوم لكم لم يكن هو الموجب للإقامة معهم، بل كنتم قادرين على الخروج والخلاص من نير المذلّة.

وإنّما أضافت الملائكة الأرض إلى الله تعالى إيماءً إلى أنّه عزّ وجلّ هيّأ لهم في أرضه سعةً ومخرجاً، كما يشير إليه قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً﴾**.

وقد وصف سبحانه الأرض بالسعة؛ للإعلام بأنّهم السبب في لزومها لأنفسهم، لا أنّ المشركين يسلبونها عنهم بالكلّية. كما أنّ في هذا التعبير توطئة للأمر بالهجرة من بعضها إلى بعضها، حيث قال تعالى: **﴿فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾**، فلو لم يكن كذلك لكان الأولى أن يقال: فتهاجروا منها.

قوله تعالى: **﴿فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾**.

بيان لجزاء القاعدين عن الهجرة والرضا بالفتنة في دار الشرك والكفر، وتوعيد لهم بنار جهنّم، كما أوعد بها الكفّار. وترتّب هذا الجزاء على فعلهم من

قبيل ترتّب المعلول على العلّة، فإنّهم أوردوا أنفسهم موارد الهلاك في الآخـرة؛ لأنـّهم رضوا بالظلم في الدُّنيا وظلموا أنفسهم بترك الهجرة، وحرموا أنفسهم من خير الدُّنيا وخير الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾.

أي: بئست نار جهنّم وقبحت أن تكون مأوىً ومصيراً، فإنّ كلّ ما فيها سوء.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾.

استثناء عن حكم الآية الكريمة السابقة، وبيان للمعنى الحقيقي للمستضعفين، وردّ لما اعتذر به القاعدون في مساءلة الملائكة لهم بأنّهم مستضعفون، فإنّهم غير صادقين فيه، فقد تركوا الهجرة مع القدرة عليها وادّعوا الاستضعاف حرصاً على أموالهم وأهليهم، أو حرصاً على أمنهم وسلامتهم، أو حرصاً على مكانتهم وجاههم.

والآية الشريفة تصوّر المستضعف تصوّراً دقيقاً، وتعطي المعنى الحقيقي له، بحيث لا تدع مجالاً لأيّ ادعاء آخر فيه.

والمستضعفون هم الّذين لا يقدرون على الهجرة لضعفهم، كالولدان والنساء والشيوخ وسائر العجزة أو الضعفاء، أو لعدم وجود السبيل والحيلة، فهم يبحثون عن ذلك، بل هم في وضع نفسي مضطرب وشعور مضطرم، يختلف تماماً عـمّن يدّعي الاستضعاف، الذي هو في حالة الدعة والرضى والاستكانة حرصاً عـلى الدُّنيا وشيء من متاع الأرض، كما عرفت.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾.

مادة (حيل) تدلّ على الحركة والاضطراب والتحيّر للتخلّص من شيء أو تحصيله، أو ما يتوسّل به للحصول على شيء أو الاحتراز منه، وغلب استعماله على ما يكون في خفاء وفي الأُمور المذمومة.

وكيف كان، فإنّ الآية الشريفة تصوّر الحالة النفسيّة للمستضعفين بأنّهم قد ضاقت بهم الحيل، وعميت عليهم الطرق، فلم يهتدوا إلى سبيل وحيلة يمكنهم التوسّل بها إلى الخروج من دار الشرك وأرض الكفر والهجرة إلى دار السلام لإقامة الحقّ.

ولم يبيّن عزّ وجلّ تلك الحيل والسبل، فهي إمّا المرض، أو الزمانة أو الفقر، أو الجهل بمسالك الأرض، أو لا يهتدي إلى حيلة يدفع بها الكفر، ولا يهتدي سبيلاً الى الإيمان، فهو لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر كالصبيان، ولا يقدرون أن يحتالوا حيلة لدفع ما يتوجّه إليهم من استضعاف المشركين عن أنفسهم، ولا يهتدون سبيلاً للتخلّص منهم والفرار عنهم. وجميع هذه المعاني صحيحة؛ لعموم الآية المباركة الشامل لكلّ الحيل الظاهريّة والباطنيّة.

والمستضعف على قسمين، ادعائي وواقعي، والثاني هو مورد العفو دون الأوّل؛ لأنّه جلّ شأنه مطّلع على الواقعيّات، فله العذر عن الهجرة، ويجري حكم هذه الآية المباركة إلى يوم القيامة، فمَن تمكّن في هذه الأعصار من المسلمين من الخروج من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام وتعلّم معالم دينه والعمل بها ولم يفعل، فهو من القسم الأوّل.

والسبيل الحسّي كالطرق ومسالك الأرض، والمعنوي هو: كلّ ما يخلّصهم من أيدي المشركين من أنواع الحجج والمعارف ـ وقد ورد في بعض الروايات في الثاني ـ أو المانع الخارجي كالمرض والهرم وغيرهما، قال تعالى: **﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾**[1]، والنصيحة لهما هي الطاعة لهما سرّاً وعلانيةً.

والآية الشريفة تدلّ على أنّ الجهل بدين الله تعالى وأحكامه المقدّسة إذا

---

١. سورة التوبة: الآية ٩١.

كان عن قصور وضعف، ليس للمكلف فيه صنع ولا اختيار، فهو عذر عند الله تعالى. أمّا غير ذلك فهو ظلم لا يقبله الله جلّ شأنه من أحد ولا يرضى به.

وقد شرّع الله تعالى الجهاد ـ الذي هو من أفضل العبادات وأسماها ـ لردّ هذا الظلم، وهو يختلف، فتارةً يكون مع أعداء الله تعالى في ساحة القتال، وأُخرى يكون بالهجرة إلى دار الإسلام التي يقام شريعة الله تعالى ولا يكون فيها ظلم، فعدم تطبيق شريعة الله تعالى يعتبر عند الله ظلماً ولا يمكن أن يرضى به عزّ وجلّ، ومن يرضى به فهو ظالم لنفسه وله العذاب الأليم؛ لما حرّم نفسه من نعمة العمل بالشريعة في الدُّنيا فأورد نفسه مورد الهلاك في الآخرة، إلّا مَن أعيت به المذاهب، وتقطّعت به السبل، وأحاط به أعداء الله تعالى أعداء الحقّ واستضعفوه بالعذاب والفتنة، أو كان مستضعفاً بسيطرة الغفلة عليه، فإنّها تسلب القدرة وتسدّ الأبواب عليه، وقد ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «الذي لا يستطيع حيلة ويدفع بها عنه الكفر، ولا يهتدى سبيلاً إلى الإيمان، فلا يستطيع أن يؤمن أو يكفر»، وهو المستفاد من إطلاق للآية الشريفة الواردة مورد البيان للمستضعف، الشامل لما هو الممنوع عنه بسطوة الكفّار والأعداء، أو المغفول عنه لاستيلاء الكفر على الأفكار والعقول.

وبالجملة: كلّ ما يكون الفعل مستنداً إلى فعل المكلّف نفسه واكتسابه فهو غير معذور، وأمّا إذا لم يكن كذلك فهو معذور، ويدلّ عليه قوله تعالى: **﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾**[1]، فالجهل عذر إذا لم يكن عن تقصير من المكلّف، وإلّا فليس الجاهل معذوراً، ولا فرق في المعذوريّة بين أن تكون بسطوة جبّار كافر، أو باستيلاء الغفلة عليه.

والحاصل: فإنّ المستضعف لا يطلق على مَن بلغته الحجّة وسمعتها أُذنه

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

ووعاها قلبه وفهمها وأمكنه إقامة دينه، فمن كان كذلك فهو ليس بمستضعف وإن ادّعاه واعتبر نفسه منهم، وإلّا فهو مستضعف.

قوله تعالى: ﴿**فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ**﴾.

بيان أنّ المستضعفين الموصوفين بما تقدّم من صفات العجز، لا شيء عليهم؛ لعدم كسبهم أمراً، فهو تعالى يتفضّل عليهم بالعفو؛ لعلمه تعالى بحقيقة ضعفهم وعدم قدرتهم، ويعلم ما في ضمائرهم.

وذكر كلمة الإطماع (عسى) منه تعالى حتم، لا سيما بعد تعقيبه بقوله عزّ وجلّ: ﴿**وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً**﴾، إلّا أنّ استثناء المستضعفين من الظالمين الّذين أُوعدوا بالنار وسوء المصير يكفي في بعدهم وشقائهم؛ لأنّهم حرموا أنفسهم من نيل السعادة، فلا غنى لهم عن العفو الإلهي الذي يمحو به أثر الشقاء، كلّ ذلك كان سبباً لذكر الله تعالى لهم ورجاء عفوه.

ويستفاد منه أنّ العفو مشروط بحسن النيّة وقصد الهجرة من أرض الشرك الى دار الإسلام، التي يمكنه إقامة شعائر الله تعالى عليها، فإنّ ترك الهجرة أمر خطير لابدّ للمؤمن أن يعدّه ذنباً، ويلزمه أن يتركه، ويترصّد الفرصة في الهجرة ويعلّق قلبه بها أبداً.

قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً**﴾.

تقرير لما سبق بأتمّ وجه وأحسن أُسلوب، أي أنّ الله تعالى عفوٌّ كثير الصفح عن ذنوب عباده، غفور ساتر عليهم ذنوبهم، وهو يدلّ على أنّه تعالى يتفضّل على المستضعفين بالعفو والمغفرة، وقد سبقت رحمته غضبه، فله كامل العفو و تمام الغفران.

قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً**﴾.

تشجيع على الهجرة، وتحريض عليها بالاعتناء بها وتنشيط الهمم في استنباط الحيل لها، بعد أن ندّد تعالى بالقاعدين وهم قادرون عليها، فإذا كان في البين مخاوف في النفس بشأن الهجرة وأخطارها وأهوالها، بأن لا يجد رزقاً في المسير، أو أن يدركه الموت في الطريق أو غير ذلك، فإنّ الله تعالى يعطي الضمانات التي تيسّر في النفس وتجعل الإنسان مجدّاً في عمله يقبل عليها بلا إبطاء، ويكون مخلصاً لله تعالى.

وقد وعد عزّ وجلّ في هذه الآية المباركة بأنّ المهاجر سوف يجد في الأرض سعةً وبسطةً، والله هو الكفيل ما دامت الهجرة في سبيل الله تعالى، وإذا وقع عليه الموت فإنّ الأجر يقع عليه عزّ وجلّ.

وسبيل الله تعالى ما أمر بسلوكه مطلقاً، سواء استلزمه تعظيم الشعائر وابلاغ الأحكام، أو لم يستلزم ذلك، فقد أوجبت المهاجرة الخروج عن الضعف والإذلال، ونيل رضاه جلّ شأنه.

وقد ذكر عزّ وجلّ في هذه الآية مخافة الضيق والفقر وعدم الرزق في مسيره، كما ذكر المخافة الثانية: وهي الموت في الطريق في الآية التالية.

والمراغم من الرغام، وهو التراب الرقيق، ولم ترد هذه المادّة في الآيات الكريمة إلّا في هذه الآية الشريفة، وأصله لصوق الأنف بالرغام مشعراً بالذلّ والهوان، يقال: رغم أنف فلان رغماً، أو يقال: أرغم الله أنف فلان؛ لأنّ الأنف من جملة الأعضاء في غاية العزّة، والتراب في غاية الذلّة، فجعل ذلك كناية عن الذلّة، ويعبّر عنه بالسخط، قال الشاعر:

إذا رغمت تلك الأنوف لم أُرضها ... ولم أطلب العتبى ولكن أزيدها

والمراغمة: المنازعة والمساخطة، أي ما يوجب سخطه، فيكون المعنى: يجد في الأرض مخلصاً من الضلال وممّا يوجب سخطه كثيراً ويصل إلى الخير

والنعمة ، فكلّما منعه مانع من إقامة دينه ينتقل إلى تربة أُخرى .

ويمكن أن يكون المراد بالمراغم في المقام الرقيق في السفر ، وإنّما عبّر تعالى بذلك لأنّ السفر خصوصاً في الأزمنة القديمة كان ملازماً للرغام والتعب والمشقّة ، وفي هذا التعبير تسلية للمهاجرين بأنّه لو أصابهم تعب ومشقّة ورغام فلايتأثّروا كثيراً بذلك ، فإنّها نوعي «والبلية إذا عمّت طابت» .

وقد اختلف المفسّرون في معنى هذه الآية الشريفّة ، والحقّ أنّها ترجع إلى شيء واحد وإن اختلفت في اللفظ ، فقيل : المراغم المتزحزح ، أي ينتقل من أرض إلى أُخرى ، وقيل : إنّه المتحوّل ، وقيل : المهاجر وقيل غير ذلك ، وهي كما ترى متّفقة في المعنى .

وفي الآية المباركة كمال اللّطف بالمهاجرين، وتطييب نفوسهم، وبثّ الطمأنينة فيها بأنّ الله تعالى كفيل لرزقهم ، فإنّهم سيجدون في الأرض سعة وبسطة إذا كانت الهجرة في سبيله تعالى وخالصة لوجهه الكريم ، ويقصد منها رضاء الله تعالى وإقامة دينه ، ولعلّ في قوله تعالى : **﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً﴾** إشارة إلى ما ذكره عزّ وجلّ سابقاً من قوله تعالى : **﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾**[1] ، وفيها وعد منه . وفي المقام بيان لوعده الكريم بمزيد السعة بالمهاجرة ، وأنّه يجد مراغماً كثيراً ، أي خلاصاً من ورطته ، وقدرته على الانتقال من مكان إلى آخر حيث وجد ضيق في الأوّل وشدّة .

والحقّ أنّ قوله تعالى : **﴿مُرَاغَماً كَثِيراً﴾** من لوازم السعة في الأرض، لمَن يريد السلوك فيها والهجرة في سبيل الله تعالى .

والمعنى : ومَن يهاجر في سبيل الله طلباً لمرضاته وإقامة دينه ، يجد في الأرض مخلصاً ونجاة من الضلال والضيق ، في التحوّل من أرض إلى أُخرى كلّما

---

١ . سورة النساء : الآية ٩٧.

منعه مانع من إقامة دينه، وسعة في الرزق إذا خاف الضيق في مسيره.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾.

بيان للمخافة الأُخرى التي تدور في النفس بشأن الهجرة، وهي درك الموت في الطريق أو السلوك إلى الحقّ.

ودرك الموت كناية عن وقوعه عليه ومفاجآته به قبل الوصول إلى المقصد، والمهاجرة إلى الله تعالى والرسول هي الهجرة إلى دار الإسلام لتقوية الحقّ ونصرة دين الله تعالى ورسوله الكريم والعمل بأركان الشريعة.

والآية المباركة وعد من الله تعالى لمن يهاجر في سبيل الله تعالى، ثمّ يحلّ به الموت وهو في الطريق قبل بلوغ دار الهجرة.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾.

كناية عن اللزوم والثبوت أو الاستقامة، أي وجب عليه الأجر والثواب ولزم بمقتضى وعده الجميل ولطفه العميم، وفي الآية الكرية كمال اللطف ومزيد الرضا من الله تعالى له، حيث اعتبر عزّ وجلّ أنّ الموت كالهديّة منه سبحانه وتعالى؛ لأنّه السبب الموصول إلى الأجر الجزيل والنعيم المقيم.

كما أنّه جلّ شأنه اختار: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ﴾ دون «من يهاجر»؛ لكمال العناية بأنّ الموت إن وقع عليه قبل الوصول، فهو ينال هذه المرتبة وإن لم يصل إلى المقصد.

وفي إبهام الأجر واختيار اسم الجلالة للدلالة على عظم الأجر الذي لايقدّر بقدر ولا يعلم كنهه ولا حقيقته إلّا هو؛ لأنّه من الذات المقدّسة.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

فهو يغفر له جميع ذنوبه، ويجزل له في العطاء، وإنّما أتى بصيغة المبالغة للدلالة على أنّه يغفر له ما فرّط فيه من الذنوب التي منها القعود عن الهجرة، فيرحمه بإكمال ثواب هجرته.

وفي الآية المباركة تأكيد للوعد الجميل بلزوم توفية الأجر والثواب، فهو يغفر الذنوب التي ارتكبها قبل الخروج للهجرة، رحيم يجزل لهم العطاء ويغمرهم بإحسانه.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

(غير) في قوله تعالى: ﴿**غَيْرُ أُوْلِي الضَّـرَرِ**﴾ بـالرفع، صـفة لقـوله تـعالى: ﴿**الْقَاعِدُونَ**﴾، وهي وإن لم تكن معرفة ولابدّ من التطابق بين الصفة والموصوف في المعرفة، لكنّه غير مقصود في المقام؛ لأنّ المراد من القاعدين جنسهم، ويصحّ وصف الجنس بها. وذكر الرضي أنّ المعرّف باللام المبهم وإن كـان فـي حكـم النكرة، لكنّه لا يوصف بما توصف به النكرة، بل يتعيّن أن تكون صفته جملة فعليّة وفعلها مضارع، كما في قوله:

ولقـد أمـرّ عـلى اللـئيم يسبّني فأصـدّ ثـمّ أقـول مـا يـعنيني

ولأجل تلك المناقشة جعل بعضهم «غير» في المقام بدلاً من «القاعدون» لأنّ (ال) فيه موصولة. ولكنّه ليس بشيء كما لا يخفى.

وقرأ بعضهم (غير) بالجرّ صفة لقوله تعالى: ﴿**مِنْ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، وقرئ بالنصب على أنـه استثناء من قوله تعالى: ﴿**مِنْ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، أو حال، و هو نكرة لا معرفة.

و (درجةً) في قوله تعالى: ﴿**فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَـلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً**﴾، منصوب على المصدر، لتضمّنها معنى التفضيل ـ كما عـرفت سابقاً ـ كأنّه قيل فضّلهم تفضيلةً، كما في قولهم: ضربته سوطاً، أي ضربةً.

وقيل: على الحال، أي ذوي درجة، وقيل: على التمييز، وقيل: على حذف الجارّ، أي بدرجة، وقيل: هو واقع موقع الظرف، أي في درجة ومنزلة.

و (كلّاً) في قوله تعالى: ﴿**وَكُلّاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى**﴾ مفعول أوّل لما بعده، قدّم لإفادة القصر تأكيداً للوعد، وتنوينه عوض المضاف إليـه، أي كـلّ واحـد مـن

الفريقين. وقرئ (كلّ) بالرفع على الابتداء، والمفعول الأوّل هو العائد في جملة الخبر محذوف، أي وعده، والقراءة الأُولى هي الأشهر، وعلى كلتا القرائتين (الحسنى) المفعول الثاني، والجملة اعتراض جيء بها لدفع ما يتوهّم من تفضيل أحد الفريقين على الآخر، وحرمان المفضول البتة.

وإنّما لم يذكر عزّ وجلّ القيود في قوله تعالى: **﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾** لاغناء «ال» في «المجاهدين» عن ذكرها، وإنّما لم يذكر القيد في القاعدين، أي «غير أُولي الضرر» في الموضعين، ولم يفعل ما فعله بالقيود مع المجاهدين التي ذكرها على سبيل التدرّج؛ لأنّ قيد «غير أُولي الضرر» كان بعد السؤال، بخلاف القيود مع المجاهدين.

و (أجراً) في قوله تعالى: **﴿أَجْراً عَظِيماً﴾** مفعول ثان، لتضمّنه معنى الإعطاء، وقيل: هو منصوب بنزع الخافض، أي فضّلهم بأجر.

و (درجات) في قوله تعالى: **﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ﴾**، إمّا أن يكون منصوباً على الحاليّة، أي ذوي درجات، أو يكون بدلاً من (أجراً)، بدل الكلّ مبيّناً لكمّية التفضيل، واقعاً موقع الظرف، أي في درجات. و(منه) متعلّق بمحذوف صفة لدرجات تدلّ على فخامتها وعلوّ شأنها.

و (ظالمي) في قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾** منصوب على الحاليّة من ضمير المفعول في (توفّاهم)، والأصل (ظالمين أنفسهم)، والإضافة لفظيّة لا تفيد تعريفاً.

والاستفهام في قوله تعالى: **﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾** للتوبيخ والتقريع، وقد ذكرنا في أحد مباحثنا السابقة أنّ (ما) الاستفهاميّة المجرورة تحذف منها الألف حسب القاعدة؛ فرقاً بين الاستفهام والخبر؛ وتنزيلاً لها مع ما قبلها منزلة الكلمة الواحدة؛ ولذا تكتب الألف في (إلى) و(على) و(حتّى) في قولهم: إلامَ، وعلامَ، وحتّى مَ، ما

لم يوقف على ـ م ـ بالهاء.

وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جملة مركّبة من مبتدأ أوّل، وهو اسم الإشارة، و(مأواهم) مبتدأ ثان، و(جهنّم) خبره الثاني، و الجملة خبر للمبتدأ الأوّل.

والاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ منقطع؛ لأنّ المستضعفين لم يندرج في الموصول وضمائره، والمشار إليه بأُولئك.

و (يدركه) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ مجزوم، لأنّه جواب الشرط، وقرئ برفع الكاف: «يَدرِكُهُ» على أنّه فعل مضارع لتجرّده من الناصب والجازم، والموت فاعله، والجملة خبر لمبتدأ محذوف، أي: (ثمّ هو يدركه الموت)، والجملة الاسميّة معطوفة على الجملة الشرطيّة، وإنّما قدّروا المبتدأ ليصحّ رفعه مع العطف على الشرط المضارع، وقال بعضهم: يجب حينئذٍ جعل (من) موصولة؛ لأنّ الشرط لا يكون جملة اسميّة. ولكنّه تطويل لا حاجة إلى تقدير المبتدأ. وقرئ بنصب الكاف بإضمار (ان)، فتكون الآية الكريمة على الحثّ آكد، وذكر بعضهم في وجه النصب أيضاً أنّ الفعل الواقع بين الشرط والجزاء يجوز فيه الرفع والنصب والجزم لو وقع بعد الواو والفاء.

وكيف كان، فالآيات الشريفة من أعلى درجات الفصاحة والبلاغة، وهي تحثّ على الجهاد والهجرة في سبيل الله تعالى بأُسلوب حسن، تشوّق النفس إلى الثواب الجزيل المعدّ لهم، وتحبط آمال المتقاعدين عن الجهاد والمستقرّين في دار الكفر وترك الهجرة منها، وتبيّن سوء عاقبتهم.

وقد اشتمل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ على وجوه من البلاغة:

منها: أنّ اختيار **﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً﴾** على **﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ﴾**؛ للدلالة على أنّ من آثر الخروج والمهاجرة على الاستقرار، يكون له هذا الثواب وإن كان ذلك خارج بيته، وهو مزيد فضل لا يدانيه شيء.

ومنها: وضع (يدركه الموت) على (يمت) للدلالة على مزيد الرضا من الله تعالى، وأنّ الموت هديّة منه عزّ وجلّ، وهو السبب للوصول إلى ذلك الأجر الجزيل، ويؤكّد ذلك مجيء (ثمّ) دون الواو، ولبيان أنّ مرتبة الخروج من البيت دون هذه المرتبة.

ومنها: قيام قوله تعالى: **﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾** مقام (يثبه) ونحوه؛ للدلالة على أنّ هذا الثواب لازم وثابت عليه، وفاءً لما عهد على نفسه.

ومنها: إظهار اسم الجلالة لبيان أنّ الأجر عظيم لا يدرك كنهه ولا حقيقته أحد، لأنّه وقع على الذات الأقدس.

ومنها: أنّ سياق الآية الشريفة يدلّ على لطف الله تعالى بهؤلاء الّذين أدركهم الموت بعد انقطاعهم عن الوطن والأهل، فإنّه تعالى هو الذي يعطيهم الأجر ويتكفّل جزاءهم لطفاً بهم وعطفاً عليهم بسبب انقطاعهم إليه، ومثل هذا التعبير لم يرد إلّا في بعض الطاعات كالصوم، فإنّه ورد فيه: «الصوم لي وأنا أجزئ به»؛ لأنّ في الصوم مزيد الانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن الملذّات.

هذا بعض ما يمكن أن يُقال في هذه الآية الشريفة التي هي في غاية الفصاحة، فسبحان مَن جلّت آياته.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات المباركة على أُمور:

الأوّل: تدلّ الآيات الكريمة على عظيم الفضل للجهاد والمنزلة الكبرى له؛

لأنّ به يُقام دين الله تعالى ويبسط العدل وينشر الحقّ ويبثّ الصلاح والإصلاح. وبه يذلّ الكفر والشرك، ويزال الظلم والعدوان، وتخذل كلمة الكفر، وتطهر الأرض من الفساد.

والآيات الشريفة بأُسلوبها اللطيف، ومضمونها الرفيع، وفصاحتها الكاملة، قد اقترنت بأُمور جعلتها من أهمّ الآيات التي ترغّب إلى الجهاد وتنشّط عليه، وتحفّز الهمم، إليه وتنفّر النفوس من القعود عنه، والتكاسل والتواكل منه، فقد نفى عزّ وجلّ المساواة بين المجاهدين والقاعدين غير أُولي الضرر، من غير أن يبيّن جلّ شأنه جهة التفاوت صريحاً ليذهب ذهن السامع أي مذهب.

وقدّم تعالى القاعدين لبيان أنّ فيهم جهة القصور لا من جهة مقابليهم، ثمّ أردفه ببيان فضل المجاهدين وأنّه درجة، ثمّ بيّن عزّجلّ أنّه درجات وأنّ فيه فضلا زائداً، فكان المجاهدون هم المفضّلين ابتداءً.

كما أنّه عزّ وجلّ قيّد المجاهدين بقوله: ﴿**فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ**﴾، ثمّ بقوله: ﴿**بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ**﴾، ثمّ أطلقه عزّ وجلّ من غير تقييد، كلّ ذلك لأجل التفنّن في العبارة، والحثّ والتحريض، وبيان هذا الأمر العظيم بأُسلوب حسن يقبله الطبع؛ لأنّ بذل أعزّ الأشياء عند الإنسان أمر ليس بالهيّن اليسير.

وبالجملة: الآية المباركة صريحة الدلالة على أفضليّة الجهاد، وأنّ فيه الأجر العظيم، وللمجاهدين منازل ودرجات في الآخرة، وأنّ لهم مقام القرب عند الله عزّ وجلّ.

الثاني: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ**﴾ أنّ جهة التقصير إنّما كان من جهة القعود عن الجهاد، ولعلّه السبب في عدم الاستواء بينهم وبين المجاهدين. ويفهم من تقييد القاعدين بكونهم غير أُولي الضرر أنّهم على قسمين: مَن لا ضرر به لكن قعد للإذن له في ذلك، أو لقيام مَن

فيه الكفاية، ومَن به الضرر الذي يمنعه من الخروج ولولاه لخرج، والآية الكريمة مع كونها صريحة الدلالة في نفي المساواة بين القسم الأوّل وبين المجاهدين، تتضمّن أيضاً نفي المساواة في الثاني، وقيّدهم بكونهم من المؤمنين؛ لبيان أنّ قعودهم عن الجهاد لا يخرجهم عن الإيمان، وللإشعار بقلّة استحقاقهم للثواب والعاقبة الحسنى في ما سيأتي.

الثالث: يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾** أنّ سبب استحقاقهم لهذا الفضل العظيم إنّما هو الجهاد، وأنّ القعود إنّما كان عنه، وقد ترك التصريح به في صدر الآية الشريفة رعايةً للمجاهدين واهتماماً بشأنهم وفضلهم على القاعدين وعلوّ رتبتهم، كما يستفاد ذلك من القيود الأُخرى.

وإنّما قيّده بكونه في سبيل الله تعالى؛ لبيان أنّه السبب في فضلهم ورفع شأنهم، كما يستفاد من القيود الأُخرى أنّ لها المدخليّة في ذلك كلّه.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: **﴿غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾** على أنّ كلّ من به ضرر في البدن أو المال يسقط عنه الجهاد، ويفسّره قوله تعالى: **﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**، فيشمل كلّ عاجز عن الجهاد وما يمنع عن الخروج إليه، فلا يكون الجهاد واجباً عليهم.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: **﴿غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾** على أنّ الجهاد فرض كفائي، وإلّا لما كان القاعد لا لضرورة معذوراً، ويدلّ عليه قوله تعالى: **﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾**، فإنّ القاعد إذا وجب عليه الجهاد ويكون آثماً، ولا معنى لوعد الله تعالى له بالحسنى.

السادس: يستفاد من تكرير التفضيل بطريق العطف المنبئ عن المغايرة، وتحديده تارةً بدرجة، وأُخرى بدرجات مع اتّحاد المفضّل والمفضّل عليه ـ كما

هو ظاهر الآية ـ أنّ درجة المجاهدين بمحلّ لا يمكن أن تدركه العقول؛ ولبيان الاختلاف الذاتي في الدرجات التي تشتمل على الرحمة والمغفرة والثواب الجزيل؛ وللإعلام بأنّ المجاهدين يختلفون في نيل تلك الدرجات المتفاوتة.

السابع: يستفاد من قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾** على سؤال القبر وأنّ الملائكة تسأل عن دين الميّت، وتدلّ عليه جملة من الآيات الشريفة والنصوص الكثيرة:

قال تعالى: **﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[2].

ويستفاد منها أنّ ظلم الإنسان نفسه يوجب السؤال والاستجواب وشدّة العتاب.

الثامن: يدلّ قوله تعالى: **﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾** على وجوب الهجرة من بلاد الكفر والشرك إذا لم يمكن إظهار شرائع الله جلّ شأنه، وإقامة أحكامه وفرائض دينه، فإنّ الذي يقعد عن هذا القسم من الجهاد ـ أي الهجرة إلى دار الإسلام من دار الكفر ـ وهو قادر عليه، ويعرّض نفسه للافتتان عن دينه، والعجز عن إقامة شرايعه وإتيان فرائضه، فهو ظالم لنفسه، وأنّ التعلّل بأنّه كان مستضعفاً لا يملك شيئاً غير مفيد؛ لأنّ ظلمه لنفسه كان لأجل تركه العمل بالحقّ خوفاً من الأذى وفقد

---

١ . سورة النحل: الآيه ٢٨.

٢ . سورة النحل: الآية ٣٢.

عشيرته وإعراضهم عنه ، فهو عذر باطل كما يتعذّر به كثير من الزيغ والمفسدين .

التاسع : يدلّ قوله تعالى : ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ في الأرض أنّ استضعافهم هذا كان إدّعائيّاً ، كما يدله عليه ذيل الآية الشريفة ، ويستفاد منه لو لم يكن بهذه المثابة كما لو كان له عشيرة تحميه من المشركين ويمكنه إظهار دينه ويكون آمناً على نفسه ، فإنّ المهاجرة غير واجبة عليه .

العاشر : يستفاد من قوله تعالى : ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ ، بيان لشروط المستضعفين في القرآن الكريم ، وهي كون الإنسان ضعيفاً في بدنه من جهة الكبر مثلاً أو الصغر أو عدم القابلية كالنساء ، ففي الحديث : «علم الله ضعفهن فرحمهن» ، وعدم وجود حيلة يحتال بها للخروج ، كالمال والعدّة والصديق ونحو ذلك ، وعدم الاهتداء للطريق وسبل الصحارى والأرض ، أو عدم اهتداء ذهنه إلى التفكّر في المعارف الحقّة ، ولتزاحم المذاهب والأفكار أوجبت خفاء الحقّ عليه فلم يهتد إليه سبيلاً ، فهو مستضعف لا يستطيع حيلة ، قد سلبته المذاهب مذهب الحقّ بأفكارهم وحيلهم ، فاستولى عليه الغفلة ووقع الجهل المركّب ، ومن المعلوم أنّه لا قدرة معه ، ولعلّه إلى ذلك يشير قول عليّ عليه السلام : «لا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجّة فسمعتها أذنه ووعاها قلبه» .

الحادي عشر : يستفاد من قوله تعالى : ﴿فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ تعظيم أمر ترك الهجرة وتغليظ جرمه ، فإنّ المضطرّ من حقّه أن لا يأمن غضب الله تعالى ويسأله العفو عنه ، ويترصّد الفرصة ، فكيف بمَن تركها من غير عذر .

الثاني عشر : إطلاق قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ يشمل من خرج لمعرفة الإمام الحقّ وطلب الدين والتفقّه فيه والحجّ والزيارات أو ابتغاء الرزق الطيّب وطلب كلّ كمال لم ينه عنه الشرع المبين ، وغير

ذلك ممّا يقصد بالذهاب إليه طلب مرضاته وامتثال أمره، فإنّ المقصود مرضاته في أي مورد تحقّقت، ويدلّ عليه جملة من الروايات، منها ما رواه العيّاشي عن محمّد بن أبي عمير، قال: «وجّه زرارة ابنه عبيداً إلى المدينة يستخبر له خبر أبي الحسن موسى عليه السلام وعبد الله، فمات قبل أن يرجع إليه عبيداً ابنه، قال محمّد بن أبي عمير: «حدّثني محمّد بن حكيم قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: فذكرت له زرارة وتوجيه ابنه عبيداً إلى المدينة، فقال أبو الحسن: إنّي لأرجو أن يكون زرارة ممّن قال الله تعالى: **﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾**».

الثالث عشر: يدلّ قوله تعالى: **﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾** على أنّ العمل يوجب الثواب، فيكون مستحقّاً على الله تعالى ـ كما يذهب إليه علماؤنا بخلاف الأشاعرة ـ فإنّ الأجر عبارة عن المنفعة المستحقّة، وأمّا الذي لا يكون مستحقّاً لا يُسمّى أجراً، بل عطيّة وهبة.

الرابع عشر: يستفاد من قوله تعالى: **﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً﴾** أنّ الخروج إلى البلاد والمهاجرة في الأرض يستلزم ملاقاة أفراد كثيرين وأشخاص متعدّدين مختلفين من حيث ضيق المعاش والسعة فيه، فيستدلّ بذلك على قدرة الله تعالى، فيعلم أنّ ما يعتمد عليه الإنسان لتحصيل رزقه باطل عاطل، ولا ينبغي الاعتماد إلّا عليه تعالى.

***

بحث روائي:

عن البيهقي في «سننه» عن ابن عبّاس: «أنّ أُناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثّرون سواد المشركين على رسول الله صلى الله عليه وآله فيأتي السهم يرمى به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب فيقتل، فأنزل الله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ**

الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾».

أقول: وفي رواية أُخرى: «كان قوم من أهل مكّة أسلموا وكانوا يستخفّون بالإسلام».

وكيف كان، فإنّ ما أصابهم كان جزاءً لنفاقهم ولإعانتهم للـمشركين، وأنّ الروايات من باب التطبيق وذكر أحد المصاديق وإن كانت التعبيرات فيها مختلفة، وكلّها من طرق أهل السنّة.

وفي «الدرّ المنثور» عن ابن عبّاس في قوله تـعالى: **﴿إِنَّ الَّـذِينَ تَـوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾** إلى قوله: **﴿وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾**: «كانو قوماً من المسلمين بمكّة فخرجوا مع قومهم من المشركين في قـتال، فـقتلوا مـعهم، فـنزلت: **﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾**، فعذر الله أهل العذر منهم، وهلك مَن لا عذر له، قال ابن عبّاس: وكنت أنا وأُمّي ممّن كان له عذر».

أقول: لابدّ من حمل الرواية على أنّ العذر لم يكن عن تقصير، وأنّـه ممّا يقبله الله ورسوله، كما تقدّم في التفسير.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم» في الآيات المباركة قال: «نزلت فـي مَـن اعتزل أمير المؤمنين عليه السلام ولم يقاتل معه، فقالت لهم الملائكة عند الموت: فـيما كنتم، قالوا: كنّا مستضعفين في الأرض، أي لم نعلم مع من الحقّ؟ فقال: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، أي في دين الله وكتاب الله واسع فـتنظروا فـيه، **﴿فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾**، ثمّ استثنى فقال: **﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾**».

أقول: الرواية من باب التطبيق وذكر أحد المصاديق، ويسـتفاد مـنها أنّ المستضعف الممنوع عن الهجرة أعمّ من أن يكون في العـقيدة أو فـي غـيرها، والمراد من الأرض الأعمّ من التكوينيّة وغيرها.

وفي «الكافي» بسنده عن هشام بن حمزة بن الطيّار، قال: «قال لي أبو عبدالله عليه السلام: الناس على ستّة أصناف، قلت له: أتأذن لي أن أكتبها؟ قال: نعم، اكتب أهل الوعدين، أهل الجنّة، وأهل النار، قال: اكتب: **﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾**، قلت: مَن هؤلاء؟ قال: وحشي منهم، قال: واكتب: **﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾**، قال: واكتب: **﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾**، لا يستطيعون حيلة إلى الكفر ولا يهتدون سبيلاً إلى الإيمان، **﴿فَأُوْلَـٰئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾**، قال: واكتب: وأصحاب الأعراف، قلت: وما أصحاب الأعراف؟ قال: قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فإن أدخلهم النار فبذنوبهم، وإن أدخلهم الجنّة فبرحمته».

أقول: الحصر في ذلك عقلي، إذ لا يوجد صنف آخر غيرهم، والاستدلال بالآيات المباركة من باب الجري والتطبيق كما تقدّم، و وحشي هو قاتل حمزة عليه السلام وذكره من باب المثال.

وفي «الكافي» بإسناده عن زرارة، قال: «و سألت أبا جعفر عليه السلام عن المستضعف؟ فقال: هو الذي لا يستطيع حيلة إلى الكفر فيكفر ولا يهتدي سبيلاً إلى الإيمان ـ لا يستطيع أن يؤمن ولا يستطيع أن يكفر ـ فمنهم الصبيان ومَن كان من الرجال والنساء على مثل عقول الصبيان مرفوع عنهم القلم».

أقول: اختلفت الروايات في تحديد المستضعف وتعيينه، فمنها ما حدّدته بضعفاء العقول، كغالب الصبيان، فإنّهم لا يميّزون الحقّ عن الباطل، ولا الضلالة عن الهداية، كما تقدّم في الرواية السابقة وغيرها من الروايات المستفيضة.

ومنها: ما حدّد المستضعف بـمَن لا يعرف سورة من القرآن، كما في رواية ابن إسحاق، قال: «سئل أبو عبد الله عليه السلام ما حدّ المستضعف الذي ذكره الله عزّ

وجلّ؟ قال: مَن لا يحسن سورة من سور القرآن، وقد خلقه الله عزّ وجلّ خلقه ما ينبغي لأحد أن لا يحسن»، والمراد من خلقه الفطرة، يعني نزل القرآن حسب الفطرة المستقيمة.

ومنها: ما حدّدهم بالبلهاء، كما في رواية سليمان بن خالد عن الصادق عليه السلام، قال: «سألته عن المستضعفين؟ فقال: البلهاء في خدرها والخادم في خدرها تقول لها: صلّي، فتصلّي لا تدري إلّا بما قلت له، والكبير الفاني والصبي الصغير، يا سليمان هؤلاء المستضعفون، فأمّا رجل شديد العنق جدل خصم يتولّى الشراء والبيع لا تستطيع أن تعينه في شيء، تقول: هذا مستضعف؟! لا ولا كرامة»، والمراد من البلهاء ـ التي هي جمع أبله ـ الغافل عن الشرّ والبعيد عنه، المطبوع على الخير، يظنّون بالناس حسناً، يجهلون حذق التصرّف في الدُّنيا، وقد أقبلوا على آخرتهم، عيشهم قليل الغموم، يتجبّرون عليهم في الدُّنيا لفقرهم ورثاثة حالهم، ولذلك استحقّوا أن يكونوا أكثر أهل الجنّة، كما ورد الخبر: «أكثر أهل الجنّة البلهة»، وما ذكره عليه السلام من بعض المصاديق، وليس المراد الأبله الذي لا عقل له، وفي الحديث: «عليك بالبلهاء، قلت: وما البلهاء؟ قال: ذوات الخدود والعفائف». والفرق بين السفه والبله واضح كما ذكرناه في كتابنا (مهذب الأحكام).

ومنها: ما حدّده بمَن لا يعرف اختلاف الناس، كما في رواية أبي بصير عن الصادق عليه السلام، قال: «مَن عرف اختلاف الناس فليس بمستضعف»، والمراد من اختلاف الناس معاشرتهم على طريق الشرع، أو اختلاف مذاهبهم.

ومنها: ما حدّده بأهل الولاية على وجه العموم، كما في رواية حمران، قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿**إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ**﴾، قال: هم أهل الولاية. فقلت: أي ولاية؟ فقال: أما إنّها ليست بولاية في الدِّين، ولكنّها الولاية

في المناكحة والموارثة والمخالطة، وهم ليسوا بالمؤمنين ولا بالكفّار، وهم المرجون لأمر الله».

ولكن ذكرنا في التفسير أنّ المراد من المستضعف مطلق مَن لا حول له ولا سبيل، سواء كان في النفس أو في البدن أو في الرأي أو في الحال، ولجميع ذلك مراتب، وبذلك يمكن الجمع بين الأخبار. فإنّ ما ورد فيها من باب ذكر المصاديق لا المعنى الحقيقي.

وفي «تفسير العيّاشي» عن الصادق عليه السلام قال: ﴿**الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً**﴾، قال: لا يستطيعون سبيل أهل الحقّ فيدخلون فيه، ولا يستطيعون حيلة أهل النصب فينصبون، قال: هؤلاء يدخلون الجنّة بأعمال حسنة وباجتناب المحارم التي نهى الله عنها، ولا ينالون منازل الأبرار».

أقول: الرواية مطابقة للعقل والفطرة؛ لأنّ الله تعالى لا يكلّف أحداً أكثر من قدرته وعرفانه ما لم يتحقّق تقصير منه فيهما، وأنّ لله منازل حسب درجات الإيمان ومدارج الأعمال، ويدلّ على ما ذكرنا رواية ضريس الكناسي عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «قلت له: جعلت فداك ما حال الموحّدين المقرّين بنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله من المذنبين الّذين يموتون وليس لهم إمام ولا يعرفون ولايتكم؟ فقال: أمّا هؤلاء فإنّهم في حفرهم لا يخرجون منها، فمَن كان له عمل صالح ولم يظهر منه عداوة، فإنّه يخدله خداً إلى الجنّة الّتى خلقها الله بالمغرب، فيدخل عليه الروح في حفرته إلى يوم القيامة حتّى يلقى الله فيحاسبه بحسناته، فإمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار، فهؤلاء الموقوفون لأمر الله، قال: وكذلك يفعل بالمستضعفين والبله والأطفال وأولاد المسلمين الّذين لم يبلغوا الحلم»، المراد من الخد: أنّه يشقّ له طريقاً إلى الجنّة التي تورات في مغيبها عن الناظرين، أي خلقها الله تعالى بالمغرب.

كما أنّ المراد من قوله عليه السلام: «يدخل عليه الروح في حفرته إلى يوم القيامة»، نحو من الإدراك وقسم من الشعور الذي تحسّ النفس، يعني من بدء وضعه في حفرته تشعر الروح بالسعادة أو الشقاء. وتقدّم معنى البله، وأمّا الأطفال فهم الموقوفون لأمر الله تعالى، أي يمتحنهم في يوم القيامة كما في كثير من الروايات.

وفي «الكافي» عن أبي الحسن موسى عليه السلام: «أنّه سئل عن الضعفاء؟ فكتب عليه السلام: الضعيف مَن لم ترفع له حجّة، ولم يعرف الاختلاف، فإذا عرف الاختلاف فليس بضعيف».

أقول: هذه الرواية تدلّ على ما ذكرناه سابقاً.

وعن علي عليه السلام في كلام له في الإيمان ووجوب الهجرة: «والهجرة قائمة على حدّها الأوّل ما كان لله في أهل الأرض حاجة من مستسِّر الأُمّة ومعلنها، لايقع اسم الهجرة على أحد بمعرفة الحجّة في الأرض، فمَن عرفها وأقرّ بها فهو مهاجر، ولا يقع اسم الاستضعاف على مَن بلغته الحجّة فسمعتها أُذنه ووعاها قلبه».

أقول: يبيّن عليه السلام غرض الهجرة ومعناها، وأنّ من أراد الفوز بمعارج اليقين والنيل إلى أعلى مراتب الإيمان فليهاجر إلى أئمّة الدِّين عليهم السلام، فإنّ الهجرة باقية على أُصولها الأوليّة وحدّها الذي كان في أوّل البعثة؛ لأنّ الغاية من الهجرة ليست إلّا الدنوّ إلى الحضور بالوصول إلى حضرة الرسول صلى الله عليه وآله، وهي بعدُ باقية، فإنّ الأئمّة المعصومين قائمون مقامه وهم خلفائه. وليس لله في طلب الهجرة من عباده حاجة؛ لأنّه الغني المطلق والعزيز المقتدر، وإنّما طلب منهم ذلك لأجل إيصال النفع إليهم ونجاتهم عن المهالك والشدائد بالإيمان به والركون إليه جلّ شأنه، ولايقع اسم المهاجر إلّا بمعرفة حجّة الله في أرضه والإيمان به ـ سواء كان

نبيّاً أو وصيّاً ـ لتحقّق الغرض، وهو الوصول، ويؤكّد عليه ذلك من أنّ مَن بلغته الحجّة وعرفها لا يكون مستضعفاً وإن لم يتجشّم عناء السفر وكان في وطنه، كما يدلّ على ذلك ما تقدّم من الروايات، وما عن الصادق عليه: «أنّه سئل ما تقول في المستضعفين؟ فقال شبيهاً بالفزع: فتركتم أحداً يكون مستضعفاً، وأين المستضعفون؟! فو الله لقد مشى بأمركم هذا العوانق إلى العوانق في خدورهن، وتحدّثت به السقاآت في طريق المدينة»، يعني لا يسوغ له التقصير في الإيمان بالحجّة بعد الظهور والسماع والمعرفة لكلّ أحد، فلا يقع عليه اسم الاستضعاف حينئذٍ. والعوانق جمع عنق الرقبة.

وفي «الكافي» بإسناده عن إسماعيل الجعفي، قال: «سألت أبا جعفر عن الدين الذي لا يسع العباد جهله؟ قال: الدين واسع ولكن الخوارج ضيّقوا على أنفسهم من جهلهم، قلت: جعلت فداك فأحدّثك بديني الذي أنا عليه؟ فقال: نعم، فقلت: أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى، وأتولّاكم وأبرأ من أعدائكم ومَن ركب رقابكم وتأمّر عليكم وظلمكم حقّكم، فقال: والله ما جهلت شيئاً، هو والله الذي نحن عليه، فقلت: فهل يسلم أحد لا يعرف هذا الأمر؟ فقال: لا إلّا المستضعفين، قلت: مَنْ هم؟ قال: نساؤكم وأولادكم، ثمّ قال: أرأيت أُم أيمن؟ فإنّي أشهد أنّها من أهل الجنّة، وما كانت تعرف ما أنتم عليه».

أقول: إنّها تدلّ على أنّ الدِّين يطيقه كلّ أحد وليس فيه ما يوجب الشدّة والحرج، إلّا أنّ بعض الأقوام شدّدوا على أنفسهم بالضيق لجهلهم بواقع الدين، فإنّ أُصوله موافقة للفطرة، وما كان كذلك لا ضيق فيه، ولا يسلم أحد لا يعرف الدين إلّا المستضعفون الّذين لا سبيل لهم إلى المعرفة إلّا بمقدار إدراكهم، كما تقدّم.

وفي «معاني الأخبار» بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام: «إنّ المستضعفين ضروب يخالف بعضهم بعضاً، ومَن لم يكن من أهل القبلة ناصباً، فهو مستضعف».

أقول: والروايات في ذلك مستفيضة، وإنّما لم يكن الناصب من المستضعف؛ لأنّ النصب لا يتحقّق إلّا عن عناد وتقصير كما هو واضح، وهناك روايات أُخرى متّفقة المضمون مختلفة التعبير، جار فيها ما ذكرناه.

وعن عليّ عليه السلام: «مَن مات في سبيل الله فهو ضامن على الله أن يدخله الجنّة؛ لقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ**﴾».

أقول: المراد من سبيل الله مطلق مرضاته وما يوجب التقرّب إليه، سواء كان في طلب العلم والكمال، أو الجهاد في سبيله، أو في السفر إلى الحج، أو الخروج لأجل صلة الرحم أو غير ذلك، فهو تعالى ضامن، أي يتكفّل أن يدخله الجنّة ويعطيه الأجر الجزيل؛ لأنّ ذلك نوع من الهجرة إليه تعالى، التي تلازم السعادة الأبديّة والعاقبة الحميدة.

وفي «المجمع» عن أبي حمزة الثمالي، قال: «لمّا نزلت آية الهجرة سمعها رجل من المسلمين وهو جندب بن عمرة وكان بمكة، فقال: والله ما أنا ممّن استثنى الله، إنّي لأجد قوّة وإنّي لعالم بالطريق، وكان مريضاً شديد المرض فقال لبنيه: والله ما أبيت بمكّة حتّى أخرج منها، فإنّي أخاف أن أموت فيها، فخرجوا يحملونه على سرير حتّى اذا بلغ التنعيم مات، فنزلت الآية».

أقول: ذكر الواقدي في «أسباب النزول» أنّ المهاجر كان حبيب بن حمزة، والسيوطي في «الدرّ المنثور»: جندع بن حمزة أو رجل من بني ليث أو أكثم.

وكيف كان، فالمورد إمّا من باب التعدّد في القضية، أو اختلاف الاسم، فمهما كان فما ورد في تلك الروايات إنّما هو من باب التطبيق والجري، ولا التخصيص.

وفي «الدرّ المنثور» عن ابن زيد، قال: «هاجر رجل من بني كنانة يريد النبيّ ﷺ فمات في الطريق فسخر به قوم واستهزؤوا به، وقالوا: لا هو بلغ الذي يريد، ولا هو أقام في أهله يقومون عليه ويدفن، فنزل القرآن: **﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾**».

أقول: الرواية إمّا من باب التطبيق، أو من باب تعدّد النزول، ولا إشكال فيه كما تقدّم. وهناك روايات أُخرى متّفقة المضامين ومختلفة التعابير، كلّها تدلّ على أنّ الهجرة هي الحجّة البالغة للإنسان، سواء وصل إلى الرسول ﷺ أو لم يصل، وسواء خرج معه ﷺ الى الجهاد أو لم يخرج، فقد روي عنه ﷺ: «أنّه لما رجع من غزوة تبوك ودنا من المدينة قال: إنّ في المدينة لأقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلّا كانوا معكم، قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة! قال: نعم وهم بالمدينة حبسهم حابس العذر. وهم الذّين صحّت نياتهم وتعلّقت قلوبهم بالجهاد، وإنّما منعهم عنه الضرر».

وفي «تفسير العيّاشي» عن أبي الصباح، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما تقول في رجل دعي إلى هذا الأمر فعرفه وهو في أرض منقطعة، إذ جاءه موت الإمام عليه السلام، فبينما هو ينتظر إذ جاءه الموت، فقال: هو والله بمنزلة مَن هاجر إلى الله ورسوله فمات، فقد وقع أجره على الله».

أقول: الرواية تدلّ على ما ذكرناه كما مرّ، وهي مطابقة لما دلّ من أنّ الناس يُحشرون حسب نيّاتهم.

***

بحث عرفاني:

الهجرة وهي الانتقال والرحيل سواء كان من الوطن إلى غيره أو من حال إلى غيرها. وإنّها من أكمل الصفات الحسنة وأجلّها، إن كانت ناشئة من الحبّ

الحقيقي الواقعي لله سبحانه وتعالى والانقطاع إليه جلّ شأنه، وبها يحصل الودّ والحبّ له عزّ وجلّ، ومنه تعالى لعبده.

بل أنّ الهجرة من الفناء في ذاته جلّت عظمته؛ لأنّ بها يخرج الإنسان عن ذلّ ما توطّن فيه من الصفات الذميمة ويبعد عن المعاصي - التي تحصل عن الأهواء الشيطانيّة - كالكبر والحسد والبطر والجهل وغيرها.

وبالهجرة يفوز الإنسان وينال الكمالات بأنواعها وأقسامها الظاهريّة والمعنوية، فعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله:

«مَن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومَن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وبالهجرة يرتقي الإنسان عن حدود البشريّة في طلب حضرت الربوبيّة إلى منتهى السعادة بصفاء القلب وتزكيته والعروج إليه جلّت عظمته؛ لأنّ البقاء والسكون فيها الّذين لا يرضاهما تعالى من آثار الحجب والبُعد عن ذاته المقدّسة والقرب من الشيطان.

وبها يستغني المهاجر عن ما سواه تعالى، ويذوق لذّة العبوديّة لله جلّ شأنه، وينال شرفها بالخضوع الحقيقي له عزّ وجلّ. فالهجرة الواقعيّة من أسمى الصفات الكريمة، وأجلّ الكمالات الواقعيّة، وأرفع المنازل العظيمة، وأشرف الحقائق بل هي غاية السير والسلوك إليه عزّ وجلّ؛ لأنّها مبايعة الله تعالى مع عبده بالهجرة إليه عزّ وجلّ.

أقسام الهجرة:

للهجرة أقسام مختلفة تنشأ من علوّ الهمّة التي هي تختلف باختلاف الأشخاص ومراتب الإيمان ومنازل الأوطان:

الأوّل: الهجرة من الوطن إلى غيره لنيل الدُّنيا، فإنّ هجرته إلى ما هاجر إليه كما تقدّم عن نبيّنا الأعظم ﷺ ولا شرف فيها، بل في التعبير بها تسامح، والآيات الشريفة والسنّة المباركة بمعزل عنها.

الثاني: الهجرة بترك الأوطان والبُعد عن الإخوان، لنيل الكمال المنشود في رضائه تعالى بصحبة عالم عامل أو حكيم عارف أو معلّم مشفق. ولها مرتبة من الشرف، وقد يحصل بها الرقي إلى المنازل الرفيعة والدرجات الساميّة، وتسمّى بهجرة الأخيار.

الثالث: الهجرة من وطن الملك بالسعي في ترك جميع الحظوظ النفسانيّة للوصول إلى عالم الملكوت. أو من وطن المعصية إلى شرف الطاعة والسكون فيه بمعرفة الحقّ وتجلّيه له، وهي من أكملها وأعلاها وتسمّى بهجرة الخواص، وبها يبلغ المقصود ويخضع له ما في عالم الشهود لخضوعه الواقعي له عزّ وجلّ، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «من انقطع إلى الله كفاه كلّ مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب». وقد تقدّم في التفسير مكرّراً أنّ الرزق أعمّ من الإفاضات الظاهريّة والمعنويّة.

الرابع: الهجرة من وطن الغفلة إلى شرف اليقظة، أي من وطن الحسّ إلى وطن المعنى، بمكاشفة الأفعال ومشاهدة الصفات في ترك إقبال الخلق والعزل عن طلب الكرامة فيهم، ولا ينال هذا القسم إلّا مَن امتحن الله قلبه بالإيمان.

وبهذه الهجرة ينال العبد أسمى صفات العبوديّة وأجلّها، وهي كما عن الصادق عليه السلام: «العبوديّة جوهرة كنهها الربوبيّة»، بها يستغنى عن ما سواه تعالى ولا يعظم غيره عزّ وجلّ، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «مَن كانت الآخرة نيّته جمع الله عليه أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدُّنيا، وهي صاغرة»، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾، وتسمّى هذه الهجرة بهجرة الأبرار».

الخامس: الهجرة من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، أي من الأكوان إلى

المكوّن، وهي تختصّ بأخصّ الخواص، وتسمّى بهجرة المقرّبين ومن أجلّها الإسراء والمعراج: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾[1].

والجامع بين الأقسام الرحيل من علم اليقين إلى عين اليقين، ومنه إلى حقّ اليقين، أو من الشهود إلى المعرفة ومنها إلى المعاينة. فمَن هاجر من هذه المواطن قاصداً بهجرته الوصول إلى حضرة المحبوب بنيل رضاه، فقد بلغ أقصى مراتب السعادة وأشرف منازل الكرامة.

أسباب الهجرة:

تنشأ الهجرة النفسانيّة وعروج القلب إلى المشاهدة بتجاوز حدود البشرية من أسباب عديدة، أهمّها المحبّة لله تعالى، والغنى به جلّت عظمته، والصدق في العبوديّة ـ بالاستسلام لما يورد عليه والاستعانة منع جلّ شأنه ـ واليقين في أحكام الربوبيّة، بتزكية النفس ومخالفة هواها؛ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾[2]، ولكلّ من هذه الأُمور مراتب ودرجات وحدود، ولولا قول نبيّنا الأعظم ﷺ: «المؤمن مُلجم»، لكان لغور البحث فيها مجال.

آثار الهجرة:

لكلّ من أقسام الهجرة آثار تختلف حسب الهجرة التي هاجرها المهاجر، بهجران الصفات الرذيلة، وتبديل الأخلاق الفاسدة بالحسنة، وترك الحظوظ النفسانيّة، وقهر الهوى بالمقامات العالية، فقد ينقّى الأثر بالرقي إلى مكارم الأخلاق، والوصول إلى أقصى مراتب الكمال بسعادة الدارين، ونيل رضاه عزّ

١. سورة النجم: الآية ٤٢.

٢. سورة الشمس: الآية ٩.

وجلّ، ويبلغ القصد بالشهود بشرف العبوديّة في السير والسلوك حتّى لا يحتاج إلى دليل وبرهان في إثبات صفات الجمال والجلال، تبعاً للهجرة الموصلة إلى المطلوب، بل قد ينال من الحياة الأبدية في هذه النشأة، كما ورد في شأن بعض الخواص من أصحاب الصادق عليه السلام.

ولو مات المهاجر قبل أن يصل إلى مراده ومسعاه، فله نصيب مَن بلغ إلى ذلك المقام، ففي الأثر: «أنّ المؤمن إذا مات ولم يحفظ القرآن، أمر حفظته أن يعلّموه في قبره حتّى يبعثه الله يوم القيامة مع أهله»، وقد ثبت في محلّه أنّ الرقي في عالم البرزخ موجود لأهله. وأمّا قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى**﴾[1] إنّما هو بالنسبة لمن لا معرفة له أصلاً، لا من انكشف عنه الغطاء بالهجرة، وارتفع العمى والحجاب بالسير والسلوك إلى حضرة الربوبيّة في رضاه تعالى برؤية آثاره وصفاته جلّت عظمت. وأمّا قوله صلى الله عليه وآله: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله». هذا بالنسبة إلى أعماله الخارجيّة، وأمّا بحسب فضله تعالى فلا يتصوّر فيه حدّ حتّى ينقطع، والمهاجر الحقيقي كان من نيّته دوام الهجرة والتوطّن في المقامات العالية، ولأجل ذلك أضاف جزاءه إلى نفسه الأقدس بقوله تعالى: ﴿**فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ**﴾، ويدلّ على ما ذكرنا قوله تعالى في القدسيات: «لا يسعني أرضي ولا سمائي، وإنّما يسعني قلب عبدي المؤمن».

موانع الهجرة:

وهي العوائق الموجودة في النفس، المستندة إلى الأهواء الشرّيرة المتوطّنة في النفس البشرية الحاصلة من الوساوس الشيطانيّة، كالتخويف بالموت أو الفوت أو المحبّة لما سواه تعالى من الأهل والمال والجاه، فهذه حجب شيطانيّة

---

١. سورة الإسراء: الآية ٧٢.

تمنع عن الهجرة بالسير والسلوك، وتحجب عن مشاهدة التجلّيات وهو جمال الحقّ، فحسن الأعمال نتائج حسن الأحوال من صلاح القلب والتوجّه إلى الله، وبذلك تصلح الهجرة والرحيل، ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ﴾، أي بيت بشريته بترك الدُّنيا وقمع الهوى ﴿مُهَاجِراً﴾ الى التقرّب به جلّ شأنه بمبايعة رسوله، ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ قبل وصوله إلى مطلوبه ومسعاه، ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ﴾، أي بذمّة كرمه وفضله ورحمته، فيبلغه إلى أقصى مقاصده إن كان المانع أجَلَه، «فإن نيّة المؤمن خيرٌ من عمله»، و«يحشر الناس على نيّاتهم»، هذا إذا لم يأت بما يوجب بطلان الهجرة والبعد عن تشرّف الوصلة بالتقرّب إليه، ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً﴾ للذنوب خصوصاً ذنب أنانيّة الوجود، ﴿رَحِيماً﴾ بتجلّي صفة جوده حتّى يبلغ العبد إلى كمال مقصوده، ومسعى غايته، بمنّه وجوده وكرمه.

بحث فقهي:

يستفاد من الآيات الشريفة الأحكام الفقهيّه التالية:

الأوّل: يستفاد من قوله تعالى: **﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾**، أنّ الجهاد واجب كفائي يسقط عن أُولي الضرر، وعمّن تقوم به الكفاية، وإلّا لما كان القاعد لا لضرورة غير آثم، ولما استحقّ الوعد الحسن، وتدلّ الآية الكريمة وغيرها على أفضليّة الجهاد في سبيل الله تعالى، والأخبار في ذلك كثيرة.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾**، على وجوب المهاجرة من أرض لم يتمكّن فيها من إقامة الشريعة، بلا فرق بين أن تكون الإقامة فيها موجبه لارتكاب

محرّم أو ترك واجب، فإنه محرّم أيضاً، ويدلّ عليه بعض الأخبار، ففي صحيح محمّد بن مسلم عن الصادق عليه السلام: «في رجل أجنب ولم يجد إلّا الثلج أو ماءً جامداً، قال عليه السلام: يتيمّم به ولا أرى أن يعود إلى هذه الأرض التي توبق دينه»، فإنّ عموم العلّة يشمل جميع ما ذكرناه. ويدلّ على العموم أيضاً قوله: «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كانت شبراً من الأرض استوجبت له الجنّة وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيّه محمّد صلوات الله عليهما»، فالمهاجرة واجبة على كلّ من لم يتمكّن مَن إقامة دينه، أو كانت الإقامة موبقة لدينه، ويسقط الوجوب لو كان له ظهر يحميه من المشركين من عشيرة ونحوها، فيمكنه إظهار إيمانه ويكون آمناً على نفسه.

ويظهر ممّا ذكرنا أنّ الآية المباركة عامّة لا تختصّ بعصر النزول، وأنّ وجوب الهجرة باق مادام المقتضي موجوداً، وهو الكفر والشرك وعدم التمكّن من إقامة شعائر الإسلام. وأمّا الحديث المروي عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «لا هجرة بعد الفتح»، فإنّه محمول على نفي وجوب الهجرة عن مكّة المكرّمة بعد فتحها؛ لأنّها صارت من بلاد الإسلام، ولإمكان إقامة الشعائر فيها كما في كلّ بلاد الشرك إذا فتحت ودخل أهلها في الإسلام، فإنّه لا يجب الهجرة منها لعدم المقتضي.

ويستفاد من الآية الشريفة استحباب الخروج من أرض يعصى الله تعالى فيها، ويدلّ عليه قوله تعالى: **﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾**[1]، وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام: «اذا عصى الله في أرض و أنت فيها فأخرج منها إلى غيرها»، المحمول على الاستحباب.

وهل تشمل الآية الكريمة الهجرة من الأرض الّتى لا يتمكّن فيها من أقامة شعائر الايمان؟ فيه بحث مذكور في الكتب المفصّلة.

---

١. سورة العنكبوت: الآية ٥٦.

الثالث : يستفاد من إطلاق الآية المباركة أنّ الهجرة باقية مادام الكفر باقياً، وأنّها غير مقيّدة بزمان خاص ولا بمكان معيَّن، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «تنقطع الهجرة حتّى تنقطع التوبة حتّى تطلع الشمس من مغربها»، مضافاً إلى الإجماع.

الرابع : مقتضى أدلّة وجوب الهجرة أنّها تنقسم إلى الهجرة الواجبة والمستحبّة والمباحة، أمّا الأُولى فكما تقدّم، وأمّا الثانية كما إذا كان في بلاد الشرك ويمكنه إظهار الشعائر الدينيّة والعمل بها، ومع ذلك تستحبّ الهجرة لئلّا يكثر به عددهم أو يترتّب عليه عنوان يوجب رفع شأنهم، وأمّا الثالثة كما في موارد وجود العذر في الهجرة.

الخامس : يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ**﴾ على أنّ كلّ هجرة لغرض ديني من طلب علم أو حجّ أو جهاد أو الفرار من بلد الشرك إلى الإسلام، أو الهجرة من الباطل إلى الحقّ، ففي الحديث: «مَن دخل إلى الإسلام طوعاً، فهو مهاجر»، وكذا الفرار إلى بلد يزداد فيه طاعة الله تعالى أو زهداً في الدُّنيا أو قناعة أو ابتغاء رزق طيّب، فهي هجرة إلى الله تعالى ورسوله وإن أدركه الموت في طريقه فأجره يكون على الله تعالى؛ لأنّ المستفاد من الآية الشريفة هو طلب مرضاة الله ورسوله، فأين ما تحقّق المقتضي شملته الآية الكريمة.

***

الآية ١٠١ ـ ١٠٤

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١٠٤﴾﴾.

بعدما ذكر سبحانه وتعالى بعض ما يتعلّق بالجهاد والهجرة إلى سبيله عزّ وجلّ وحثّ عليها بأتمّ وجه وأكمل بيان، أراد جلّ شأنه أن يبيّن حكم المجاهدين مع أعداء الله تعالى في العبادات إذا أحاطهم الخوف ومانع عن ذكره جلّت عظمته، وحكم صلاة الخوف وبيان الصورة الّتي يؤدى بها.

وبمناسبة الهجرة من دار الكفر والشرك والضلال إلى دار الإسلام بيّن

سبحانه وتعالى حكم الصلاة في السفر من القصر فيها، بعد بيان الحكمة في تشريع القصر فيها.

ويأتي ذكر الصلاة بعد الحثّ الشديد إلى الجهاد والترغيب الأكيد إلى الهجرة؛ للأهمّية العظمى بها في شريعة الإسلام، حتّى أنّ الخوف من الأعداء وفتنتهم وتحمّل أهوال السفر ومشاقّة ومتاعبه، لا تحول كلّ ذلك عن أداء الصلاة في أوقاتها. وإنّما تكون على قصرٍ في كلتا الحالتين، وبالكيفيّة التي ذكرها عزّ وجلّ في هذه الآيات بالنسبة إلى صلاة الخوف والمطاردة.

ويبيّن عزّ وجلّ أنّ الصلاة التي هي الصلة بين الإنسان وخالقه، لا يمكن أن يكون الخوف المحيط به وهول السفر ومتاعبه مانعاً عن أدائها، مع شدّة احتياج الإنسان في لحظة الخوف إلى ذكر الله تعالى ليطمئن قلبه، ثمّ تنتهي الآيات المباركة بالترغيب إلى ملاحقة أعداء الله تعالى وتعقيب المشركين ومقاتلتهم، فكانت هذه الآية كريمة ختام آيات الجهاد التي بدأت بالقتال وأخذ الحيطة والحذر، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعاً﴾**[1]، فكان الختام بالآية المباركة التي لخّصت الموقف كلّه، وهو الدعوة إلى القتال وملاحقة المشركين حتّى يكفّ بأس الكافرين ويدفع أذاهم عن الإسلام والمؤمنين.

وتتضمّن الآية الكريمة حقيقة من الحقائق التي يكون لها الأثر الكبير في حسم الموقف وتحريض المؤمنين وتهيئتهم.

***

---

١. سورة النساء: الآية ٧١.

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾.

الضرب في الأرض: هو السفر السير على ما تقدّم. والجُناح الإثم المائل بالإنسان عن الحقّ، وهو مأخوذ من الجناح الذي في الطير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾[1] أي مالوا إلى الصلح. ثمّ سمّى كلّ إثم جناحا. ونفي الجناح لا ينافي وجوب القصر لو تحقّقت شروطه المذكورة في السنّة، فإنّه تعالى جرى على طريقة المخاطبات العرفيّة، ومن آداب الملوك نفي البأس والحرج عن الشيء وإرادة الأمر به وطلب الإلزام، لو كان في مقام التشريع أو دفع توهّم الحظر كما يأتي.

والقصر ـ بالفتح ـ كعتب خلاف المد، يقال: قصرت الشيء إذا جعلته قصيراً بحذف بعض أجزائه أو أوصافه، ومنه قوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾[3]، وهي التي لاتمدّ نظرها إلّا إلى زوجها، فلم يطمحن النظر إلى غيرهم، والتعبير بنقص بعض ركعات الصلاة بالقصر من اللغة العالية التي جاء بها الكتاب العزيز.

والمفعول محذوف تقديره (شيئاً)، و ﴿مِنَ الصَّلَاةِ﴾ صفة وبيان له.

والمعنى: فإذاسافرتم فلا حرج ولا مانع من أن تنقصوا شيئاً من الصلاة، وقيل: الصلاة مفعول تقصروا، و(من) زائدة. والمراد من الصلاة جنسها، فيشمل كلّ صلاة إلّا ما خرج بالدليل، كصلاة الصبح وصلاة المغرب، ويختصّ القصر

---

١. سورة الأنفال: الآية ٦١.

٢. سورة الفتح: الآية ٢٧.

٣. سورة الصافات: الآية ٤٨.

بالصلاة الرباعيّة بتنصيفها. كما أنّ إطلاق الأرض يشمل كلّ أنحائها من البر أو البحر أو الجوّ، كما أن عموم الضرب يشمل كلّ سفر إلّا ما خرج بالدليل كسفر المعصية، فتشمل سفر الطاعة وسفر المباح وغيرهما.

وتقدّم أنّ نفي الجناح الدالّ على الجواز بوحده، لا ينافي الوجوب إذا كان في مقام التشريع أو دفع توهّم الحظر، كما في قوله تعالى: **﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾**[1]، فإنّه كما عرفت أنّ الطواف واجب، والتعبير بنفي الجناح ـ مع أنّ المقام مقام فرض ووجوب ـ لأجل أنّ الإتمام لمّا كان عادة عندهم و قد ألفوه واعتادوا عليه، كان مظنّة لأنّ يخطر ببالهم أنّ عليهم نقصاناً في السفر، فنفى عنه الجناح لتطيب به نفوسهم، وقد ذكرنا ما يتعلّق بهذا التعبير في آية الطواف أيضاً فراجع.

وإرادة الوجوب بهذا التعبير من أسمى لغة الفصاحة والبلاغة التي يمتاز بها القرآن الكريم.

ويدلّ على ذلك صحيحة زرارة ومحمّد من مسلم، قالا: «قلنا لأبي جعفر عليه السلام: ما تقول في الصلاة في السفر، كيف هي؟ وكم هي؟ فقال: إنّ الله عزّ وجلّ يقول: **﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾**، فصار التقصير في السفر واجباً كوجوب التمام في الحضر، قالا: قلنا إنّما قال الله تعالى: **﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾** ولم يقل افعلوا، فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضر؟! فقال عليه السلام: أو ليس قد قال: **﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾** ألا ترون أنّ الطواف بهما واجب مفروض؛ لأنّ الله عزّ وجلّ ذكره في كتابه، وصنعه نبيّه صلى الله عليه وآله، وكذا التقصير في السفر صنعه النبيّ صلى الله عليه وآله وذكره الله في كتابه، قالا: قلنا: فمَن صلّى من الصلاة

---

١. سورة البقرة: الآية ١٥٨.

أربعاً، أيعيد أم لا؟ قال عليه السلام: إن كان قد قرأت عليه آية التقصير وفسّرت له فصلّى أربعاً أعاد، وإن لم يكن قرئت عليه ولم يعلمها فلا إعادة عليه، والصلاة كلّها في السفر الفريضة ركعتان كلّ صلاة إلّا المغرب، فإنّها ثلاث ليس فيها تقصير، تركها رسول الله صلى الله عليه وآله في السفر والحضر، ثلاث ركعات ـ الحديث ـ»، إلى غير ذلك من الأخبار التي وردت في هذا المضمون الدالّة على الوجوب، ومقتضاها كون التقصير في صلاة السفر لو تحقّقت شروطه عزيمة لا رخصة، فلا يجزيه الإتمام، وممّا ذكرنا يعلم فساد جملة ممّا ذكروه في المقام، وسيأتي في البحث الفقهي تتمة الكلام إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

الفتنة: هي الاختبار بالمكروه والأذى، وفي الحديث: «انّكم تفتنون في القبور»، أي تمتحنون وتختبرون، ويراد بها مسألة المنكر والنكير، وعنه صلى الله عليه وآله: «فبي يفتنون وعنّي تسألون»، أي تمتحنون بي في الدُّنيا والآخرة، ويتعرّف على إيمانكم بتصديق نبوّتي، وتقدم الكلام في اشتقاق هذه الكلمة، وقد كثر استعمالها فيما أخرجه الاختبار للمكروه، ثمّ كثر حتّى استعمل بمعنى الإثم والكفر والقتال والصرف عن الشيء، ويراد بها في المقام الإيذاء بالقتل والضرب والتعذيب ونحوها.

والجملة شرط لنفي الجناح في قصر الصلاة، أي لا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة إن خفتم الأذيّة والتعذيب من الّذين كفروا. ومفهوم الشرط وإن كان حجّة، إلّا أنّه يعتبر فيه أن يكون الشرط علّة تامّة منحصرة للجزاء، وإلّا فلامفهوم له كما في المقام، فإنّ الشرط إنّما هو لبيان الواقع، إذ أنّ في بدء التشريع الغالب كان على المسلمين الخوف في الأسفار، فتكون الآية الشريفة لبيان أحد مصاديق القصر، وأمّا السنّة فقد بيّنت بقيّة المصاديق، ودلّت على شمول القصر لجميع

الأقسام والصور.

بل يمكن أن يقال: إنّ المستفاد من الأدلّة الواردة في هذا المقام أنّ السفر مستقلّ في وجوب القصر من غير مدخليّة الخوف فيه، كما أنّ الخوف بنفسه مستقل في القصر أيضاً، كما سيأتي. وبناءً على ذلك لا وجه لما عن بعض من اشتراط القصر في السفر بالخوف؛ لظاهر الآية الشريفة الذي عرفت أنّه لا حجّية فيه. على أنّه معارض بما هو أقوى حجّة على الاشتراط، وسيأتي في البحث الروائي والفقهي ما يتعلّق بذلك.

والحاصل: أنّ الخوف من الفتنة والقتل من قبيل بيان إحدى حِكَم تشريع القصر في السفر، لا أن يكون شرطاً فيه، وهو أيضاً من باب الغالب في الأزمنة القديمة، لا سيما عصر نزول الآية الشريفة.

قوله تعالى: **﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً﴾**.

العدو يستوي فيه الواحد والجمع، وقيل: هو مصدر على وزن فعول كالقبول. والجملة في موضع التعليل لتوقّع الفتنة. أي أنّ من شأن الكافرين يكونوا لكم أعداء لا يضيّعون فرصة في إيذاء المسلمين.

وقد وصف سبحانه وتعالى عداوتهم بكونها واضحة لا خفاء فيها، كما وصف عداوة إبليس لبني آدم عليه السلام بذلك أيضاً، حيث قال عزّ وجلّ: **﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً﴾**[1]، فيعرف أنّ الكافرين من أولياء الشياطين.

قوله تعالى: **﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾**.

بيان لكيفيّة صلاة الخوف. والخطاب للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله باعتباره إماما للمسلمين ورئيسهم، فيكون من قبيل إيراد المثال وإرادة الجميع بطريق التجريد،

---

١. سورة الإسراء: الآية ٥٣.

لكونه أوجز وأبلغ.

وإقامة الصلاة المأتي لهم، أي ايتانها جماعة والايتمام به ﷺ، وذكر بعضهم أنّ المراد بها إقامة الصلاة المأتي بها بعد الأذان لتعدّيها باللام، وهو خلاف سياق الآية المباركة، بل المنساق ما ذكرناه، وهو الدعوة إلى أدائها جماعة، وكان هو الإمام لهم.

والمعنى: وإذاكنت فيهم يا رسول الله، فصلّيت بهم جماعة وكنت أنت الإمام لهم، والحال حال الخوف والزمن زمن فتنة الكفّار الّذين هم عدو لكم.

وذكر بعضهم أنّ ظاهر الآية الشريفة اختصاص الخطاب بالرسول ﷺ، فيكون شرط صلاة الخوف هو وجوده ﷺ فيهم، فتكون من خواصه.

ولكن هذا القول موهون، لما عرفت من قيام الدليل على ثبوت صلاة الخوف بعد النبيّ ﷺ أيضاً.

قوله تعالى: **﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾**.

الطائفة الجماعة، وربما تطلق على الواحد أيضاً، أي أقسمهم إلى طائفتين، فلتقم إحداهما معك يقتدون بك في الصلاة، وتبقى الأخرى تجاه العدو وتراقبه، ولم يذكر عزّ وجلّ هذه الطائفة غير المصلّين، لدلالة ظاهر الكلام عليه.

قوله تعالى: **﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾**.

السلاح: اسم لما يدفع الإنسان به عن نفسه، ويختلف ذلك باختلاف العصور. والظاهر توجّه الخطاب إلى الطائفة القائمة معه ﷺ في الصلاة، فليأخذوا أسلحتهم ولا يدعوها وقت الصلاة.

وقيل: بتوجه الخطاب إلى الطائفة الأُخرى المراقبة للعدو المستفاد من سياق الكلام.

وقيل: إنّ المأمور بأخذ السلاح هو الجميع، الطائفتين ـ المصلّين والمراقبين ـ معاً.

ولا يخفى ما في كلا القولين، فإنّ أخذ السلاح في مثل هذه الحالة أمر ضروري إلّا في حال الصلاة التي لا قتال فيها ولا نزال، وقد ورد النهي عن حمل السلاح حال الصلاة، فاحتاج إلى الأمر بأخذه حالها، ولا يوجد مثل هذه القرينة في الاحتمالين الآخرين.

ثمّ إنّ ظاهر الأمر هو وجوب حمل السلاح حال الصلاة مع العذر والخوف.

قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ**﴾.

أي: فإذا فرغ المصلّون من السجود، فيصيروا بعد فراغهم من الصلاة إلى وراء القوم يحرسونهم، وتأتي الطائفة المراقبة وتأخذ أمكنتها للصلاة.

قوله تعالى: ﴿**وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ**﴾.

أي: ولتأت الطائفة الّذين لم يصلّوا لاشتغالهم بالحراسة والمراقبة، فليصلّوا معك كما صلّت الطائفة الأُولى، وهذه الآية المباركة تحتمل وجهين.

الأوّل: أن يفرّق الإمام أصحابه فرقتين، يصلّي بإحداهما الصلاة ركعتين ويسلّم بهم والثانية تحرسهم، ثمّ يصلّي بالثانية ركعتين يعيدها معهم، فتكون لهم فريضة وله نافلة، وهذه هي صلاة بطن النخل، صلاها رسول الله ﷺ بأصحابه هناك، وهذه الصلاة لا مخالفة لها مع المختار إلّا بالكيفيّة المذكورة؛ ولذا ذكر بعض الأصحاب بجواز صلاتها في الأمن أيضاً، ولكنّه مشكل كما هو مذكور في الكتب الفقهيّة.

الثاني: أن يفرّق الإمام أصحابه فرقتين، يصلّي بكلّ فرقة منهم ركعة إن كانت الصلاة ركعتين، فيصلّي بالأُولى ركعة وينتظر الإمام قائماً في الركعة الثانية،

حتّى يصلّوها انفرادا ويتشهّدون ويسلّمون ويذهبون إلى وجه العدو ومكان الفرقة التي لم تصلّ، فتأتي الأُخرى فيؤمّهم الإمام بهم للركعة الثانية وينتظرهم قاعدا حتّى يتمّوا صلاتهم ويسلّم بهم، فتكون للطائفة الأُولى تكبيرة الافتتاح، وللثانية التسليم، وهذه هي صلاة ذات الرقاع التي صلاها رسول ﷺ، ويشترط لها شروط مذكورة في كتب الفقه فراجع (مهذب الأحكام)، وقد وردت هذه الصلاة في أخبار أهل العصمة صلوات الله عليهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾.

أي: ولتأخذ الطائفة الأُخرى ـ التي تصلّي كالطائفة الأُولى ـ حذرهم وأسلحتهم، ويمكن توجيه الأمر إلى الطائفتين معاً، أي ولتأخذ الطائفتان حذرهم وأسلحتهم سواء في الصلاة أو في الحراسة، ويؤيّده ذيل الآية الشريفة: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ﴾.

وزاد تعالى في المقام الحذر، وهو التيقّظ، وجعل الحذر آلة الدفاع التي يتحصّن بها كالأسلحة، وهو من الاستعارة اللطيفة، حيث أثبت له الأخذ وهو أمر معنوي لا يتّصف به تخييلاً، وزاده عزّ وجلّ في المقام لشدّة الحيطة والتحرّس؛ لأنّ العدو قد يميل إذا ما تنبّه أنّ المسلين في الصلاة بعد غفلته في ابتداء الأمر عنهم، فينتهزون الفرصة وهم في حال الركوع والسجود فيهجمون عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

تعليل للحكم المزبور، والخطاب للفريقين، والأمر إرشادي إلى ما تحكم به الفطرة من وجوب أخذ الحيطة والحذر عمّا يخاف منه.

والميلة الواحدة، أي جملة واحدة مستأصلة لا يحتاج إلى حملة ثانية،

وهي مبالغة في تمنّيهم إزالة المسلمين ومحو آثارهم.

والمعنى: يتمنّى الّذين كفروا غفلتكم عن السلاح التي بها تدفعون عدوكم، وعن الأمتعة التي بها بلاغكم في أسفاركم وأنتم متشاغلون بالصلاة، فيحملون عليكم حملة واحدة مستأصلة.

قوله تعالى: **﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾**.

تخفيف إلهي وترخيص لهم في وضع السلاح والتأهّب للعدو إذا ثقل حمل السلاح عليهم، إن كانوا يتأذّون من مطر ينزل عليهم، أو كان بعضهم مرضى، لكن يجب عليهم الحذر والتيقظ ولا يغفلوا عن أعدائهم الّذين يودّون القضاء عليهم.

قوله تعالى: **﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾**.

أمر إرشادي كما عرفت، وهو وجوب اتّخاذ الحذر في جميع الأحوال حين وضع السلاح وحمله؛ لئلّا يهجم عليهم العدو.

قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾**.

وعد منه عزّ وجلّ للمؤمنين بالنصر على الّذين كفروا، لتقوية قلوبهم، وبعث الطمأنينة في نفوسهم بعد أمرهم بالحذر؛ لئلّا يشعروا بالضعف، ووعيد للكافرين الّذين يريدون إذلال المؤمنين والقضاء عليهم.

ويستفاد من الآية المباركة مناسبة العذاب للفعل، فإنّ الكافرين يريدون إذلال المؤمنين، فالله تعالى أوعدهم العذاب العين الذي يذلّ فيه كلّ كافر، سواء في الدُّنيا بالنصر عليهم، أو في الآخرة في نار جهنّم خالدين فيها.

قوله تعالى: **﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾**.

أي: فإذا فرغتم من الصلاة وأدّيتموها على ما قرّرها الله عزّ وجلّ، فداوموا على ذكره عزّ وجلّ في حال القيام والقعود وعلى جنوبكم، والمراد منها الذكر المستوعب لجميع الأحوال.

وتبيّن الآية المباركة مراتب القدرة والعجز في الصلاة، فيصلّي الأصحاء والقادرون على القيام قياماً، وقعوداً إذا كانوا مرضى لا يقدرون على القيام، وعلى جنوبهم إذا لم يقدروا على القعود، فيصلّون مضطجعين كما فسّر في بعض الأخبار، وهو الاضطجاع على الأيمن، وإلّا فعلى الأيسر، وإلّا فمستلقين، وقد وردت في هذا الاحتمال روايات متعدّدة.

وذكر جمع: أنّ الآية الكريمة في مقام بيان مراتب الخوف وشدّته.

وقال آخر: يعني اذكروه على كلّ حال تكونون عليها من قيام.

ولكن إطلاقها يشمل جميع ذلك، كما يشمل حال الحرب وحال السلم.

وكيف كان، فالآية الكريمة تدلّ على لزوم المراقبة، وذكر الله تعالى، وعدم الغفلة عنه عزّ وجلّ في جميع الأحوال، كما يدلّ عليه قوله تعالى: **﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾**[1]. والمداومة على ذكر الله من أقوى السُّبل على تربية النفس وترويضها على الاستكمال وبعد الغفلة عنه؛ ولذا ورد التأكيد على كثرة الذكر في القرآن الكريم والسنّة الشريفة.

قوله تعالى: **﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾**.

المراد من الاطمئنان هو الاستقرار وسكون النفس، أي إذا زال الخوف وقدرتم على إتيان الصلاة على ما يعتبر فيها من الشروط والواجبات الاختياريّة، فيجب إتيان الصلاة تامّة على الوجه المأمور به، مع الحفظ على أركانها وشرائطها

---

١. سورة الأنفال: الآية ٤٥.

وسائر واجباتها .

ويمكن إرجاع الآية الكريمة إلى ما قبلها ، فتكون قرينة على إراد شدّة الخوف منها ، كما يكن أن تجعل مقابلاً لقوله تعالى : ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ، فيكون المراد هو الاستقرار في الأوطان . ويمكن الحمل على الأعمّ بحيث يشمل الاستقرار في الأوطان الموجب لإتمام الصلاة ، أو الاستقرار في النفس الناشئ من زوال الخوف ، فيأتي بالصلاة على ما هي عليها من الأجزاء والشرائط ، فيوجب رفع القصر من الصلاة كمية وكيفيّة كلّ بحسب حاله .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ .

تعليل لما سبق وتأكيد للأحكام السابقة ، واعتناء بشأن الصلاة اعتناءً بليغاً ، أي إنّما شرّع حكم تلك الأقسام والأطوار، لأجل أنّ الصلاة كانت على المؤمنين واجبة مفروضة ، وكانت من الواجبات الوقتيّة ، كما حدّدها عزّ وجلّ في آيات كثيرة، وبيّنتها السنّة الشريفة .

والكتاب بمعنى المكتوب أي المفروض ، وتقدّم اشتقاق هذه الكلمة في قوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[1] .

وإنّما خصّ عزّ وجلّ المؤمنون دون سائر الناس مع أنّ الصلاء فرض على الجميع حتّى الكفّار ـ لتكليفهم بالفروع كتكليفهم بالأُصول ـ اهتماماً بهم ولأنّهم المستعدّون لقبول الفيض والاستكمال ، وهم الّذين يعرفون أهمّية الصلاة في تهذيب النفس والقرب لدى جنابه عزّ وجلّ ، فيكون من باب ذكر أشرف الأفراد ، لا التخصيص في التكليف ، وسيأتي في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾[2] بعض ما يتعلّق بالمقام .

---

١ . سورة البقرة : الآية ١٨٣ .

٢ . سورة النساء : الآية ١٣٥ .

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾.

أمرٌ بالعزيمة والثبات في طلب أعداء الله تعالى، وعدم التواني في دركهم بعد الأمر بأخذ الحذر والاستعداد، فإنّ الأمر عظيم الشوط طويل ويحتاج إلى بذل التضحيات كما يحتاج إلى الصبر والعزيمة، ومن المعلوم أنّ الالآم والتضحيات ليست وقفاً على المؤمنين وحدهم، فإنّ الناس كلّهم معرّضون لها، ويتألّم منها الكافر كما يتألّم المؤمن. ولا شك أنّ ممّا يزيد في عزيمة المؤمن المجاهد إذا علم أنّه أحدث في العدو جرحاً وخسائر، فيشعر أنّه ليس الوحيد الذي يتألم بل قد أحدث في عدوّه الألم في ذات الوقت، إلّا أن الفارق الأعظم بين الألمين أنّ ألم المؤمن ذاهب به إلى الجنّة يغسل به خطاياه وذنوبه ويزيل العذاب ويزيد له في الدرجات كلما زاد، ويعوَّض له النعيم الأبدي الذي لا ينغصه شيء ممّا في الدُّنيا، بخلاف ألم العدو الكافر الذي يزيد في بلائه وشقائه وعذابه.

والآية الشريفة من الآيات المعدودة التي تعالج الجانب النفسي في الجهاد، حيث تبعث الطمأنينة في النفوس إذا أصابها الوهن والضعف، وتتكاسل إذا تألّمت من الجراح والمرض، فتزيلها بأُسلوب تربوي نفسي رصين، فتشرح لها أوّلاً بأنّ المقام يستدعي التضحية وتلّقي الآلام والمصائب، ثمّ تزيد في الهمّة والتشجيع بأنّ الطرف الآخر المقابل أيضاً أصابه بمثل ما أصاب المؤمنين، ثمّ تنشط العزيمة بإثبات الفرق بين الألمين، الألم الذي يصيب المؤمنين فإنّ عاقبته الجنّة ويزيد الثواب ويرفع العذاب، بخلاف الألم الذي يصيب الأعداء الكافرين فإنّه محيط لهم ومنغص لعيشهم ويحرمهم من نعيم الدُّنيا، ويوردهم البوار والهلاك في الآخرة، فلاينبغي الوهن والضعف في طلب القوم الّذين ناصبوا لكم العداء ويريدون القضاء عليكم.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾.

تسكين النفس عند إصابتها بالجراح والمرض والتعب وتشجيع لها، فإنّها إذا علمت بأنّ الأعداء أصابهم مثل ما أصابها تتشجّع وتصبر على البلاء، فليس الجراح والآلام مختصّة بهم، بل هي مشتركة بين الفريقين؛ لأنهّم بشر أيضاً، والألم لابدّ أن لا يكون مانعاً عن خوض اللّجج وقتال أعداء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنْ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

بيان للفرق بين الفريقين الأشقياء الّذين ليس لهم أمل إلّا العيش في هذه الحياة، فلا رجاء له في الآخرة، فإذا أصابه الألم والموت انقطعت آماله وخابت أمانيه ويئس عن الحياة، وفريق السعداء الّذين يرجون الله تعالى الظفر والفتح والمغفرة والثواب الجزيل؛ لأنـّهم يعلمون من الله تعالى ما لا يعلمه غيرهم، وهذا هو مبعث الأمل ومنبت الصبر ومنفاة لليأس والقنوط، وهو الذي ينشّطهم على العمل ويسوقهم إلى الهدف، والرجاء يبعث الهمّة واليأس يميتها، فما أبعد ما بين الفريقين، وما أكثر ما يدعى إلى الصبر وتحمّل المشقّة في المؤمن، بخلاف العدو الكافر.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

أي: أنّ الله عليم بالمصالح وبجميع أعمالكم ونواياكم، حكيم في تدبير خلقه وتشريع أحكامه، فجدّوا في الامتثال، فإنّ فيه عواقب حميدة، فإنّ في أوامره ونواهيه مصالح بالغة تامّة فاطلبوها، والآية المباركة بمنزلة التعليل لما قبلها.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنْ الصَّلَاةِ﴾** على ثبوت القصر في الصلاة، والقصر إمّا متعلّق بالكميّة، وهو مختصّ بالمسافر الجامع للشروط المقرّرة في السنّة، أو بالكيفيّة وهو الذي في صلاة الخوف، وإمّا فيهما معاً ويتحقّق في شدّة الخوف، وتسمّى بصلاة المطاردة حين الحرب واشتداد الحال، على التفصيل المذكور في كتب الفقه، وقد ذكرنا في التفسير أنّ الآية المباركة مع القرائن المنضمّة إليها تدلّ على كون القصر في السفر عزيمة، لا أن تكون رخصة، ونفي الجناح أعمّ من الرخصة. وسيأتي مزيد بيان في البحث الفقهي إن شاء الله تعالى.

ويستفاد من الآية المباركة أنّ القصر في السفر مشروط بأمرين:

الأوّل: المسافة، ولم تبيّن الآية الكريمة مقدار المسافة، ولكن حدّدتها السنّة الشريفة.

الثاني: الخوف، فلا قصر في الأمن، إلّا أنّ استفادة ذلك إنّما يكون من ناحية المفهوم الشرطي، وقد ذكرنا في التفسير ما يتعلّق به فراجع.

واستدل بالآية الكريمة بعضهم على اشتراط الجماعة والسفر والخوف في صلاة الخوف، فلا قصر فيها إذا انتفى أحد هذه الشروط، ولكنّه مردود كما هو مذكور في كتب الفقه.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾** على أنّه يشترط أن

يكون الضرب مقروناً بالقصد والعزم إلى المسافة المبيّنة في الشرع، سواء كان مجبوراً على السير مع علمه بانتقاله إلى المسافة الشرعيّة أو لم يكن كذلك، فالذاهل والمتردّد وفاقد القصد والعزم لمنتظر الرفقة ونحوهما لا يترخّصون في القصر، وإطلاق الآية المباركة يدّل على ثبوت الرخصة عند حصول الضرب والتلبّس بالسير، إلّا أنّه مقيّد بخفاء الأذان أو الجدران بأدلّة خاصّة، كما هي مذكورة في الفقه.

الثالث: يدلّ سياق قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ**﴾ على فضل الجماعة والحثّ العظيم على إقامتها كما استفاضت به الأخبار.

الرابع: تدلّ الآية الكريمة على وجوب اتّخاذ الحذر من الكافرين الّذين هم أعداء الله تعالى ودين الحقّ، والآية المباركة ترشد إلى أمر فطري، وهو حكم الفطرة باتّخاذ الحذر ممّا يخاف منه.

الخامس: يمكن أن يستفاد من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً**﴾ أنّ الصلاة من الأمور الثابتة التي لا تتغيّر ولا تقبل الفدية والبدل، ولاتقبل الإسقاط، ولعلّ ما ورد في بعض الآثار: «إنّ الصلاة لا تسقط بحال»، مأخوذ من هذه الآية الشريفة.

السادس: يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ**﴾ على وجوب اتّخاذ الحيطة والحذر والتهيّؤ للقتال، حتّى يكفّ بأس الّذين كفروا، ويدفع أذاهم عن الدين الحقّ وأهله، وتدّل الآية الشريفة على الجهاد الطويل المرير وشدّة العزيمة.

وتتعرّض الآية الشريفة إلى أهمّ الأُمور النفسيّة التي تؤثّر في هذا الميدان، وهو جانب الوهن في العزيمة وتأثّر النفس بما يرد عليها من الآلام والمحن والأمراض، وتبيّن الفرق الكبير بين الفريقين وبُعد الشقّة بينهما، كما عرفت.

السابع: تدلّ الآية المباركة: ﴿**وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ**﴾ على وعد الله تعالى بالنصر للمؤمنين لمكان إيمانهم وثباتهم عليه، أنّ النصر حليفهم إن تحقّق منهم العمل والثبات وعدم الوهن في ابتغاء القوم، وإلّا فلا نصرة. ورجاء المؤمنين منه تعالى أعمّ ممّا يفيض عليهم في الحياة الدُّنيا والآخرة.

الثامن: يدلّ قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ**﴾ على لزوم ذكره تعالى في جميع المواطن، ومراقبة النفس والاعتماد عليه عزّ وجلّ والتوسّل به في نجح المقاصد وإنجاز المطالب، لا سيما في ميدان الجهاد والقتال مع أعداء الله تعالى.

التاسع: يستفاد من تكرار الصلاة في الآيات الشريفة أهميّتها، وأنّها من السبل القربيّة التي يتوسّل إليه تعالى في إنجاح المقاصد، وقد ورد في بعض الأحاديث: «إنّ الصلاة قربان كلّ تقي».

***

بحث روائي:

في «التهذيب» بإسناده عن زرارة، قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن صلاة الخوف وصلاة السفر، تقصرّان جمعياً؟ قال: نعم، وصلاة الخوف أحقّ أن تقصّر من صلاة السفر، فإنّ السفر ليس فيه خوف».

أقول: المراد من الأحقيّة أفعل التفضيل، فيقتضي اشتراك غيره معه أي تشترك صلاة السفر وصلاة الخوف في القصر وإن كان القصر في الخوف آكد لذكره في الآية الكريمة من باب ذكر إحدى حكم التشريع، كما ذكرنا في التفسير، لا أن يكون من باب الاختصاص من غير مشاركة، نحو: زيد أحقّ بماله.

وفي «التهذيب» بإسناده عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «الصلاة في السفر ركعتان ليس قبلهما ولا بعدهما شيء إلّا المغرب».

أقول : متعلّق الاستثناء صدر الرواية كما هو واضح ، وليس قبل الركعتين المفروضتين شيء واجب ، وكذا ليس بعدهما ، نعم يستحبّ بعدهما التسبيحات الأربع وثلاثين مرّة ، كما هو مذكور في الجوامع الفقهيّة، فراجع صلاة المسافر من (مهذب الأحكام) .

وفي «الكافي» بإسناده عن حريز عن الصادق عليه‌السلام في قول الله عزّ وجلّ : **﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنْ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾**، قال : «في الركعتين تنقص منها واحدة» .

أقول : قريب منها غيرها ، وهذه الروايات إمّا تحمل على صلاة المطاردة ، أو على التقيّة؛ لمخالفتها لما هو المشهور بين الإماميّة، وموافقتها لغيرهم .

وفي «تفسير العيّاشي» عن إبراهيم بن عمر عن الصادق عليه‌السلام، قال :

«فرض الله على المقيم أربع صلوات ، وفرض على المسافر ركعتين تمام ، وفرض على الخائف ركعة ، وهو قول الله : **﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنْ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** يقول من الرواية فتصير ركعة» .

أقول : ما ذكرنا في الرواية السابقة يجري في هذه الرواية أيضاً ، وأنّ المراد من الخائف شدّة الخوف ، أي الخائف المطارَد .

وفي «الدرّ المنثور» عن عليّ عليه‌السلام، قال : «سأل قوم من التجّار رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فقالوا : يا رسول الله ، إنّا نضرب في الأرض ، فكيف نصلّي؟ فأنزل الله : **﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنْ الصَّلَاةِ﴾**، ثمّ انقطع الوحي فلمّا كان بعد ذلك بحول غزا النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله فصلّى الظهر ، فقال المشركين : لقد أمكنكم محمّد وأصحابه من ظهورهم ، هلّا شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم : إنّ لهم مثلها أُخرى في أثرها ، فأنزل الله تعالى بين الصلاتين : **﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمْ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾** فنزلت صلاة الخوف» .

أقول: لابدّ من حمل التاجر على الذي لا يدور في تجارته، بقرينة ما تأتي من الرواية، وأنّ المراد بقطع الوحي في شأن المورد ـ كما هو الظاهر ـ لا مطلقاً. وأنّ ما نزل في الغزوة من تمام الآية الكريمة يكون من باب تعدّد النزول أو من باب التطبيق.

وفي «الكافي» بإسناده عن إسماعيل بن أبي زياد عن جعفر عن أبيه عليهما السلام، قال: «سبعة لا يقصّرون الصلاة: الجابي الذي يدور في جبايته، والأمير الذي يدور في إمارته، والتاجر الذي يدور في تجارته من سوق إلى سوق، والراعي، والبدوي الذي يطلب مواطن القطر ومنبت الشجر، والرجل الذي يطلب الصيد يريد به لهو الدُّنيا، والمحارب الذي يقطع الطريق».

أقول: لابدّ من تحقّق شرائط القصر من المسافة الشرعيّة، واستمرار القصد، وقطع المسافة وعدم قصد الإقامة، ومع ذلك لا يقصّر هؤلاء، فالرواية في مقام التخصيص لا التخصّص كما هو واضح، وقد ذكرنا التفصيل في صلاة المسافر من (مهذب الأحكام) فراجع.

وفي «تفسير القمّي»: نزلت ـ أي آية صلاة الخوف ـ لمّا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله الى الحديبيّة يريد مكّة، فلما رُفع الخبر إلى قريش بعثوا خالد بن الوليد في مائة فارس ليستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان يعارض رسول الله صلى الله عليه وآله على جبال، فلمّا كان في بعض الطريق وحضرت صلاة الظهر أذّن بلال وصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله بالناس، فقال خالد بن الوليد: لو كنّا حملنا عليهم وهم في الصلاة لأصبناهم، فأنّهم لا يقطعون الصلاة، ولكن تجيء لهم الآن صلاة أُخرى هي أحبّ إليهم من ضياء أبصارهم، فإذا دخلوا فيها حملنا عليهم، فنزل جبرئيل بصلاة الخوف بهذه الآية، ففرّق رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه فرقتين ووقف بعضهم تجاه العدو وقد أخذوا سلاحهم، وفرقة صلّوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله قائماً ومروا فوقفوا موقف أصحابهم،

وجاء أُولئك الّذين لم يصلّوا فصلّى بهم رسول الله الركعة الثانية ولهم الأُولى، وقعد رسول الله ﷺ وقاموا أصحابه فصلّوا هم الركعة الثانية وسلّم عليهم».

أقول: الحُديبية قرية بينها وبين مكّة مرحلة واحدة، ويقال: إنّ بعضها من الحلّ وبعضها من الحرم، وسمّيت بذلك لبئر فيها تسمّى الحديبيّة. ويستفاد من هذه الرواية اهتمام النبيّ ﷺ المسلمين بالصلاة، حتّى أنّ ذلك كان معروفاً عند أعدائهم، كما يستفاد منها الكيفيّة الخاصّة في صلاة الخوف، كما تقدّم في التفسير.

وفي «الكافي» بإسناده عن الصادق عليه السلام: «صلّى رسول الله ﷺ بأصحابه في غزوة ذات الرقاع صلاة الخوف، ففرّق أصحابه فرقتين، أقام فرقة بأزاء العدو، وفرقة خلفه، فكبّر وكبّروا فقرأ وانصتوا فركع وركعوا فسجد وسجدوا ثمّ استمر رسول الله ﷺ قائماً وصلّوا لأنفسهم ركعة، ثمّ سلّم بعضهم على بعض ثمّ خرجوا الى أصحابهم فقاموا بأزاء العدو، وجاء أصحابهم فقاموا خلف رسول الله ﷺ، فصلّى بهم ركعة ثمّ تشهّد وسلّم عليهم، فقاموا وصلّوا لأنفسهم ركعة ثمّ سلّم بعضهم على بعض، وقد قال الله تعالى لنبيّه: **﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾**، فهذه صلاة الخوف التي أمر الله عزّ وجلّ بها نبيّه، وقال: من صلّى المغرب في خوف بالقوم صلّى بالطائفة الأُولى ركعة وبالطائفة الثانية ركعتين ـ الحديث».

أقول: ذات الرقاع هي من إحدى غزواته التي حضرها بنفسه ﷺ، وكان بينهما وبين الهجرة أربع سنين وأيام، خاف الجمعان بعضهم بعضاً، فصلّى رسول الله بالمسلمين صلاة الخوف، وذات الرقاع موضع بنجد، وكانت قوّات أعدائهم من بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، وكان قوات المسلمين اربعمائة راكب وراجل، وانهزم بنو ثعلبة وبنو محارب فيها، وكان هذف الأعداء فيها القضاء على

المدينة وغزوها.

وسمّيت الغزوة بذات الرقاع لوجوه كثيرة:

أهمّها: أنّهم كانوا يشدّون على أرجلهم الخرق من شدّة الحرّ، أو يعصبونها حتّى يسهل عليهم المشي.

وقيل: إنّها اسم جبل قريب من المدينة فيها رقع سود وحمر وبيض.

وقيل: إنّ الأرض كانت كذلك.

وقيل: رقّعوا راياتهم كذلك.

وقيل: هي اسم شجرة كانت في موضع الغزوة.

وكيف كان، تتضمّن الرواية الكيفيّة الخاصّة لصلاة الخوف، وهي المعروفة بين الإماميّة والموافقة للقواعد العامّة، كما ذكرنا في كتابنا (مهذب الأحكام).

وعن ابن عبّاس في «تفسيره»: أنّ النبيّ ﷺ غزا محارباً ببني أنمار فهزمهم الله تعالى وأحرزوا الذراري والمال، فنزل رسول الله ﷺ والمسلمون ولا يرون من العدو واحداً، فوضعوا أسلحتهم وخرج رسول الله ﷺ ليقضي حاجته وقد وضع سلاحه، فجعل بينه وبين أصحابه الوادي، فإلى أن يفرغ من حاجته وقد درأ الوادي والسماء تُرش، فحال الوادي بين رسول الله ﷺ وبين أصحابه، وجلس في ظل شجرة فبصر به غورث بن الحارث المحاربي، فقال له أصحابه: يا غورث هذا محمّد ﷺ قد انقطع من أصحابه، فقال: قتلني الله إن لم اقتله، وانحدر من الجبل ومعه السيف ولم يشعر به رسول الله إلّا وهو قائم على رأسه ومعه السيف قد سلّه من غمده، وقال: يا محمّد مَن يعصمك منّي الآن؟ فقال رسول الله: الله، فانكب عدوّ الله لوجهه، فقام رسول الله ﷺ فأخذ سيفه، وقال: يا غورث مَن يمنعك منّي الآن؟ قال: لا أحد، قال: أتشهد أن لا إله إلّا الله وأنّي عبد الله ورسوله، قال: لا، ولكنّي أعهد أن لا أُقاتلك أبداً ولا أعين عليك عدوّاً، فأعطاه

رسول الله ﷺ سيفه، فقال له غورث: والله، لأنت خيرٌ منّي، قال ﷺ: إنّي أحق بذلك، وخرج غورث إلى أصحابه، فقالوا: يا غورث لقد رأيناك قائماً على رأسه بالسيف فما منعك منه؟ قال: الله، أهويت له بالسيف لأضربه فما أدري من زلّخني بين كتفي فخررت لوجهي وخرّ سيفي وسبقني إليه محمّد وأخذه. ولم يلبث الوادي أن سكن فقطع رسول الله ﷺ إلى أصحابه فأخبرهم الخبر وقرأ عليهم: **﴿إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾**».

أقول: ذكر صاحب «المجمع» الرواية عن أبي حمزة الثمالي في «تفسيره». وكيف كان، أنّ الزلخ وجع يأخذ في الظهر لا يتحرّك الإنسان من شدّته. وذكر الواقدي في «المغازي» أنّ المشركين في غزوة ذات الرقاع كانوا من بني أنمار وثعلبة. إذاً ما ورد فيها تكون نفس غزوة ذات الرقاع. ويمكن الجمع بين ما تقدّم وبين ما ذكره الواقدي بأنّ المشركين كانوا في غزوة ذات الرقاع من قبائل متعدّدة أكثرها ثعلبة وبنو محارب ومنهم أنمار أيضاً، فلا تنافي حينئذٍ. وعلى أيّة حال لا يهمّنا ذلك.

وإنّها تدلّ على عنايته جلّت عظمته برسوله الكريم، ودوام إمدادته الخاصّة به بحفظه عن المشركين الّذين هم كانوا أعداء له ﷺ، ولعلّ الوجه في عدم قتل رسول الله ﷺ الرجل لإتمام الحجّة عليه، وأنّه ﷺ ليس في مقام الانتقام أو التشفّي، وأنّ الآية الشريفة المذكورة فيها إمّا من باب التطبيق، أو من باب تعدّد النزول.

وفي «الدر المنثور» بإسناده عن ابن عبّاس، قال: «صلّينا مع رسول الله ﷺ بين مكّة والمدينة ونحن آمنون لا نخاف شيئاً، ركعتين».

أقول: تدلّ الرواية على أنّ القصر في الصلاة في السفر الشرعي لا يناط

بالخوف، وما ذكر في الآية المباركة من إحدى حكم التشريع لا العلّة المنحصرة بها الحكم، كما في مثل الإسكار على ما تقدّم في التفسير.

وممّا ذكرنا يظهر الوجه في ما رواه البخاري وغيره عن حارثة بن وهب الخزاعي، قال: «صلّيت مع النبيّ ﷺ الظهر والعصر بمنى أكثر ما كان الناس وآمنه ركعتين». فإنّ السفر الشرعي تحقّق سواء كان ذلك بمنى أو غيرها، وهو موجب لقصر الصلاة.

وفي «الكافي» بإسناده عن داود بن فرقد، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً**﴾؟ قال: كتاباً ثابتاً، وليس إذ عجّلت قليلا أو أخّرت قليلاً بالّذي يضرّك ما لم تضع تلك الإضاعة، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿**أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً**﴾».

أقول: يستفاد من هذه الرواية أُمور:

الأوّل: أنّ الصلاة ثابتة فلا تسقط بحال، فتكون الرواية دليلاً على القاعدة المتّفق عليها الفقهاء من أنّ «الصلاة لا تسقط بحال» إلّا إذا دلّ الدليل على سقوطها، كما في الحائض والنفساء والمجنون والصبي المميّز وغيره.

الثاني: مشروعيّة القضاء فيها، لأنّ معنى الثبوت هو البقاء، ما لم تؤد بالكيفيّة الخاصّة التي قرّرها الشارع، كما ذكر ذلك في الكتب الفقهيّة.

الثالث: أنّ الصلاة يعمّ تكليفها الناس جميعاً، والتخصيص بفرقة خاصة ينافي إطلاق قوله عليه السلام: «كتاباً ثابتاً»، فلابد من إقامة دليل خاصّ على التقييد، وأنّ ذكر المؤمنين في الآية المباركة من باب ذكر أشرف الناس وأحبّهم إليه جلّت عظمته، مع أنّ للإيمان مراتب.

الرابع: يستفاد منها أنّ وقت الصلاة موسّع؛ لأنّ في الضيق شدّة وحرجاً، وهما ينافيان رحمته التي وسعت كلّ شيء، ويدلّ قوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ**

﴿فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1]، وتدلّ على ذلك أيضاً روايات كثيرة.

وفي «الدّر المنثور» عن ابن عبّاس، قال: «قال رسول الله ﷺ: أمّني جبرئيل عند البيت مرّتين، فصلّى بي الظهر حين زالت الشمس وكانت قدر الشرك، وصلّى بي العصر حين كان ظلّ كلّ شيء مثله، وصلّى بي المغرب حين أفطر الصائم، صلّى بي العشاء حين غلب الشفق، وصلّى بي الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم، وصلّى بي الغد الظهر حين كان ظلّ كلّ شيء مثله، وصلّى بي العصر حين كان ظلّ شيء مثليه، وصلّى بي المغرب حين أفطر الصائم، وصلّى بي العشاء ثلث الليل، وصلّى بي الفجر فأسفر ثمّ التفت إليّ فقال: يا محمّد، هذا الوقت وقت النبيّين قبلك. الوقت ما بين هذين الوقتين».

أقول: الشرك أحد سيور النعل التي تكون على وجهها، والتقدير به ليس على وجه التحديد، أي إذا استبان الفيء في أصل الحائط من الجانب الشرقي عند الزوال، فصار في رؤية العين قدر الشراك، وهذا أقلّ ما يعلم به الزوال، وإنّما يتبيّن ذلك في مثل مكّة المكرّمة والبلاد التي حولها ممّا يقلّ فيها ظلّ، فإذا كان أطول النهار واستوت الشمس فوق الكعبة لم ير شيء من جوانبها ظل، فكلّ بلد يكون أقرب إلى خط الاستواء ومعدّل النهار، يكون الظلّ فيه أقصر، وكلّ ما بعُدَ عنهما إلى جهة الشمال يكون الظلّ أطول.

ويمكن أن يستدلّ بالرواية على جمع النبيّ ﷺ بين الصلاتين، والمراد من (مرّتين) يومين، بقرينة ذيل الرواية. و لم يؤم جبرئيل لسوى رسول الله ﷺ من الأنبياء العظام، وهذا من مختصّاته ﷺ، كما تدلّ على شرف البيت وكرامته أيضاً.

وفي «تفسير العيّاشي» عن محمّد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام، قال: «في صلاة المغرب في السفر لا يضرّك إن تأخّرت ساعة ثمّ تصلّيها إن أحببت أن تصلّي

---

١. سورة الحج: الآية ٧٨.

العشاء الآخرة، وإن شئت مشيت ساعة إلى أن تغيب الشفق، إنّ رسول الله ﷺ صلّى صلاة الهاجرة والعصر جميعاً، والمغرب والعشاء الآخرة جميعاً، وكان يؤخّر ويقدّم، إنّ الله تعالى قال: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً**﴾، إنّما عنّى وجوبها على المؤمنين، لم يعن غيره، إنّه لو كان كما يقولون لم يصل رسول الله ﷺ هكذا وكان أعلم وأخبر، وكان كما يقولون، ولو كان خيراً لأمر به محمّد رسول الله ﷺ، وقد فات الناس مع أمير المؤمنين عليه السلام يوم صفّين صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة، وأمرهم عليّ أمير المؤمنين عليه السلام فكبّروا وهلّلوا وسبّحوا رجالاً وركباناً، لقول الله: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً**﴾، فأمر عليّ عليه السلام فصنعوا ذلك».

أقول: الهاجرة نصف النهار عند اشتداد الحرّ، أو من عند الزوال إلى العصر، وسمّي بها لأنّ غالب الناس يسكنون في بيوتهم، فكأنّهم قد تهاجروا، وصلاة الهجرة صلاة الظهر، وفي الدُّعاء: «أتراك مُعذّبي وقد أظمأت لك هواجري»، أي حصل لي شدّة العطش في هواجري لأجل عبادتك والخضوع لك.

وكيف كان، فتدلّ الرواية على أنّ رسول الله ﷺ جمع بين الصلاتين، وكان يقدّم ويؤخّر، وذلك يدلّ على الاستمرار.

والمراد بقوله عليه السلام: «إنّما عنّى وجوبها على المؤمنين»، أي الوجوب الخاصّ، وهو اتيان الصلوات في الأوقات الخمسة المعينة؛ لأنّ فيه عناية خاصّة لا تشمل كلّ أحد، فلا ينافي ما ذكرناه في رواية داود بن فرقد من شمول الوجوب لجميع الناس حتّى الكافر.

والرواية لا تدلّ على فوت الصلاة عن عليّ عليه السلام، بل فوت الصلاة عن الناس الّذين كانوا معه، كما هو المنساق منها.

وفي «الكافي» بإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تبارك

وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾، قال: يعني مفروضاً، وليس يعني وقت وقتها إن جاز ذلك الوقت ثمّ صلّاها لغير وقتها، ولكنّه متى ذكرها صلّاها».

أقول: يستفاد منها أنّ الصلاة واجبة، وأنّ التوقيت الزمني في الصلاة المفروضة من باب تعدّد المطلوب. وأمّا صلاة ابن داود عليه السلام التي صلّاها في غير وقتها يمكن أن يكون ذلك لمصلحة فيها، كتشريع القضاء عملاً أو غير ذلك تحفّظاً على العصمة في الأنبياء عليهم السلام.

وفي الدّر المنثور بإسناد متّصل عن يعلى بن أُمية، قال: «سألت عمر بن الخطاب، قلت: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنْ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقد أمن الناس؟ فقال لي عمر: عجبت ممّا عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذلك فقال: صدقة تصدّق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته».

أقول: تقدّم أنّ الخوف من باب إحدى حِكَم التشريع، وكانت الأسفار القديمة ـ خصوصاً في صدر الإسلام ـ مقرونة بالخوف من الكفّار الّذين كانوا أعداء المسلمين. والمراد بالصدقة هو أنّ تشريع القصر في الصلاة في السفر عطيّة إلهيّة أعطاها الله لنا فنتشرّف بها بالتقرّب إليه، وذلك شأن جميع الأحكام. ويستفاد منها أنّ القصر فيها عزيمة لا رخصة.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم» في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾، أنّه معطوف على قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾، وقد ذكرنا هناك سبب نزول الآية.

أقول: لعلّ المراد العطف من حيث وحدة المعنى وسياق الآيات الكريمة، لا العطف المصطلح، ويشهد لما ذكرنا ما روي عن أبي سفيان، قال عند انصرافه من أحد: يا محمّد، موعدنا موسم بدر القابل إن شئت، فقال صلى الله عليه وآله: إن شاء الله، فلمّا كان

القابل ألقى الله الرعب في قلبه فندم على ما قال، فبعث نعيم بن مسعود ليخوّف المؤمنين من الخروج إلى بدر، فلمّا أتى نعيم المدينة وجد المؤمنين يتجهّزون للخروج فقال لهم: إنّ الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم، ففتر المؤمنين فقال ﷺ: لأخرجنّ ولو لم يخرج معي أحد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾.

وفي «الدرّ المنثور» عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَـمُونَ﴾ قال: «توجعون، ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ قال: ترجون الخير».

أقول: الوجع أعمّ من الوجع الجسدي والنفسي، كما أنّ الخير أعمّ من الخير الدنيوي والأُخروي، فيشمل الحياة والرزق والعلم والجاه ومآرب الدُّنيا التي فيها رضاؤه جلّ شأنه ومنازل الآخرة التي تنال بالشهادة.

***

بحث فقهي:

استدلّ فقهاؤنا الأبرار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّـلَاةِ﴾ على ثبوت قصر الصلاة في السفر، وكذا استدلّوا بها على قصر صلاة الخوف سفراً وحضراً، وكذا صلاة المطاردة.

والآية المباركة وإن كانت مجملة من حيث بعض الشروط وبيان الكيفيّة، إلّا أنّ السنّة الشريفة بيّنت خصوصيّات الموضوع بياناً شافياً.

وتختصّ القصر بالصلاة الرباعيّة في السفر بالشروط المذكورة في الكتب الفقهيّة، وهي أُمور:

الأوّل: أن لا يكون السفر سفر معصية، كالسفر لأجل شرب الخمر أو السرقة أو قطع الطريق وغيرها من الفواحش، ولا يجب أن يكون طاعة، كالسفر للجهاد أو الحجّ المفروض، ولو كان مباحاً كسفر التجارة وجب القصر؛ ولذا لم يقيّد في

الآية المباركة الضرب بكونه في سبيل الله تعالى كما في الآية السابقة.

الثاني: أن تتحقّق المسافة الشرعيّة، وهي ثمانية فراسخ ـ أو أربعة فراسخ إذا رجع في نفس يومه ـ أو (٤٤) كيلو متر على التفصيل المذكور في الكتب الفقهيّة.

وقد اختلفت المذاهب في هذا الشرط، فقال أبو حنيفة: مسيرة ثلاثة أيّام ولياليها بسير الإبل ومشي الأقدام بالاقتصاد في البرّ، و جري السفينة والريح معتدلة في البحر. وقال الشافعي: التقدير بيوم وليلة. والمشهور بينهم التقدير بالفراسخ، واختلفوا، فقال بعضهم: إنّه أحد وعشرون فرسخاً، وقال آخرون: ثمانية عشر وآخرون خمسة عشر.

الثالث: أن يكون المسافر قاصداً للسفر، فلا قصر على الذاهل والمتردّد، ويستفاد هذا الشرط من ظاهر الآية المباركة: ﴿**وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ**﴾ كما عرفت.

الرابع: استمرار القصد، فلو عدل عن قصده قبل بلوغ المسافة الشرعيّة، أو تردّد، أتمّ للأدلّة التي ذكرناها في كتابنا (مهذب الأحكام).

الخامس: أن لا يكون ممّن بيته معه، كأهل البوادي الّذين ينزلون البراري في محلّ العشب والكلأ ومواضع القطر واجتماع الماء لعدم صدق المسافر عليهم، وكذا لا يكون من الّذين اتّخذوا السفر عملاً وشغلاً لهم، كالمكاري والسائق والساعي و الراعي ونحوهم، فإنّ هؤلاء يتمّون في سفرهم الذي هو عمل لهم؛ لعدم انقطاع سفرهم ولنصوص كثيرة مذكورة في الكتب الفقهيّة.

السادس: الوصول إلى حدّ الترخّص، وهو المكان الذي يتوارى عنه جدران بيوت البلد ويخفى عنه آذانه؛ لصدق التلبّس بالسفر عرفاً ولأدلّة أُخرى مذكورة في الكتب الفقهيّة. وهناك قواطع للسفر ذكرناها في كتابنا (مهذب الأحكام).

واختلف علماء الجمهور في القصر في السفر، فقال الشافعي: عدم وجوب القصر وأفضلية التمام، واستدلّ بقول عائشة، «إنّ رسول الله ﷺ كان يقصر في السفر ويتمّ»، وبما رواه النسائي والدارقطني، «انّ عائشة لما اعتمرت مع رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله قصّرتَ وأتمتُ وصمتَ وأفطرتُ، فقال ﷺ: «احسنت يا عائشة»، وقال مالك: إنّه يجب القصر وجوب عزيمة لا رخصة فيه، واستدلّ بما رواه النسائي وابن ماجة عن عمر أنّه قال: «صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيّكم عليه الصلاة والسلام»، وبما رواه الشيخان عن عائشة أنّها قالت: «أوّل ما فرض الله تعالى الصلاة ركعتين ركعتين، فأقرّت في السفر وزيدت في الحضر»، وذهب جمع إلى أنّ القصر في الآية الشريفة ليس هو قصر الرباعيّة في السفر المبيّن بشروطه في كتب الفقه، فذلك مأخوذ من السنّة المتواترة، وأمّا ما في المقام فهو في صلاة الخوف كما ورد عن بعض الصحابة، والشروط فيها على ظاهرها.

ولكن، عرفت في التفسير بطلان ذلك. وأمّا ما ذهب إليه الشافعي فهو مخالف لسنّة رسول الله ﷺ ومذهب أهل البيت وعمل الصحابة، وأمّا رواية عائشة فهي مردودة من جهات كثيرة، قد ذكرها علماء الجمهور في كتبهم.

وأمّا صلاة الخوف، فهي مقصورة سفراً وحضراً، جماعة وفرادى، إلّا في الصبح والمغرب لما تقدّم من الآية المباركة والسنّة المعصوميّة. والمراد من الخوف: الخوف الذي يكون مقتضيا لتخفيف الصلاة، سواء كان ذلك من عدو أو لص أو سبع أو ظالم، لا كلّ خوف ولو لم يقتض ذلك، ويستحبّ فيها الجماعة، ولها كيفيّات ثلاثة، كما تقدّم في التفسير وذكرناها في كتابنا (مهذب الأحكام).

وأمّا صلاة المطاردة ـ وتسمّى بشدّة الخوف والمرامات والمسايفة، أي التضارب بالسيف ـ فتصلّى بكلّ وجه أمكن، فهي تابعة للقدرة، ويبدل كلّ ما

لايقدر عليه بالأبدال الاضطرارية ، كما ذكرناه مفصّلاً في محلّه .

***

بحث عرفاني:

من أسباب تزكية النفس ورقيّها الصلاة ، بل هي من أهمّها وأسماها ـ لما علم الله تعالى من وجود الشره المؤدّي إلى الهلاك والخسران في الإنسان ، جعل الطاعات والعبادات ـ خصوصاً الصلاة صوناً للنفس وحفظاً لها عن الهلاك والخسران ، بل لرقيّها إلى مراتب الكمال ، ففي الحديث :

«ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد شيئاً أحبّ إليه من الصلاة ، ولو كان شيء أحبّ إليه من الصلاة تعبّد به ملائكته ، فمنهم راكع وساجد وقائم قاعد» .

فبها يزول الدنس كما في بعض الروايات ، وإنّها مطهرة للقلوب من المساوئ والعيوب ، وبها تفتح أبواب الغيوب ، وبها تطمئن القلوب ، وبها ترفع الدرجات ، وفيها المناجاة برفع الأستار ، وتتسع فيها ميادين الأسرار ، وبها تشرق شوارق الأنوار ، وبها تُزال الحجب والأستار بالقرب إليه ، وبها تصفو المحبّة من كدر الجفاء ويتّصل المحبّ مع حبيبه في محلّ الصفا .

ولقد علم الله تعالى ضعف الإنسان ووساوس الشيطان ، فقلّل أعدادها وفرض في ليلة المعراج خمس صلوات في خمس أوقات بشفاعة نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله ، وهذا لعوام الخلق ، وإلّا فالعارفون من الخواص : **﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾**[1] ، منحهم ديمومة الصلاة من الأزل إلى الأبد ، وهذا لايدرك بالعقول القاصرة المشوبة بالمادّة الزائلة ، فلا يعقلها إلّا العالمون بالله تعالى .

وإنّ المقصود والأثر المطلوب من إقامة الصلاة معنويّتها ، لا مجرّد وجودها وشبحها ، فإنّ الإقامة هي الإكمال والاتقان ، يقال : (فلان أقام داره) ، أي أكملها

---

١ . سورة المعارج : الآية ٢٣.

وجعل فيها كلّ ما يحتاج إليه. وإنّ إقامة الصلاة تعديلها من جميع الجهات ـبالتوجّه فيها إليه تعالى والتقرّب بها لديه جلّ شأنه، وحفظ أركانها وشرائطها حتّى تترتّب آثارهاـ فليس كلّ مصلّ مقيم، وكم من مصلّ ليس له من صلاته إلّا التعب، وفي بعض الأحاديث:

«مَن لم تنه صلاته من الفحشاء والمنكر، لم تزده من الله إلّا بُعداً».

وعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «إذا صلّى العبد فلم يتمّ ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها، لُفت كما يلف الثوب الخَلِق ثمّ يضرب بها وجهه».

فالمصلّون كثيرون، والمقيمون قليلون، وأهل الأشباح كثير وأهل القلوب وأرباب المعرفة قليل.

والتعبيرات الواردة في القرآن الكريم في مدح المصلّين، أكثرها وأغلبها جاء بلفظ الإقامة، أو بمعنى يرجع إليها:

قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**﴾[1].

وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه أفضل الصلاة والسّلام: ﴿**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ**﴾[3].

وقال تعالى: ﴿**وَأَقَامَ الصَّلَاةَ**﴾[4].

ولمّا ذكر المصلّين بالغفلة، قال تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾[5]، ولم يقل سبحانه وتعالى: فويل للمقيمين الصلاة، وفي

---

١. سورة البقرة: الآية ٣.

٢. سورة إبراهيم: الآية ٤٠.

٣. سورة الحج: الآية ٣٥.

٤. سورة التوبة: الآية ١٨.

٥. سورة الماعون: الآية ٤ ـ ٥.

الحديث: «إنّ العبد إذا قام الى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبه إلى الهوّيّ يصلّون بصلاته»، إلى غير ذلك من الروايات والأحاديث.

والتوجّه أو الخشوع فيها على مراتب:

الأُولى: خشوع خوف وإذلال وانكسار لعظمته وقهّاريته، وهي للعبّاد الزهاد.

الثانية: خشوع تعظيم وهيبة وإجلال، وهي للمتّقين الأبرار.

الثالثة: خشوع فرح وسرور وإقبال، وهي للمقرّبين العارفين، ويسمّى هذا المقام بقرّة العين، قال تعالى: **﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[1].

الرابعة: الجمع في مقام الجمع، وهذه تختصّ بالأولياء والمقرّبين، فيها تتمّ التصفية وتظهر المحبّة وتفتح الأبواب ويرتفع الحجاب، فتخرج الروح من ضيق الأشباح إلى فضاء الكمال في عالم الأرواح، أو من ضيق الملك إلى سعة عالم الملكوت.

ولا شك أنّ إمداداته وإفاضاته جلّت عظمته غير محدودة بحدّ ولا بزمان معيّن؛ لصدورهما عن ذات غير المتناهي.

نعم، ترد على العبد حالات خاصّة وظروفاً معيّنة يكون التوجّه فيهما إليه أشدّ وأكثر، فلها آثار مخصوصة لنجح المقاصد وإنجاز المطالب، منها حالة الصلاة، خصوصاً عند الانقطاع إليه تعالى كالسفر والخوف والمرض وغيرها، ولأجل ذلك ورد الاستعانة بها وقالوا: «إنّ الصلاة لا تسقط في أي حال» لأنّه لابدّ للعبد من حفظ الصلة بينه وبين ربّه، وبها تتمّ المحبّة وتحصل المودّة.

***

---

١. سورة السجدة: الآية ٢٩.

الآية ١٠٥ ـ ١١٥

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُن لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً ﴿١٠٨﴾ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴿١١٣﴾ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴿١١٤﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴿١١٥﴾﴾.

الآيات الشريفة تبيّن بعض الحقائق الواقعيّة والدينيّة ، فهي تشير إلى أهمّ

حقيقة يبتني عليها نظام السماوات والأرض، وهي العدل في جميع الأُمور، لاسيما في القضاء وعدم الجور فيه، وترك الخيانة بتعريض البريء الى التهمة والعذاب والإغفال عن المتّهم وترك الحكم عليه.

وتوصي الآيات الشريفة المؤمنين بالحقّ في القضاء وعدم الميل والجور فيه. كما تشير إلى حقيقة أُخرى، وهي عصمة الرسول ﷺ وحجيّة قضائه، ثمّ ترشد الناس إلى ترك الخيانة في جميع الأُمور وبالنسبة إلى جميع الناس.

وتعتبر المجتمع الإنساني كنفس واحدة، فأي واحد منهم يتّهم بريئاً ويخونه، فهو يخون نفسه. تشير إلى حادثة واحدة كنموذج فذّ في التاريخ وليست هي قصة عارضة ثمّ تنسى، بل هي درس تربوي تبقى للأجيال وعلى مرّ الزمن، وتطبيق عملي للعدل الرباني، وأحد مقوّمات الإسلام دين الحقّ والعدل، فكانت هذه الحادثة هي رمز العدالة في الإسلام؛ ولذا ذكرها عزّ وجلّ في القرآن الكريم وأمر نبيّه العظيم بإظهار الحقّ والقضاء فيه، مع أنّ المنافقين أرادوا منها النيل من كرامته واهتمّوا بإضلاله.

وتبتدأ القصة بأن نفراً من الأنصار غزا مع رسول الله ﷺ في بعض الغزوات فسرقت لأحدهم درع، فحامت حول رجل من الأنصار الشبهة، فاتّهمه صاحب الدرع عند رسول الله ﷺ وهو منافق يقول الشعر في ذمّ المؤمنين وينسبه إلى غيره، فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل بريء، ثمّ وجّه قومه الى رسول الله ﷺ فقالوا: إنّ صاحبنا بريء، وألحّوا عليه بأن يقضي لهم وبالغوا في أن يغيروه ﷺ على المتهم البريء، وطلبوا منه ﷺ أن يعذر صاحبهم على رؤوس الناس، فنزلت الآيات الشريفة وبرّأه الله تعالى ممّا قالوا. وهي ليست قصة عابرة بل درس عملي تطبيقي كما عرفت.

وتتضمّن الآيات الشريفة بعض أخلاق الإسلام، وتذمّ الخيانة في جميع

الأُمور، وترتبط الآيات المباركة بما قبلها في تشريع الأحكام، وإظهار صفات المنافقين. وقد أمر عزّ وجلّ فيها برعاية الحقّ وحفظه والعناية به وتطبيقه بعد أمره عزّ وجلّ في الآيات الكريمة السابقة الجهاد في سبيل الحقّ، فكانت هذه الآيات تطبيقاً عملياً للآيات الشريفة السابقة.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ﴾.

ذكرنا في إحدى الآيات الشريفة السابقة أنّ كلّ مورد في القرآن الكريم يراد منه تثبيت قدرته عزّ وجلّ وعظمته وقهّاريته وإظهار الحقّ، كانت النسبة إليه تعالى بضمير الجمع والعظمة، وكلّ مورد يُراد منه إظهار عطفه ورحمته وحنانه وغفرانه، كانت النسبة إليه بضمير المفرد، وفي المقام إنّما أسند عزّ وجلّ الإنزال إلى ضمير العظمة تعظيماً لأمر المسند؛ ولأنّ المقام يستدعي ذلك لتثبت الحكم.

وتاكيد الحكم بـ(إنّا) إيذاناً بالاعتناء بشأنه، كما أنّ تقديم المفعول غير الصريح للاهتمام والتشويق له.

والناس: يشمل جميع الأفراد المؤمن وغيره، والبرّ والفاجر، وإنّه أعمّ الإنس والجنّ، لكن غلب استعماله في الإنس، هو جمع إنس ـ لأنّهم يونسون ـ أصله أُناس أُدخل عليه اللام. وقيل: اسمٌ وضع للجمع كالرهط والقوم، واحده إنسان من غير لفظه.

والحكم بين الناس هو القضاء بينهم، سواء في المخاصمات والمنازعات ـ لرفع الاختلاف بينهم بالحكم ـ أم غيرها، وإنّه من أفضل الأعمال وأكملها، لو كان الحاكم واجداً للصفات والحكم جامعاً للشرائط الشرعيّة، بل هو من شؤون الأنبياء وخلفائهم المعصومين.

وإيجاد الرأي إن كان ممّا أرأه الله تعالى لصاحب الرأي ، فهو صواب ، كرأي النبيّ ﷺ ، وكذلك رأي خلفائه المعصومين كما ستعرف ، وأمّا رأي غيرهم فلم يعلم أنّه ممّا أراه الله تعالى أو الشيطان أو النفس الأمّارة بالسوء ، التي هي من جنود الشيطان ، أو الخيالات الفاسدة التي هي من أهمّ جنوده أيضاً .

وقد جعل عزّ وجلّ في المقام الحكم بين الناس الغاية لإنزال الكتاب ، نظير قوله تعالى : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[1] ، إلّا أنّ الفرق بين الآيتين أنّ المقام خاصّ ، وآية البقرة عامّ ، كما يزيد المقام أيضا أنّ الله تعالى جعل حقّ الحكم لرسول ﷺ الحجيّة لرأيه ونظره .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ .

جملة مستأنفة، والعطف فيها من عطف جملة إنشائيّة على جملة خبريّة هي في معنى الإنشاء ، فيرجع المعنى إلى قوله : احكم بينهم ولا تكن للخائنين خصيماً .

والخصيم : مَن يدافع عن الدعوى ونحوها ، سواء كان من أطراف النزاع والخلاف ، أم لم يكن ، وفي الدُّعاء : «اللّهُمَّ بك خاصمتُ» ، أي بما ألهمتني من الدليل والبرهان خاصمتُ المعاندين وأظهرت لهم الحجّة ، وفي الحديث : «إذا خاصمكم الشيطان فخاصموه بما ظهر لكم من قدرة الله تعالى» ، والذكر والأُنثى فيه سواء .

وفعيل هنا بمعنى فاعل ، ويدلّ عليه قوله تعالى في ما يأتي : ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ ، وجمع الخصيم خصماء . وهو يشمل جميع ما يوجب تأييد الخائنين وتقويتهم بالحجّة والدفاع عنهم بالمجادلة والميل إليهم .

---

١ . سورة البقرة : الآية ٢١٣ .

ولا فرق بين القوي والضعيف، فيشمل القوى في الدعوى أيضاً، والصديق والعدو، والمؤمن والكافر، أو القريب والبعيد، وغير ذلك ممّا يوجب تقوية الخيانة لإطلاق الآية المباركة، وأنّ الخيانة مبغوضة والخائن لا كرامة له عند الله تعالى.

الآية المباركة تدلّ على نهيه ﷺ عن أن يكون مدافعاً للخائنين ذابّاً عنهم على مَن يطالبهم بالحقّ، فيبطل حقوق المحقّين ويدافع عن المبطلين، وهي تطبيق لقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾[1].

وإطلاق الآية الكريمة يشمل النهي عن جميع أنواع الخيانة ومطلق التعدّي، فيشمل الخيانة في أحكام الله تعالى وشريعته، كالكفر والفسق، والخيانة في حقوق الآخرين، ويشهد له الأمر في صدر الآية المباركة بالحكم مطلقاً، لا خصوص نوع خاصّ منه.

والخطاب وإن كان موجّهاً للرسول الكريم، إلّا أنّ المراد منه غيره ممّن كان خصيماً للخائنين، وتعليم منه عزّ وجلّ لمن يريد التصدّي لهم، ويشهد له قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ اللهَ﴾.

الاستغفار هو طلب الستر و المغفرة، والغفران مصدر، وهو منصوب غالباً بإضمار، وفي الحديث: «كان إذا خرج من الخلاء قال: غفرانك»: أي اطلب غفرانك، وفي تخصيصه بذلك دائماً أقوال:

الأوّل: أنّ ذلك عبادة أُتى بها جزاء لما سلف من ما أنعم الله تعالى بها عليه من العافية والرزق وإطعامه وهضمه، وبقاء قوى الطعام في بدنه، فكان يلتجأ الى هذه العبادة جزاء للإحسان.

---

١ . سورة المائدة: الآية ٤٩.

الثاني : استَغفر لترك ذكره تعالى لساناً في مدّة لبثه في ذلك المحلّ ، فكأنّه رأى في ذلك تقصيراً فتداركه بالاستغفار ، وإن كان قلبه مشغولاً بذكره تعالى وإنّه لا ينقطع عنه .

الثالث : أنّ ذلك من تواضع العبوديّة لعظمته جلّ شأنه؛ لأنّ الغفران يلازم ذلّ العبوديّة .

الرابع : أنّ ذلك اعتراف بعدم أداء نصيبه من الشكر الذي خصّص له، لما أنعم سبحانه وتعالى عليه من جميع الجهات .

وظاهر الخطاب في الآية المباركة للنبيّ ﷺ ، فيكون المراد منه الطلب من الله تعالى الستر على ما في طبع الإنسان من الميل الى الهوى من هضم الحقوق ، والدليل عليه قوله تعالى في ذيل الآيات المباركة : **﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾** ، فإنّ الآية المباركة تدلّ على عصمة الله تعالى لنبيّه الكريم بعد بذل القوم غاية جهدهم في إضلاله وإيثار الباطل لديه وتحريضه على الحقّ ، ولكن الله تعالى جعله في أمنه وأخبرهم بأنّهم لا يضرّونه ، فلا يجور في الحكم ولا يميل الى الباطل .

ويمكن أن يكون المراد من الأمر، الاستغفار لأجل أنـّه عبادة تدلّ على ذلّ العبوديّة ، بل هو من شؤونها ، فلا يختصّ بما إذا كان عن ذنب؛ ولذا ورد عن النبيّ ﷺ : «وأنا استغفر الله في كلّ يوم سبعين استغفارة» وهو معصوم ، فإن كان الاستغفار صادراً ممّن عصمه الله تعالى ، يكون مزيداً للثواب والدرجات ، وإن كان الاستغفار صادراً ممّن حصل منه الذنب ، فيوجب عفوه وستره وغفرانه ، فأمر الله تعالى له ﷺ بالاستغفار ليس لأجل صدور ذنب عنه ، أو همّه إلى الباطل وزيفه عن الحقّ ، بل لأنّ الاستغفار عبادة ، وهو ﷺ سيّد العابدين ورئيسهم كما عرفت .

أو لأن يعصمه الله تعالى من الوقوع في ما يوجب بُعده عنه تبارك وتعالى .

أو لأجل سؤاله أن يغلبه على هوى النفس وإن كان معصوماً، ولكنّه يستلزم علوّ الدرجة له.

كما أنّه يمكن أن يكون الاستغفار لاشتغاله بالنظر في أهمّ مصالح الأُمة، مثل محاربة الأعداء، فإنّها وأمثالها شاغلة عن عظيم مقامه، أو عن عظيم ما مضى من أحواله، والترقّي منه إلى الأعظم لأنّ: «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين»، كما يحتمل أن يكون لتعليم الأُمة من باب «إيّاك أعني واسمعي يا جارة».

وممّا ذكرنا يعلم فساد ما ذكره بعض المفسّرين من نسبة الذنب أو همّه إلى النبيّ ﷺ، الذي عصمه الله تعالى من الزلل والخطأ والذنوب كلّها، وقد نفى الله تعالى عنه كلّ ضرر، وآمنه عن كلّ ميل إلى الباطل واتّباع الهوى.

وظهر ممّا تقدّم معنى الحديث الشريف: «انّه ليغان على قلبي حتّى استغفر الله في اليوم سبعين مرّة»، فإنّ قلبه الشريف أبداً مشغول بالله تعالى، ولكن قد يعرض على قلبه المبارك عارض بشري من أُمور الأُمة والملّة ومصالحهما، وعدّ ذلك في نفسه الأقدس تقصيراً، فيفزع إلى الاستغفار.

أو يتذكّر رقيّ نفسه الشريفة من عظيم إلى أعظم فيتوجّه إليه بالاستغفار، وبه يحصل الرقي. ومنه يظهر شأن الاستغفار من بين الأذكار.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

أي: أنّ الله تعالى يحبّ المغفرة والرحمة، فمَن استغفره واسترحمه يجد الله غفوراً رحيماً دائماً في تمام الأحوال وجميع العوالم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنْ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

المجادلة المخاصمة، قيل: من الجدل، وهو الفتل، ومنه رجل مجدول الخلق، أي: محكم الفتل، ويقال للصقر: الأجدل، وفي حديث عليّ عليه السلام حين

وقف على طلحة وهو قتيل : «عزيز عليَّ أبا محمّد أن أراك مجدّلاً تحت نجوم السماء» ، أي : مرميّاً قتيلاً مُلقى على الأرض .

وقيل : إنّه مأخوذ من الجدالة ، وهي وجه الأرض ، ومنه الحديث الشريف : «أنا خاتم النبيّين في أُم الكتاب ، وإنّ آدم لمنجدل في طينته» ، أي ملقى على الجدالة وهي الأرض ، فكأن كلّ واحد من الخصمين يريد أن يلقي صاحبه عليها ، ومنه : تركته مجدّلاً ، أي مطروحاً على الجدالة ، كما مرّ في الحديث السابق أيضاً .

و ﴿**يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ**﴾، أي يخونونها ويحملونها على ما يخالف الفطرة والدين ، فتشمل كلّ معصية ، سواء كانت خيانة أم غيرها ، إلى النفس أو إلى الغير ، فإنّ وبالها راجع إليها بالآخرة؛ لأنّ كلّ معصية تعدّ خيانة للنفس كما يعدّ ظلماً لها .

وربما تكون الخيانة إلى الغير أخذ؛ لأنّه يجب احترامه وحفظه ومراعاة العهد معه ، فيكون التعدّي عليه بالخيانة في ماله أو في عرضه أو في غيرهما خيانة له وللنفس ، ولعلّ التعبير به لبيان هذه الجهة أيضاً .

وسياق الآية المباركة يدلّ على حرصهم واستمرارهم عليها ، وقد ورد مثله في قوله تعالى : ﴿**كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ**﴾[1] ، وتقدّم ما يتعلّق به فراجع .

ولا يختصّ مضمون الآية المباركة بعصر النزول ، فإنّ في كلّ عصر يوجد من يكون خائنا للنفس بارتكاب المعاصي والآثام ، كما أنّ النهي وإن كان موجّهاً إلى الرسول الكريم ﷺ ، ولكنّه تشريع موجّه إلى جميع المكلّفين ، فلا يجوز المدافعة عمّن يخون نفسه بارتكاب المعاصي وجعل نفسه عرضة للخيانة .

قوله تعالى : ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً**﴾ .

الخوّان فعّال من أبنية المبالغة ، أي كثير الخيانة ، وهو يدلّ على استمرارهم

---

١ . سورة البقرة : الآية ١٨٧.

عليها وتعظيم الأمر فيها .

والأثيم صفة مشبهة ، وهو المنهمك في الإثم ، وإنّما قدّم عزّ وجلّ الخيانة على الإثم لأنّها السبب له .

وتعليق البغض وعدم المحبّة بهؤلاء؛ لبيان إفراطهم في الخيانة والإثم وأمنهم من العقاب الإلهي؛ لأنهم اعتادوا الخيانة وألفوا الإثم ، فلم يعد ينفرون منه ، لا لأجل أنّه تعالى يبغض كثير الخيانة ، فهو عزّ وجلّ لا يحبّ قليلها كما لا يحبّ كثيرها . وقد عدّ عزّ وجلّ جملة من خياناتهم ومآثهم ومعاصيهم ، بالنسبة إلى الله تعالى وإلى الرسول ﷺ ودين الحقّ والمؤمنين في جملة من الآيات الكريمة .

ويستفاد من سياق الآية الشريفة أنّها نزلت في قوم اعتادوا على الخيانة وارتكاب الإثم وانهمكوا فيه ، فنهى النبيّ ﷺ عن أن يكون خصيماً لهم ، وأن يجادل عنهم لأجل خيانتهم ، فهو تعالى يبغضهم لذلك وينهى عن المدافعة عنهم ، فلا فرق في الحكم بين قليل الخيانة وكثيرها، فإنّهما على حدّ سواء عنده عزّ وجلّ.

قوله تعالى : ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنْ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنْ اللهِ﴾ .

بيان لأهمّ سجاياهم التي امتاز بها هؤلاء الخوانون الآثمون . منها : استتارهم عن الناس، واستحياؤهم منهم عند ارتكاب الخيانة والآثام ، وعدم استتارهم عن الله تعالى لأنّهم أمنوا عقابه ، فلا إيمان لهم؛ لأنّ الإيمان جُنّة واقية يمنعهم عن ارتكاب واقتراف الإثم ، وهو أحقّ من أن يستخفى عنه ويستتر منه .

وإنّما عبّر عزّ وجلّ بالاستخفاء منه تعالى، وهو عليم بمنويات الصدور، ولا تخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؛ تنزيلاً على زعمهم ، فإنّهم كانوا على درجة ضعيفة من الإيمان ، فلم يعتقدوا مراقبة الله تعالى لهم ، فبيّن عزّ وجلّ لهم هذه الحقيقة .

ومن ذلك يعرف أنّه لا وجه لارتكاب المجاز في المقام، والقول بأنّ المراد من الاستخفاء منه تعالى الاستحياء، فإنّه وإن كان صحيحاً، لكنّه خلاف السياق.

وممّا ذكرناه يعلم الوجه في ما ذكره بعض المفسّرين من أنّ الاستخفاء من الله تعالى أمر غير مقدور، إذ لا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء، فطرفه المقابل له ـ أعني عدم الاستخفاء ـ أيضاً أمر اضطراري غير مقدور، وإذا كان كذلك لم يتعلّق به لوم ولا تعيير، كما هو ظاهر الآية الشريفة، فالظاهر أنّ الاستخفاء كناية عن الاستحياء؛ ولذلك قيّد قوله: **﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنْ اللهِ﴾** بقوله: **﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنْ الْقَوْلِ﴾**، الدالّ على أنّهم كانوا يدّبرون ما لا يرضى من القول، أي التبرّي من هذه الخيانة المذمومة، كما قيّده عزّ وجلّ بقوله: **﴿وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾**، الذي يدلّ على إحاطته تعالى بهم في جميع الأحوال، حتّى حال ارتكاب الجرم وصدور المعصية، فيكون التقييد بهذين القيدين من قبيل ذكر العامّ بعد الخاصّ، وهو في الحقيقة تعليل لعدم استخفائهم من الله تعالى بعلّة خاصّة ثمّ بأُخرى عامّة.

وما ذكره ﷺ تطويل بلا طائل تحته، فإنّ ما يذكر عزّ وجلّ من الآيات التالية كفيل في بيان المراد من عدم استخفائهم من الله، وهو التنزيل على ما كانوا يعتقدونه، وإنّه مذكور على ما كانوا يتخيّلونه من عدم حضوره عزّ وجلّ وأمنهم من عقابه، بخلاف استخفائهم من الناس، فإنّهم لم يكونوا في مأمن من عقابهم وتوبيخهم، فكان الردّ عليهم حاسماً، من أنّه معهم يعلم ما يبيّتون ما لا يرضى من القول، وأكّد ذلك بأنّه محيط بهم.

وما ذكره أخيراً من الآيتين المباركتين الأخيرتين تعليل لعدم استخفائهم من الله تعالى صحيح، فهو عزّ وجلّ أحقّ من أن يستخفى منه ـ بأن لا يعصى لا جهراً ولا خفاء ـ فالاستخفاء منه تعالى أمر مقدور بترك المعصية والإثم ومراقبته

عزّ وجلّ في جميع الأحوال .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ .

تعليل لعدم استخفائهم منه جلّ وشأنه ، فهو معهم يعلم ما تكنّ به صدورهم ويرى أعمالهم ويسمع أقوالهم . ومعيّته تعالى لخلقه معيّة قيوميّة إحاطيّة علميّة ، لا معيّة زمانيّة ومكانيّة ، فإنّه تعالى محيط بهما .

قوله تعالى : ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنْ الْقَوْلِ﴾ .

تقدّم الكلام في مادة (بيّت) ، والمراد به التدبير ليلاً وفي الخفاء بما لا يرضاه عزّ وجلّ من القول والفعل ، كالتبريّ من الخيانة ورمي البريء بها وشهادتهم عليها زوراً ، فيكون المراد من القول الأعمّ منه ومن الفعل المترتّب عليه ، فكانوا يدبّرون ما لا يرضاه عزّجلّ في الخفاء وينسبونه إلى البريء .

قوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾ .

تعليل عامّ يبطل زعمهم في عدم استخفائهم من الله تعالى وتدبيرهم القول ، فإنّه عزّ وجلّ محيط بهم في جميع الأحوال ، فيعلم أفعالهم وأقوالهم وسرّهم وعلنهم ، عالم بجميع خصوصياتهم لا يعرب عن علمه شيء ولا يفوته أمر .

قوله تعالى : ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ .

بيان لعدم انتفاعهم بالمجادلة عنهم ، وهو دليل على أنّ المجادلة المنهيّة في صدر الآية الشريفة التي خوطب بها النبيّ ﷺ ليس المراد منه نفس الرسول الكريم ، فإنّه ﷺ معصوم لا يجادل عن الّذين يخونون أنفسهم ، بل كان واقعاً من بعض المؤمنين ، إلّا أنّ الخطاب كان موجّهاً لرسوله الكريم ﷺ ؛ تعظيماً للأمر وتعليماً لأُمّته ، فإنّ الأمر بمكان من الأهمّية ؛ لأنّ فيه تضييعاً للحقوق ومسّاً للعدالة

الإسلاميّة وترويجاً للباطل وإزهاقاً للحقّ، فكان ذلك سبباً في توجيه الخطاب له ﷺ ومثل هذه الأسلوب يراد منه الاستفزاز والتنبيه بأنّ الجدال عنهم لا ينفعهم ولو بذلتم غاية الجهد في ذلك، فإنّ جناياتهم على حدّ من الكثرة والعظمة بحيث يوجب مشاقّتهم بالتوبيخ والتقريع، لا المخاصمة والجدال عنهم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: لو نفعهم الجدال في الحياة الدُّنيا، فلا ينفعهم في يوم القيامة، يوم حضور الأعمال ويوم الشهود. والاستفهام بمعنى الإنكار والتوبيخ.

قوله تعالى: ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾.

أي: إذا حضرت الأعمال وتكشّفت السرائر وبرزوا لله الواحد القهّار، فمَن يكون وكيلاً يدافع عنهم، فإنّه في ذلك اليوم لا مدافع عن المجرمين ولا مجادل عنهم ولا كفيل يدبر أمرهم ويصلح شأنهم، فهناك لا ينفع الاستخفاء من الله تعالى، فإنّ الأعمال محفوظة لديه وهو محيط بهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾.

ترغيب للتوبة وحثّ إلى ترك السوء والخيانة. وبيان للمخرج من الذنب بعد وقوعه، وإرشاد إلى أنّ المعصية التي يقترفها الإنسان تؤثّر في نفسه وتخلّف تبعات وآثاراً عليها، وتكتب في صحيفة أعماله، ولا يمكن إزالتها إلّا بالرجوع إلى الله تعالى واستغفاره، فلو فعل ذلك وجد الله جلّت قدرته توّاباً رحيماً.

والسوء: ما يسوء الإنسان، ولعلّ التدريج من السوء إلى الظلم إمّا لأجل أنّ السوء يراد من التعدّي على الغير وبالظلم التعدّي على النفس، أو من التدريج من المعصية الصغيرة إلى المعصية الكبيرة. وقيل: السوء ما دون الشرك؛ لأنّه ظلم عظيم.

وكيف كان، فهما مشتركان في العصيان والتعدّي على حرماته عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللهَ يَجِدْ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

أي: يطلب منه المغفرة بالتوبة الصادقة، فإنّه يجد الله غفوراً لذنوبه رحيماً به، ومن رحمته عزّ وجلّ أن وفّقه التوبة وأنـه يقبلها ولو بعد حين. ولعلّ الإتيان بـ(ثم) إشارة إلى ذلك.

والتعبير بالوجدان لبيان سرعة الاستجابة، وعن عليّ عليه السلام: «مَن أُعطي الاستغفار لم يحرم المغفرة»، وفيه الحثّ إلى التوبة والاستغفار، وبيان إلى أنّ مَن لم يتب يحرم نفسه من رحمته تعالى.

وإطلاق الآية المباركة يشمل جميع الذنوب الصغائر والكبائر، كما أنّ سياقها يدلّ على التفضّل والامتنان.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

بيان لحقيقة من الحقائق الواقعيّة التي طالماً غفل عنها الإنسان، وهي أنّ الإثم الذي يكسبه إنّما يكسبه على نفسه ولن يتخطّاه وتلحقه آثاره وتبعاته، ويكون وباله عليه مهما تنصّل عن ذلك ورمى به غيره زوراً وافتراءً، فلابدّ أن يتذكّر ذلك ويجعله نصب عينيه، فإنّه لا يجديه رمي الغير به، أو أن يتعهّد له متعهّد، فإنّه وحده يتحمّل إثمه، ووزره ووباله إنّما يكون على مَن كسبه، فليحترز عن الذنب وتعريض النفس للعقاب.

والمراد بالكسب هو الفعل بقصد الانتفاع به؛ ولذا لا يوصف فعل الربّ بالكسب لعدم تصوّر الانتفاع فيه عزّ وجلّ، والإثم هو الذنب.

وهذه الآية الشريفة كالمقدّمة للآية التالية المتعرّضة للرمي بالخطيئة والإثم.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

أي: أنّ الله عليم يعلم أفعال عباده، حكيم بأن جعل لكلّ فعل جزاءً خاصّاً، ومن حكمته أنّه لا يؤاخذ أحداً إلّا بسبب إثمه.

وقد فسّرت هذه الآية آيات أُخرى في مواضع متفرّقة من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[3].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً﴾.

بيان إلى أنّ الخطيئة والإثم الذي يرتكبه أحد إذا رمى به بريئاً كان إثماً وخطيئة أُخرى. والخطيئة والإثم والذنب والسيّئة في الشرع تطلق على المعصية، ولها مدلولات متفرّقة إلّا أنّه يمكن الفرق بينها أنّ الخطيئة تستعمل في المعصية التي تكون من غير تعمّد، ثمّ توسّع فيها واستعملت في كلّ ما لا ينبغي أن يقصده الإنسان، فتكون كلّ معصية وأثرها من مصاديق الخطيئة. وبناءً على ذلك تكون الخطيئة على قسمين، فإمّا أن يكون عملاً أو أثر عمل لم يقصده الإنسان، فلا تعدّ حينئذٍ معصية، ومن نسبة الخطيئة إلى الكسب الدالّ على القصد يراد من الخطيئة المعصية.

وأمّا الإثم فهو في الأصل التقصير، أي ما يوجب قصر صاحبه عن الكمال،

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٦٤.

٢. سورة العنكبوت: الآية ١٢.

٣. سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

أو ما يوجب الحرمان عن الخيرات كالخمر ، فإنّها تقصر بشاربها لذهابها بعقله ، وهي توجب حرمان شاربها من الخيرات ، سواء كانت فـرديّة أم اجـتماعيّة، أو تكون مبطلة للثواب .

وأمّا الذنب ، فهو الفعل الشنيع الذي يتبعه الذمّ واللّوم .

وذكر بعضهم أنّ الإثم هو القبيح الذي عليه تبعة ، وأمّا الذنب فهو القبيح من الفعل ولا يفيد معنى التبعيّة؛ ولذا يقال : أذنب الصبي ، ولا يقال : قد إثم .

وكيف كان ، فاجتماع الخطيئة والإثم فـي الآيـة الشـريفة ونسـبتهما إلى الكسب، يدلّ على أنّ لكلّ واحد منها مدلولاً خاصّاً . فالمعنى : ومن يكسب معصية ويفعل فعلاً لا ينبغي أن يقصده ، كترك الواجبات وفعل المحرّمات ـ كأكلّ الدم ـ أو يكسب إثماً يوجب حرمان صاحبه عن الخيرات ويبقى وبالها ـ كالسرقة وقـتل النفس ـ ثمّ يرمي بريئاً بنسبتها إليه ، فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً .

والمراد من ﴿يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً﴾ نسبة الخطيئة والإثم إليه ، وزعم أنـه هـو الذي فعله افتراء .

قوله تعالى : ﴿فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ .

البهتان هو الكذب على شخص بما يبهت منه ويتحيّر عند سماعه لفظاعته ، يقال : بهته بهتاً وبهتاناً فهو باهت ، والمقول مبهوت .

والإثم المبين ، أي : المبين الذي لا شك فيه ولا خفاء ، واكتفى في البهتان بتنيكر التفخيم . ويمكن أن يرجع وصف الإثم إلى البهتان أيضاً ، وعبّر بهما تهويلاً للأمر وتعظيماً لحال البريء .

وفي إطلاق الاحتمال بالنسبة إلى قبول وزر البهتان استعارة لطـيفة ، كأنّ المفترى يفتك بالمتهم البريء ويرميه بالإثم والخطيئة ، فيوجب أن يتحمّل حملاً

يشغله عن كلّ خير، لا يفارقه مدى حياته.

والآية المباركة تتضمّن أدباً من آداب الإسلام، وخلقاً كريماً من مكارم الأخلاق. وهو ترك رمي البريء والافتراء عليه، فإنّه خطيئة أُخرى وإثم عظيم؛ لأنّه يشتمل على الكذب والافتراء والظلم على الغير وذهاب الثقة بين المجتمع وهدم الاعتماد في الأُسرة وإشاعة الفحشاء بين الأفراد؛ ولذا كان معصية كبيرة توجب فساد الدُّنيا وعذاب الآخرة.

قوله تعالى: **﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾**.

الآية الشريفة تدلّ على أنّهم كانوا يهتمّون بإضلال النبيّ ﷺ ويرضونه بالدفاع عن الخائنين والمجادلة عنهم، و هؤلاء هم الّذين خاطبهم عزّ وجلّ بقوله: **﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾**[1]، وتنطبق الآية الكريمة على القوم الّذين اتّهموا بريئاً وأرادوا تعريض النبيّ ﷺ المجادلة عنهم، كما وردت في الروايات على ما سيأتي.

أي: ولولا فضل الله بالتأييد والعصمة، ورحمته بإخبارك وهمهم وتنبيهك بالحقّ والحقيقة، لهمّت طائفة من الّذين يختانون أنفسهم ـ وهم قوم أبي طعمة وغيرهم على ما ستعرف ـ الذين انتصروا للخائن وطلبوا من النبيّ ﷺ المجادلة عنهم والحكم على المتّهم البريء، وهم يعلمون حقيقة الحال، وقد همّوا وبذلوا غاية جهدهم في إضلال النبيّ ﷺ عن الواقع والقضاء بالحقّ، والآية المباركة تدلّ على نفي تأثير همّهم فيه ﷺ لا نفي الهمّ مطلقاً.

قوله تعالى: **﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾**.

---

١ . سورة النساء: الآية ١٠٩.

أي : أنّ إضلالهم لا يتعدّى إليك ولا يتجاوز عن أنفسهم ، فإنّ وزره ووباله راجع إليهم ، فهم الضالّون ويعملون عملهم ، وأنّهم أزالوا أنفسهم عن الحقّ وأوردوها مورد الهلاك .

قوله تعالى : **﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾** .

عطف تفسيري للآية الكريمة السابقة ، أي أنّهم بهمّهم لإضلالك لا يضرّونك بل يضرّون أنفسهم بتعريضها للهلاك ووبال عملهم عليهم ، فلا يتعدّى عليك لأنّك مؤيّد من عنده تعالى ومعصوم ، فلا يضرّك ما يخطر ببالك بادئ الأمر من همّهم وشدّة جهدهم في تلبيس الحقّ بالباطل .

والآية المباركة تدلّ على نفي إضرارهم للنبيّ ﷺ مطلقاً وفي جميع الحالات والخصوصيّات ، وهي تدلّ على عدم صدور المجادلة عنهم من النبيّ ﷺ مطلقاً .

قوله تعالى : **﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾** .

بيان لفضله تعالى على النبيّ ﷺ والرحمة له ، وهو في مقام التعليل لقوله تعالى : **﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾** ، أي ما يضرّونك من شيء مع إنزال الله عليك القرآن والحكمة ، وهي الفصل في القضاء ، أو الاطّلاع على الحقائق ودقائق الكتاب وسائر المعارف الإلهيّة . وعلّمك من الحقائق وكشف لك الأسرار المكنونة والمعلوم المخزونة وخفيّات الرموز ما لم تعلم إلّا بتعليمه .

وذكر المفسّرون في تفسير الكتاب والحكمة أُموراً يمكن المناقشة فيها :

فقيل : المراد من الكتاب : هو الوحي النازل لرفع اختلافات الناس ، كما في قوله تعالى : **﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ**

مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[١].

وفيه : أنّ الظاهر من الكتاب ـ في المقام ـ النازل على رسول الله ﷺ المقابل للحكمة ، وتعليم ما لم يعلم هو القرآن الكريم ، وهو والحكمة تكفّلاً لرفع اختلاف الناس، والفصل بالحقّ في القضاء .

وقيل : المراد بالحكمة ما فيه من الأحكام ، **﴿مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾** الغيب والأقدار المخفيّة على البشر .

وفيه : أنـّه لم يقم دليل عليه ، بل الحكمة متى ما أطلقت يراد بها تلك العلوم والمعارف الحقّة ، التي لها مدخليّة في شؤون الإنسان العمليّة والمصيريّة .

وقيل : المراد بالكتاب القرآن ، وبالحكمة السنّة ، وممّا لم تعلم الشرائع وأنباء الرسل الأوّلين، وهو بعيد جدّاً .

وهذا العلم النازل من الله تعالى على قلبه الشريف ، هو الملاك في العصمة التي هي عبارة عن علم الشخص بأُمور تمنعه عن ارتكاب المعصية والتلبّس بالخطأ ، فإنّ أثر هذا العلم هو منع صاحبه عن الضلال ، كما أنّ أثر الشجاعة والسخاء ونحو ذلك من السجايا الفاضلة والملكات ، مترتّب عليها تمنع صاحبها من التلبّس بما يضادّها من الجبن والبخل والتبذير ونحو ذلك ، وسيأتي في البحث الفلسفي في الآيات المناسبة له ما يتعلّق بالعصمة إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : **﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾** .

امتنان على النبيّ ﷺ ، إذ لا فضل أعظم من النبوّة والرحمة الإلهيّة وتعليم الكتاب والحكمة، وعصمته من الوقوع في الضلال ، فذلك كلّه فضل لا يمكن أن تحويه عبارة ولا تحيط به إشارة .

---

١ . سورة البقرة : الآية ٢١٣.

قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾.

بيان الصراط المستقيم والمنهج القويم الذي لا بد وأن يتّبعه الخائنون، دون ما حكى عنهم عزّ وجلّ ـ كما مرّ ـ من تبييت ما لا يرضى من القول وفساد النيّة وسوء الفعال.

وما تضمّنته هذه الآية المباركة تعليم إلٰهي لسائر الناس، وإرشاد لهم بأنّهم إذا تناجوا فلابدّ أن يكون نجواهم بالخير والمعروف والإصلاح بين الناس والتأليف بينهم بالمودّة، وإلّا فلا خير في نجواهم ويكون وزره ووباله عليهم.

والنجوى: السرّ بين الاثنين، وناجيته، أي ساررته، تقول: ناجيتُ فلاناً مناجاةً ونجاءً، وهم ينتجون ويتناجون، ونجوتُ فلاناً أنجوه نجواً، أي: ناجيته، وهو من نجوت السرّ أنجوه، أي: خلصته وأفردته، ومنه نجوّة الأرض، أي المرتفع منها لانفراده بارتفاعه عمّا حوله. فالنجوى المسارّة مصدر، وقد تسمّى به الجماعة، كما يقال: قوم عدل ورضا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾[1]، أي متناجون، وفي الحديث: «دعا رسول الله ﷺ عليّاً عليه السلام يوم الطائف فانتجاه، فقال الناس: لقد طال نجواه، فقال: ما انتجيته ولكن الله انتجاه»، أي: أنّ الله تعالى أمرني أن أُناجيه. وفي الدُّعاء: «اللهمّ بمحمّدٍ نبيّك وصفيّك، وبموسى نجيّك»، أي: المناجي والمخاطب معك.

والضمير فى ﴿نَجْوَاهُمْ﴾ يعود إلى القوم المختانين أنفسهم، الّذين يبيّتون ما لا يرضى من القول، والّذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله تعالى، وقد غلب الشرّ عليهم فلا خير فيهم، لا في أفعالهم ولا أقوالهم ولا في مناجاتهم فيما بينهم.

---

١. سورة الإسراء: الآية ٤٧.

وإنّما عبرّ عزّ وجلّ بـ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ﴾؛ لأنّ ما تناجوا فيه من الأُمور التي نفى عنها الخير، فلا يحتاج إلى النجوى فيها، أو لأنّ النجوى إن كان راجعاً إلى شؤونهم الخاصّة التي لا ربط لها بإبطال الحقّ وإحقاق الباطل، فليس داخلا في مضمون الآية الشريفة، وهي قليلة عندهم. أو أنّ نفي الخير عن الكثير راجع إلى نفي الخير كلّه، باعتبار أنّ الكثير إذا لم يكن فيه الخير فقليله لا ينفع؛ لأنّ النجوى مظنّة الإثم والعدوان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنْ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[2]، فإنّ الإثم والعدوان إنّما يتحدّث عنهما في السرّ، دون الخير فإنّه يتحدّث عنه في الملأ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾.

إرشاد إلى أنّ الخير في كلّ نجوى واقع بين الطرفين أو أكثر لابدّ أن يكون باعثاً لهذه الأُمور الثلاثة، وهي الصدقة، والمعروف، والإصلاح بين الناس، وعلى هذا فالاستثناء متّصل، أي أنّه لا خير في النجوى، بل الخير فيه ما كان باعثاً إلى هذه الأمور المذكورة في الآية الكريمة.

وقيل: إنّ الاستثناء منقطع على معنى لكن مَن أمر بصدقةٍ أو معروف.

وكيف كان، فهذه الأُمور الثلاثة هي مجامع الخير التي يحتاج إليها في تنظيم أمور معاشهم ومعادهم، وإنّها هي التي يحتاج فيها إلى النجوى، وغيرها لا خير فيها.

---

١. سورة المجادلة: الآية ١٠.

٢. سورة المجادلة: الآية ٩.

وإنّما ذكر عزّو جلّ هذه الأمور الثلاثة لأنّ كمالها إنّـما يكـون بكـتمانها والتعاون عليها سرّاً وجعلها نجوى .

والصدقة: هي العطيّة المتبرّع بها الغير بقصد القربة . والمعروف : ما يعمّ أعمال البرّ كلّها ، والإصلاح بين الناس : هو رفع الاختلاف و إلقاء المودّة بينهم ، وتقدّم أنّ هذه الأُمور الثلاثة هي الجامعة لجميع أبواب الخير ، وهو إمّا أن يكون فيه إيصال نفع إلى الغير ، وهذا على قسمين ، فإمّا أن يكون النفع جسمانيّاً ومـادّياً ، وهـي الصدقة . وإمّا أن يكون معنويّاً وروحانيّاً ، وهو المعروف . وإمّا أن يكون الخير دفع المضرّة عن الغير ، وهو الإصلاح بين الناس .

وإنّما قدّم الصدقة على المعروف والإصلاح؛ لأنّ الأمر فيها أشقّ ، فإنّ فيها بذل المال الذي هو شفيق الروح ، بل عن عليّ عليه السلام : «ينام الإنسان عـلى الثكـل ولاينام على حرب» .

كما أنّ تخصيص المعروف والإصلاح بالذكر مـع إمكـان دخـولهما فـي الصدقة لأنّ «كلّ معروف صدقة»؛ إيذاناً بالاعتناء بشأنهماللترغيب بهما ، فـإنّ المعروف يحبّه جميع الناس ، وفي الحديث عن نبيّنا الأعـظم صلى الله عليه وآله : «المـعروف كاسمه و أوّل من يدخل الجنّة يوم القيامة المعروف وأهله» ، وتقدّم في عدّة آيات شريفة الأمر بفعل المعروف ، والمستفاد من مجموعها أنّ المعروف لا يتمّ إلّا بثلاث خصال : بالتعجيل ، والستر ، والتصغير .

وأمّا الإصلاح بين الناس ففيه إزالة الفساد من ذات البـين ، وفـيه الفـضل الكبير والثواب الجزيل ، وفي الحديث عن نبيّنا الأعـظم صلى الله عليه وآله : «ألا أدلّك عـلى صدقة يحبّها الله ورسوله ، تصلح بـين النـاس إذا تـفاسدوا ، وتـقرّب بـينهم إذا تباعدوا» ، وعموم الإصلاح بين الناس يشتمل جميع أفراده ، في الدماء والأموال والأعراض وفي كلّ شيء يرفع الاختلاف بين الناس حتّى الكذب ، بلا فرق بين

المسلمين وغيرهم، فإنّه أمر محبوب إلّا فيما ورد من الشارع نهي بالخصوص حتّى في مثل المقام، وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام: «والكلام ثلاثة، صدق وكذب وإصلاح بين الناس»، وفي الحديث عنه عليه السلام أيضاً: «إنّ الله فرض التمحّل في القرآن، فقيل: وما التمحّل؟ قال عليه السلام: أن يكون وجهك أعرض من وجه أخيك فتمحّل له»، وهو قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾.

والمراد من التمحّل ارتكاب الحيل الشرعيّة في قضاء حوائج الإخوان، وقد ضبط التجمّل بالجيم، والتحمل بالحاء أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾.

بيان لحال النجوى من حيث المثوبة والعقوبة ليتّضح وجه الخير في النجوى وعدمه. وينقسم المتناجون إلى قسمين:

قسم يبتغي في فعله مرضاة الله تعالى، فله الأجر العظيم.

وقسم آخر يفعل لأجل مشاقّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم واتّباع سبيل آخر غير سبيل المؤمنين، فسيكون جزاؤه جهنّم.

والآيات التالية بين القسمين.

أي: مَن يأمر بالمذكورات من الصدقة، والمعروف، والإصلاح بين الناس ويفعل ذلك لأجل رضا الله تعالى وتقرّباً إليه عزّجلّ، فقد نال الخير وسيثيبه سبحانه وتعالى الأجر العظيم.

وإنّما عدل عزّ وجلّ عن الأمر إلى الفعل؛ لبيان أنّ مجرّد الوعد غير كافٍ، بل لابّد أن يتلبّس بالفعل ويتحقّق في الخارج.

قوله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾.

بغي الشيء طلبه، وابتغاه يدلّ على شدّة الطلب والاجتهاد فيه، فهو أبلغ من

الطلب، أي من يفعل مَن الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس لأجل طلب رضا الله تعالى والانقطاع إليه ـ لأنّ الأعمال بالنيّات ـ فقد فاز بالأجر منه جلّت عظمته، ويمنحه من عطاياه، ويشرّفه من كرمه، فيدلّ على أنّ فعل الخير إنّما يكون مظهرا لرحمته عزّ وجلّ في ما إذا أراد مرضاة الله تعالى منه، فيكون الخير والعمل أنفع وأدوم ويكون مظهراً من مظاهر رحمته عزّ وجلّ، وكلّ ما كان الفعل أخلص لوجه الله تعالى كان أكمل وأنفع وأبقى، وعلى درجات الإخلاص يثاب الفاعل.

وتدلّ هذه الآية الشريفة على نظرية الإسلام في الخير والأخلاق الفاضلة، فإنّه يؤكّد عليه أشدّ تأكيد، ويحثّ على التخلّق بها والتحلّي بالفضيلة وعمل الخير ابتغاء لمرضاة الله تعالى وخالصاً لوجهه والكريم، فهو ينظر إلى الجانب الروحاني والمعنوي أكثر من البُعد الماديّ، فلا يعير للأخلاق الفاضلة إذا طلبت لأجل البُعد الماديّ من قضاء الحوائج وتمشية الأُمور الدنيويّة وحصول النفع كما تراه عليه الجاهليّة المعاصرة والمذاهب النفعيّة في الأخلاق، فالخُلُق الكريم إنّما يكون صالحا وكاملا و موجبا لإصلاح النفس إذا كان ابتغاؤه لأجل مرضاة الله تعالى، وقد ذكرنا ما يتعلّق بذلك في أحد مباحثنا الأخلاقيّة، فراجع.

قوله تعالى: ﴿**فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**﴾.

أي: نعطيه مثوبة عظيمة يقصر عنها الوصف في الكثرة والصفة والمنزلة، ويستحقر دونها ممّا فات من أعراض الدُّنيا، وأمّا كون الأجر كثيراً فلأنّه دائم، وأمّا كونه في منتهى كمال الصفات، فلأنّه لا ينغصّه شيء ولا يشوبه ما يعيبه، وأمّا المنزلة فلأنّها مقارنة للتعظيم، فإطلاق الآية المباركة يشمل جميع ما تقدّم لانتساب إعطاء الأجر إلى ذاته الأقدس، وتوصيفه بالعظمة المتجلّية عن مقامه الربوبي جلّ شأنه، وظاهر الآية المباركة من قبيل ترتّب السبب على المسبّب، ويستفاد منها تثبيت قدرته وقهّاريته.

قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى**﴾.

بيان للقسم الثاني من المتناجين بعد بيان حال المتناجين بالخير والأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس، وابتغاؤهم مرضاة الله تعالى، ووعدهم عزّوجلّ الجزاء الأحسن.

وفي هذه الآية الشريفة يبيّن تعالى حال المتناجين بالشرّ ومخالفة الرسول ﷺ واتّباعهم طريقاً غير طريق المؤمنين، وأوعدهم عزّوجلّ الإملاء والاستدراج ثمّ إصلائهم جهنّم وساءت مصيراً.

والمشاقّة المخالفة والمعاداة، مشتق إمّا من شقّ العصا، أو من الشقّ، وهو القطعة المبانة من الشيء، فكأنّ كلّ واحد من المتخالفين في شقّ غير شقّ الآخر.

وقد ورد في القرآن الكريم هذه الكلمة تارةً: بالإدغام التي هي لغة بني تميم، قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[١].

وأُخرى بالفكّ كما في المقام، وفي سورة الأنفال ـ الآية ١٣ قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ**﴾ وهي لغة الحجاز. ولعلّ الفكّ في المقام لبيان شدّة الانفكاك بين الرسول ﷺ ومخالفه، كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[٢].

والتعرّض للرسالة في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ**﴾ تعليلاً لما سيذكره عزّ وجلّ، ولبيان كمال شناعة مخالفتهم ومشاقّتهم، والمراد من قوله عزّ وجلّ: ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى**﴾، أي من بعدما ظهر الحقّ، وفيه من التقبيح العظيم لهم ما لا يخفى.

---

١. سورة الحشر: الآية ٤.

٢. سورة الأنفال: الآية ١٣.

والمعنى: ومَن يخالف الرسول من بعدما ظهر له الحقّ بالدلائل والمعجزات وموافقة ما أتى به للفطرة ولم يطعه، وإنما ذكر عزّجلّ القيد: **﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾**؛ لبيان شدّة المعاندة، وأنّ المشاقّة إنّما كانت عصبيّة واتّباعاً للشهوات والنفس الأمّارة، فكانت سبباً لزوال الهداية وتفويتها عنهم.

قوله تعالى: **﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾**.

سبيل المؤمنين إنّما هو سبيل الهداية، وما هم عليه من الحنفيّة الصافية الموافقة للفطرة الخالية عن كلّ شائبة، كما أنّ سبيلهم إنّما يكون سبيل التقوى، فكان سبيلهم طاعة الله، واجتماعهم إنّما كان عليها، وقد ورد الحثّ على اتّباع سبيلهم في عدّة مواضع من القرآن الكريم، قال تعالى: **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**[1]، وقال تعالى: **﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾**[2].

قوله تعالى: **﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾**.

أي: من خالف الرسول واتّبع غير سبيل المؤمنين في ما هم عليه من التقوى والهداية وإطاعة الله من ما بعد ظهر له، نجعله على ما تولّاه من الضلالة والغواية التي اختارها.

والآية الشريفة تدلّ على اختيار الإنسان في أفعاله وسلوك عقائده، وأنّ لها الأثر الكبير في هداية الإنسان وسبلها، فإنّ الخروج عن ربقة المؤمنين والإعراض عن تعاليم سيّد المرسلين، موجب للخروج عن الفطرة المستقيمة

---

١ . سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

٢ . سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

والدخول في سلك الكافرين ، ويكفي في سلب الهداية إيكال الله تعالى الإنسان إلى نفسه وعدم توفيقه له ، وهذا هو الجزاء الدنيوي لهم حيث استدرجهم وأملاهم .

وهذه الآية المباركة تتضمّن من الحكمة القويمة والمنهج الصالح للإنسان ما لم تكن في غيرها ، ويستفاد من سياقها أنّها في مقام الامتنان على الأُمّة المرحومة .

قوله تعالى : ﴿**وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً**﴾ .

بيان للجزاء الأُخروي بعد بيان الجزاء الدنيوي ، أي ندخله في جهنّم جزاءً لما اختاره في الدُّنيا من الطغيان والغواية؛ ولذلك يصلّى جهنّم وبئس المصير الذي يصير إليه .

والآيات الكريمة وإن نزلت في قوم معاندين للحقّ ولكن العبرة بعموم اللفظ ، لا خصوص السبب والمورد .

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل يدلّ قوله تعالى: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّـهُ﴾** أنّ الحكم الحقيقي بين الناس والقضاء فيهم من شؤون النبوّة، بل يستفاد منها أنّهما من مختصّاتها، ولا يمكن أن يتصدّى لهما إلّا إذا كان مأذوناً من قبله، ولعلّ ما ورد عن الأئمّة الهُداة عليهم السلام في شأن القضاء من أنّه من مناصب الأنبياء والأوصياء، مأخوذ من أمثال هذه الآية المباركة.

الثاني: يستفاد من الآية الشريفة المتقدّمة أنّ القضاء والحكم بين الناس لابدّ أن يستند إلى كتاب الله تعالى أو السنّة المباركة من ما ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله من قوله وفعله، فإنّه ممّا أراه الله تعالى.

الثالث: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾** أنّ أهمّ ما يفسد القضاء هي الخيانة مطلقاً، ويوكّد ذلك تعقيب الأمر بالحكم بين الناس بالحقّ بهذه الآية الكريمة، وأنّ الخيانة في القضاء من الظلم الذي لابدّ من طلب المغفرة من الله تعالى، والتوبة من مثل هذا الظلم إنّما تتحقّق بترك الخيانة والرجوع إلى الحقّ.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنْ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾** أنّ الدفاع عن الخائنين ومرتكبي الظلم والآثام من أسباب إعراض الله تعالى عن العبد وعدم محبّته له، وأنّ الدفاع عنهم لا يرفعهم عنده جلّت عظمته، فإنّه لا يؤاخذهم إلّا بذنوبهم.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: **﴿يَسْتَخْفُونَ مِنْ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنْ اللهِ﴾**

على أنّ الخيانة إنّما تتحقّق بالاستخفاء من الناس أو الحياء منهم لئلّا يؤاخذوه بما صدر منه من المعصية والظلم، وعدم الحياء من الله تعالى الذي هو معهم ولا تخفى عليه خافية.

ومن ذلك يستفاد أن أساس كلّ معصية، وارتكاب كلّ ظلم وسوء، إنّما هي الخيانة بهذا المعنى العريض الشامل لكلّ مخالفة، وأنّها تحصل بترك المراقبة للنفس، وسيأتي في الموضع المناسب التفصيل في ذلك إن شاء الله تعالى.

السادس: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللهَ﴾** انحصار الطريق في رفع أثر الظلم على النفس والمعصية والسوء، بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى وطلب المغفرة منه عزّ وجلّ، أمّا الشفاعة للظالمين الخائنين لأنفسهم والدفاع عنهم واتّخاذ الدليل لهم، فلا فائدة في ذلك كلّه، فرحمته عزّ وجلّ إنّما تشمل العباد لو طلبوها من الطريق الصحيح.

السابع: يدلّ قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾** على معنى دقيق، وهو أنّ الإنسان إنّما خلقه عزّ وجلّ وأودع فيه غريزة خاصّة بها يطلب الكمال ويسعى له، وقد بيّن عزّ وجلّ الطريق الذي يوصله إليه، ولا يمكن أن يطلبه من غير ذلك وما يطلبه، فإنّه خيال ووهم وليس هو الكمال الحقيقي المنشود، فمَن ارتكب المعصية ويقترف الإثم والسوء، فإنّه خان نفسه التي تسعى إلى الكمال وأضلّها عن الطريق المستقيم وعن ما أودعه عزّ وجلّ في فطرة الإنسان عنها وتضييعها وتعطيلها، ولو أحرز شيئاً لم يكن ذلك من الكمال المنشود.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾** أنّ الأنبياء عليهم السلام كسائر البشر يتأثّرون بكلّ ما يحيط بهم من قول الشرّ، إلّا أنّ العصمة التي أودعها الله تعالى فيهم تحفظهم وتمنع من ظهور آثار الضلال عليهم، فلا يضرّونهم أهل الضلال.

وهذه الآية المباركة من الآيات الشريفة التي تدلّ على عصمة نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله، التي هي قوّة شعوريّة علميّة إراديّة غير مغلوبة لسبب من أسباب الضلال والفساد.

وهي تدلّ على أنّ العصمة لا تخرج المعصوم عن كونه فرداً من أفراد الإنسان، بل هي موهبة الهية عظيمة وفضل كبير عليهم، تعزف أنفسهم بها عن ارتكاب المعاصي والآثام، كما تعزف نفوس سائر الناس وتأنف عن أكلّ ما تشمئز منه النفوس.

وهذه العصمة تثبت على جميع جوارح المعصوم وجوانحه وتظهر أثرها في الأقوال والأفعال، فيكون في أمن من اتّباع الهوى والميل إلى الباطل، وأساس هذه العصمة ـ كما يستفاد من هذه الآية الكريمة ـ هو العلم الذي يمنع صاحبه عن التلبّس بالخطأ وكلّ ضلال، كما قال عزّ وجلّ: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ**﴾، وهذا النوع من العلم يختلف عن إنزال الكتاب والوحي بواسطة الملك، بل هو إلهام خاص وإلقاء في القلب، وهذا هو علم النبيّ صلى الله عليه وآله المعروف الذي يختلف عن سائر علوم الناس، فإنّها لا تحصل إلّا بالأسباب العاديّة المعروفة في طرق اكتساب العلوم.

كما يختلف عنها في أنّه لا يتأثّر بسائر القوى الشعوريّة الأُخرى، من الوهم والخيال والضلال، بل هو غالب عليها، وأنّه يصون صاحبه من الضلال والخطيئة.

وقد يعبّر عن هذا العلم بالعلم اللدنّي أو الملك الذي يحفظ الإمام عليه السلام. وقد ورد في بعض الروايات أنّ للنبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام روحاً تسمّى بروح القدس تسدده وتعصمه من المعصية، ويشير إليها قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ**

مِنْ عِبَادِنَا﴾[1]، وتقدّم في الجزء الأوّل بحث العصمة فراجع .

التاسع : يدلّ قوله تعالى : ﴿**لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ**﴾ على مرجوحيّة كلّ نجوى ومسارّة ، إلّا إذا كانت تأمر بالإصلاح والصدقة والمعروف ، ولعلّ السرّ فيه أنّ النجوى من سبل غواية الشيطان ولابدّ أن يكون الإنسان بعيداً عنها ، قال تعالى : ﴿**إِنَّمَا النَّجْوَى مِنْ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[2]، إلّا إذا كان في مرضاة الله تعالى وسبل رضاه عزّ وجلّ ، وهي ما ورد في هذه الآية المباركة من الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس ، وإنّها هي الخير الذي لابدّ أن يبتغيه المتناجون .

وفي ذكر الصدقة في المقام مع كونها من المعروف، لعلّه لأجل مرغوبيّة المسارّة فيها ، كما أنّ إثبات الأجر العظيم في النجوى الذي يكون في مرضاة الله تعالى؛ لأنّه يتمحّض في الخير ويبتعد عن غواية الشيطان ، فيكون مثل هذا النجوى خيراً محضاً ، ويكون الجزاء المترتّب عليه عظيماً .

العاشر : يستفاد من تعقيب قوله تعالى : ﴿**وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى**﴾ للآية المباركة السابقة الناهية عن النجوى ، إذا لم يكن في مرضاة الله تعالى بما يبيّنه عزّ وجلّ إنّما تكون لمشاقّة الرسول ومخالفته ومعصيته ، ويفسّر هذه الآية المباركة قوله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا**﴾[3] .

الحادي عشر : يستفاد من قوله تعالى : ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى**﴾ أنّ المشاقّة لا تتحقّق بعد تبيّن الهدى ووضوح الحجّة وإقامة البرهان . وهنا بحث نفيس في أقسام الهداية وأصناف الناس في اتّباعها ، لا يسع الحال لذكرها ونحن

---

١ . سورة الشورى : الآية ٥٢.

٢ . سورة المجادلة : الآية ١٠.

٣ . سورة المجادلة : الآية ٩.

في هذه الظروف الشاقّة المحزنة ـ والحمد لله على كلّ حال ـ وسنذكرها في الموضع المناسب إن شاء الله تعالى.

الثاني عشر: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾** أنّ سبيلهم بما هم مجتمعون على الإيمان، من سبل الله تعالى ومن مظاهر طاعته عزّ وجلّ وطاعة الرسول التي أمرنا الله تعالى بها في عدّة آيات شريفة.

والمناط في هذا سبيل هو الاجتماع على الإيمان، الذي هو الحافظ لوحدة سبلهم، والإيمان إنّما يتحقّق بطاعة الله تعالى وطاعة الرسول، ويدلّ على ما ذكرناه قوله تعالى: **﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**[١].

وقال تعالى: **﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾**[٢].

وقد وصف عزّ وجلّ سبيل المؤمنين بعدّة أوصاف في القرآن الكريم، منها أنّه سبيل التعاون على البرّ والتقوى، قال تعالى: **﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾**[٣].

الثالث عشر: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾** على النهي على شقّ عصا المؤمنين، وأنّ مخالفتهم من معصية الله والرسول ومشاقّته.

الرابع عشر: يدلّ قوله تعالى: **﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾** على حرّية ما يختاره الإنسان، حيث إنّه عزّ وجلّ بعدما يأمره بالطاعة له وللرسول، وبعدما يبيّن له سبل الهداية ويتمّ له الحجّة، فإن أعرض عن ذلك فإنّه تولّى غير ما يريده الله تعالى،

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٠١.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

٣. سورة المائدة: الآية ٢.

فيدعه إلى ما يريده ويتولّاه.

الخامس عشر: يستفاد من سياق هذه الآيات المباركة أنّ وبال الشرّ يعود على صاحبه، كما أنّ منفعة الخير تعود على فاعله، أنّ الأسباب الظاهريّة لا تكون منشأً للضرر لو عصم الله تعالى منه عبداً، فالآيات الكريمة جامعة لفضائل كثيرة وناهية عن مساوئ عديدة.

***

بحث روائي:

في «الكافي» بسنده عن عبد الله بن سنان، قال: «قال الصادق عليه السلام: لا والله ما فوّض الله إلى واحد من خلقه إلّا إلى رسول صلى الله عليه وآله وإلى الأئمّة عليهم السلام، قال الله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ**﴾، وهي جارية في الأوصياء».

أقول: يستفاد من هذه الرواية أنّ الآية الشريفة في مقام الامتنان على هذه الأُمّة، ومعنى تفويض الله تعالى ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وآله ردّ أمر دينه إليه في التطبيق؛ لأنّه جلّ شأنه يعلم أنّ نبيّه صلى الله عليه وآله يحفظ حدود دينه ويثبت قوائمه، وفي الحديث: «فوّض الله إلى النبيّ أمر دينه ولم يفوّض إليه تعدّى حدوده»، وأنّ الأوصياء لم ينفذوا إلّا ما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وآله ممّا أودعه عندهم من الأحكام والمعارف.

وفي «الكافي» بسنده عن موسى بن أشيم، قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «إنّي أريد أن تجعل لي مجلساً، فواعدني يوماً فأتيته للميعاد فدخلت عليه، فسألته عمّا أريد أن أسأله عنه، فبينما نحن كذلك إذ قرع رجل الباب فقال: ما ترى هذه رجل بالباب؟ فقلت: جعلت فداك، أمّا أنا قد فرغت من حاجتي فرأيك، فأذن له فدخل الرجل فجلس ثمّ سأله عن مسائلي بعينها لم يخرم منها شيئاً، فأجابه بغير ما أجابني فدخلني من ذلك ما لا يعلمه إلّا الله. ثمّ خرج فلم يلبث إلّا يسيراً حتّى

استأذن عليه آخر فأذن له فجلس ساعة فسأله عن تلك المسائل بعينها، فأجابه بغير ما أجابني وأجاب الأوّل قبله، فازددت غمّاً حتّى كدت أن أكفر، ثمّ خرج، فلم يلبث إلّا يسيراً حتّى جاء ثالث فسأله عن تلك المسائل بعينها، فأجابه بخلاف ما أجابنا أجمعين، فأظلم عليَّ البيت ودخلني غمٌّ شديد، فلمّا نظر إليّ ورأى ما قد دخلني ضرب بيده على منكي، ثمّ قال: يا ابن أشيم، إنّ الله فوّض إلى ابن داود ملكه فقال: **﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**، وإنّ الله عزّ وجلّ فوّض إلى محمّد ﷺ أمر دينه فقال: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾**، وإنّ الله فوّض إلينا من ذلك ما فوّض إلى محمّد ﷺ».

أقول: لعلّ اتّحاد المسائل من الأشخاص لأنّها كانت من الأمور الشائعة في ذلك الوقت، واختلاف الأجوبة من الإمام عليه السلام، إنّما كان لأجل قرائن حافّة بها لم يفهمها ابن أشيم وعرفها الإمام عليه السلام، أو لأجل طرو عناوين أُخرى يرى عليه السلام المصلحة فيها.

وكيف كان، فقد ظهر ممّا تقدّم الوجه في الرواية.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم»: «أنّ سبب نزول قوله تعالى: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾** أنّ قوماً من الأنصار من بني أبيرق إخوة ثلاثة كانوا منافقين بشر وبشير ومبشر، فنقبوا على عمّ قتادة بن النعمان، وكان قتادة بدرياً وأخرجوا طعاماً كان أعدّه لعياله وسيفاً ودرعاً، فشكى قتادة ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنّ قوماً نقّبوا على عمّي وأخذوا طعاماً كان أعدّه لعياله وسيفاً ودرعاً، وهم أهل بيت سوء وكان معهم في الرأي رجل مؤمن يقال له: لبيد بن سهل، فقالوا: بنو أبيرق لقتادة: هذا عمل لبيد بن سهيل، فبلغ ذلك لبيداً فأخذ سيفه وخرج عليهم، فقال: يا بني أبيرق، أترمونني بالسرقة؟! وأنتم المنافقون تهجون رسول الله وتنسبون إلى

قريش ، لتبينن ذلك أو لأملان سيفي منكم ، فداروه وقالوا له : ارجع يرحمك الله ، فإنّك بريء من ذلك ، فمشى بنو أبيرق إلى رجل من رهطهم يقال له أسيد بن عروة وكان منطيقاً بليغاً ، فمشى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنّ قتادة بن النعمان عمد إلى أهل بيت منّا أهل شرف وحسب ونسب فرماهم بالسرقة واتّهمهم بما ليس فيهم ، فاغتمّ رسول الله ﷺ لذلك وجاء إليه قتادة فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال له : عمدت الى أهل بيت شرف وحسب ونسب فرميتهم بالسرقة ، وعاتبه عتاباً شديداً ، فاغتّم قتادة من ذلك ورجع إلى عمّه ، وقال : يا ليتني متّ ولم أُكلِّم رسول الله ﷺ فقد كلّمني بما كرهته ، فقال عمّه : الله المستعان ، فأنزل الله تعالى في ذلك ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ** ـ الآية﴾» .

أقول : وفي رواية أبي الجارود في ذيل الآية المباركة عن أبي جعفر عليه السلام أنّه لم يصدر منه ﷺ شيء ،هي قال : «إنّ إنساناً من رهط بشير الأدنين قالوا : انطلقوا بنا الى رسول الله ﷺ ونكلّمه في صاحبنا أو نعذره ، إنّ صاحبنا بريء فلمّا أنزل الله تعالى : ﴿**يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ** ـ الآية﴾ ، فأقبلت رهط بشير فقالوا : يا بشير استغفر الله وتب إليه من الذنوب ، فقال : والذي أحلف به ما سرقها إلّا لبيد ، فنزلت : ﴿**وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً**﴾ ، ثمّ إنّ بشيراً كفر ولحق بمكّة ، وأنزل الله في النفر الّذين أعذروا بشيراً ليعذروه قوله تعالى : ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ**﴾» .

والرواية من باب التطبيق ، وإنّ سبب النزول لا يخصّص الآية ، وإنّما هو من باب ذكر أحد المصاديق ، وقريب منها ما ذكره السيوطي في «الدرّ المنثور» ، وأبيرق طائفة من اليهود .

وفي «الدرّ المنثور» عن ابن عبّاس، قال: «إنّ نفراً من الأنصار غزوا مع النبيّ ﷺ في بعض غزواته فسرقت درع لأحدهم، فأظنّ بها رجلا من الأنصار فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال: إنّ طعمة بن أبيرق سرق درعي، فلمّا رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل بريء وقال لنفر من عشيرته: إنّي غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده، فانطلقوا إلى النبيّ ﷺ فقالوا: يا نبيّ الله، إنّ صاحبنا بريء، وإنّ سارق الدرع فلان وقد أحطنا بذلك علماً فأعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه، فإنّه إن لم يعصمه الله بك يهلك، فقال رسول الله ﷺ فبرّأه وعذره على رؤوس الناس، فأنزل الله: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً وَلَا تُجَادِلْ عَنْ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً﴾**، ثمّ قال للذين أتوا رسول الله ليلاً: **﴿يَسْتَخْفُونَ مِنْ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنْ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ** ـ إلى قوله تعالىٰ ـ **وَكِيلاً﴾**، يعني الّذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين يجادلون عن الخائنين، ثمّ قال: **﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾**، يعني سارق والّذين جادلوا عن السارق».

أقول: الرواية من باب التطبيق، وقد ورد هذا المعنى بطرق كثيرة وباختلاف يسير، وأمّا المضمون فهو متّفق عليه، وكلّها من باب الجري لا التخصيص، ولابدّ من تطبيقها على ما لا ينافي العصمة، كما يأتي والله العالم.

وفي «أسباب النزول» للواحدي: «أُنزلت الآية المباركة كلّها في قصة واحدة وذلك أنّ رجلاً من الأنصار يقال له: طعمة بن أبيرق أحد بني ظفر بن الحارث، سرق درعاً من جار له يقال له: قتادة بن النعمان وكانت الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتّى انتهى إلى الدار

وفيها أثر الدقيق، ثمّ خبّأها عند رجل من اليهود يقال له: زيد بن السمين، فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد عنده وحلف لهم: والله ما أخذها وما له به من علم، فقال أصحاب الدرع: بلى والله، قد أولج علينا فأخذها وطلبنا أثره حتّى دخل داره فرأينا أثر الدقيق، فلمّا أن حلف تركوه واتّبعوا أثر الدقيق حتّى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوه، فقال: دفعها إليَّ طعمة بن أبيرق، وشهد له أنّاس من اليهود على ذلك، فقالت بنو ظفر ـ وهم قوم طعمة ـ: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فكلّموه في ذلك وسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا: إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرئ اليهودي، فهمّ رسول الله ﷺ أن يفعل ـ وكان هواه معهم ـ وأن يعاقب اليهودي حتّى أنزل الله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ**﴾».

أقول: تقدّم منّا مكرّراً أنّ منشأ النزول لا يكون سبباً للتخصيص، بل المناط عموم الآية المباركة، فتنطبق على موردها في كلّ عصر وزمان، كما لابدّ من حمل تلك الروايات والآثار على وجه لا تنافي عصمته ﷺ، وإلّا فلابدّ من ردّها إلى أهلها، وأنّه ﷺ همّ أن يفعل وكان الاهتمام لأجل مصلحة وقتيّة، وإلّا كان ﷺ يعلم الحقّ والواقع. وقد وردت في قوله تعالى: ﴿**إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ**﴾ روايات في «الكافي» و«تفسير العيّاشي» ذكرت فيها أسماء أشخاص، كلّها من باب التطبيق وذكر بعض المصاديق.

وعن البيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود، قال: «وكان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح وقد كتب كفّارة ذلك الذنب على بابه، وإذا أصاب البول شيئاً منه قرّضه بالمقراض. فقال رجل: لقد أتى الله بني إسرائيل خيراً، فقال ابن مسعود: ما آتاكم الله خيراً ممّا آتاهم، جعل لكم الماء طهوراً وقال: ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللهَ يَجِدْ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً**﴾».

أقول: ورد مضمون هذا الأثر في رواياتنا الواردة عن الأئمّة الهُداة عليهم السلام،

وصدر الرواية كذيلها يدلّ على التشديد، وقد منَّ الله تعالى على هذه الأُمة المرحومة برفعه، وذكرنا في كتاب الطهارة من (مهذب الأحكام) ما يتعلّق بقرض أبدانهم إذا أصابهم البول. وكيف كان، فإنّه من باب التطبيق.

وفي «الدرّ المنثور» عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «ما من عبدٍ أذنب فقام فتوضّأ فأحسن وضوءه ثمّ قام فصلّى واستغفر من ذنبه، إلّا كان حقّاً على الله أن يغفر له؛ لأنّ الله يقول: **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللهَ يَجِدْ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾**».

أقول: المراد من الحقّ في هذه الرواية وأمثالها أنّه ممّا حقّق عليه القضاء والتقدير، أو أنّه ثبت أو كتب على نفسه، كما في قوله تعالى: **﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾**، أو بمعنى اليقين.

وكيف كان، فالرواية من باب التطبيق.

وفي «تفسير العيّاشي» عن رسول الله ﷺ: «ما من عبد أذنب ذنباً واستغفر الله من ذنبه إلّا كان حقيقاً على الله أن يغفر له؛ لأنّه يقول: **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللهَ يَجِدْ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾**».

وقال: «إن ليبتلي العبد وهو يحبّه ليسمع تضرّعه، وقال: ما كان الله ليفتح باب الدُّعاء ويغلق الإجابة؛ لأنّه يقول: **﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾**، وما كان ليفتح باب التوبة ويغلق باب المغفرة وهو يقول: **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللهَ يَجِدْ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾**».

أقول: تضرّع العبد لدى المولى نحو كمال واستكمال للعبد، لأنّه يكشف عن الانقطاع إليه جلّت عظمته والتوجّه إليه، وفي تأخير إجابة دعاء المؤمن ـ مع قطع النظر عن المصالح ـ نحو استكمال للعبد وشرف له؛ لأنّ الله تعالى يحبّ أن يسمع تضرّعه، هذا هو منتهى الكمال وغاية الشرف له. والمراد، من الحقيق

الجدير، كما هو واضح.

وفي «تفسير العيّاشي» عن عبد الله بن سنان: «قال أبو عبد الله عليه السلام: الغيبة أن تقول في أخيك ما هو فيه ممّا قد ستره الله عليه، فأمّا إذا قلت ما ليس فيه فذلك قول الله: ﴿فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾».

أقول: لابدّ من تقييدها من المغتاب (بالفتح) لا يكون من أهل البدع أو من الّذين أسقط الشارع احترامهم، كما ذكرنا في المكاسب المحرّمة من (مهذب الأحكام). وفي الحديث: «انّ عائشة قالت لامرأة مرّت بها: ما أطول ذيلها، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: اغتبتيها، قومي إليها فتحلليها».

وفي «تفسير علي بن إبراهيم» بسنده عن الحلبيّ عن الصادق عليه السلام: «انّ الله فرض التحمّل في القرآن، قلت: وما التحمّل جعلت فداك؟ قال: أن يكون وجهك اعرض عن وجه أخيك فتحمل له، وهو قول الله: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾».

أقول: المراد من الوجه الرضا لأنّ الشخص إذا أراد شيئاً أقبل بوجهه عليه وإذا كرهه أعرض بوجهه عنه، وإنّ النجوى تنافي المجاملات الأخلاقيّة المفروضة في القرآن، إلّا في ما استثناها الآية الشريفة.

ولعلّ المراد من التحمّل ارتكاب الحيل الشرعيّة في قضاء الحوائج الإخوان، وقد ضبط بالجيم (التجمّل)، وضبط بالحاء (التحمّل)، كما مرّ.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم» عن علي عليه السلام، قال: «إنّ الله فرض عليكم زكاة جاهكم كما فرض عليكم زكاة ما ملكت أيديكم».

أقول: إنّ بذل الجاه في سبيل قضاء حوائج الإخوان تقرّباً إلى الله تعالى من أجلّ المكارم وأسمى الفضائل، ومن الأدب الرفيع الذي حثّ عليه الإسلام، وبه ينبسط العدل على وجه البسيطة وتحصل السعادة القصوى للمجتمع وشرف المنزلة لأفراده؛ ولذا قرنه عليه السلام بأهّم الفرائض التيّ بني عليها الإسلام ويدور عليها

نظام اقتصاده.

وفي «الكافي» بسنده عن أبي الجارود، قال: «قال أبو جعفر عليه السلام: إذا حدّثتكم بشيء فأسألوني عنه من كتاب الله، ثمّ قال في بعض حديثه: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عن القيل والقال وفساد المال وكثرة السؤال، فقيل له: يا بن رسول الله، أين هذا من كتاب الله؟ قال: إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿**لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾، و قال: ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً**﴾، وقال: ﴿**لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾».

أقول: هذا النهي تنزيهي وإرشادي وتربوي، وقد أثبت العلم الحديث مضمون هذه الرواية وأكّد على النظام والهدوء والصمت وعدم الإسراف على الإطلاق.

وكيف كان، فالرواية من باب التطبيق.

وفي «الدرّ المنثور» عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «ومَن سرّه أن يسلم فليلزم الصمت».

وعن البيهقي في وصية النبيّ صلى الله عليه وآله لأبي ذر: «أُوصيك بتقوى الله، فإنّه أزين لأمرك كلّه، قلت: زدني، قال صلى الله عليه وآله: عليك بتلاوة القرآن وذكر الله، فإنّه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض. قلت: زدني، قال: عليك بطول الصمت، فإنّه مطردة للشيطان وعون لك على أمر دينك، قلت: زدني قال: وإيّاك وكثرة الضحك، فإنّه يميت القلب ويذهب بنور الوجه، قلت: زدني، قال قل الحقّ ولو كان مرّاً، قلت: زدني قال: لا تخف في الله لومة لائم، قلت: زدني، قال: ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك».

أقول: هذه الوصية جامعة لخير الدُّنيا ونعيم الآخرة، وبها ينال الإنسان

شرف العبوديّة وكمال الانقطاع إليه جلّ شأنه ويزيد عرفان العبد وفضله وتقواه ويصلح المجتمع عن كلّ عيب، وقد مدح الصمت في كثير من الروايات، فإنّ المؤمن العارف والمتوجّه يكون كلامه صمتاً وصمته كلاماً، وببالي كان بعض مشائخنا من أهل العرفان والتوجّه كثير الصمت وكثير الذكر، وقد ظهرت على يديه كرامات كما شاهدناها.

وفي «تفسير العيّاشي» بسنده عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ يعني بالمعروف القرض.

أقول: الروايات في ذلك مستفيضة بين الفريقين، وهو من باب ذكر أحد المصاديق.

وفي «الدرّ المنثور» عن سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: «قلت: يا رسول الله مرني بأمر اعتصم به في الإسلام، قال: قل: آمنت بالله، ثمّ استقم، قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ قال: هذا، وأخذ رسول الله بطرف لسان نفسه».

أقول: الروايات في مدح الصمت كثيرة بين الفريقين، فعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «من سرّه أن يسلم فليلزم الصمت».

وعن البيهقي بسنده عن أنس: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لقي أبا ذر فقال: ألا أدلك على خصلتين هما أخفّ على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما؟ فقال: بلى يا رسول الله، قال: عليك بحسن الخلق وطول الصمت، والذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلها».

أقول: ورد مضمون هذه الرواية عن أئمّتنا عليهم السلام أيضاً، وعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «إنّ أكثر خطايا ابن آدم في لسانه».

العيّاشي بسنده عن أحدهما عليهما السلام، قال: «لمّا كان أمير المؤمنين عليه السلام في

الكوفة أتاه الناس فقالوا: اجعل لنا إماماً يؤمنا في شهر رمضان، فقال: لا، ونهاهم أن يجتمعوا فيه، فلمّا أمسوا جعلوا يقولون: ابكوا في رمضان، وارمضاناه، فأتاه الحارث الأعور في أُناس فقال: يا أمير المؤمنين، ضجّ الناس وكرهوا قولك، فقال عند ذلك: دعوهم وما يريدون، ليصلّي بهم مَن شاء وائتم قال تعالى: **﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾**».

أقول: لعلّ نهيه عليه السلام إمّا لأجل عدم مشروعيّة الجماعة في النوافل، كما ثبت عندنا، أو أنّ النهي كان موقّتاً لمصالح كان يراها وبعدما رأى عدم الانقياد منهم خلّى سبيلهم.

وكيف كان، فالرواية من باب التطبيق.

وهناك بعض الروايات يدلّ على أنّ من اتّخذ إماماً وولّاه في هذه الدُّنيا، يكون إمامه في يوم الجزاء واستشهد فيها الآية المباركة، ولكن ذلك كلّه من باب التطبيق كما هو معلوم.

وعن البيهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن عمر قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾**: لا يجمع الله هذه الأُمّة على الضلالة أبداً ويد الله على الجماعة، فمَن شذّ، شذّ في النار».

أقول: على فرض صحّة الحديث لابدّ وأن يكون الاجتماع على أمر لم يكن مخالفاً لكتاب الله والعظيم وسنّة نبيّه الكريم، وإلّا فلا عبرة به وأن يكون المجتمعين من أهل الخبرة والمتدينين، وفي حجيّة الإجماع الذي هو أحد الأدلّة التي يعتمد عليها المجتهد شرائط ذكرناها في كتابنا (تهذيب الأُصول)، من شاء فليرجع إليه.

***

بحث أخلاقي:

المعروف: كلّ ما يستحسنه العقل ويقرّره الشرع من أصناف الجميل وأنواع

البرّ ومكارم الأخلاق ، فهو في مقابل ما تكرهه النفوس ـ سواء كان مشتملاً على رجحان أم لا ـ فيعمّ الواجب والمندوب وغيرهما ممّا يدخل في الحُسن .

وللمعروف مراتب أحسنها ما كان فيه الصلاح والإصلاح ـ بلا فرق بين أن يتعلّق بالفرد أو الأُسرة بأقسامها ـ وأسماها ما كان فيه صلاح المجتمع وإصلاحه ، وقد عدّ من المعروف ، كما في بعض الروايات مالو كان فيه صلاح الحيوان ، أو ما فيه نفع يعود له أو يحميه من الأذىٰ .

والجميل قد لا يختلف فيه أحد واتّفق العقلاء على حسنه وبمدح فاعله ، كإغاثة الملهوف ، وإصلاح ذات البين ، أو الخدمات التي فيها نفع المجتمع ، وقد لايكون كذلك فيتّصف بالإضافة لا محالة ، وحينئذ لابدّ وأن يرجع إلى القوانين الشرعيّة ، فما وافقها ولم تنكره فهو من المعروف ، وإلّا فلا يكون منه لا حتوائه على مفسدة أو ضررو إن لم يدركا فعلاً؛ لما ثبت في محلّه أنّ الأحكام الشرعيّة تابعة للمصالح والمفاسد وإن لم يكشف العقل المادّي عنهما .

والترغيب إلى فعل المعروف يعمّ جميع المجتمعات الإنسانيّة والأديان السماويّة بل الملل المستحدثة المختلفة ، فيمكن أن يقال : إن إقامة المعروف نحو حقّ على أفراد المجتمع ـ تحكم به الفطرة الخالصة ـ لأجل سوق مجتمعهم إلى الكمال المنشود ، و لإصلاحه عن الطوارئ الفاسدة ، وهذا الحقّ ثابت على أفراده ما لم يتحقّق الهدف المقصود، ولم تحصل الصلة المفقودة، ولم تثبت السعادة المنشودة لذلك بالمجتمع .

أقسام المعروف:

يختلف المعروف حسب اختلاف الفقر والحاجة إليه :

فتارةً : يكون الاحتياج شخصيّاً وفرديّاً ، سواء كان ذلك من الكمالات المعنويّة أو المظاهر الخارجيّة .

وأُخرى: يكون نوعيّاً عامّاً.

وفي كلّ منهما قد يكون المعروف خلقيّاً وقوليّاً أو غيرهما، ولجميع ذلك مراتب وآثار خاصّة.

والمعروف قد يصدر من الإنسان عن شعور واختيار ـ سواء كان بباعث ديني أو إلهام سماوي ـ وقد لا يكون ذلك، فجميع أقسامه حسن إلّا أنّ ما فيه الإخلاص لله جلّ شأنه يكون أكثر نفعاً وأطول زماناً وأشدّ تقرّباً له عزّ وجلّ.

آثار المعروف:

يستفاد من الأحاديث الواردة عن المعصومين عليهم السلام في شأن المعروف ومدحه والترغيب إليه أنّ له آثاراً وضعيّة تخصّ صاحبها وفاعلها لا تنالها يد الاختيار، وأنّها تترتّب على المعروف كترتّب الأثر على المقتضي التامّ.

بل يمكن إقامة الدليل العقلي على ذلك لأنّ الأفعال الحسنة التي تصدر عن الإنسان تخلّف في نفس عاملها آثاراً خاصّة وحالات مخصوصة، توجب ارتياح النفس وبُعدها عن القلق النفسي الموجب للأمراض المتنوّعة، على خلاف الأفعال السيّئة التي تخلّف التأنيب الضميري والصراع النفسي، كما أثبتها علماء النفس قديماً وحديثاً، فمَن كان صادقاً ـ مثلاً ـ في كلامه دائماً أو يغمض عن إساءة الغير له ويعفو عنه ولا يكون في مقام الانتقام، يشعر بالراحة النفسيّة ويكون بعيداً عن الضيق والهمّ النفسي، وفي الحديث عن الصادق عليه السلام: «صنايع المعروف تدفع ميتة السوء»، وعنه عليه السلام أيضاً: «صنايع المعروف تقي مصارع الهوان»، أي الذلّ، وغيرهما من الأحاديث. وفي المؤثور عن بعض الصلحاء: «إنّ امرأة وضعت لقمة في فم سائل ثمّ ذهبت إلى مزرعتها فوضعت ولدها في موضع فأخذه الذئب، فقالت: يا ربّ ولدي، فأخذ عنق الذئب رجل واستخرج ولدها من غير أذىً، ثمّ

قال: هذه اللقمة بتلك اللقمة التي وضعتها في فم السائل»، فآثار المعروف تظهر على صاحبه في هذه الدُّنيا قبل الآخرة.

نعم، للزمان فيها دخل قد يؤجّل لمصالح لا يعلمها إلّا الله تعالى.

وأمّا آثار المنكر والقبيح قد تظهر على صاحبه وقد تؤجلّ إلى عالم الآخرة، فإنّ مقتضى رحمته تعالى أنّه عزّ وجلّ يظهر الجميل ويستر القبيح، وأنّ أثره القبيح قبيح يستره الله ويؤجّله إلى دار الآخرة والخلود.

عوائق المعروف:

لا شك أنّ الفطرة المستقيمة الإنسانيّة تميل إلى المعروف وإقامته والى الجميل وصنعه، وإلى البر وفعله ما لم تعوقها السبل عن مسيرها الاستكمالي، فعن الله تبارك وتعالى في القدسيات: «خلقت عبادي حنفاء»، أي مستعدّين لقبول الحقّ وإقامة المعروف، فالفطرة بخلقتها الأوليّة قابلة للترقي بالتربية والوصول إلى أعلى مراتب الكمالات وأسماها بالإرادة والاختيار، ويتحقّق ذلك بفعل المعروف وبثّه وترك المنكر وإزالته.

كما أنّ الفطرة لها قابليّة النزول عن خلقتها المستقيمة مع الإرادة والاختيار بالانحراف الذي يحصل من أُمور أهمّها حبّ البقاء، و الجهل، والخوف، وحبّ والمال، ويجمعها «حبّ الدُّنيا»، وهوالسبب لتنزّل الفطرة تدريجياً وبلا شعور ـ كما في الروايات ـ عن استقامتها المنفطرة بقوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

والأسباب كلّها ـ سواء كانت للرقي أو للنزول ـ إراديّة اختياريّة، ولو كان هناك أسباب غير اختياريّة، فإنّها ترجع بالأخرة إلى الاختيار وإن كان مع الواسطة أو الوسائط، كما ذكرنا في أحد مباحثنا السابقة.

ومن عوائق المعروف والمانع عن تحقّقه الذنوب التي توجب البُعد عن

ساحته تعالى، وتطمس نور الفطرة، وتكون صدّاً في الطريق إلى الكمال ومانعاً عن الاستكمال، وللبحث ذيل يأتي في الموضع المناسب إن شاء الله تعالى بعد رفع هذه الشدائد، وكشف هذه الغمّة، وزوال الظلم وأهله بحوله وعنايته، إنّه هو الرؤوف الرحيم.

***

بحث عرفاني:

الأفعال الصادرة عن الإنسان في حقيقتها ـ تكون كالأشياء النامية ـ لها صورة خارجيّة وروح يمتاز بها عن أفعال سائر الحيوانات، فالإنسان الذي هو أشرف المخلوقات في عالم الإمكان مركّب في واقعه من جسم وروح، وكذا أفعاله لها صورة ـ وهي عبارة عن ما يتشخّص في الذهن من الكيفيّات، وهذا يعمّ جميع أفعال الحيوانات ـ وروح يتفرّد بها عن بقيّة الحيوانات، وهي أمر معنوي يحصل من التوجّه إلى الباري جلّ شأنه والسوق إلى الخالق جلّت عظمته ـ ولا ربط له الإرادة ـ وأثره إفراد القلب له تعالى بارتباطه إلى ساحة كبريائه والتبرّي عن كلّ ما دونه تعالى، وهو الباعث لتحقّق الإضافة إليه تعالى، التي هي السبب لتحقّق الفعل خارجاً، وإذا وجد الفعل بدونها كان مجرّد صورة، كالأفعال التعليميّة.

ويعبّر عنه في الكتاب والسنّة بالإخلاص في الأفعال العباديّة أو المضافة إليه تعالى، المتفرّد بها الإنسان عن غيره، قال تعالى: ﴿**فَاعْبُدْ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[2]، فكما لا قيام للأشباح إلّا بالأرواح وإلّا كانت ميتة ساقطة، كذلك الأعمال العباديّة،

---

١. سورة الزمر: الآية ٢.

٢. سورة البيّنة: الآية ٥.

فلولا الإخلاص والروح المعنوي فيها كانت مجرّد شبح وهيكل. ومراتب الإخلاص كدرجاتها تختلف حسب درجات الإيمان، كما يأتي.

حقيقة الإخلاص:

وهي من الحقائق المحجوبة ولا تعرف إلّا بالأثر، ولا يمكن وصفها وإن أدركها العرفاء الشامخون، فإنّها تشرق على القلب وتنوّر النفس ويتشرّف المؤمن بالإخلاص إلى أعلىٰ مراتب الكمال بلذّة ذلّ العبوديّة له تعالى، وبه يخرق الحجب ويصل إلى معدن العظمة، فعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «إنّه سئل عن الإخلاص فقال صلى الله عليه وآله: حتّى اسأل جبرائيل، فلمّا سأله قال: اسأل ربّ العزّة، فلما سأله قال له: هو سرّ من أسراري أودعه قلب مَن أحببت من عبادي، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده»، وعن سيد العرفاء أمير المؤمنين عليه السلام: «هو أن تعبد الله كأنّك تراه»، فحقيقة الإخلاص يدركها الخلّص من عباده، ولكنّها لا توصف، والإخلاص من أعلى مراتب التفويض.

درجات الإخلاص:

كما أنّ للعبوديّة درجات، ولكلّ منها مراتب، ولكلّ مرتبة منزلة حسب درجات الإيمان ومراتب المعرفة ومنازلهما، وأنّ التقرّب لديه جلّ شأنه يحصل بجميعها، وأنّ أسمى المراتب وأعلى الدرجات قبوله عزّ اسمه بالعبوديّة ـ وإن كان للقبول مراتب أيضاً ـ فإنّه هو الفوز العظيم، فعن بعض العرفاء: «قيل له بعد وفاته ـ في الرؤيا ـ: كيف حالك مع المَلَكين (النكير والمنكر)؟ فقال: لمّا قالا لي: مَن ربّك؟ قلت لهما: اسألا ربّي، فإن قال: هو عبدي وأنا ربّه، يكفي، وإلّا فلو قلت: هو ربّي و أنا عبده مراراً لا يفيد بلا قبوله»، كذلك للإخلاص له درجات، وفي كلّ

منها مراتب، وفى كلّ مرتبه أنواع أهمّها وجامعها أقسام ثلاثة: إخلاص العوام، وإخلاص الخواص، وإخلاص أخصّ الخواص. وإن شئت قلت: مطلق الإخلاص، وإخلاص المحبّين، وإخلاص الموحّدين.

والأوّل: هو الإخلاص في العبادة لأجل الحظوظ ـ سواء كانت دنيويّة أم أُخرويّة ـ كحفظ البدن وسعة المال والقصور والحور.

والثاني: لأجل السعادة الأُخرويّة والدخول في الجنّة دون الحظوظ الدنيويّة.

والثالث: هو إخراج الحظوظ بالكليّة، بل الإخلاص لأجل جنّة الشوق بالقرب له جلّت عظمته: «و فؤادي ليس فيه غيره».

ولكلّ من هذه الأقسام مراتب كما مرّ، وأنّ جميعها حسن إلّا أنّ أسماها وأعلاها القسم الأخير، وفي دعاء كميل: «هب لي صبرت على حرّ نارك، فكيف أصبر على فراقك»، وعن سيّد العرفاء المتألّهين الشامخين أمير المؤمنين عليه السلام: «إلٰهي عبدتك لا خوفاً من نارك ولا طمعاً لجنّتك، بل رأيتك أهلاً لذلك فعبدتك»، وعن بعض العرفاء المتألهين:

ليس سؤلي من الجنان نعيماً غير أنّي أحبّها لأراكا

ولهذا القسم درجات ومراتب، نسأل الله العظيم الفوز بمرتبة منها، ولا تنال هذه النعمة الكبرى إلّا لمن عصمة الله تعالى وأمدّه بحقّ اليقين بالتجلّي له، وكشف الأسرار له بإفاضة العلوم عليه، وقرّبه إلى ساحته بخلع الأنداد عنه، وكرّمه بتطهير النفس بمخالفة الهوى ونبذ الأغيار، وشرّفه بالرقي إلى مقام عرفانه بالتوجّه إليه والقرب لديه.

منافيات الإخلاص:

الصفات الحميدة تقابلها الحالات السيّئة، وتفسدها الصفات المنافية لها،

فالشجاعة مثلا يفسدها الخوف؛ لأنّه ينافيها ولا يمكن الجمع بين المتنافيين في النفس، وكذا القناعة ينافيها الحرص والجشع، كما أنّ الزهد ينافيه طول الأمل، وكذا غيرها من الصفات.

والإخلاص ينافيه أُمور كثيرة؛ لأنّ سبب الإخلاص لله تعالى المعرفة والخوف، فإذا زال أحدهما لم يتحقّق الإخلاص. وأهمّ ما ينافي الإخلاص أُمور:

منها: الريا ـ نستجير بالله العظيم منه ـ فعن نبيّنا الأعظم ﷺ عن الله تعالى في القدسيات: «أنا أغنى الشركاء، من أشرك معي غيري تركته لغيري»، وعنه ﷺ: «أخوف ما أخاف على أُمّتي الشرك الخفي، وهو الريا»، وغيرهما من الروايات، وأنّه دقيق جدّاً، «أدق من دبيب النمل في صخرة ملساء»، وسببه حبّ الدُّنيا بأقسامه، وللتخلّص منه طرق كثيرة لا يسع المجال للتعرّض لها.

ومنها: العجب بالعمل، فإنّه مناف للإخلاص وقادح في كمال العمل، وقد ورد في ذمّه روايات كثيرة.

ومنها: الاستهانة بالعمل ـ تحقيره ـ كما دلّت عليه روايات كثيرة.

ومنها: الإيكال في الأُمور على غيره تعالى، سواء كان على النفس أو غيرها.

ومنها: التعمّق في حكمة الأشياء والبحث عن حِكَم الأحكام الشرعيّة، فإنّه منافٍ للإخلاص، كما دلّ عليه بعض الروايات، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «إيّاكم والغلوّ في الدِّين»، أي البحث عن عللها وغوامض متعبداتها، وعن بعض مشايخنا من أهل العرفان ادّعاء التجربة في ذلك.

ومنها: عدم الثقة بالله العظيم، فإنّ ذلك مناف للإيمان، فكيف بالإخلاص، وإنّه من المعاصي الكبيرة على ما فصّل في محلّه.

وهناك أُمور أُخرى منافية للإخلاص، ذكرها علماء الأخلاق ومشائخ العرفان في كتبهم ورسائلهم، ومَن شاء فليرجع إليها.

الفرق بين الرضا والإخلاص :

تقدّم أنّ للإخلاص مراتب ، أدناها مرتبة الرضا ، بل هو كتمهيد له؛ ولذا أنّ الإخلاص يتضمّن الرضا ولا عكس ، هذاكلّه في العبيد . وأمّا رضائه تعالى ، فهو عين محبّته ، وإنّ محبّته عين إخلاصه ، فلا يمكن التفكيك بينهما .

وممّا ذكرنا يظهر أنّ للرضا مراتب ودرجات ، وأنّ أسماها هو التفويض ، وأنّ أعلى مراتب التفويض الإخلاص ، الذي هو مختصّ بالأولياء والصالحين .

وأنّ الصفات الحسنة المذكورة في الآية المباركة من الصدقة والمعروف ، والإصلاح بين الناس ، إذاكانت صادرة لابتغاء مرضاته تعالى وخالصاً لوجهه الكريم ، كان ذلك مظهراً من مظاهر أسمائه ، ويكون أدوم وأنفع للمجتمع ـ كما تقدّم ـ وإلّا فالأمر إضافي .

***

الآية ١١٦ ـ ١٢٢

﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ﴿١١٦﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذْ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً ﴿١٢٠﴾ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللهِ قِيلاً ﴿١٢٢﴾﴾.

بعدما بيّن سبحانه وتعالى أمر مشاقّة الرسول الكريم ﷺ، وأنـّها توجب صدّ الإنسان عن الكمال وصرف رحمته عزّ وجلّ عنه، فيكله إلى نفسه ويخلّيه بينه وبين ما اختاره.

يبيّن جلّ شأنه في هذه الآيات المباركة العلّة في ذلك؛ لأنّ مشاقّة الرسول ﷺ يعدّ شركاً بالله العظيم، والله لا يغفر لمَن يشرك به، فهذه الآيات الشريفة ترشد إلى عظم أمر مشاقّة الرسول ﷺ وتعدّها من المعاصي الكبيرة العظيمة التي تؤدّي صاحبها إلى الهلاك والبوار، وأنّ صاحبها لا يغفر له أبداً، ويؤكّد ذلك قوله تعالى في موضع الآخر: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ**

وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾[1]، ثمّ تتعرّض إلى بعض أحوال المشركين، ويبين عزّ وجلّ فيها أنّ الشرك من وسائل كيد الشيطان وخدعه وأمانيه.

وتعدّ هذه الآيات الشريفة من أجلّ الآيات القرآنيّة التي تبيّن حقيقة الشيطان، ثمّ يبيّن عزّ وجلّ بعض أحوال المؤمنين الّذين عملوا الصالحات، وما أعدّ الله لهم من عظيم الأجر تذكيراً وترغيباً للإيمان والعمل الصالح وتتميماً للفائدة وتذكيراً للمشركين وتنويهاً لهم بسوء أحوالهم، ولبيان الفرق بين الوعدين، وعد الشيطان الذي هو الغرور، ووعد الله تعالى وهو الحقّ الواقع الذي لا يخلف.

ولا يخفى ارتباط هذه الآيات الشريفة بالآيات المباركة السابقة.

***

التفسير

قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾**.

تعليل لما سبق، أي أنّ الله تعالى يولّي من شاقّ الرسول ما تولّى ويصليه جهنّم؛ لأنّ المشاقّة شرك بالله العظيم، وأنّ الله تعالى لا يغفر أن يشرك به إذا مات على الشرك؛ لأنّه السبب في صدّه عن الكمال وتخليته عزّ وجلّ بينه وبين ما تولّاه، ومن المعلوم أنّ الإنسان قرين الفقر والحاجة، والشيطان يصدّه عن سبيل الحقّ ومسير الاستكمال، إلّا مَن هداه عزّ وجلّ فاهتدى بهدايته استكمل بما يريده تعالى، وأمّا إذا رفع جلّ شأنه توفيقه عن عبده بسبب الشرك فصدّه عن الهداية، فلا يوجد سبيل إلى الكمال، فيكون الشرك من أهمّ الموانع عنه، بل هو أصلها، ولذا

---

١. سورة محمّد: الآية ٣٢ ـ ٣٤.

كان سبباً في عدم غفران الله تعالى له أبداً؛ لأنّه ضلال وخروج عن طاعة الله والانقياد لرسوله، وميل عن التوحيد الذي هو أصل الدين وأساس كلّ كمال، وكفى بذلك صارفاً عن الغفران ونيل كلّ توفيق وهداية.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً﴾.

تعليل لعدم غفران الله تعالى للمشرك؛ لأنّ الشرك يوجب الضلال والبُعد عن الصراط المستقيم، وفيه فساد للعقل والفطرة ورجوع عن سبيل الرشد، فلا يجتمع معه خيرا أو خلق كريم، بل لا يمكنهما أن يضعا مفاسد الشرك وشروره، فلا يكون مؤهّلاً لنيل رحمته والعروج إلى جواره عزّ وجلّ؛ ولذا وصفه تعالى بالضلال البعيد لعظم أثره وشدّته.

وتقدّم مثل هذه الآية الشريفة في هذه السورة أيضاً؛ ولعلّ الوجه في تكرارها ـ والله العالم ـ إمّا لأجل بيان أهمّية الشرك وعظم أمره. أو للإعلام بأنّه الأصل في صدّ الإنسان عن الكمال، وعائق كبير عن تهذيب النفس وتحليتها بالمكارم والفضائل.

وإمّا لبيان الآثار المترتّبة على الشرك بالله العظيم، فقد ذكر عزّ وجلّ في الآية المباركة السابقة أنّ الشرك سبب للافتراء والكذب؛ لأنّه يوجب الإعراض عن داعي الفطرة الذي يدعو إلى التوحيد، الذي هو أساس كلّ دين، وهذا هو الافتراء والكذب؛ لأنّه تغرير للنفس وإبطال لجميع المعارف الإلهيّة، وإعراض عن كلّ خلق كريم، ومانع عن التخلّق بالأخلاق الإلهيّة. وفي هذه الآية الشريفة يبيّن عزّ وجلّ أثراً آخر من آثار الشرك، وهو الضلال البعيد، أي إبعاد للإنسان عن كلّ هداية تكوينيّة وتشريعيّة. وصرف له عن الفطرة المستقيمة الداعية إلى الاستكمال بالكمالات الواقعيّة.

وإمّا للإشارة إلى نبذ الشرك بجميع أقسامه، الشرك في الذات والفعل

والعبادة، وقد تكفّلت الآية السابقة لنفي الشرك في الذات والعبادة، وفي المقام يبيّن نفي الشرك في الذات والفعل.

وبأحد هذه الوجود يمكن رفع التكرار، مع أنّه لا تكرار لاختلاف الموردين، فراجع تفسير الآية الكريمة المتقدّمة أيضاً.

قوله تعالى: **﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً﴾**.

بيان للآية المباركة السابقة؛ ولذا ترك العطف بينهما. ومادة (أ ن ث) في جميع اشتقاقاتها تدلّ على الانفعال والتأثّر، يقال: أنث الحديد أنثاً، أي انفعل وتأثّر فَلان. وأنّث لمكان إذا تأثّر وأسرع في الإنبات وجاد، وسمّي الأُنثى من الحيوان أُنثى لأنّها المنفعلة، كما أنّ الأصنام والأوثان وكلّ معبود دون الله تعالى سمّيت إناثاً لكونها منفعلات قابلات، ليس في وسعهن أن يفعلن أمراً، وعاجزات لا تدفع عن أنفسهن شيئاً، قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾**[1]، وقال تعالى في حقّهن: **﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً﴾**[2]، ويستفاد من هذه الآيات المباركة انفعال كلّ مخلوق ما سوى الله تعالى، فإنّ الله هو القوي العزيز وما سواه ضعيف عاجز لا يملك لنفسه شيئاً؛ لأنّ الموجودات بإضافة بعضها إلى بعض ثلاثة أقسام: فاعل غير منفعل أصلاً، وهو الله سبحانه وتعالى فقط. ومنفعل غير فاعل، وهو الجمادات. وفاعل من وجه ومنفعل من وجه آخر كالملائكة والإنس والجنّ،

---

١. سورة الحج: الآية ٧٣ ـ ٧٤.

٢. سورة الفرقان: الآية ٣.

فإنّهم بالإضافة إلى الله منفعلة لكنهم مخلوقين، وبالإضافة إلى مصنوعاتهم فاعلة.

ويؤيّد ما ذكرنا أنّ العرب كانت تصف كلّ ضعيف بالأُنوثة، ولعلّ تسميتهم لمعبوداتهم بأسماء الأُنثى لكونها جمادات منفعلة لا فعل لها، كما حكى سبحانه وتعالى عنها في القرآن الكريم، وهو جلّت عظمته يذكرّهم بانفعالها، وينبّههم على جهلهم وعدم قدرتها؛ ليظهر بطلان أُلوهيّتها.

وقد وردت هذه المادة في القرآن الكريم في ما يقرب من ثلاين موضعاً، قال تعالى حكاية عن امرأة عمران عليها السلام: **﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾**[3].

وغيرهما من الآيات الكريمة.

ويستفاد من الحصر والعموم في قوله تعالى: **﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً﴾** أولوية ما ذكرناه من غيره ممّا ذكره المفسّرون، فإنّه عزّ وجلّ يصف ما يعبدون من دونه بكونها أُناثاً، وإن كان ذكراً غير أنثى كعيسى المسيح عليه السلام، أو بوذا، أو برهما، وغيرهم ممّن ادّعوا الأُلوهيّة فيهم، لكونهم ضعفاء عاجرين عن تحقيق أماني ومقاصد مَن يعبدونهم.

وممّا ذكرنا يظهر ضعف ما ذكره المفسّرون في تفسير هذه الآية الشريفة:

---

١. سورة آل عمران: الآية ٣٦.

٢. سورة النجم: الآية ٢١.

٣. سورة النحل: الآية ٥٨.

فقيل: بأنّ المراد بالأُناث اللات والعزى ومنات الثالثة وغيرها من الأصنام التي كانت للعرب، فإنّهم كانوا يسمّون كلّ صنم تسمية الأُنثى، ويقولون أُنثى بني فلان، وكانوا يجعلون عليه الحُليّ وأنواع الزينة كما يفعلون بالنسوان.

وقيل: المراد بها الملائكة.

وقيل غير ذلك ممّا لا دليل عليه، مضافاً إلى كونه تخصيصاً للآية الشريفة بغير وجه.

وكيف كان، فإنّ في هذا التعبير شدّة الإهانة والتكبيت لمعبوداتهم، والإعلام بضعفها ونفي خيرها، وانحطاط منزلتها، كما يدلّ على غاية الحماقة وتناهي جهلهم، حيث يعبدون ما هو منفعل لا يقدر على شيء، ويَدَعون القوي العزيز الفعّال لما يريد، ويشمل أيضاً كلّ معبود من دون الله تعالى وإن اختلفت المظاهر والأشكال والأفراد، فإنّه ممّا لا شك فيه أنّ مظاهر العبادة تتغيّر وتختلف، فلم يعد هناك تلك الأصنام الأُناث التي كانت العرب يعبدونها، وقد حلّت محلّها عبادة الذات والمذهب والدولة والجنس، والمجتمع والعنصر، والوطن، والقوميّة، والحرية، والإنسانيّة، والحضارة، ونحوهما من عشرات الأُناث التي تضاف إليها القداسة والنزاهة، فتُعبد من دون الله تعالى، وتُطاع وتُخالف فيها أحكام الله العظيم وشريعتة المقدّسة، ويتغيّر فيها خلق الله تعالى، كما نرى عليها في الجاهلية المعاصرة، فتتّحد الجاهليّتان الأُولى والأخيرة في عبادة الشيطان التي لم تتغيّر وإن تغيّرت المظاهر وتطوّرت، ويدلّ على ذلك تعقيب هذه الآية الشريفة ببيان حقيقة الشيطان وبيان خطواته المتتابعة التي يستحوذ بها على عباد الله تعالى؛ لأنّ جميع تلك المظاهر في مرّ العصور تحكي عن غواية الشيطان وإضلاله للعباد.

قوله تعالى: **﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً﴾**.

بيان للآية الشريفة السابقة، أي أنّ طاعتهم للإناث ليست إلّا هي عبادة

للشيطان المريد وطاعته.

والتعبير عن العبادة والطاعة بالدعاء، لبيان أنّ عبادتهم مجرّد دعاء صادر حين الحاجة وليست هي واقعيّة، كما في عبادة الواحد الأحد، وقد عبّر سبحانه وتعالى عن طاعة الشيطان بأنّها عبادة في قوله تعالى: **﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾**[١].

والشيطان: يطلق على كلّ فاسد خبيث من الجنّ والإنس، ويسمّى كلّ خلق ذميم للإنسان شيطاناً، وفي الحديث: «الغضب الشيطان، والحسد شيطان»، وقد يطلق على إبليس (لعنة الله تعالى عليه) كما في المقام. وتقدّم الكلام في اشتقاق هذه المادّة وأنّها من شطن، أي البُعد عن الخير، إن قلنا إنّ نون الشيطان أصليّة، وإن جعلتها زائدة كان من شاط، إذا هلك أو استشاط غضباً إذا احتد فيه والتهب. والأوّل أصحّ كما تقدّم.

ومادة (مرد) تدلّ على التجرّد والملاسمة، يقال: شجر مرد، أي الذي تناثر ورقه وتعرّى منه. ويقال: «رملة مرداء»، أي لم تنبت شيئاً فيها وتجرّدت عن الزرع، ومنه قوله تعالى: **﴿صَرْحٌ مُمَرَّدٌ﴾**[٢]، أي أملس كما أنّ منه: غلام أمرد، إذا عرى الشعر عن ذقنه وعارضيه، ومنه قوله تعالى: **﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾**[٣]، أي تجرّدوا للنفاق واعتادوا عليه، وفي الحديث: «إنّ أهل الجنّة جُرُد مُرُد»، ومعنى الحديث: أنّ أهل الجنّة في غاية الكمال والجمال، فعلى بعض أماكن بدنهم الشعر كالساعدين والساقين والمَسْرُبة (ما دقّ من شعر الصدر إلى السرة) لأنّ ضدّ الأجرد الأشعر، وهو الذي على جميع بدنه الشعر، كما أنّهم «مُرُد» أي:

---

١. سورة يس: الآية ٦١.

٢. سورة النمل: الآية ٤٤.

٣. سورة التوبة: الآية ١٠١.

مجرّدون ومُعرّون عن الشوائب والقبائح، ظاهريّة كانت أو معنويّة، قال تعالى: **﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾**[١].

والمريد: فعيل من مرد، وسمّي الشيطان مريداً؛ مبالغة في التجرّد عن كلّ خير، فصار عاتياً خارجاً عن الطاعة، أو مبالغة في التلبّس بالشرّ.

قوله تعالى: **﴿لَعَنَهُ اللهُ﴾**.

وصف آخر، وهو البعد عن رحمته عزّ وجلّ، واللّعن هو الإبعاد عن الرحمة مقترناً بسخط وغضب، ويحتمل أن تكون الجملة بمنزلة التعليل للوصف الأوّل، أي أنّه عتى وخرج عن طاعة الله تعالى، لأنّه عزّ وجلّ طرده عن كلّ خير وأبعده عن رحمته، ويحتمل أن تكون مستأنفة على الدُّعاء، لأنّه فعل ما يستحق اللّعن والطرد، كما أنّ قولهم: «أبيتَ اللّعن»، أي ما فعلت ما تستحق اللعن به، فحينئذ لا موضع لها من الإعراب.

قوله تعالى: **﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾**.

الأتّخاذ: هو أخذ الشيء على وجه الاختصاص. والنصيب: السهم والحصّة من الشيء، وهو مبهم لا يتبادر منه القلّة أو الكثرة، إلّا مع القرائن الحافّة. وفي المقام يراد منها الكثرة، قال تعالى حكاية عن إبليس: **﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾**[٢]، وقال تعالى: **﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾**[٣]، وقد ذمّ تعالى الكثرة في كثير من المواضع كما مدح القلّة، قال

---

١. سورة الحجر: الآية ٤٧.

٢. سورة ص: الآية ٨٢ ـ ٨٣.

٣. سورة يوسف: الآية ١٠٦.

تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[١].

والمفروض : من الفرض ، وهو القطع من الشيء الصلب أو التأثير فيه ، يقال : فرض الحديد وفرض الزند ، ولا يقال : فرض القرطاس وإنّما يقال : قطع ، ولعلّ التعبير به لأنّ متابعة الشيطان خلاف الفطرة الاستقامة .

وكيف كان ، فالمعنى : ولأجعلن من عبادك حظّاً مقدّراً ، اختصّ به مقطوعاً عمّن سواه ، وهم الّذين يتّبعون خطات الشيطان الّذين اقتطعهم الشيطان عن غيرهم من عباد الله تعالى .

ويستفاد من ذلك أنّ لهم جذوراً عميقة في التوحيد ، فإنّ لهم فطرة مستقيمة وعقلاً داعيين إلى التوحيد والصراط المستقيم ، وهما ركيزتان يرتكز عليهما الإنسان في صراعه مع الشهوات وداعي الشرّ ، فلابدّ أن يكون فعل الشيطان قويّاً وذا خطوات متتابعة لإضعاف هاتين الركيزتين وطمسهما ،كما حكى عزّ وجلّ في الآيات المباركة اللاحقة . ولعمري ، إنّه لا يمكن لأحد مهما بلغ من العلم والحكمة أن يصف الشيطان وخطواته وصراعه مع الإنسان بمثل ما أخبره عزّ وجلّ في هذه الآيات المباركة .

وهذا القول منه (لعنه الله) من مظاهر عتوّه وطغيانه على الله تعالى ، وقد صدر منه عند اللعن عليه عداوة وبغضاً لبني آدم كما حكى عنه عزّ وجلّ في مواضع متفرّقة من القرآن الكريم .

وهذه المحاورة بينه وبين الله جلّ شأنه محاورة حقيقيّة وقعت مشافهة من اللعين وحصلت حين خلق آدم عليه السلام كما في سورة البقرة ، وليست هي مجرّد محاورة تكوينيّة تخبر عن حال هذا اللعين وطبعه . كما ذكره بعض المفسّرين ،

---

١ . سورة سبأ : الآية ١٣ .

وقال: إنّه مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[1]، أي أنّ الله خلق الأرض كذلك كما خلق الشيطان هكذا، مخبراً عن طبعه وسجيّته بصيغة القسم، مصمما على إغواء البشر وإضلالهم.

ولا يُخفى بُعد ذلك، فإنّ الظاهر أنّ المحاورة كلاميّة والمخاطبة شفهيّة، حصلت بين الله تعالى وبين الشيطان، وتدلّ عيه روايات كثيرة. وأمّا في التكوينيّات والحيوانات فإنّها إلهام وإبداع، وقد ذكرنا ما يتعلّق بذلك في ما تقدّم من هذا التفسير فراجع.

ثمّ أخبر عزّ وجلّ عن خطوات الشيطان المتتابعة في إضلال الإنسان وغوايته، وهي خطوات دقيقة متقنة وليست اعتباطيّة.

قوله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾.

هذه هي المرحلة الأُولى من المراحل المتابعة التي يستحوذ بها على عباد الله تعالى ويستعبدهم، ويتمّ بها فساد الإنسان والبشرية بإغواء الشيطان. وحقيقة هذه المرحلة هي إضلال عباده عزّ وجلّ وإبعادهم عن الطريق المستقيم الموصل إلى الحقّ وصرفهم عن العقائد الصحيحة.

وتحصل هذه المرحلة بأمور كثيرة، منها تعمية الأمر عليهم، وتلبيس الواقع، وإظهار الباطل بمظهر الحقّ، وطمسه بإشاعة الفساد والشرّ والشهوات، وتزيين الباطل بأبهى صورة حتّى تحصل الحيرة والاضطراب في الإنسان. وقد حكي عزّ وجلّ عن هذه الأُمور في كثير من المواضع في القرآن الكريم بصورة دقيقة شاملة وواضحة لتستفيد منها البشرية على مرّ العصور؛ لأنّ هذه المرحلة من

---

١. سورة فصلت: الآية ١١.

أدقّ المراحل التي يتبّعها الشيطان ليفسد فيها الإنسان، قلّما يسلم منها فرد، وكان الأنبياء يستعيذون بالله ومنها ويطلبون الاستقامة منه تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾.

مرحلة ثانية تأتي بعد إبعاد عباد الله تعالى عن الحقّ، فيجيء الإغراء بالأماني والتسويفات والإيحاء لهم بأنّ هذا الطريق الجديد هو أنفع وأجمل وأروح وأحسن عاقبة من الطريق المستقيم طريق الله تعالى، ممّا يوجب صرفهم عن الاشتغال بما تقضيه عبوديّتهم.

وللتمنّي الأثر الكبير في مَن ضعفت نفسه وضاع الطريق لديه، وله مظاهر مختلفة ـ مثل حبّ الجاه والمال والتمنّي بطول البقاء ـ والجامع لتلك المظاهر حبّ الدُّنيا، وهو السبيل الأهمّ من سبُلِ الشيطان. وفي الحديث: «حبّ الدينا رأس كلّ خطيئة»، ويتحقّق بالتسويف في العمل والتمنّي بالأهواء الباطلة، وتزيين الشهوات بما يميل إليه طبع كلّ فرد، فيصدّه عن الطاعة. والتمنّي بالاستعجال باللذّات الحاضرة، والتمنّي بأنّه ليس هناك حساب ولا ثواب ولا عقاب ولا جنّة ولا نار، وغير ذلك من موجبات تغرير الشيطان وسبل كيده وخدعه.

وهذه المرحلة توافق طبع الإنسان المركب من النجدين، وبها يقع الصراع المرير بينهما، وفإذا ضعفت دواعي الفطرة والعقل في فرد تغلّب الجانب الآخر، فينسى الإنسان نفسه، فتقوى عنده دواعي اقتراف المعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾.

إنّه يملك أمرهم ويتمكّن من استعبادهم بعد طي المرحلتين، وحينئذٍ تأتي المرحلة الثالثة بعد تلك المتقدمتين بنجاح، فتحقّق طاعة الشيطان وعبادته، ويستشرى الفساد والضلال، ولا يبقى للإنسان مكانته التي أرادها الله تعالى، قال

عزّ وجلّ: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾**[1].

ثمّ إنّ الله جلّ شأنه يبيّن مظهرين من مظاهر طاعة الشيطان وعبادته، أحدهما خاصّ والآخر عامّ.

قوله تعالى: **﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾**.

مادة (ب ت ك) تدلّ على القطع والفصل والشقّ، ويقاربها مادّة (البت) التي تأتي بمعنى الفصل والقطع أيضاً، إلّا أنّ البتك تستعمل في الأعضاء والشعر والريش، يقال: بكت الشعر، أي: تناولت بتكة (بالكسر) منه، أي القطعة المتّخذة منه، قال الشاعر:

❊ طارتْ وفي يَدها مِنْ ريشها بتك ❊

جمعها بتك ـ بالكسر والفتح ـ ومنها سيف باتك، أي قاطع، ولم ترد هذه المادّة في القرآن إلّا في هذه الآية المباركة.

والمراد به قطع الاذان من أصلها أو شقّها، وهو إشارة إلى ما كانت تفعله الجاهلية من شقّ أو قطع اذان الأنعام إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً، وحرّموا على أنفسهم الانتفاع بها.

وفي ذكره بالخصوص لما يدلّ على سفاهة العقول وطيشها وسخافتها، وممّا يدلّ على أنّ طاعة الشيطان وعبادته توجب طيش العقول واضطرابها وخروجها عن استقامتها كما خلقها الله تعالى، وقد أخبر عزّ وجلّ ـ في عدّة مواضع من القرآن الكريم ـ أنّ لبعض المعاصي أثراً في اضطراب الإنسان وخروجه عن استقامته، كما بالنسبة إلى الربا، قال تعالى: **﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا**

---

١. سورة التين: الآية ٥.

يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[١]، وتقدّم ما ينفع المقام فراجع.

قوله تعالى: **﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾**.

اللّامات الثلاث كلّها للقسم، ممّا تدلّ على تصميمه (لعنه الله تعالى) على إضلال عباد الله تعالى، وينبئ ذلك عن طبعه الخبيث و سجيّته الشريرة.

وتغيير خلق الله تعالى يشمل التغيير الحسّي ـ صفة وصورة ـ كالخصاء وأنواع المثلة والتشويهات والتبديلات التي يأمر بها المطيعين له على أصناف خلقه عزّ وجلّ ـ والتغيير المعنوي المتمثل بالخروج عن الفطرة الـ ـريّة والإعراض عن الدين الحنيف والتعاليم الآلهيّة وتبديلها وتحريفها وتغييرها، واتيان أنواع الرذائل والمنكرات، أو ترويج الباطل وإشاعة الفحشاء، وتحويل النفس عمّا يدعو إليه داعي العقل والفطرة، قال تعالى: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾**[٢]، فإنّ فطرة الناس هي أساس الكمالات ومنبع الخيرات وأصل الفواضل والمكارم، ولها السلطة على جميع مشاعر الإنسان إذا لم يعتريها الضلال والغوايّة ولم يتلبّس بما يفسد الفطرة من الرذائل والمنكرات والجرائم.

قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يَتَّخِذْ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً﴾**.

بعد بيان حال الشيطان من التمرّد والطغيان والفساد والإفساد، ولبعده عن رحمته تعالى، عرّف الإنسان حاله، فمن يطعه ويتبع أوامره ويؤثره على طاعة الله، فقد خسر خسراناً مبيناً وظاهراً، لأنّه لا حقيقة له ولن يدعو إلّا إلى الحيرة

---

١ . سورة البقرة: الآية ٢٧٥.

٢ . سورة الروم: الآية ٣٠.

والضياع في الحال أو المآل.

والتعبير بالاتّخاذ لبيان أنّ ولاية الشيطان ليست إلّا زائفة باطلة، ولا ولاية له على أحد، وإنّ الولي هو الله تعالى وحده، وغيره باطل وإن اتّخذ وليّاً. كما أنّ التقييد بقوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾؛ لبيان أنّه ليس هناك واسطة، فإمّا اتّباع للشيطان وطاعته المنافية لولاية الله جلّت عظمته وأوامره، وإمّا اتّباع له عزّ وجلّ وإعراض عن الشيطان.

ويستفاد من الآية المباركة التأكيد على أنّ اتّباع الشيطان ينافي طاعة الله تعالى. وإنّما خسر متابعو الشيطان خسراناً مبيناً؛ لأنّه من استبدال رضا الله تعالى برضا الشيطان، ولا صفقة أخسر من تلك، فكانت خسراناً واضحاً وظاهراً لكلّ فرد إن تأمّل وتفكّر في ما صار إليه.

قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾.

بيان للآية الشريفة السابقة وتعليل لذيلها، فإنّ ما أضلّ به الشيطان عباد الله تعالى ليس إلّا مجرّد وعود زائفة، وأمانّي باطلة حصلت من وعوده التي هي من وساوسه، فكانت مجرّد وهم وتخيّل، وهذه الوعود والأماني هي من أقوى أسباب الضلال، وأشدّ حبائل الاحتيال، وأعظم كيده (لعنه الله) ووساسه؛ ولذا اقتصر سبحانه وتعالى عليهما في هذه الآية الكريمة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾.

الغرور: هو الباطل وإيقاع النفس في الهلاك والبوار، وعن عليّ عليه السلام: «إذا استولى الفساد على أهل الزمان، فمن أحسن الظنّ بهم فقد غرّر نفسه». أي: أوقعها في الهلاك وسمّي الشيطان غروراً لأنّه يحمل الإنسان على محابّه، ووراء ذلك ما يسوءه.

وأمّا أنّ وعد الشيطان باطل؛ لأنّه لم تكن له حقيقة، وأمانيه ليس لها واقع، بل هي مجرّد وهم وتخييل. أليس هذا هو الخسران وإيقاع النفس في المهالك وصدّها عن المسير الاستكمالي الذي خلق الله تعالى الإنسان لأجل ذلك؟ ألم يكن ذلك هو الغرور الذي به وقعت الإنسانيّة في العذاب والجهالة في الدُّنيا قبل الآخرة؟! أليست الآثار الّتى ترتّبت على الوعود الشيطانيّة وأمانيه مضلّة ومهلكة للإنسانيّة جمعاء؟! فهذا القلق والاضطراب والتحيّر والشك والانجراف والشذوذ، والخروج عن الاستقامة، وإتيان الرذائل وارتكاب الفحشاء والمنكر وغير ذلك من أباطيل الشيطان الذي أوقع من أطاعه وعبده فيها، واغترّ الإنسان بها فأوقع نفسه في الخسران والهلاك، وأيّ خسران أعظم من تبديل السعادة الحقيقيّة، وكمال الخلقة إلى الشقاء والحرمان، فكان المبدأ مضلّاً وفاسداً، والواسطة افتتاناً وإيهاماً وتخيّلاً وكذباً وخديعة، والنهاية خسران وحرمان وشقاء، فهل يبقى لمَن أطاع الشيطان وعبده وتبجّح بولايته وتحدّى به الله تعالى عذر؟ أفلا يكون ذلك كافياً في رجوع الإنسان إلى نفسه والتفكّر في حقيقته ومصيره ردعاً وعبرةً له؟! وفي الحديث عن عليّ عليه السلام: «رحم الله عبداً تفكّر من أين وفي أين وإلى أين».

قوله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً**﴾.

بيان لسوء عاقبة مَن أطاع الشيطان وتولّاه من دون الله تعالى، أي أُولئك الّذين أضلّهم الشيطان وأغواهم مستقرّهم جميعاً جهنّم مرغمون فيها، ولا يمكن الفرار منها لعدم وجود معدل ومهرب يفرّون إليه.

والمحيص: اسم مكان، أو مصدر ميمي من حاص يحيص إذا عدل وولي، يقال: «وقع في حيص وبيص» إذا وقع في أمر يعسر التخلّص منه.

وإنّما وصفهم عزّ وجلّ بذلك؛ لأنّه فسدت سريرتهم وخبثت بواطنهم

باتّباعهم الشيطان، فهم يتهافتون يوم القيامة في جهنّم وينجذبون إليها، يستفاد أنّه لا شفاعة تدركهم وتنجيهم من عذاب جهنّم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

التفات من التكلّم إلى الغيبة، تعظيماً للمطيعين وتنويهاً بجلالة مقامهم، ثمّ الرجوع إلى التكلّم مع الغير الذي بني الكلام عليه في الآية الكريمة للإشارة إلى قرب حضوهم، ومن عادته عزّ وجلّ أنّه إذا ذكر حال الكافرين يذكر أحوال المؤمنين، فيقرن بين الوعد والوعيد؛ تتميماً للفائدة وتذكيراً للطائفتين، وترغيباً للكافرين إلى الإيمان وتخويفاً للمؤمنين، وفي المقام بيّن عزّ وجلّ حال المؤمنين وحسن حالهم وما أوجب دخولهم الجنّة، وهو الإيمان بالله تعالى وتركهم طاعة الشيطان وفعلهم الصالحات، فكان جزاؤهم دخول الجنّات التي تجري من تحتها الأنهار لتزيد روعتها وبهائها وبهجتها فتتم بها سرورهم، فكان هنا إيمان بالله العظيم، وفعل الصالحات، وجنّات وخلود فيها، وهناك طاعة الشيطان ووعود منه وتخيّل من مطيعيه وجهنّم وخلوداً فيها، فكان تقابلاً كاملاً بين الطائفتين، ويزيد هنا خلود من الله تعالى وخطاباً معهم: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ تكريماً للمؤمنين المطيعين، وإبعاداً لهم عن كلّ ما ينغّص عيشهم، وفيه غاية القرب وعدم احتجابه عزّ وجلّ عنهم وهو وليّهم.

وأمّا هناك، فكان انجذاب بين النار وبين مَن تولّى الشيطان، ليذوقوا وبال أعمالهم التي أوجدت التناسب بينهم وبين النار، كما تقدّم.

والجنّات التي وعدها الله تعالى للمؤمنين به تشمل جنّة الأفعال، وجنّة الصفات، وجنّة الذات؛ والأوّل ما يمنحها الله تعالى لعامل الفعل الحسن والعمل الصالح، والثانية هي التي تمنح للصفات الحميدة أو على الأفعال الناشئة منها.

والثالثة هي مقام القرب والزلفى لديه عزّ وجلّ، وهي أعلى مراتب الجنان، وتقدّم التفصيل في ذلك.

قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾.

زيادة في سرورهم وبهجتهم وإبعادا لهم ممّا ينغّض عيشهم، والخلود إنّما كان نتيجة إيمانهم وأعمالهم الصالحة التي استولت على مشاعرهم، فلو عمّروا طول الدهر لفعلوا الصالحات.

قوله تعالى: ﴿وَعْدَ اللهِ حَقّاً﴾.

مقابلاً لما ذكره عزّ وجلّ في وعد الشيطان الذي لم يكن إلّا غروراً، فهنا وعد حقّ وصدق، وهناك وعد الغرور، فما أشدّ الاختلاف بينهما؟!!

وإنّما وضع اسم الجلالة موضع المضمر؛ مبالغة وتعظيماً للمقام؛ وتنويهاً بشرف الوعد. و﴿حَقّاً﴾ منصوب مؤكّداً، أي وعدهم وعداً حقّاً، وقيل: إنّه منصوب على أنّه حال من سندخلهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللهِ قِيلاً﴾.

فإنّ ما أخبره عزّ وجلّ عن حال الشيطان وإضلاله وسوء حال من تولّاه وأطاعه، ووعده للمؤمنين كلّه وعين الحقيقة والواقع، ولا يتمكّن غيره عزّ وجلّ أن يخبر كذلك، فكان قوله تعالى صدقاً وصواباً، فعلى هذا تكون الجملة بيانيّة عمّا أخبره عزّ وجلّ عن وعده تعالى للمؤمنين ووعيده للكافرين، وليست مجرّد تأكيد. وفيها الدلالة على كذب مواعيد الشيطان التي أغرّت من أطاعه.

و ﴿قِيلاً﴾: مصدر قال يقول، ومثله القال، وعن ابن السكيت رضوان الله تعالى عليه أنّهما إسمان لا مصدران، ونصبه في المقام على التمييز.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات المباركة أُمور:

الأوّل: يستفاد من قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾** أنّ الجزاء على الأعمال ـ سواء أكان وعداً أم وعيداً ـ مترتّب على سلامة الأرواح وسعادتها أو شقائها وهلاكها، وهما ينشئان ممّا عليه الإنسان في دار الدُّنيا من سلامة الفطرة وصحّة العقيدة وصالح الأعمال، أو الانحراف عن الفطرة وفساد العقيدة واكتساب الرذائل والتدنّس بها، فتكون درجات الجنّة ودركات النار على طبق المراتب، وإنّ أعلاها التوحيد الكامل، وأمّا أخسّ الدركات فهي الشرك بالله تعالى، ولكلّ منهما صفات تناسبها. وعلى هذا يكون عدم غفران الله تعالى الشرك أمراً طبيعيّاً موافقاً للقاعدة التي تقتضي التناسب بين الجزاء والفعل. فإنّه تعالى لو أدخل المشرك الجنّة للتمتّع بنعيمها كما يتمتّع المؤمن الموحّد، فهذا نقض لسنّة الله التي لا تقبل التّغيير والتبديل، التي قضت أن ينال كلّ واحد جزاء عمله.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: **﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً﴾** على أنّ ما يعبد من دون الله تعالى، ضعيف عاجز لا يقدر على تحقيق مقاصد مَن يعبدونها، ويؤكّد ذلك سياق الآية الشريفة الذي وصف الله تعالى نفسه بعدم الغفران للمشركين وغفرانه لغيرهم، فهو القادر على كلّ شيء.

وتدلّ أيضاً على أنّ ما يعبد من دون الله تعالى يصيبه كلّ ما يصيب الإناث من سائر المخلوقين من الآفات والأمراض، والله هو القوي العزيز الذي يمتنع عليه جميع ذلك، ويستحيل أن يقع محلّاً للحوادث، كما ثبت في الفلسفة الإلهيّة.

وأنّ كلّ معبود من دون الله تعالى مهما بلغ من العظمة والقوّة والقدسية لدى مَن يعبدونه، فإنّه ضعيف يحتاج إلى مَن يعينه ويساعده من كلّ مخلوق.

الثالث: يدلّ قوله تعالى: ﴿**إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً**﴾ على أنّ عبادتهم لتلك الإناث إنّما هي عبادة صوريّة ظاهريّة لا توافق ما عليه فطرتهم الداعية إلى عبادة الواحد الأحد، فتكون عبادتهم مجرّد دعاء صادر حين الحاجة.

الرابع: يدلّ تقريره عزّ وجلّ لما حكاه عن الشيطان الرجيم في قوله: ﴿**وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً**﴾ على أنّ مطيعي الشيطان لا يخرجون بذلك عن كونهم عباد الله ولا ينسلخون عن هذا الشأن، وربما يكون هذا الأمر مقتضياً لخروجهم عن طاعة الشيطان، ورجوعهم إلى معبودهم الحقيقي الذي هو خالقهم، وفيه كمال العناية بعباده، وأنّهم يقعون مورد لطفهم إن هم رجعوا عن غيّهم وضلالهم، وهيّأوا أنفسهم لنيل رحمته جلّت عظمته.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً**﴾ على أنّ عبادة غير الله تعالى وطاعته توجب الطغيان والتمرّد على الحقّ والبُعد عن الواقع، فيهون ارتكاب كلّ رذيلة وإتيان كلّ فحشاء ومنكر، فلا تبقي إرادة للخير ولا طمع في الفضيلة، كما لا تبقى للفطرة سلامتها، ولكن تتفاوت درجات الطاعة للشيطان، ولعلّ هذا هو أحد المعاني في قوله تعالى: ﴿**فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ**﴾.

السادس: يدلّ قوله تعالى: ﴿**فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ**﴾ على أن التصرّف في الكائنات والسلطلة عليها إنّما تكون من شؤون بارئها وخالقها، و ليس لغيره عزّ وجلّ ذلك، فلا تشمل كلّ تصرّف وتغيير، فضلاً عمّا ورد من الشارع المقدّس الإذن فيه كالختان وتقليم الأظافر، والخضاب، وقطع العضو الزائد أو الفاسد في الإنسان ونحو ذلك.

السابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ**﴾ أنّ كلّ ما سواه عزّ وجلّ

ممّا يعبده الإنسان أو يطيعه لا حقيقة له، وإنّما هو وهم وسراب، ومآله إنّما يكون الخسران والدمار والهلاك، وهمّه خسران الإنسان حقيقته في الدُّنيا والآخرة، كما هو معلوم.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً**﴾ أنّ الأعمال الفاسدة والملكات الرذيلة والعقائد الباطلة تؤثّر في الإنسان أثراً بليغاً، حتّى يصل الى قلب الحقيقة فتوجب التشابه بينه وبين ما يناسبه حينئذٍ، فكانت النار التي هي جزاء من تولّى الشيطان هي الأثر المناسب لأفعاله، فتحصل التجاذب بينهم وبين النار، فلا مفرّ لهم منها ولا مكان آخر يأويهم.

التاسع: إنّما جمع سبحانه وتعالى الطاعة والإيمان في الآيات المباركة: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ لبيان أنّ مجرّد الإيمان والعقيدة بلا عمل وطاعة لا يؤثّر في دخول الجنّة، بل لابدّ من اقتران الإيمان بالعمل الصالح.

نعم، لكلّ منهما أثر وضعي خاصّ، ولكن الجزاء يتوقّف على الإيمان والعمل معاً، كما مرّ.

***

بحث روائي:

في «الدرّ المنثور» عن أبي مجاز، قال: «لمّا نزلت هذه الآية: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾[١]، قام النبيّ ﷺ على المنبر فتلاها على الناس، فقام إليه رجل قال: والشرك بالله؟ فسكت مرّتين أو ثلاثاً، فنزلت هذه الآية: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾، فأُثبتت هذه في الزمر وأثبتت هذه في النساء».

---

١. سورة الزمر: الآية ٥٣.

أقول: ما تقدّم أنّ للشرك مراتب كثيرة، وأنّ عدم الغفران يختصّ بالمرتبة الأخيرة منه، وهي ما إذا مات على الشرك ولم يتب، فلا تنافي بين الآيتين الشريفتين، كما تقدّم في البحث الروائي في الآية المباركة ٤٨ من سورة النساء، والتفكيك في الثبت إنّما كان من فعله صلى الله عليه وآله.

وفي «تفسير العيّاشي» عن قتيبة الأعشى، قال: «سألت الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾؟، قال: دخل في الاستثناء كلّ شيء».

وفي رواية أُخرى عنه أيضاً: «دخل الكبائر في الاستثناء».

أقول: يستفاد من مضامين الآيات الشريفة والسنن المعصوميّة أنّ المناط في الغفران ـ أو نيل الشفاعة في يوم القيامة ـ هو الموت مع الإيمان بالله تعالى، فإذا انسلخ الإيمان وحلّ محلّه الشرك، فالغفران عنه بعيد ولا تشمله الشفاعة أيضاً، ويدلّ على ما ذكرنا عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «ما من عبد يموت لا يشرك بالله شيئاً إلّا حلّت له المغفرة، إن شاء غفر له، وإن شاء عذّبه»، وتقدّم أنّ للشرك مراتب متفاوتة جدّاً.

وفي البخاري ومسلم والنسائي والترمذي عن أبي ذر، قال: «أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: ما من عبد قال لا إله إلّا الله، ثمّ مات على ذلك إلّا دخل الجنّة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال صلى الله عليه وآله: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال صلى الله عليه وآله: وإن زنى وإن سرق، ثلاثاً ثمّ قال في الرابعة: على رغم أنف أبي ذر».

أقول: تقدّم أنّ المراد من قول: «لا إله إلّا الله» مع الشرائط والموت مع العقيدة به، لا مجرّد التلفّظ به، ولعلّ المراد من ذيل الحديث أنّ الغفران لا يكون تحت سلطة العباد، بل هو مختصّ به تعالى، ولابدّ من تقييده بعدم وجوده مظالم

العباد عليه، وإلّا يتوقّف الغفران على أدائها أو إسقاطها، كما مرّ في الروايات السابقة.

وعن البيهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن عبّاس عن رسول الله ﷺ، قال: «قال الله عزّ وجلّ: مَن عِلَم أنّي ذو قدرة على مغفرة الذنوب، غفرت له ولا أُبالي مالم يشرك بي شيئاً».

أقول: إنّ مغفرته تعالى لذنوب عباده من مظاهر صفاته، فلا يكون له حدّاً محدوداً.

نعم، لو تعلّق بذنوب شخص يثبت له التحديد من ناحية المتعلّق. وأمّا عدم غفرانه تعالى للمشركين؛ لعدم لياقتهم وعدم أهليّتهم لشمول الرحمة لهم، كما عرفت في التفسير.

وفي «تفسير العيّاشي» بسنده عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿**وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ**﴾ قال: «أمر الله بما أمر به».

أقول: لأنّ أوامر الله تعالى هي دينه، والدين هو الفطرة المستقيمة؛ ولذلك عبّر عنه في بعض الروايات بدين الله.

وعن الطبرسي في قوله تعالى: ﴿**فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ**﴾ قال: ليقطعوا الآذان من أصلها، وهو المروي عن الصادق عليه السلام.

أقول: تقدّم ذلك أيضاً من بعض المفسّرين، وأنّ المراد به قطع آذان البحائر والسوائب والأنعام ويحرّمونها بذلك على أنفسهم يجعلونها للأصنام، كما مرّ في التفسير.

وفي «تفسير العيّاشي» بسنده عن جابر، عن النبيّ ﷺ، قال، «كان إبليس أوّل مَن ناح وأوّل من تغنّى وأوّل مَن قال حُدى، قال: لمّا أكل آدم من الشجرة تغنّى، فلمّا هبط حدى به، فلما استقرّ على الأرض ناح فأذكره ما في الجنّة، فقال

آدم عليه السلام: ربّ هذا الذي جعلت بيني وبينه العداوة، لم أقو عليه وأنا في الجنّة، وإن لم تعنني عليه لم أقو عليه، فقال الله تعالى: السيّئة بالسيّئة والحسنة بعشر أمثالها ـ إلى سبعمائة ـ قال: ربّ زدني، قال: لا يولد لك ولد إلّا جعلت معه ملكين يحفظانه، قال: ربّ زدني، قال: التوبة معروضة في الجسد ما دام فيه الروح، قال: ربّ زدني، قال: اغفر الذنوب ولا أُبالي، قال: حسبي، فقال: إبليس: ربّ هذا الذي كرّمته عليَّ وفضّلته وإن لم تفضّل عليَّ لم أقو عليه، قال: لا يولد له ولد إلّا ولك ولدان، قال: ربّ زدني، قال: تجري منه مجرى الدم في العروق، قال: رب زدني، قال: تتّخذ أنت وذرّيتك في صدورهم مساكن، قال: ربّ زدني، قال: تعدهم وتمنّيهم، وما يعدهم الشيطان إلّا غروراً».

أقول: أمّا ما منحه الله تعالى لآدم؛ فلأنّه الكمال، وأنّ آدم في طريق الاستكمال. وأمّا ما منحه الله تعالى للشيطان فلأن به يتحقّق الاختيار في الخلق.

أخرج البيهقي في «الدلائل» عن عقبة بن عامر، قال: «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة تبوك، فأشرف رسول الله فلمّا كان منها على ليلة فلم يستيقظ حتّى كانت الشمس قيد رمح، قال: ألم أقل لك يا بلال أكلئنا الليلة؟ فقال: يا رسول الله ذهب بي النوم فذهب بي الذي ذهب بك، فانتقل رسول الله من ذلك المنزل غير بعيد ثمّ صلّى، ثمّ هدر بقيّة يومه و ليلته فأصبح بتبوك فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثمّ قال:

أما بعد: فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملل ملّة إبراهيم، وخير السنن سنّة محمّد صلى الله عليه وآله، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأُمور عوازمها، وشرّ الأُمور محدثاتها، وأحسن الهدى هدى الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير العلم ما نفع، وخير الهدى ما اتّبع، وشرّ العمى عمى القلب، واليد

العليا خير من اليد السفلى ، وما قلّ وكفى خير ممّا كثر وألهى ، وشرّ المعذرة حين يحضر الموت ، وشرّ الندامة يوم القيامة ، ومَن الناس من لا يأتي الصلاة إلّا دبراً ، ومنهم مَن لا يذكر الله إلّا هجراً ، وأعظم الخطايا اللّسان الكذوب ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله عزّوجلّ ، وخير ما وقر في القلوب اليقين والارتياب من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهليّة ، والغلول من جثاء جهنّم ، والكنز كي من النار ، والشعر من مزامير إبليس ، والخمر جماع الإثم ، والنساء حبالة الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ، وشرّ المكاسب كسب الربا ، وشرّ المآكلّ مال اليتيم ، والسعيد مَن وعظ بغيره ، والشقي من شقي في بطن أُمّه ، وإنّما يصير أحدكم الى موضع أربع أذرع ، والأمر بآخره ، وملاك العمل خواتمه ، وشرّ الروايا روايا الكذب ، وكلّ ما هو آتٍ قريب ، وسباب المؤمن فسوق ، وقتال المؤمن كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومَن يتأوّل على الله يكذّبه ، ومَن يغفر يغفر له ، ومَن يغضب يغضب الله عنه ، ومَن يكظم الغيظ يأجره الله به ، ومَن يصبر على الرزيّة يعوّضه الله ، ومَن يتبع السُّمعة يسمع الله به ، ومن يصبر يضعف الله له ، ومَن يعص الله يعذّبه الله . اللهمَّ اغفر لي ولأُمّتي ـ قالها ثلاثاً ـ استغفر الله لي ولكم» .

أقول : أمّا بالنسبة إلى صلاة الفجر وإكلائه على بلال ، فإنّه لا ينا في العصمة؛ لأنّ ذلك لمصلحة يراها النبيّ ﷺ كالتشريع العملي وغيره . وأمّا بالنسبة بخطبته ﷺ فإنّها من جوامع الكلم التي خصّ الله به نبيّه ﷺ ، وإنّها تنبع عن لسان الوحي ، وإنّها جامعة لخير الدُّنيا والآخرة ، وبها تحصل السعادة وشرف العبوديّة ، وتحتاج هذه الخطبة الشريفة إلى تفصيل يخرج عن موضوع الكتاب .

***

بحث عقائدي:

المستفاد من الآيات المباركة ـ ومنها هذه الآية الشريفة ـ أنّ عبادة غير الله

تعالى ضلال وخسران، وتوجب الهلاك والدمار في الدُّنيا والآخرة، والأدلّة العقليّة تثبت ذلك أيضاً، وأنّ الفطرة المستقيمة تدلّ على أنّ العبادة لا تليق بما سواه جلّ شأنه؛ لأنّ العبادة هي منتهى التذلّل، ولا يستحقّها إلّا من له غاية الأفضال.

والعبادة تارةً: تسخيريّة، أي: تكوينيّة، وهي عامّة تلازم الخلق وعالم الإمكان، قال تعالى: **﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾**[1].

وقوله تعالى: **﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ﴾**[2].

وقوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾**[3].

ولا يترتّب على هذا القسم سوى الكمال الذاتي النفسي.

وأُخرى: اختياريّة، أي: لا جبر في البين، قال تعالى: **﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾**[4]، ولابدّ في هذا القسم من التقرير الشرعي، ويترتبّ عليها الكمالات المعنويّة ـ كالتقرّب إليه تعالى والوصول إلى أعلى المقامات ـ والآثار الوضعيّة.

ومنشأ العبادة الشعور بالإفتقار بأي مرتبة كان الشعور، كما ثبت في الفلسفة الإلهيّة، فهو الدافع للعبودية له جلّ شأنه؛ ولذلك لابدّ في المعبود من الصفات المتفرّد بها، ويكون هو في منتهى الكمال، وذلك مختصّ بالله جلّت عظمته، وغيره لا يستحق العبادة لإفتقاره إليه جلّ شأنه، وأنّ الفاقد للشيء لا

---

١. سورة النحل: الآية ٤٩.

٢. سورة النحل: الآية ٤٨.

٣. سورة الحج: الآية ١٨.

٤. سورة الإنسان: الآية ٣.

يعطي الشيء أبداً؛ ولذلك يكون اتّباعه غروراً ولا تكون عبادة حقيقيّة، بل العبادة تختصّ به تعالى؛ لإفتقار الكلّ إليه واستغنائه عن الكلّ، وأنّ الممكنات في جميع جهاتها محتاجة إليه تعالى، وأنّ ما سواه فيء وظلال.

مَن لا وجود لذاته مِن ذاته فوجوده لولاه عين محال

ولذلك يكون الشرك في المعبود محال عقلاً، كما أنّ الضدّ فيه تعالى كذلك، وفي بعض الدعوات: «يا مَن لا ضدّ له»؛ لأنّ ما سواه تعالى خلقه ويرجع إليه، فلايتصوّر الضدّية في ذلك، لما ثبت في محلّه أنّه يشترط في الضدّين التساوي في الذات وفي الصفات، وبعد فرض التفرّد في الذات والصفات تستحيل الضدّية لأنّه ليس كمثله شيء، فاتّباع غيره تعالى مجرّد غرور ولا تكون عبادة حقيقة، كما مرّ.

وإنّ العبادة لا تليق إلّا للغني بالذّات، بحيث لولاه لم يكن هذا الوجود، ولو لا أسراره لتلاشت الكائنات، ولولا نعوته وصفاته لا ضمحلت البدائع ممّا سواه، ولم تكن لعالم الشهادة عين ولا أثر.

ويمكن أن يقال: إنّ هذه العقيدة لا تختصّ بالمسلمين فقط، بل تعمّ جميع الأديان السماويّة غير المنحرفة لما عرفت أنّها فطري، ولعلّ المراد من الآية المباركة: **﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾**[1] ذلك. هذا كلّه بالنسبة إلى ذاته.

وأمّا كيفيّة العبادة ونهجها، فلابدّ وأن تكون بوحي منه تعالى بواسطة الأنبياء والمرسلين وتبلّغها الأولياء والصالحون، فإنّهم سفراءه تعالى لأجل بيان

---

١. سورة الشورى: الآية ١٣.

كيفيّة العبادة بتنوير الفطرة واستقامتها وتكبيت الأهواء الفاسدة والشهوات المضلّة، فالأنبياء ليسوا هم إلّا وسائل للتقرّب إليه جلّ شأنه ومن مظاهر أسمائه، والدالّين إليه تعالى، بهم عرفنا الله تعالى، وما اخترناه من نهج الهدى، وهم المعاندون للشيطان، ولو لا هم لاختلف النظم، واختلّت كيفيّة العبادة، وانطمست الفطرة، ولم يتحقّق الكمال المنشود.

ولذلك يحكم العقل والفطرة باحترامهم وتوقيرهم باتّباع سننهم ومنهجهم، ولهم امتيازات خاصّة من الله تعالى في حياتهم وبعد ارتحالهم إلى الله تعالى، حتّى موضع قبورهم لأنّها حوت أجساماً كانت مورد عنايته عزّ وجلّ، وتضمّنت نفوساً قدسيّة كانت مرتبطة بجلاله، وأبداناً تقرّبت إلى وادي عزّه وقدسه، وسرت حتّى وصلت إلى قاب قوسين أو أدنى، وجعل له النار برداً وسلاماً، و أبصاراً رفعت عنها الحُجُب حتّى رأت المشهود في الشاهد، والشاهد في المشهود، وأسماعاً خرقت الستائر والموانع حتّى سمعت: «إنّي أنا الله» و«ادن من صاد فتوضّأ»، ووجوهاً رأت نور الحبيب وجماله وكبريائه، فخرّت ساجدة مذعنة.

بل أنّ الأرض التي تضمّنت تلك الأبدان الطاهرة، والمفاخر البشريّة، ومظاهر التكبير والتهليل لها كرامة ومنزلة عند الله تعالى، فلابدّ أن تحترم كما تحترم أرض المسجد، فإنّ ما ورد من الروايات في شأن تلك المحال القدسيّة المتضمّنة لأجسامهم الشريفة، ممّا لا ينكره العقل أصلاً بل يقرّره.

وأمّا زيارات تلك المواطن والأمكنة التي حوت تلك الأبدان الطاهرة، فإنّها عبادة نتقرّب بزيارة أحبّ خلقه إليه، وتلك لو تأمّلنا في الزيارات الواردة في حقّهم كلّها كانت مشحونة بذكر الله تعالى والتذكّر بكلماته ومعارفه والتبرء من الشيطان واتباعه، وليست لزيارتهم موضوعيّة مقابل عبادة الله عزّ وجلّ ـ نستجير بالله تعالى ـ بل أنّها طريق يرشدنا إليه جلّ شأنه، وأنّهم أحياء عند ربّهم

يرزقون. وقد ثبت في محلّه أنّ الأرواح مطلقاً لا تنقطع ارتباطها عن هذا العالم، بل لها نحو علاقة خاصة (برزخية) بموضع البدن، حتّى ورد في بعض الروايات أنّ أرواحهم تتطلّع وتعلم مَن زارهم وأنّهم يدعون له، وبالنسبة إلى الأولياء والمقرّبين تكون العلاقة والارتباط أشدّ وأكثر خصوصيّة لزوّارهم، إذا كان الزائر من أهل الإيمان ومن الكمّل، فيتحقّق نحو ارتباط بين الروحين إن حصلت الأهلية؛ ولذا أنّ أهل العرفان والمتوجّهين يرون ما لا يرون غيرهم.

نعم، مَن كان بعيداً عن حريم ذاته الأقدس، تكون علاقته وارتباط روحه بعد الحياة ضعيفاً؛ لأنّه مشغول بنفسه في عالم البرزخ، فكلّ ما كانت الإضافة إلى الله تعالى أقرب والتفاني أشدّ كانت الآثار الوضعيّة أكثر حتّى بعد الممات، وكلّ ما كانت الإضافة أبعد وأضعف كانت الآثار الوضعيّة أقلّ حتّى كادت تنعدم؛ لأنّه قد يصل إلى مرحلة الجماد، قال تعالى: **﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾**، قال تعالى: **﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً﴾**.

وما تقدّم يجري في الأولياء وعباد الله الصالحين الأبرار الّذين لهم عند الله مقام وشأن، فيشمله العموم في قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾**[1].

***

بحث فقهي:

ذكرنا في التفسير أنّ الخلق في قوله تعالى: **﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾** أعمّ من الخلق الصوري (أي الطبيعي)، أو الفطري الذي هو الدِّين، فالآية المباركة تدلّ على حرمة تغيير ما خلقه الله تعالى ممّا نصّ الشارع على حرمته كالتمثيل بالناس، والخصاء في الإنسان، وحلق اللحية في الرجل، وغيرها ممّا هو محرّم شرعاً.

---

١. سورة الحجّ: الآية ٣٢.

وهل تشمل الآية المباركة ما لم يرد فيه من الشرع نصّ على تحريمه؟ كتغيير بعض الحيوانات الدائر في هذه الأعصار من الكبر إلى الصغر، كما في الفيل والفرس، وإجراء بعض العمليات التجميليّة في الإنسان إن لم يكن فيها دفع ضرر أو حفظ صحّة، وغير ذلك من الأمور المستحدثة في هذه الأعصار؛ وجهان؟.

مقتنضى العمومات والإطلاقات غير القابلة للتقييد هو الحرمة، فتشمل كلّ تغيير للحيوان، وتبديله إلى حيوان آخر مثلاً.

ومقتضى قوله تعالى: ﴿خَلْقَ اللهِ﴾ أنّ المناط في الحرمة هو المعارضة مع خلق الله سبحانه وتعالى بإيجاد خلق جديد، فتقتصر الحرمة على ما كان كذلك، أي: ما يعرض فيه خلق الله عزّوجلّ، فلا تشمل ما لم يكن كذلك، في الإنسان كان أو في الحيوان أو في النبات.

هذا كلّه إن لم يحصل ايذاء أو إسراف، وإلّا فالحكم واضح.

***

بحث عرفاني:

كما أنّ للتقرّب إلى الله تعالى والوصول إلى ساحة كبريائه مراتب كثيرة ـ شدّةً وضعفاً كميةً وكيفيّةً ـ كذلك للبعد بالنزول عن ساحة قدسه والقرب للشيطان، وذكرنا أنّ لكلّ من الهداية والغواية أسباباً وعللاً، وإن كانت الفطرة المستقيمة تقتصي الهداية إلّا أنّ سبل الشيطان تُعيقها وتحرفها عن التوجّه إلى خالقها، المعبّر عنه بشرف العبوديّة.

وهذه الأسباب تؤثّر كثيراً في الإنسان على نحو يبعده عن الصراط المستقيم، ولا تؤثّر فيه الحجج والبراهين وذلك باختياره، فيصل إلى مرتبة أسفل السافلين بالمراحل المذكورة في الآيات المباركة.

وقد لا يكون كذلك، وإنّما يكون للقلوب إقبال وإدبار، وتملّ كما تملّ

الأبدان، وهذا حسب درجات الإيمان، كما هو المشهود في المؤمنين، وقد لا تؤثّر فيه أصلاً كما في المعصومين من الأنبياء والأولياء وكمّل الإيمان من العرفاء، وعن سيّد العارفين وإمام الموحّدين عليّ عليه السلام مخاطبا الدُّنيا: «غرّي غيري» عندما تمثّلت عنده، وغيره من الروايات الواردة عنه عليه السلام.

وأسباب الغواية والضلالة التي هي من الشيطان محدودة، بخلاف سبل الهداية الى الله العظيم، فإنّها من مظاهر صفاته العليا، وهي غير محدودة فلا يكون التقابل بينهما واقعيّاً. مع أنّ الفطرة الخالصة التي خلقها الله تعالى تقتضي الهداية أيضاً، كما أنّه جلّ شأنه يحبّ خلقه ولا يرضى لهم العذاب، قال تعالى: **﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾**[1]، وأنّه غني ذاتاً وصفات، وأنّ الخير وأسبابه منه تعالى وإليه عزّو جلّ، فلابدّ وأن تكون غير محدودة لأنّها من مظاهر صفاته.

وقد ذكر سبحانه وتعالى في الآية الشريفة أهمّ أسباب الغواية من الوعد والأمنيّة، وأنّ الأثر المترتّب على تلك الأسباب ليس إلّا الخسران، سواء كان خسران الجنّة ونعيمها، أم خسران المعارف الإلهيّة والحظوظ السعيدة، أم خسران شرف العبوديّة، أم خسران الآلاء والنعم، أو خسران اللّقاء الذي هو من أعظم الخسائر، كما عن عليّ عليه السلام: «هبني صبرتُ على حرّ نارك، فكيف أصبرُ على فراقك»، وعن بعض العرفاء: «أعظم الخسائر مَن فاته اللّقاء»، فقد خاب مَن أحبّ شيئاً دونك ويرضيه بدلاً منك، وقد خسر مَن أوقفته ببابك ثمّ طلب باب غيرك والتجأ الى جنابك وتحوّل منك إلى غيرك، ودعاء أبي حمزة الثمالي مشحون بهذه المعارف، ولا يتوجّه إلى هذا القسم من الخسران إلّا مَن رفع عنه الحجاب برؤية الملكوت الأعلى، ومنح له قبول وسام العبوديّة.

فالكلّ يطلب نُعمى حيث ضلّ وما ... يحظى بنعمى سوى فرد بأفراد

---

١. سورة النساء: الآية ١٤٧.

وجميع هذه الخسائر ترجع إلى الاختيار، لما ثبت في محلّه من أنـّه لا جبر ولا تفويض في البين، فالعبد باختياره يسلك كلا من الطريقين النور أو الظلمة، ويصل الى مراتبها، كما أنّ كلّاً منهما لم يكن ذاتي الإنسان، وهما قابلان للزوال إلى آخر لحظات العمر، كما عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «إنّ الرجل ليعمل بعمل أهـل النار حتّى ما يبقى بينه وبينهما إلّا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهـل الجنّة فيدخلها، وأنّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنّة حتّى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار»، والأوّل كـثير بفضله ورحمته، والثاني منوط برحمته، والمراد من سبق الكتاب التذكّر والتأمّل، فيرجع إلى الاختيار، وللبحث ذيل يأتي في الموضع المناسب إن شاء الله تعالى.

***

الآية ١٢٣ ـ ١٢٦

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴿١٢٥﴾ وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً ﴿١٢٦﴾﴾.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى حقيقة الإيمان والجزاء المترتّب عليه وبعض أحوال المؤمنين، وبيّن عزّجلّ الكفر والشرك وموجباتهما، وهي إطاعة الشيطان وعبادته واتّباع أوامره، والجزاء المترتّب على ذلك، ثمّ وعد المؤمنين وأكّد أنّ وعده صادق وقوله حقّ لا خلف فيه.

يبيّن جلّ شأنه في هذه الآيات المباركة أنّه في وعده الصادق لا يحابي أحداً من عباده، وأنّه سيجزي المؤمنين حقّاً ويجازي الكافرين صدقاً، كلا حسب عمله وأفعاله، فالإيمان ليس بالتمنّي ولا بالتحلّي ولا بالتفاضل، بل بما استقرّ في القلب وظهر على الجوارح وصدّقه العمل، وليس الدين أُمنيات وأهواء وشعارات وتفاخر أو تباهي، بل الدين تطبيق عملي لكلّ ما حواه من مبادئ وتعاليم وقيم وتشريعات وتوجيهات، فهذا هو واقع كلّ دين وحقيقته، فلن يقوم

على التمنّي ولن يحصل أحد على الجزاء العظيم الذي وعده عزّ وجلّ للمؤمنين بمجرّد التمنّي والتفاخر والتمدّح والتشدّق بالكلام. وهذا ما أكّد عليه عزّ وجلّ في عدّة مواضع من القرآن الكريم.

ولم تكن الآيات الشريفة الأخيرة في سورة آل عمران ببعيدة عن الأذهان، حيث يبيّن عزّ وجلّ فيها المنهاج الذي لابدّ أن نتبعه، فقال تعالى: **﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾**، وفي هذه الآيات الكريمة تأكيد جديد ودرس عملي لنبذ كلّ تمن فارغ عن العمل، وتفاخر وتفاضل يوجب البعد والبغضاء، فإنّ الجزاء حاصل لا محالة، وكلّ من عمل سوءاً يجز به ولا يجد من دون الله وليّاً ولا نصيراً ينصره من العذاب، ومن يعمل الصالحات فسيجد الجزاء الأحسن، وهذا هو الدين، فلابدّ من التسليم الكامل والإحسان والعمل واتّباع ملّة إبراهيمعليه السلام، التي حفظت في جميع الأديان الإلهيّة وعند مشركي العرب، وهي ملّة محمّد صلى الله عليه وآله، فكانت صلة بين جميع من ذكر، والله تعالى محيط لا تخفى عليه خافية وله ما في السماوات والإرض.

***

التفسير

قوله تعالى: **﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾**.

تأكيد لما ذكره عزّ وجلّ في الآيات المباركة السابقة، وبيان أنّه ليس لأحد كرامة على الله تعالى، ولا حقّ له عليه جلّ شأنه، إلّا باتّباع تعاليمه وتطبيق شريعته وتنفيذ أوامره، وهذا هو الدين الذي أنزله الله تعالى على جميع أنبيائه وأمرهم بتبليغه لعباده، ليس هو أهواء وأُمنيات وتشدّق بالكلام بأن يتفاخر كلّ واحد بأنّ دينه أفضل أو أكمل وأحقّ بالاتّباع، فإنّ هذه كلّها أماني صوريّة لا حقيقة لها، وهي بعيدة عن واقع الدين؛ لأنّه تطبيق عملي لما وقر في القلب واستقرّ فيه،

وتلتقي جميع الأديان في هذا الأمر، بلا فرق بين دين الإسلام وسائر الأديان الإلهيّة، وقد حكي عزّ وجلّ بعض صور التفاخر في مواضع اخرى من القرآن الكريم، قال تعالى محكياً عن أهل الكتاب: **﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾**[١]، وقال تعالى أيضاً: **﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾**[٢].

وهذه الآية الشريفة تشير إلى ما زعمه بعض المسلمين وأهل الكتاب على ما ورد في شأن نزولها ـ كما يأتي في البحث الروائي ـ وقد ردّ سبحانه وتعالى على جميع تلك المزاعم بأنّ الدين لا يقوم على الأماني، وأنّها لا تؤثّر شيئاً على الإطلاق، بل الدين عقيدة وعمل، وأنّ الجزاء العظيم الذي وعده الله عزّ وجلّ لهم لا يمكن تحصيله بالتمنّي والغرور، وأنّ الله تعالى لا يضيع عمل عامل منكم، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

وهذه الآية الشريفة من الدروس التربويّة للمسلمين، وقد كانت نبراساً لهم حين ما اعتقدوا بالإسلام، بأنّه دين عقيدة وعمل، أنّه منهاج تربوي عملي، جعلوه تطبيقاً عملياً لكلّ ما تضمّنه من تعاليم وقيم ومبادئ وتوجيهات، فكانوا على عزّ وشرف، وساد الوئام والتآلف والتعاون بينهم، ولم يكن لأحد فيهم مطمع إلّا بتبليغ دينه بالقول والفعل، ثمّ لمّا حوّلوا دينهم إلى مجرّد التمنّي، وخرجوا بذلك عن الدين الحقيقي، ودخلوا في الغثاء الذي تحدث عنه الرسول الكريم ﷺ، اشتدّ الخلاف بينهم، وضعفت مكانتهم، ونزل قدرهم، وطمع فيهم أعدائهم، ووصلوا إلى ما هم عليه الآن من التفرقة والتشتت والخلاف، فلم يبق من الإسلام إلّا اسمه، ومن الكتاب إلّا رسمه، ولن يعودوا إلى مكانتهم ووضعهم الذي أراده الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ إلّا بالخروج عن هذا التمنّي، والدخول في الدِّين الحقيقي،

---

١ . سورة المائدة: الآية ١٨.

٢ . سورة البقرة: الآية ١٣٥.

والواقع العملي المحسوس.

والأماني في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ﴾ تقرأ بالتشديد والتخفيف، وهي جمع أُمنية على أفعولة، وهي الصور الخياليّة التي تحصل في النفس وتستلذّ بها كلّما ذكرتها، وإنّها قد تكون عن تخمين وظنّ، وقد تكون عن رؤيةٍ وأصل، ولكن لما كان أكثرها عن تخمين وظنّ صار إطلاقها أكثر على ما لا حقيقة له، فأكثر التمنّي تصوّر ما لا حقيقة ولا واقع له. وحديث النفس بما يكون أو لا يكون، وتشهّي حصول الأمر المرغوب فيه، وعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «إذا تمنّى أحدكم فليكثر، فإنّما يسأل ربّه»، يعني إذا سأل الله تعالى حوائجه الشرعيّة فليكثر؛ لأنّ فضل الله كثير، وخزائنه واسعة ورحمته عمّت كلّ شيء، وفي المقام أُطلقت عل ما كان يذكره أهل الكتاب وما تفاخر به بعض المسلمين مجازاً؛ لبيان أنّها مجرّد صور خياليّة لا واقع لها، فردّ الله تعالى مزاعمهم وبيّن أنّ الواقع غير ذلك.

ويستفاد من اقتران أهل الكتاب مع بعض المسلمين، أنّ هناك جهة اتّفاق بينهم، وهي أنّ الدِّين واقع عملي والاختلاف في ذلك في سائر الأديان الإلهيّة، وأنّه لو رعوها لكانت الإديان كلّها تسير في جهة واحدة، ولما وجد الاختلاف بينها، ولما وقعت هذه المصائب.

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾.

بيان للحقيقة والواقع في هذا الأمر العظيم الذي قلّ ما يخلو منه مجتمع أو مذهب، فإنّه بعد أن نفى جلّ شأنه كون التمنّي موجباً لكسب فضيلة أو جلب منفعة أو نيل جزاء، فضلاً عن الجزاء العظيم الذي أعدّه الله تعالى للمؤمنين، إلّا أنّ هذا النفي القاطع الحاسم قد يجعل المؤمن الذي يدخل في دين ـ سواء كان دين الإسلام أم النصرانيّة أم اليهوديّة ـ مورد السؤال؛ لأنّ الدخول في الدين إذا لم يكن

نافعاً ولم يجر له خيراً فماذا يفعل وهذه هي حاله، بل أنّ كلّ سامع لذلك يتشوّق إلى استبانة الحقّ وحكم الله تعالى في هذا الأمر، فيبيّن عزّ وجلّ الجواب في هذه الآية الكريمة عقيب تلك الآية الشريفة بغير فصل وبصيغة العموم، فقال تعالى: إنّ كلّ مَن يعمل سوءاً يجد جزاءه ولم يكن له وليّ ولا نصير ينصره من جزاء أعماله، كما أنّ مَن يعمل من الصالحات يدخل الجنّة.

ثمّ إن إطلاق قوله تعالى: ﴿يُجْزَ بِهِ﴾ يشمل جزاء الدُّنيا ممّا قرّرته الشريعة ـ كالقصاص، والحدود، ونحو ذلك ـ وكذا الأمراض وأنواع الأسقام والهموم أو الغموم والمصائب، ممّا لم يكن للإنسان فيه الاختيار، كما يدلّ عليه بعض الأحاديث على ما يأتي في البحث الروائي ـ والجزاء الأُخروي الذي أوعده الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم وعلى لسان نبيّه العظيم ﷺ.

كما أنّ إطلاق قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً﴾ يشمل ما إذا كان السوء من المعاصي الكبيرة أم الصغيرة، أم غير المعاصي حتّى لو كان من مساوئ الأخلاق والأفعال السيّئة العرفيّة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾.

فإنّ ترتّب هذه الآية المباركة على سابقتها كترتّب المعلول على العلّة التامّة، فإنّ مَن يعمل السوء يجد جزائه وهو يتحمّل تبعاته، ولا يصرفه عنه صارف؛ لأنّه من الأثر الطبيعي لعمله، ولن يتخلّف الأثر عن مؤثّره، فلا يوجد ولي من الأولياء الّذين يواليهم يصرف عنه الجزاء، ولا نصير ينصره ويدفع عنه العذاب، إلّا أن يأذن الله تعالى لهم في الشفاعة.

ولا فرق في الولي بين من كان معصوما كالنبيّ أو الإمام، أو غير معصوم ممّن يعتقد ولايته.

ولعلّ ذكر الولي والنصير كليهما ليشمل صارف الدُّنيا والآخرة، فالولي في

الدُّنيا والنصير في الآخرة ، أو ليشمل جميع أنحاء التقرّب من الإسـلام والديـن والنسب والتقرّب إلى الأولياء والأنبياء وغيرهم ممّا يعتقد نفعه .

قوله تعالى : **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾** .

بيان لحقيقة من الحقائق الواقعيّة ، وهي أنّ النجاة في الدُّنيا والآخرة إنّـما تكون بالإيمان والأعمال ، وهذا هو الدين الحقيقي ، وقد اشترط عزّ وجـلّ فـي النجاة من العذاب أمرين:

الأوّل: الإيمان، قال تعالى : **﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾** ، وتدلّ عليه آيات أخرى ، قـال تعالى : **﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[١] ، فلا فائدة في العمل بدونه .

والثاني: العمل الصالح ، فإنّ الجزاء الأحسن إنّما يكون بأزاء العمل الصالح ، ويستفاد من ذلك أنـّه لا جزاء حسنا على أعمال الكافر وإن كانت صالحة ، فـلا اعتداد بها إلّا أنـّه قد تفيده في تخفيف بعض أنواع العذاب ، كما تدلّ عليه بعض الأخبار ، كما أنـّه لا ينال الجزاء العظيم الذي خلا عن العمل الصالح .

و(من) في قوله تعالى : **﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾** تبعيضيّة تـدلّ عـلى أنّ الإتـيان ببعض الأعمال الصالحة يكفي في نيل الجزاء الأحسن ، ويتدارك به ما بقي مـن الأعمال الصالحة ، كما يتدارك به وبالتوبة آثار المعاصي والسيّئات التي يقترفها المؤمن ، قال تعالى : **﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾**[٢] ، وقال تعالى : **﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾**[٣] ، تقدّم في قوله تعالى : **﴿لَا يَـغْفِرُ أَنْ يُشْـرَكَ بِـهِ**

---

١ . سورة الأنعام : الآية ٨٨.

٢ . سورة هود : الآية ١١٤.

٣ . سورة النساء : الآية ١٧.

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[1] بعض الكلام، كما مرّ تفصيل المقال في بحثي التوبة والشفاعة في سورة البقرة فراجع.

وذكر بعضهم أنّ (من) في الآية الكريمة زائدة، ولكنّه بعيد عن سياق الآية المباركة التي هي في مقام البيان والدقّة فيه، كما أنّ كونها تبعيضيّة يناسب الفضل الإلهي العميم.

و(من) في قوله تعالى: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ للتأكيد على أنّ النساء لهن المثوبة كما تكون للرجال، ولا فرق بين الفريقين عند الله تعالى في الجزاء الحسن والأجر العظيم، إلّا أن يكون التفاوت من ناحية أعمالهم.

كما تدلّ الآية الكريمة على تساوي النساء والرجال في أُمور الدين، وأنّ الأعمال الصالحة تصلح النفوس مطلقاً، سواء كان العامل ذكرا أم أُنثي. وفيها ردّ على مزاعم بعض الناس في النساء، حيث اعتبر وهن ذليلات في الخلقة، وحرّموهن من كثير من أُمور الدُّنيا، حتّى وصل الأمر إلى إهلاكهن عند بعض الأقوام، كما كانت العادة عند مشركي العرب، وقد تقدّم في قوله تعالى: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾[2] فراجع.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾.

تأكيد لما ذكره عزّ وجلّ آنفاً من وصول كلّ من عمل الصالحات إلى الجزاء الحسن والثواب الجزيل، من غير أن ينقص منه شيء ولو كان حقيراً تافهاً. كما يدلّ أيضا على أنّ النساء والرجال متساوون في نيل الجزاء ودرك الثواب، ولا فرق بينهما في ذلك من حيث الزيادة والنقيصة، إلّا أن يكون التفاوت من ناحية

---

١. سورة النساء: الآية ١١٦.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٩٤.

أعمالهم ، فلا يظلمون من أجور أعمالهم ولو كان بقدر النقير ، وهو الثقبة الصغيرة في ظهر النواة ، ومنها تنبت النخلة ، وصار علماً للقلّة والحقارة ، وفي حديث ابن عبّاس في الآية الشريفة : «وضع طرف إبهامه على باطن سبابته ثمّ نقرها وقال هذا النقير» ، وتقدّم الكلام في آية ٤٩ و٥٣ من هذه السورة في اشتقاق الكلمة . ونبّه عزّ وجلّ بعدم تنقيص الثواب ، فبالأحرى أن لا يزاد عقاب العاصي أيضاً ، وإنّما لم يذكره عزّ وجلّ؛ لأنّه أرحم الراحمين ، وفضل منه جلّت عظمته للعبيد ، والمقام مقام الترغيب الى العمل الصالح .

وعن بعضٍ: أنّ الحكمة في ذلك ـ مضافاً إلى ما تقدّم ـ لئلّا يفلس العبد لو اجتمع الخصماء في يوم القيامة عنده ، فيدفع إليهم واحدة ويبقى له البقيّة ، وهذا من لطفه وعنايته لعباده؛ لأنّ مظالم العباد توفّى من التضعيفات لا من أصل الحسنات ، فما ذكره يرجع بالآخرة إلى ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ .

بعد أن بيّن عزّ وجلّ أمر الدين، وأنّ حقيقته عند الله تعالى هو الاعتقاد السليم والعمل الصالح ، وأنّ السعادة منوطة بهما معاً ، كما أنّ الجزاء مطلقاً ـ حسناً كان أم سيّئاً ـ إنّما يكون على الأعمال، فلا جزاء بدون عمل ، ولا عمل بدون جزاء ، يبيّن عزّ وجلّ في هذه الآية الشريفة أنّ للإيمان مراتب متفاوتة أدناها مجرّد الدخول فيه؛ لأنّ للدين والإيمان بالله تعالى كرامة ، وهو حسن على كلّ حال ، بل الإنسان لا مناص له عن الدين ، فإنّه أمر فطري ، وهو لا محالة يرجع إليه في كثير من شؤونه الدنيويّة والأُخرويّة ، وإن أنكره بلسانه ، وأعلى تلك المراتب وأحسنها التي بها يحوز درجات الثواب ، الإيمان الخالص ، وهو التوحيد الكامل لله تعالى وتوجيه القلب إليه، والتسليم والإحسان في العمل ، وهذا هو ملّة إبراهيم عليه السلام التي أمرنا الله تعالى باتّباعها ، وهي أيضاً ملّة محمّد صلى الله عليه وآله ، وتقدّم في

قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾[1]، أنّ المراد منه جعل وجهه خالصاً لله تعالى لا يتوجّه لغيره أبداً، منقاداً ومستسلماً له عزّ وجلّ، يأتمر بأوامره وسائر تشريعاته، خاضعاً له خضوع عبوديّة ومقهوريّة، وهذا هو الإيمان الخالص من شوائب الشرك، وهو التوحيد الكامل الذي به وصل الأنبياء عليهم السلام والأولياء إلى المقامات العالية، وحازوا شرف القرب لديه عزّ وجلّ، وفيه تظهر عبودية المؤمن، فيكون ترتّب قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ على صدر الآية المباركة ترتّباً عليّاً، فإنّ مَن أسلم وجهه لله يستلزم أن يظهر عليه أمارات العبوديّة ـ على أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته ـ ويتخلّق بأخلاق الله تعالى، فيحسن في العمل بإتيان العبادات وترك ما ينافي العبوديّة.

وإنّما خصّ عزّ وجلّ الوجه بالذكر دون سائر أعضاء الإنسان، مع أنّ الإسلام لله تعالى، لابدّ أن يظهر على جميع جوارحه؛ لأنّ الوجه أهمّ مظهر للإنسان، ومنه يعرف حالاته وما يكمنه في قلبه ويكنّه في نفسه من الفرح والسرور، والإقبال والإدبار، والخشوع و الخضوع وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾.

الحنيف: الميل عن الوثنيّة والشرك، والملّة الحنيفيّة هي الملّة المائلة عن الشرك والوثنيّة، والزائغة عن الأديان الباطلة، وهي من صفات دين الإسلام، وقد وصف بها خليل الله تعالى لتبرّئه عن الشرك والأوثان، ودعوته إلى عبادة الواحد الأحد.

والآية الشريفة بيان لما سبق، أي أنّ تسليم الوجه لله تعالى، والإحسان في العمل إنّما هو في اتّباع ملّة إبراهيم عليه السلام والإعراض عن سائر الأديان الفاسدة

---

١. سورة البقرة: الآية ١١٢.

والأهواء الزائفة، ومن تبعها فقد دخل في جميع الأديان الإلهيّة، لا سيما دين خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله لأنها هي ملّته عليه السلام أيضاً.

وفي الآية المباركة التأكيد على أنّ ملّة إبراهيم عليه السلام هي صفوة الأديان؛ لأنّ فيها التوحيد الخالص وإحسان العمل، وقد تردّد في القرآن الكريم كثيراً ذكر الصلة بين دين محمّد صلى الله عليه وآله وملّة إبراهيم عليه السلام؛ لأنّ إبراهيم عليه السلام ما كان يدعو إلّا إلى التوحيد ونبذ الأنداد والإحسان في العمل، وهذه هي دعوة أشرف الأنبياء وخاتمهم صلى الله عليه وآله؛ ولأنّ العرب ومشركي قريش بالخصوص وأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا يدّعون أنّهم على دين إبراهيم عليه السلام. فالآية الكريمة تأخذهم بما أقرّوا به فتقول: إن من كان على ملّة إبراهيم عليه السلام فلابدّ أن يدخل في دين محمّد صلى الله عليه وآله؛ لأنّهما تلتقيان في التوحيد ونبذ الأنداد والإحسان في العمل، وهذه حقيقة الدين التي لا اختلاف فيها، التي أمرنا الله تعالى باتّباعها في ما سبق من الآيات الكريمة التي فيها ردّ على الضالّين المتّبعين للشيطان، المشغولين بالأماني الخادعة.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾.

ترغيب إلى اتّباع ملّة إبراهيم عليه السلام والدخول في حقيقة الدين، وبيان إلى أنّ مَن أسلم وجهه لله وهو محسن يسلك مسلك إبراهيم، فيتّخذه الله تعالى خليلاً، وأيماء إلى أنّ إبراهيم هو أوّل مَن أسلم وجهه لله محسناً، وإيذان بأنّ إبراهيم في نهاية الحسن ومنتهى الشرف وكمال العبوديّة، لتخصيص اسمه الشريف بالذكر. أي أنّ الله تعالى اصطفاه وخصّه بكرامة الخلّة، وهي من المقامات العالية والمنازل الرفيعة، ولن ينالها إلّا الأوحدي الذي ترك ما سواه عزّ وجلّ لوجهه الكريم، فأورد في قلبه محبّة لمعبوده وتوجّهاً لخالقه، ولم يصل الخليل إلى هذا المقام إلّا بعد اجتياز مراحل وطي منازل كثيرة، وهي مرحلة الفتنة والافتنان ثمّ الامتحان

ثمّ التسليم، ثمّ العبوديّة، ثمّ النبوّة، ثمّ الرسالة، ثمّ الخلّة، ثمّ الإمامة، وقد اجتازها إبراهيم عليه السلام كلّها بأمان، فخصّه الله تعالى بالخلّة والإمامة، كما يظهر ذلك من الآيات الشريفة التي نزلت في حقّ إبراهيم عليه السلام، وفي الحديث عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبيّاً، وأنّ الله تعالى اتّخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً»، ولعلّ ذكره في صدر الآية المباركة وتوصيفه بكونه حنيفاً لأجل بيان استعداده لنيل مقام الخلّة. وأنّ ترك ما سوى الله تعالى وتسليم الأمر إليه عزّ وجلّ، ممّا يوجب استعداد الفرد للوصول إلى هذه المنزلة.

ثمّ إنّ الخلة الإلهيّة كالخلّة التي هي بين الناس، تبتني على فرط الحبّ بين الحبيبين، وتخلّلها في القلب، وتمازجها مع النفس، إلّا أنّ الخلّة الإلهيّة تخالف الخلّة الدائرة بين الناس المبتنية على الأُمور الماديّة التي تكون الأواصر الدنيويّة فيها أشدّ من الأواصر المعنويّة الروحانيّة. وأمّا الخلّه الإلهيّة، فهي ليس فيها خلل، فقد أحبّه الله تعالى محبّة تامّة، واصطفاه عندما أظهر صدقه وإخلاصه لله تعالى ومحبّته له محبّة كاملة ملأت جميع مشاعره، فلم يتوجّه إلّا إليه عزّ وجلّ ولم يتخلّلها وهن ولا ضعف ولا فترة ولا شائبة من شوائب المادّة، وبذلك صار إبراهيم عليه السلام خليلاً لله تعالى وبها أصبح قدوة لكلّ خليل إلهي وإماماً لجميع الأنبياء والمرسلين.

ومادّة (خلل) تدلّ على الحاجة والفقر، ومنه سُمّي الخليل خليلاً؛ لأنّ كلّ واحد من الخليلين محتاج إلى وصال الآخر وغير مستغن عنه، وإلى هذا المعنى يمكن إرجاع بقية المعاني التي ذكرت لهذه المادّة، فإنّ منها: الخِلال (بكسر الخاء)، أي المودّة التي تتخلّل النفس وتخالطها، بحيث تسلب منها الإرادة إلّا ما كانت في جهة إرادة الحبيب، كما قال الشاعر:

قد تـخلّلت مسـلك الروح مـنّي ولذا سُـمّي الخـليل خـليلا
فـإذا مـا نـطقتُ كـنت حـديثي وإذا مـا سكتّ كـنت الغـليلا

ومنها: الخَلل (بفتح الخاء)، بمعنى أنّ كلاً من الخليلين يصلح خلل الآخر، لشدّة الوصال بينهما.

ومنها: الخَلل (بالفتح)، وهو الطريق في الرمل؛ لأنّ الخليلين احتاج كلّ واحد الى الآخر فتوافقا من كلّ جهة.

ومنها: الخُلّة (بفتح الخاء) بمعنى الخصلة والخُلُق؛ لأنّهما يتوافقان في الخصال والأخلاق، فإنّ جميع هذه المعني ترجع إلى ما ذكرناه من شدّة الارتباط بينهما، واحتياج كلّ واحد منهما إلى الآخر، وهذا المعنى ينطبق على خليل الله عليه السلام لوصل حبّه له جلّ شأنه إلى درجة لم يكن له إرادة إلّا ما أراده الله تعالى، فتخلّق بأخلاق الله تعالى، وأمّا بالنسبة إليه عزّ وجلّ فقد أحبّ إبراهيم عليه السلام حبّاً كاملاً خالصاً من كلّ نقص.

وعلى أي حال، فإنّ الخلّة والحبّ أمران وجدانيان لم يكد يظهر إلّا للعارف المتألّه الذي بذل نفسه ونفيسه لله تعالى، ولم تكن إرادة له إلّا ما يريده عزّ وجلّ، كما عرف بذلك خليل الله تعالى، وللخليل منزلة عظيمة إلّا أنّها لا تصل الى منزلة الحبيب، كما تقدّم في الآيات السابقة المناسبة للمقام، وسيأتي مزيد بيان في البحث العرفاني.

والخليل: فعيل بمعنى المفعول، كالحبيب الذي هو بمعنى المحبوب.

قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾.

تعليل لما ذكره عزّ وجلّ في الآية الكريمة السابقة، أي أنّ الله تعالى مالك لجميع ما في السماوات وما في الأرض، وأنّ جميع الموجودات له تعالى خلقاً وأمراً وملكاً، فلا يخرج عن ملكه وملكوته شيء، فلابدّ أن تكون عمل الصالحات

له، وهو يختار من عباده مَن يشاء ويصطفيه بمحض مشيئته، كما اختار إبراهيم عليه السلام وجعله خليلاً، وأنّ اختياره لم يكن لأجل حاجة وافتقار كما في الخلّة بين الناس، فإنّها قائمة على الفقر والحاجة بين الطرفين، والله تعالى منزّه عنهما.

والآية الشريفة تدلّ على أنّ جميع ما سواه محتاج إليه عزّ وجلّ، وهو مستغن عنها، كما ثبت ذلك أيضاً بالبراهين العقليّة.

قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً**﴾.

أي: أنّ الأشياء كلّها مسخّرة تحت إرادته وقهّاريته، وهو محيط بها إحاطة علم وقدرة وتدبير وقهر وغلبة، فهو محيط بأفعال عباده وسيجازيهم بها جزاءً تامّاً.

والآية الكريمة دليل على أنّه وحده المستحقّ للعبادة، وإسلام الوجه إليه على كلّ حال، وهذا هو الدين، لا ما يذكره أهل التمنّي والأهواء الباطلة، وفي الآية المباركة التذكير بقدرته تعالى على إنجاز وعده ووعيده.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

اسم (ليس) في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ مستتر فيها يعود على الوعد بالمعنى المصدري، أو الموعود المستفاد من سياق الآية الشريفة، فهو قسم من الاستخدام الذي هو من الأساليب البديعيّة المعروفة ومن المحسنات في الكلام.

والباء في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ قيل: إنّها زائدة، والحقّ أنـّها مثل الباء في قولهم: (زيد بالباب)، لم تكن زائدة.

والأماني في الموضعين بتشديد الياء، وقرأ بعضهم بتخفيف الياء فيهما معاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ بالجزم عطفاً على قوله تعالى: ﴿يُجْزَ بِهِ﴾، وقرأ بعضهم بالرفع استئنافاً.

و (من) الجارّة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾، وهي الموافقة لكرمه وسعة رحمته عزّ وجلّ، وقيل: إنّها زائدة، ولكنّه ليس بشيء لما عرفت غير مرّة أنـّه لا معنى للزيادة في القرآن الكريم.

وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ﴾ إشارة إلى من اتّصف بالعمل الصالح، والجمع باعتبار معناها، والإشارة بالبعيد لأجل علوّ مقامهم وبُعد منزلتهم، والمعروف قراءة «يدخلون» مبنيّاً للمعلوم من دخل، وقرأ بعضهم مبنيّاً للمفعول من الإدخال.

و(ديناً) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً﴾ منصوب على التمييز من (أحسن) منقول من المبتدأ، أي: ومن دينه أحسن من دين مَن أسلم.

و﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مبتدأو خبر، والجملة في موضع الحال، وحنيفاً حال من

إبراهيم أو من فاعل اتّبع.

وجملة ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ قيل: إنّها حاليّة بتقدير «قد»، وقيل: إنّها عطف على حنيفاً، وقيل: إنّها عطف على ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾. والحقّ أنّها جملة بيانيّة مستقلّة متضمّنة لتعليل ما سبق.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات المباركة على أُمور:

الأوّل: يستفاد من ترتّب قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ على قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ أنّ هذه الأماني من غرور الشيطان وأمانيه، التي تضرّ بحال الإنسان وتصدّه عن نيل الكمال والبلوغ إلى مقام القرب وتحصيل السعادة.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ على أنّ الجزاء مترتّب على العمل كترتّب المعلول على العلّة التامّة بحسب سنّة الله تعالى: ﴿لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾[1]، وعمومه يشمل كلّ جزاء، سواء كان في الدُّنيا أو في الآخرة، وسواء كان الجزاء حكماً شرعيّاً أو لم يكن كذلك، وهو يدلّ أيضاً على أنّ ما يصيب الإنسان من السوء في الدارين إنّما يكون من سوء فعله، وتدلّ عليه جملة من الروايات الآتية في البحث الروائي، وذكرنا أنّ إطلاق السوء يشمل حتّى السيّئات العرفية ومساوئ الأخلاق، فضلاً عن المحرّمات الإلهيّة والمعاصي والمنكرات.

الثالث: يدلّ قوله تعالى: ﴿يُجْزَ بِهِ﴾ أنّ الجزاء يترتّب على فعله، بلا فرق بين أن يكون متوجّها إلى نفسه أو إلى من يتعلّق به، فما يصيب الأطفال والأعقاب

---

١. سورة فاطر: الآية ٤٣.

إنّما يكون نتيجة فعل الآباء والأجداد، وتدلّ عليه جملة من الروايات ذكرنا بعضها في المباحث السابقة، وفي ذلك حِكَم كثيرة لعلّنا نتعرّض لها في مستقبل الكلام، بعد فسحة الحال، ورفع الشدائد التي توجّهت على المؤمنين من ظالمٍ غاشم، نسأل الله تعالى الفرج بحوله وقوته جلّ شأنه.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾** على أنّ صرف العبد نفسه بكلّيتها لله تعالى وتسليمها إليه ـ بحيث يعرض عن الأغيار حتّى صار مشاهداً للجمع في عين التفصيل ـ من أعلى المراتب التي يمكن أن يبلغها البشر، وبها يستعدّ أن يصل إلى المقام الخلّة، ولا يمكن الحصول عليه إلّا باتّباع ملّة إبراهيم عليه السلام الذي حاز على هذا الوسام الإلهي لاجتيازه كلّ تلك المراحل التي يأتي بيانها.

***

بحث روائي:

عن علي بن إبراهيم قوله تعالى: **﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾** يعني: «ليس ما تتمنّون أنتم ولا أماني أهل الكتاب أن لا تعذّبوا بأفعالكم».

أقول: الروايات في ذلك كثيرة من الفريقين، والمستفاد منها أنّ العذاب والثواب لا يكونان إلّا على الكفر أو الإيمان والعمل الصالح كما مرّ، وليس لأحد التحدّي في سلطانه تعالى، وأنّه ليس لأحد ولا لأُمّة التقرّب عنده عزّ اسمه إلّا بالتقوى، فما قالته قريش: لا نبعث ولا نحاسب، وما قالته اليهود والنصارى: **﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾**[1]، أو: **﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾**[2]، كلّها مجرّد أوهام لا واقع لها، بل هو يعذّبكم ويثيبكم بأفعالكم

---

١. سورة البقرة: الآية ١١١.

٢. سورة البقرة: الآية ٨٠.

وأعمالكم، وأنّ الإيمان ليس بالتحلّي ولا بالتمنّي، وإنّما الإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل كما تقدّم، وأنّ التمنيات من سبل الشيطان فلابدّ من نبذها.

وفي «الدرّ المنثور» عن أبي صالح، قال: «جلس أُناس من أهل التوراة وأهل الإنجيل وأهل الإيمان، فقال هؤلاء: نحن أفضل منكم، وقال هؤلاء: نحن أفضل، فقال الله: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾، ثمّ خصّ الله أهل الإيمان فقال: ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ**﴾».

أقول: قريب منه ما في «أسباب النزول» للواحدي، والروايات بهذا المضمون كثيرة، وكلّها من باب التفسير للآية الكريمة.

وفي «أسباب النزول» للواحدي عن مسروق: «احتجّ المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نحن أهدى منكم، نبيّنا قبل نبيّكم وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أهدى منكم وأولى بالله، نبيّنا خاتم الأنبياء، وكتابنا يقضي على الكتب التي قبله، فأنزل الله تعالى: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾، ثمّ أفلج الله حجّة المسلمين على مَن ناوأهم مَن أهل الأديان بقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ**﴾، وبقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ**﴾».

أقول: أفلج: أي غلّب الله حجّة المسلمين على غيرهم.

وعن معن بن يزيد: «بايعت رسول الله ﷺ وخاصمت إليه فأفلجني»، أي حكم لي وغلّبني على خصمي.

وكيف كان، فالروايات لا تدلّ على شيء زائد غير ما يستفاد من الآية الكريمة، وهي مع اختلافها من باب التطبيق.

وفي «تفسير العيّاشي» عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «لما

نزلت هذه الآية : ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾، قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ : ما أشدّها من آية ، فقال لهم رسول الله : أما تبتلون في أموالكم وفي أنفسكم وذاريكم؟ قالوا : بلى ، قال : هذا ممّا يكتب الله لكم به الحسنات ويمحو به السيّئات».

أقول : ابتلاء المؤمن في نفسه ـ بالآلام والهموم والمحن ـ أو في أمواله الموجب للحطّ والتكفير ممّا لا إشكال فيه، كما دلّت عليه الآية الكريمة ، وإنّ ذلك مطابق لقاعدة أنّ الأجر على قدر المصاب ـ خصوصاً لو كان المصاب في سبيل الله تعالى، أو ما استلزم الانقطاع إليه عزّ اسمه ـ بلا فرق في الأجر بين المادّي والمعنوي ، كغفران الذنوب أو بلوغ مرتبة ونيل كرامة .

وأمّا الذراري ، فإنّ محنهم وآلامهم ومصائبهم توجب الأجر للآباء ، مع أنّهم لم يصيبوا منها بشيء؛ لأنّ هموم الأولاد والذراري توجب هموم الآباء ، ولكلّ همّ أجر ، فيردّ الأجر عليهم كما يردّ على نفس الأولاد والذراري أيضاً .

أو لأنّ الآباء صاروا سبباً لإيمان الذراري والأولاد أو كفرهم ، فكلّ ما طرأ على الذراري من الأجر يصل إلى الأسباب أيضاً ، كما دلّت عليه الأدلّة العقليّة والنقليّة ، ففي «العوالي» عن الصادق عليه السلام : «أوحى الله إلى موسى عليه السلام : إنّي مجازي الأبناء بسعي الآباء ، إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشرّ ، لا تزنوا فتزني نساؤكم ، مَن وطئ فراش مسلم وطئ فراشه . كما تدين تُدان» .

أو لأنّ فعل الأولاد يرجع بالآخرة إلى الآباء والأجداد ، فيرد عليهم الأجر كما يرد على نفس الأولاد والذاري ، ويدلّ عليه إطلاق الآية الكريمة : ﴿يُجْزَ بِهِ﴾ ، سواء كان الجزاء على الفاعل أو من يتعلّق به .

كما أنّ إطلاق السوء يشمل ما كان من المعاصي ـ كبيرة كانت أو صغيرة ـ أو من غيرها ، حتّى لو كان من مساوئ الأخلاق والأفعال السيّئة العرفيّة الاجتماعيّة .

والروايات ـ في أنّ البلايا والمحن والهموم وما يرد على المؤمن من الظلم مكفّرة للمعاصي والذنوب، أو يبلغ بها منزلة وكرامة عند الله تعالى ـ فوق حدّ التواتر، وموافقة للقاعدة العقليّة كما يأتي.

وفي «صحيح البخاري» عن أبي سعيد الخدري، قال: «قال رسول الله ﷺ: ما يصيب المؤمن من نصب، ولا همّ، ولا حزن، ولا غمّ حتّى الشوكة يشاكها إلّا كفَّر الله تعالى من خطاياه».

أقول: لعلّ الوجه في ذلك أنّ تلك الحالات للمؤمن أقرب للانقطاع إليه جلّت عظمته، فيكافئه الربّ الرحيم إمّا بغفران الذنوب، أو ببلوغ منزلة.

وعن البيهقي في «الأسماء والصفات» بسنده عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «إذا سبقت للعبد منزلة لم يبلغها بعمله، ابتلاه الله في جسده أو في ماله، أو في ولده، ثمّ صبّره حتّى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله».

أقول: يستفاد منه أنّ البلوغ إلى المنزلة لابدّ وأن يكون بالسعي، سواء كان اختياراً أو غير اختياري، كالمحن والبلايا، بل لا يستحقّ منزلةً منه تعالى إلّا بذلك، ففي الأثر: «مرّ موسى عليه السلام على رجل في معبد له ثمّ مرّ به بعد ذلك وقد مزقت السباع لحمه، فرأس ملقى، وفخذ ملقى، فقال موسى: يا ربّ عبدك كان يطيعك فابتليته بهذا؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى إنّه سألني درجةً لم يبلغها بعمله فابتليته بهذا لأبلغه بتلك الدرجة»، فتكون جميع هذه الروايات مطابقة للقاعدة من أن العبد لو لم يفتن في هذه الدُّنيا ـ أو في عالم البرزخ على ما تقدّم ـ ولم يبتل بالبلايا والمحن حتّى يتحقّق السعي، لم يبلغ تلك الدرجة الكاملة في الإيمان، ولم يصل إلى تلك المقامات العالية، وهذه القاعدة في الأنبياء والأولياء أشدّ من غيرهم؛ لأنّ معرفتهم أكثر من غيرهم، وقد سُئل نبيّنا الأعظم ﷺ: «أي الناس أشدّ بلاء؟ قال: النبيّون ثمّ الأمثل من الناس، فما يزال العبد بالبلاء حتّى

يلقى الله وما عليه من خطيئة».

وعن البيهقي عن عامر أخي الخضر، قال: «إنّي لبأرض محارب إذا رايات وألوية، فقلت: ما هذا؟ قالوا: رسول الله ﷺ، فجلست إليه وهو في ظلّ شجرة قد بسط له كساء وحوله أصحابه، فذكروا الأقسام فقال ﷺ: إنّ العبد المؤمن إذا أصابه سقم ثمّ عافاه الله، كان كفّارة لما مضى من ذنوبه، وموعظة له فيما يستقبل من عمره، وإنّ المنافق إذا مرض وعوفي كان كالبعير عَقَله أهله ثمّ أطلقوه، لا يدري فيمَ عقلوه ولا فيم أطلقوه؟! فقال رجل: يا رسول الله وما الأسقام؟ قال ﷺ: أوَ ما سقمت قط؟! قال: لا، قال ﷺ: فقم عنّا فلست منّا».

أقول: يستفاد من هذا الحديث أُمور:

الأوّل: أنّ التكفير يختصّ بالمؤمن، وأنّه أمرٌ وضعيّ.

الثاني: أنّ المؤمن لابدّ وأن يصيب من البلايا والمحن، فإذا لم يصبه شيء منهما ولو كان قليلاً لم يكن إيمانه كاملاً.

الثالث: أنّ الحطّة أو التطهير يكونان بعد مقام التسليم والرضا له تعالى، فلو صدر منه شكوى إلى الناس تنافي ذلك المقام، يكون التكفير منوطاً بالشفاعة وغيرها.

الرابع: أنّ الحطّة أو التكفير إنّما يكون بعد أداء حقوق الناس، للروايات الدالّة على ذلك كما مرّ.

وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «إنّ الجنّة محظور عليها بالدآليل»، أي: الدواهي والمكاره.

أقول: لا فرق في ذلك بين أن يكون في هذه الدُّنيا أو في عالم البرزخ، وأنّها من أي الأنواع كانت كما مرّ.

وعن البيهقي في «سننه» عن طريق بشير بن عبد الله بن أبي أيوب

الأنصاري عن أبيه عن جدّه، قال: «عاد رسول الله ﷺ رجلا من الأنصار فأكبّ الأنصاري عليه فسأله، فقال: يا نبي الله، ما غمضت منذ سبع ليال ولا أحد يحضرني، فقال رسول الله ﷺ: أي أخي اصبر، أي أخي اصبر تخرج من ذنوبك كما دخلت فيها، فقال ﷺ: ساعات الأمراض (أو البلايا) يذهبن ساعات الخطايا».

أقول: يستفاد منه أنّ التكفير أمر وضعي وإن كان مشروطاً بشروط، كما تقدّم في المباحث السابقة.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم» في قوله تعالى: **﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾** قال: «هي الحنيفيّة العشرة التي جاء بها إبراهيم عليه السلام التي لم تنسخ إلى يوم القيامة».

أقول: إنّ العشرة الحنيفيّة قد فسّرت في بعض الروايات: «إنّ الحنيفيّة هي الإسلام»، وإنّها مذكورة في الفقه، ويشمل غيرها من الأحكام بطريق أولى، وهي خمس في الرأس وخمس في البدن:

فأمّا التي في الرأس: فأخذ الشارب، وإعفاء اللحي، وطم الشعر (أي جزّه)، والسواك، والخلال.

وأمّا التي في البدن: فحلق الشعر من البدن، والختان، وقلم الأظفار، والغسل من الجنابة، والطهور بالماء، وهذه الحنيفيّة الظاهرة.

وأمّا أنّها لم تنسخ لكونها هي الفطرة غير القابلة للنسخ وتقدّم في قوله تعالى: **﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾**[1] ما يتعلّق بالمقام.

وعن ابن بابويه في «العيون» بإسناده عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: «سمعت أبي يحدّث عن أبيه عليه السلام قال: إنّما اتّخذ الله خليلاً؛ لأنّه لم

---

١. سورة البقرة: الآية ١٣٥.

يرد أحداً ولم يسأل أحداً قط غير الله عزّ وجلّ».

أقول: وقريب منه ما عن نبيّنا الأعظم ﷺ، وتقدّم أنّ الخلّة من الخلال، فإنّه ودّ تتخلل في النفس وتخالطها ولم يكن معه غيره، وإلّا خرج عن الخليليّة والودّية.

والروايات الواردة في سبب اتّخاذ إبراهيم خليلاً كثيرة، وهي مختلفة كما سيأتي، ويمكن رفع الاختلاف بأنّ إبراهيم عليه السلام إنّما صار خليلاً لتخلّقه بأخلاق الله تعالى واتّصافه بسمو نعوته والانقطاع إليه، ولم يتّصف بصفة منها دون الأُخرى، فالروايات كلّها على اختلافها صحيحة من باب ذكر بعض الصفات، ولا يعقل أن ينقص من إبراهيم عليه السلام الذي هو من مظاهر رحمته وإنّه الوفي شيئاً من المكارم وسمو الصفات، ويمكن استفادة ذلك من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً**﴾[1]، أي قائماً مقام الأُمّة في ذروة الصفات الحسنه وأسماها.

وقد تجلّت هذه الخلّه والمحبّة والمقام المحمود لنبيّنا الأعظم ﷺ، فنال شرف الوصول إلى قرب الذات، وتكرّم بوسام الفخر بالتفوّق والشرف على جميع الأنبياء كما مرّ.

وفي «العيون» بسنده عن ابن أبي عمير عن الصادق عليه السلام، قلت له: «لِمَ اتّخذ الله عزّ وجلّ إبراهيم خليلاً؟ قال: لكثرة سجوده على الأرض».

أقول: هذه الرواية تدلّ على أنّ السبب في اتّخاذه تعالى خليلاً هو الانقطاع إليه عزّ اسمه بالعبادة، فإنّ السجود على الأرض من أجلّ العبادات وأسماها، وفي بعض الروايات لكثرة صلاته على محمّد وأهل بيته، فهي أيضاً منها. وفي حديث جابر بن عبد الله الأنصاري عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «ما اتّخذ الله إبراهيم خليلاً إلّا لإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام»، فإنّ إطعام الطعام من مظاهر صفاته

---

١. سورة النحل: الآية ١٢٠.

تعالى، أي الجود.

وفي «الدر المنثور» عن النبيّ ﷺ عن جبرئيل عليه السلام أنّه هبط على إبراهيم عليه السلام وقال: «أيّها الخليل هل تدري بمَ استوجبت الخلّة؟ فقال: لا أدري يا جبرئيل، قال: لأنّك تعطي ولا تأخذ».

أقول: وفي بعض الروايات: «لأنّك ترزأ ولا ترزأ»، أي تعطي للناس ولا تأخذ منهم شيئاً، وهذا من مظاهر الربوبيّة ومنتهى الانقطاع منه عليه السلام إليه تعالى.

وفي «تفسير العيّاشي» عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «لمّا اتّخذ الله عزّ وجلّ إبراهيم خليلاً أتاه بشراه بالخلّة، فجاء ملك الموت في صورة شاب أبيض عليه ثوبان أبيضان يقطر رأسه ماءً أو دهناً، فدخل إبراهيم عليه السلام الدار فاستقبله خارجاً من الدار، وكان إبراهيم رجلاً غيوراً وكان إذا خرج في حاجة أغلق بابه وأخذ مفتاحه معه ثمّ رجع ففتح، فإذا هو برجل قائم أحسن ما يكون الرجال فأخذ بيده وقال: يا عبد الله مَن أدخلك داري، فقال ربّها ادخلنيها، فقال: ربّها أحقّ بها منّي فمَن أنت؟ فقال: أنا ملك الموت، ففزع إبراهيم عليه السلام وقال: جئتني لتسلبني روحي، قال: لا، ولكن اتّخذ الله عبداً خليلاً فجئت لبشارته، قال: فمَن هو لعلّي أخدمه حتّى أموت، قال: أنت، فدخل على سارة فقال: إنّ الله تعالى اتّخذني خليلاً».

أقول: لعلّ السرّ في أنّ البشرى بالخلّة كانت بتوسّط ملك الموت؛ لأنّ الوصول بمقام الخلّة لا يكون إلّا بإماتة القوى الحيوانيّة موتاً اختيارياً، فكان صورة فعل إبراهيم عليه السلام تجسّد له بصورة ملك الموت، والرواية مرويّة عن طريق العامّة أيضاً باختلاف يسير كما في «الدرّ المنثور».

وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام: «انّ إبراهيم كان أبا أضياف، وكان إذا لم يكونوا عنده يخرج يطلبهم وأغلق بابه وأخذ المفاتيح يطلب الأضياف، وأنّه رجع إلى داره فإذا هو برجل أو شبه رجل في الدار، فقال: يا عبد الله بإذن مَن

دخلت هذه الدار؟ فقال: دخلتها بإذن ربّها، يرد ذلك ثلاث مرّات، فعرف إبراهيم عليه السلام أنّه جبرئيل، فحمد ربّه ثمّ قال: ارسلني ربّك إلى عبد من عبيده يتّخذه خليلاً، قال إبراهيم: فأعلمني من هو أخدمه حتّى أموت، قال: أنت، قال: وبِمَ؟ قال: لأنّك لم تسأل أحداً شيئاً قط، ولم تُسال شيئاً قط فقلت لا».

أقول: لا منافاة بين هذه الرواية وسابقتها من حيث أنّ المبشّر في هذه الرواية هو جبرئيل، وفي الأُولى ملك الموت لما تقدّم أنّ المراد من ملك هو صورة فعل إبراهيم. كما لا منافاة بين ما في هذه الرواية في الدار، وفي الرواية الأُولى: «خارجاً من الدار»، لما فيه من النكتة وهي الإشارة إلى فراغ إبراهيم عليه السلام من تكميل ذاته بالموت الاختياري.

ويمكن الجمع بين الروايتين بحسب الصناعة الظاهريّة بتعدّد الملك، فملك الموت بشّره خارج الدار، وجبرئيل في داخل الدار.

وفي «تفسير العيّاشي» عن ابن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «إذا سافر أحدكم فليأت أهله ممّا تيسّر ولو بحجر، فإنّ إبراهيم عليه السلام كان إذا ضاق أتى قومه، وانّه ضاق ضيقة فأتى قومه فوافق منهم أزمة، فرجع كما ذهب فلمّا قرب من منزله نزل عن حماره فملأ خرجه رملاً؛ إرادة أن يسكن به من روح سارة، فلمّا دخل منزله حطّ الخرج عن الحمار وافتتح الصلوة، فجاءت سارة ففتحت الخرج فوجدته مملوء دقيقاً، فاعتجنت منه واختبزت ثمّ قالت لإبراهيم: انفتل من صلاتك فكُل، فقال لها: أنّى لكِ هذا؟! قالت: من الدقيق الذي في الخرج، فرفع رأسه إلى السماء فقال: أشهد أنّك الخليل».

أقول: الروايات وإن اختلفت تعابيرها وأنّها وردت من الفريقين، إلّا أنّ مضامينها من حيث المعجزة وخرق العادة متّحدة، ويستفاد منها أنّ المحبّة منه عليه السلام له تعالى كانت خالصة ـ كما فسّر الخلّة بها ـ وأنّه تعالى نصره ولم يخذله فيكون

ذلك من مظاهر النصرة.

وفي بعض الروايات: «إنّ الملائكة قال بعضهم لبعض: اتّخذ ربّنا من نطفة خليلاً، وقد أعطاه ملكاً عظيماً جزيلاً، فأوحى الله تعالى إلى الملائكة اعمدوا على أزهدكم ورئيسكم، فوقع الاتّفاق على جبرئيل وميكائيل فنزلا إلى إبراهيم في يوم جمع غنمه، وكان لإبراهيم أربعة الآف راع وأربعة الآف كلب، في عنق كلّ كلب طوق وزن من ذهب أحمر وأربعون ألف غنمة حلابة، وما شاء الله من الخيل والجمال، فوقف المكان في طرفي الجمع فقال أحدهما بلذازة صوت: (سبوح قدوس)، فجاوبه الثاني: (ربّ الملائكة والروح)، فقال عليه السلام: عيداها ولكما مالي وجسدي، فنادت ملائكة السماوات: هذا هو الكرم، فسمعوا منادياً من العرش يقول: الخليل موافق لخليله».

أقول: صوت لذزاة، أي: ما تهيج بها النفس وتستلذّ، ويستفاد منها الانقطاع الكامل منه عليه السلام إليه تعالى، والاستغناء عن ما سواه، ولذا وافق خلّته معه كما مرّ.

وفي «الاحتجاج» للطبرسي عن أبي محمّد العسكري عليه السلام، قال: «قال الصادق عليه السلام: لقد حدّثني أبي الباقر عن جدّي علي بن الحسين، عن أبيه الحسين بن علي، عن أمير المؤمنين صلوات الله عليهم أجمعين، عن النبيّ صلى الله عليه وآله وقد قال رجل من النصارى: يا محمّد، أو لستم تقولون: إنّ إبراهيم خليل الله، فإذا قلتم ذلك فلم منعتمونا من أن نقول: عيسى ابن الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّهما لن يشتبها؛ لأنّ قولنا: إنّ إبراهيم خليل الله، فإنّما هو مشتقّ من الخلّة، والخلّة فإنّما معناها الفقر والفاقة، فقد كان خليلا والى ربّه فقيراً وإليه منقطعاً ومن غيره متعفّفاً معرضاً مستغنياً وذلك لما أريد قذفه في النار فرمى به في المنجنيق، فبعث الله إليه جبرئيل فقال له: أدرك عبدي، فجاءه فلقيه في الهواء، فقال له: كلّفني ما بدا لك فقد بعثني الله لنصرتك، فقال: بل حسبي الله ونعم الوكيل، إنّي لا أسأل غيره لا حاجة لي إلّا إليه، فسمّاه خليله، أي فقيره ومحتاجه والمنقطع إليه عمّن سواه،

وإذا جعل معنى ذلك من الخلّة، فهو أنـّه قد تخلّل معانيه ووقف على أسراره ولم يقف عليها غيره، كان معناه العالم به وبأموره، فلا يوجب ذلك تشبيه الله بخلقه، إلّا ترون أنـّه إذا لم ينقطع إليه لم يكن خليله، وإذا لم يعلمه أسراره لم يكن خليله، وأنّ مَن يلده الرجل وإن أهانه وأقصاه لم يخرج عن أن يكون ولده؛ لأنّ معنى الولادة قائم».

أقول: معنى الرواية أنّ الابنيّة تلازم الجنسيّة، وهي محال بالنسبة إليه تعالى بخلاف الخلّة، على ما ثبت في محلّه، وسيأتي في البحث العرفاني ما يتعلّق بالمقام.

***

بحث عرفاني:

العطايا الإلهيّة والفيوضات الصادرة من المبدأ جلّ شأنه لعالم الإمكان ليست قابلة للتحديد؛ لأنّها مفاضة من المبدأ الذي لا يمكن تحديده ـ لا ذاتاً ولا صفةً ـ وإنّما التحديد في المتعلّق، وهو الاستعداد أو القابلية، كما تقدّم ذلك في المباحث السابقة.

ومن تلك الفيوضات المعارف بجميع أنواعها، والهداية بتمام أقسامها ـ كالهداية من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة، ومن ظلمة الحسّ إلى نور المعنى، ومن ظلمة الكون إلى نور المكوّن.

والإنسان الذي هو أشرف مخلوقات الله تعالى له شرفيّة النيل لهذه الفيوضات والعطايا والهبات أكثر من غيره، ولو اتّصف بالإيمان فله أسماها وأجلّها وإن كان إيمانه منبثقاً عن الفطرة الكائنة فيه، قال تعالى: ﴿**فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[1].

---

١. سورة البقرة: الآية ٢١٣.

وقال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[١].

وقال تعالى: **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾**[٢].

وتقدّم مكرّراً أنّ التقوى لها مراتب، منها الإيمان بالله العظيم، وأنّ الرزق أعمّ من المادّي والمعنوي الشامل للمعارف والإشراقات والمكاشفات، التي هي أنوار التوجّه وانوار المواجهة، وقال تعالى: **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾**[٣]، والفرقان الذي هو تنوير القلب والإشراق عليه من الغيب للتمييز بين الحقّ والباطل، يتوقّف على القابلية والاستعداد، وهو الإيمان بالله تعالى الملازم للتقوى، وله مبرز خارجي وهو العمل الصالح، وقال تعالى: **﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾**[٤]، أي ولولا فضل الله عليكم لما نمت نفس بالخيرات والبركات، بل أنّها ترسّبت وبقيت في حال السكون والنزول إلى الهاوية.

بل أنّ شراء الحقّ سبحانه وتعالى من المؤمنين أموالهم وأنفسهم بأنّ لهم الجنّة، كان بالعاجل لا بالآجل، فإنّه عزّ اسمه جلّ أن يعامل العبد نقداً ويجازيه نسيئةً، وليس ذلك من شأن الكريم فكيف بأكرم الأكرمين، فإنّ المولى الغني جلّت عظمته لو اشترى شيئاً من أحد نجزه نقداً وزاد في إحسانه ورفده، قال تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾**[٥]، فعوّض المؤمنين في

---

١. سورة الأعراف: الآية ٩٦.

٢. سورة الطلاق: الآية ٢ـ٣.

٣. سورة الأنفال: الآية ٢٩.

٤. سورة النور: الآية ٢١.

٥. سورة التوبة: الآية ١١١.

هذه الدُّنيا جنّة المعارف بأقسامها وزادهم جنّة الزخارف، وادّخر لهم ما يليق بشأنهم ويمنحهم لهم في دار الآخرة.

والجنّات الممنوحة في هذه الدُّنيا لمَن تمّ عنده رسم العبودية ولو بأدنى مرتبتها وحسب لياقتها، في غاية البهجة وكمال اللذّة ومنتهى السعادة وأسماها ما يلي:

منها: جنّة المعرفة، وهي من أعلى مراتب الجنان وأكملها، قال بعض العرفاء المتألّهين: «في الدُّنيا جنّة من دخلها لم يشتق إلى جنّة الآخرة ولا إلى شيء، ولم يستوحش أبداً. قيل: وما هي؟ قال: معرفة الله»، ولها مراتب ودرجات تشرق بمقتضى اللّياقة والاستعداد، وبها يتمّ كلّ نقصان.

وكلّ قبيح إن نسبت لحسنه أتتك معاني الحسن فيه تسارع
يكمل نقصان القبيح جماله فما تمّ نقصان ولا ثمَ باشع

ومنها: جنّة المقامات التي نالها الأنبياء والأولياء في هذه الدُّنيا، كمقام الحبيبيّة الذي اختصّ به نبيّنا الأعظم ﷺ، وهو فائق على جميع المقامات والجنّات، ويحصل هذا المقام باصطفاء النفس وجعلها تحت اختيار المحبوب، بحيث لو لم يكن المحبوب لم يتحقّق الاصطفاء، ولم يتشرّف بمقام الحبيبيّة، ويصل إلى منزلة: **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾**[1]، وقوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾**[2]، وقوله ﷺ: «أبيت عند ربّي فيطعمني ربّي ويسقيني».

وذكر بعضهم أنّ مقام الخلّة التي نالها إبراهيم عليه السلام يساوي مقام الحبيبيّة من جميع الجوانب، ولكن التأملّ التامّ وسياق الآيات المباركة يدلّ على أنّ مقام

---

١. سورة الأنفال: الآية ١٧.

٢. سورة الفتح: الآية ١٠.

الاصطفاء والحبيبيّة فائق على مقام الخلّة بمراتب كثيرة؛ لأنّ مقام الحبيبيّة بعد مقام الاصطفاء، وجعل النفس تحت اختيار المحبوب بالمرّة ـ كما مرّ ـ ومقام الخلّة لم يصل إلى هذه الدرجة؛ فمقام الإصطفاء يشمل مقام الخلّة وزيادة، بخلاف العكس فلخاتم الأنبياء ـ الذي له مقام الحبيبيّة ـ منزلة عظيم لم يصل لها أحد من الأنبياء.

ومنها: مقام الخلّة التي اختصّت بإبراهيم عليه السلام من بين سائر أنبياء الله تعالى، وهي منزلة عظمى لا ينالها أحد إلّا بعد طيّ مراحل كثيرة منها مرحلة العبوديّة، والتسليم، والخلوص، وفناء النفس فيه عزّ وجلّ ـ وفي بعض الروايات كان جنّة إبراهيم عليه السلام في هذه الدُّنيا هي النار بعد السلام ـ وقد اجتاز إبراهيم عليه السلام هذه المراحل بأحسن وجه، حتّى نال جنّة الخلّة أيضاً في هذه الدُّنيا، خصّه الله تعالى بها دون غيره من الأنبياء عليهم السلام، فعرف بأنّه خليل الرحمان، قال تعالى: **﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾**[١].

وبعد الإحاطة بما ذكرناه لا نحتاج إلى صرف لفظ الخليل عن ظاهره، لما ذكروه مَن أنّه تعالى منزّه عن المعنى الحقيقي، فإنّ الخلّة الحقيقيّة شيء لا يدركها إلّا العارف بالله تعالى ومَن وصل إلى هذه المرتبة، وسيأتي في الموضع المناسب بيان أنّ الصفات التي تطلق على المخلوقين إذا لم يستلزم من إطلاقها على الله محال، تطلق عليه عزّ وجلّ لكن بالمرتبة الكاملة والمعنى الأتمّ، كالخلّة والحبّ ونحوهما.

وكيف كان، فقد ظهر فساد ما ذكره بعض النصارى في المقام ـ كما تقدّم في البحث الروائي ـ بأنّه إذا جاز إطلاق الخليل على إنسان تشريفاً، فلِمَ لم يجز إطلاق الابن على آخر كذلك. فإنّ إطلاق الخلّة على إنسان لم يكن تشريفاً بل

---

١. سورة البقرة: الآية ١٢٣.

كان حقيقيّاً ولا يستلزم منه محال، بخلاف إطلاق الابن فإنّه يستلزم الجنسيّة، والله تعالى منزّه عنها لما يترتّب عليها من الفساد، فافهم.

ولمقام الخلّة آثار عظمة:

منها: استجابه الدُّعاء، فإنّه ليس معنى الخلّة الحقيقيّة إلّا استجابة دعاء الخليل من خليله، وقد كانت دعوات خليل الرحمان التي ذكرها عزّ وجلّ في القرآن الكريم كلّها مستجابة.

ومنها: أنّ الخليل لا يرى لنفسه شيئاً في مقابل مخلوقات الله تعالى وعباده، بل يجعل نفسه مظهراً يرى فيها سائر مخلوقات الله تعالى؛ ولذا ترى أنّ إبراهيم خليل الرحمان عليه السلام لا يدعو في دعواته الكريمة إلّا لأهل الإيمان مطلقاً، كما حكاها عزّ وجلّ في كتابه العزيز، قال تعالى محكياً عنه: **﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾**[1].

ومنها: ما جعله الله أبا الأنبياء لما له عليه السلام عند الله تعالى شأن عظيم وجاه رفيع.

ومنها: أمر الناس باتّباع ملّته عليه السلام، كما تقدّم في سورة البقرة.

ومن الجنّات الممنوحة للمؤمنين في هذه الدُّنيا جنّة المؤانسة بأقسامها ـ مؤانسة ذكر، ومؤانسة قرب، ومؤانسة شهود ـ تحصل هذه الجنّة بالتوجّه إليه بالإخلاص والذكر بتمام أقسامها، كما مرّ في أحد مباحثنا العرفانيّة، قال تعالى: **﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾**[2]، ولها مراتب ومنازل.

ومنها: جنّة الخشوع، ولا تحصل هذه الجنّة إلّا من استكمل عنده نعمة الهيبة والمعرفة فاز بجنّة اللقاء، قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى**

---

١. سورة إبراهيم: الآية ٤١.

٢. سورة الرعد: الآية ٢٨.

عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾[١]، ولها مراتب، فمنها الخضوع والخشية وغيرها.

ومنها: لذّة المناجاة والتملّق عند بابه، فهي من الجنّات التي أظهرها الله تعالى في هذه الدُّنيا ولا يعرفها إلّا أهلها من الأولياء والصالحين.

ومنها: جنّة الرغبة والرهبة ـ كما تقدّم البحث عنهما ـ إلى غير ذلك من الصفات الحسنة التي توجب رقي النفس وراحتها وتصل إلى مرتبة يستوحش صاحبها من الدُّنيا وأهلها ويأنس بالله تعالى وبأوليائه، كما حصل لهمّام عند خطبة الإمام علي عليه السلام؛ ولعلّ قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾**[٢] الأعمّ من الجنّة في الآخرة والجنّة في الدُّنيا من الصفات الحسنة والحالات الصالحة التي تختصّ بالأبرار، وتكون مشابهة لحالات المؤمن في جنّة الآخرة، قال تعالى: **﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾**[٣]، وللبحث مجال واسع، نسأل الله تعالى أن يوفّقنا له بعد رفع هذه المصائب التي حلّت بهذه الأُمّة بحقّ محمّد وآله الطاهرين.

***

بحث فلسفي:

تكرّرت الآية الشريفة: **﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾** في عدّة مواضع من القرآن الكريم، وهي تشير إلى برهان قويم، وهو: «إنّ وحدة الفعل تدلّ على وحدة الفاعل»؛ لأنّ كلّ ما برز في الوجود إنّما هو شأن من شؤونه عزّ

---

١. سورة الإسراء: الآية ١٠٧ـ١٠٩.

٢. سورة النساء: الآية ١٢٤.

٣. سورة البقرة: الآية ٢٥.

وجلّ، وهو الذي يحيط بها الإحاطة التامّة ـ الوجوديّة والعلميّة والربوبيّة والقهّاريّة ـ ويستكشف من وحدة الفعل وحدة الفاعل والخالق، و هذا من أحد الأدلّة التي استدلّ بها أكابر الفلاسفة على ثبوت الخالق ووحدته، وقد اعتمد عليه بعض الفلاسفة المحدّثين. لعلّ التأكيد عليها في القرآن الكريم؛ لأنّ مضمونها يوافق الفطرة المستقيمة، والقرآن الكريم يُرجع الإنسان إلى فطرته ويذكّره منسيّها، فإنّ وحدة الفعل من حيث النظام والترتيب والأثر والغاية، لدليل على ثبوت الخالق ووحدته وعلمه الأتمّ، وقد ذكرنا في أحد مباحثنا السابقة أنّ الأسلوب القرآني في ثبوت الخالق وصفاته العليا، هو إرجاع الناس إلى الفطرة من جهة أمرهم بالتفكّر في خلقهم وخلق السماوات والأرض، ومايحيط بهم من الحوادث الكونيّة، وهذا ما أكّد عليه القرآن الكريم في مواضع كثيرة.

ثمّ إنّ هذا البرهان، أي: وحدة الفعل الدالّة على وحدة الفاعل واستجماعه للصفات العليا، لا ينافي القاعدة المعروفة في الفلسفة: «إنّ الواحد لا يصدر منه إلّا الواحد»، و«إنّ الواحد لا يصدر إلّا من الواحد»، فإنّهما لا تنافيان البرهان القويم؛ لأنّه أيضاً يدلّ على وحدة الفعل وإن كان متعدّداً من حيث الأفراد؛ لأنّها تشترك في وحدة النظام والأثر والغاية، كما لا ينافي القاعدة الأُخرى: «الواحد لا يصدر إلّا من واحد»، مضافاً إلى أنّ القاعدتين المزبورتين إنّما هما في المفارقات والمجرّدات، والبرهان يجري في ما برز في الوجود من آثاره عزّ وجلّ.

وبعبارة أُخرى: إذا لاحظنا المجموع من حيث اجتماعهما في وحدة جامعة، فالبرهان يؤيّد القاعدتين، وإن لاحظنا الأفراد من حيث كونها مظاهر عظمته وربوبيّته، فهي تدلّ على وحدة الفاعل أيضاً.

والقاعدة ذات مدلولين، مدلول مطابقي هو ما ذكرناه وما ذكره الفلاسفة في مفادها، ومدلولها الالتزامي، وهو أنّ وحدة الفعل تدلّ على وحدة الفاعل،

فاشتركت القاعدة مع البرهان، فيمكن أن تجعل الآيات الشريفة المتقدّمة دليلاً على القاعدتين المزبورتين أيضاً.

***

الآية ١٢٧ ـ ١٣٤

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً ﴿١٢٧﴾ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتْ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ غَنِيّاً حَمِيداً ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴿١٣٤﴾﴾.

ذكر سبحانه وتعالى في الآيات الشريفة السابقة من التعاليم والأحكام والتوجيهات ما يوصل الإنسان إلى السعادة، وذكر من أُصول الدِّين ومن الحكمة

ما يجعله حكيماً مؤهّلاً للوصول إلى المقامات العالية والدرجات الرفيعة.

وفي هذه الآيات المباركة يذكر عزّ وجلّ من الأحكام العمليّة لتنبيه الناس إلى أنّ الكمال والسعادة لا يمكن الوصول إليهما إلّا بتطبيق الأحكام العمليّة والتعاليم الإلهيّة، فإنّ حقيقة الدين عند الله تعالى هي الإيمان والعمل الصالح، بل أنّ في إسلام الوجه لله تعالى هو التسليم بما جاء في القرآن الكريم كما عرفت آنفاً.

وقد ذكر في هذه الآيات الكريمه موضوعاً من الموضوعات الرئيسيّة في هذه السورة، أي موضوع النساء وعلاقات الزوجيّة والأُسرة وبعض ما يتعلّق بشأن اليتامى بعد أن كانوا والمرأة من الضعيفين اللذين هضم المجتمع حقوقهما، فأمر عزّ وجلّ المؤمنين بوجوب مراعاة حقوقهما وحفظهما. وقد ذكر سبحانه وتعالى جملة من حقوقهما في أوائل هذه السورة من الإرث، والمهر، والتصرّف في أموال اليتيم، وبعض أحكام الزوجيّة، وفي المقام وجوب العدل بين النساء إن اقتضت الضرورة بتزويج أكثر من واحدة منهن، وأمر عزّ وجلّ بالقسط بينهن وحفظ أموال اليتامى وأمر بتوريثهن.

ثمّ ذكر جلّ شأنه بعض أحكام الاختلاف بين الزوجين، وبيّن بعض الأُمور الدقيقة التي تمسّ الحياة الزوجيّة، واعتبر تعالى أنّ التقوى هي الضمان لحفظها، والعدل والإحسان هما الأساس لتلك العلاقة التي هي من أهمّ العلاقات عند الإنسان، وعليها تبتني سعادته في الدارين، ويأمر تعالى بالتقوى مكرّراً؛ لأنّها الركيزة العظيم في الشرائع الإلهيّة، ولا سيما شريعة الإسلام؛ ولأنّها الضمان لتلك الأحكام، ويشدّد عليها بالتهديد على مَن يعرض عنها ويوصفه بالكفر، ويهددهم بالقدرة على إذهابهم وإتيان آخرين فيتّقون ويعملون.

ثمّ بيّن عزّ وجلّ السبب في إعراض الناس عن التقوى، وهو حبّ الدُّنيا

والرغبة في متاعها . ويعالج سبحانه وتعالى أخيراً الموقف بأنّ الخير إنّما يكون في ثواب الله تعالى الذي يمنحه لمَن أطاعه واتّقاه في الدُّنيا والآخرة ، وبذلك يرشد الناس إلى أنّ التقوى هي التي تضمن ثواب الدُّنيا والآخرة ، وأنّ الله تعالى هو الرقيب لهم، يسمع أقوالهم ويرى أفعالهم فيجازيهم عليها .

والآيات الكريمة تشتمل على أُسلوب تربوي دقيق ، لها وقع خاص في النفوس المستعدة وتتخلّلها من الحكم والمواعظ والإرشادات والتوجيهات ممّا زاد في رصانتها وقوّتها وشدّة تأثيرها .

***

التفسير

قوله تعالى : **﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾** .

الاستفتاء : طلب الفتيا ، وهي الجواب عمّا يشكل من الأحكام وما دقّ من الأُمور ، وقد استعمل في كلّ تبيين للحكم ، يقال : استفتيته فأفتاني، ولا يختصّ بما يراه الإنسان باجتهاد منه كما هو المتداول في هذه الأعصار ، بل يعمّ ما إذا كان حاصلاً من الوحي والالهام ، أو ما يتحقّق بالتشريع والأمر ، كما يظهر من نسبة الفتوى إلى الله تعالى في المقام .

ومن حذف المتعلّق في الآية الشريفة، وعدم ذكر أمر خاص من أُمور النساء، يتبيّن أنّ الاستفتاء إنّما كان في كلّ ما أحدثه الإسلام ممّا لم يكن معهوداً قبله ، ولا يختصّ بالحقوق الماليّة كالإرث والمهر ونحوهما ، كما ذكره جمع من المفسّرين؛ لقوله تعالى : **﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾** ، فإنّ ذكر شأن خاصّ من شؤونهم أو ما يتعلّق بطائفة خاصّة منهن كاليتامى ، لا يوجب تقييد العموم ، لاسيما بعد أن كان ما أبدعه الإسلام أو ما شرّعه في النساء غريباً عليهم ، لما اعتادوا عليه فيهن من استضعافهن وحرمانهن من كثير من الحقوق الاجتماعيّة

والماليّة، فكان التعميم مناسباً، ويدلّ على ذلك أيضاً ذكر أحكام النشوز والخلاف بين الزوجين وطرق الإصلاح بينهما، فتكون الآية الشريفة ناظرة إلى جميع ما بيّنه عزّ وجلّ في أمر النساء في أوّل هذه السورة وآخرها وفي المقام.

قوله تعالى: **﴿قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾**.

الفتيا والفتوى واحدة، يقال: افتاه افتاء، وأفتيت فلاناً رؤياه إذا عبّرتها له.

والمعنى: يطلبون منك تبيين الأحكام التي أشكلت على أفهام في ممّا يجب لهن وعليهن مطلقاً. قل: يا محمّد إنّ الله يفتي فيهن، فقد أنزل فيهن من الأحكام ما يعلو به شأنهن وقدرهن، وما يوجب سعادتهن وسعادة المجتمع، فإنهنّ من أحد عموديه، ولا يمكن أن يسعد مجتمع ويشقي أحد عموديه.

قوله تعالى: **﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾**.

التلاوة: القراءة بعناية، وتقع وصفاً للفظ، وقد يوصف المعنى بها أيضاً كما في المقام، أي الأحكام المتلوّة.

والآية المباركة بيان لعظمة شأن المتلو من الأحكام التي تتلى في القرآن الكريم في شأن النساء، وبالجملة: بيان لما سبق، أي أنّ الله يفتيكم فيهن بما أنزله عزّ وجلّ من الآيات التي تضمّنت من الأحكام التي تستفتون عنها وعن غيرها.

وتبيّن الآية الكريمة أحد الأحكام المهمّة في النساء، فقد ذكر فيها حكم يتامى النساء والازدواج بهن، وإنّما أفردهن عزّ وجلّ بالذكر لأنّهن يستحقن العطف أكثر من غيرهن ليتمهن، ولتوجّه الظلم إليهن أكثر، فإنّ أهل الجاهلية كانوا لا يرثون الصغير ولا المرأة، وكان الإرث عندهم منحصراً بمن قاتل والحريم لا قتال عليهن.

وجملة : «اللاتي لا تؤتونهن» وصف ليتامى النساء اللّواتي كن يعانين من الحرمان والشقاء ، فقد كان لأهل الجاهليّة عادات سيّئة وأحكام جائرة فيهن ، فكانوا يحتفظون بيتامى النساء وأموالهن ، فإن كانت ذات جمال وحسب تزوّجوا بهن واستمتعوا بجمالهن ومالهن ، وإن كانت دميمة شوهاء عضلوها عن الزواج مطلقاً طمعاً في مالها ، فأنزل الله تعالى فيهن من الأحكام التي وضعت عنهن القيود وأبطلت تلك السنّة الباطلة التي عليهن .

والآية المباركة في مقام التوبيخ لهم في ترك ما سنّة الله تعالى وشرّعه من الأحكام ، ولعلّ قوله تعالى : **﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾** إشارة إلى تلك الأحكام وإلى ذلك الحرمان الذي كانت النساء يكابدنه نتيجة تلك العادات السيّئة التي استحكمت في نفوسهم ، فلم يسهل عليهم قبول تغييرها .

ويحتمل أن يكون المراد من قوله تعالى : **﴿مَا كُتِبَ﴾** الكتابة التكوينيّة ، أي ذلك التقدير الذي قدّره عزّ وجلّ على الإنسان في أنّه إذا بلغ حدّ الكمال والنضج كان له حقّ التزويج والتصرّف في ماله ، ولا يحقّ لغيره أن يمنعه عن هذا الحقّ الإلهي ، فإنّه خلاف ما كتب الله عزّ وجل عليه والخلقة التي خلقها وقدّرها على الإنسان ، والكتابة التكوينيّة تتضمّن الكتابة التشريعيّة ، فإنّها لم تكن على خلاف تلك الكتابة أبداً .

وممّا ذكرنا يظهر أنّ الجار المحذوف في قوله تعالى : **﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾** هو (عن) ، أي الرغبة عن نكاحهن اتّباعاً لتلك العادة الجائرة والسنّة الباطلة ، وهو المناسب لسياق الآية الكريمة ، ويحتمل أن يكون التقدير (في) و(عن) كليهما على سبيل البدل ليشمل كلا طرفي تلكل العادة الباطلة ، فإنّهم كانوا يرغبون في النكاح إذا كانت ذات جمال ومال ، ويرغبون عن نكاحهن إذا لم تكن كذلك وكان لها مال فلا يناكحوهنّ ولا ينكحوهنّ غيرهم .

قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الْوِلْدَانِ﴾.

عطف على يتامى النساء، أي ويفتيكم في المستضعفين في الولدان في تنفيذ ما يتلى عليكم من الأحكام وإعطاء حقوقهم وترك تلك السنّة الجائرة فيهم، فإنّهم كانوا يحرمون يتامى الصبيان أيضاً من الإرث ويستضعفونهم كما تقدّم آنفاً، وتوصيفهم بهذا الوصف لإثارة العطف في النفوس.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾.

عطف على ما سبق، أي يفتيكم في أن تقوموا لليتامى مطلقاً بالقسط في أنفسهم وأموالهم.

والآية الشريفة في مقام بيان إعطاء قاعدة عامّة تشمل المقام وغيره؛ لأنّ المورد لا يكون موجباً لتخصيص الحكم العامّ، فإنّ القسط والعدل محبوبان في كلّ حال وفي جمع الموارد، وإنّما خصّ اليتامى بالذكر لما عرفت آنفاً أنّ حالهم أدعى للرحمة والعطف، ولوقوعهم مورد الظلم والعدوان كثيراً لضعفهم، كما وصفهم عزّ وجلّ في الآية الكريمة السابقة.

وفي الآية الشريفة التأكيد على مراعاة العدل، فإنّ القيام بالشيء مراعاته حالاً بعد حال، وذلك بتنفيذ كلّ ما أنزله الله تعالى من الأحكام والتشريعات والتوجيهات، والخطاب عامّ يشمل الأولياء وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً﴾.

تأكيد لما سبق وتحريض إلى مراعاة تلك الأحكام بدقّة وعدم الهوادة فيها فإنّها خير، والخير مرغوب فيه عند جميع الناس، بيان بأنّ حال اليتامى والمستضعفين تحتاج إلى عطف أكثر، وأنّ الكمال فيهم هو المعاملة معهم بالفضل، لا مجرّد العدل والقسط، فإنّ كلّ خير يصدر منكم في شأن النساء واليتامى من

دون أن يعلمه أحد ، فالله تعالى يعلمه ولا ينساه ويعد لمَن آثر الخير بالوعد الجميل .

والخير عامّ يشمل كلّ فضل وزيادة في القسط ، وفي الحديث : وإذا أحسن إليهم كافؤوه بمثله أو فضل منه ، وقد ورد عنه ﷺ أيضاً : «**خيركم خيركم لأهله**» ، ولعلّه إشارة إلى صلة الرحم والحثّ عليها وأنّ الفضل يعود إلى فاعل الخير مطلقاً .

وقد ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآيات المباركة ثلاث مراحل لإرجاع حقوق النساء واليتامى مترتّبة متدرجّة في العمل والتنفيذ ، ولا يمكن الوصول إلى الهدف بدون ذلك ، فتكون هذه الآية الكريمة مضافا إلى اشتمالها على الأحكام تتضمّن درساً تربويّاً تهذيبيّاً لإصلاح النفوس المعتادة على هضم الحقوق ، وارتكاب الظلم :

فالمرحلة الأُولى : ترك الظلم عليهم والإعراض عن العادة الجائرة والسنّة الباطلة التي كانت في الجاهليّة ، والتحذير من اتّباعها .

الثانية : مراعاة القسط والعدل بدقّة فيهم ، وعلى أتمّ الوجوه وأكملها .

الثالثة : الزيادة على ذلك بفعل الخير فيهم ، وذلك بإكرامهم والفضل عليهم ، وقد ذكر عزّ وجلّ الضمان على هذه المرحلة بقوله تعالى : **﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً﴾** ، فإنّه يتضمّن الترغيب للعمل بتلك الإرشادات والتوجيهات الربوبية ، فإنّها خير لهم ، بل وأنّ خيرهم فيه ، كما يشتمل على التحذير على المخالفة فالله تعالى يعلم جميع أفعالكم ونواياكم وسيحاسبكم عليها .

قوله تعالى : **﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً﴾** .

حكم اجتماعي يعالج الخلاف الواقع بين الزوجين وما يهدّد العلاقات الأُسريّة بكاملها ، ويبيّن تعالى طرق الإصلاح فيها .

وممّا يلفت النظر في هذه الأحكام أنّه يتكرّر الأمر بالتقوى أكثر من مرّة، ولعلّه لأجل أنّ هذه الأحكام لا يمكن تطبيقها ولا يكمل معها الصلاح إلّا مع التقوى، فإنّها الركيزة الأولى في جميع الأحكام، والقاعدة الأساسيّة التي تنطلق منها جميع التوجيهات لأنّها الأصل في كلّ سعادة مرجوّة، والضمان للعدل والإحسان المطلوبين في هذه الحياة الخاصّة التي تحفّها أُمور كثيرة قد يوجب واحد منها سلب سعادتها وإيقاعها في شقاء مستمرّ، فتكون له عواقب مؤلمة تؤثّر في المجتمع وحياة الأفراد، و لأجل ذلك كان التشديد في الأمر بالتقوى حتّى وصل الحال إلى التهديد والتوعيد في عدم تنفيذها، ممّا يبيّن أهمّية هذه الأحكام، ولأنّ الموضوع له الأثر العظيم في سعادة المجتمع وشقائه.

والآية المباركة لا تخلو عن ارتباط بالآيات الشريفة السابقة لاشتمالها على أحكام النساء أيضاً والعلاقات الأُسريّة، سواء قلنا إنّها داخلة في ما استفتوا فيه ـ وهو الحقّ؛ لأنّه المستفاد من سياق الآية الكريمة وعمومها ـ أم كانت خارجة عنه.

والخوف: توقّع المكروه بظهور بعض أماراته وأسبابه، وإنّما اعتبر عزّ وجلّ خوف النشوز والإعراض دون نفسهما؛ لأنّ موضوع الصلح يتحقّق من حين ظهور العلامات والأمارات الّتي يتعقّبها الخوف.

ومادّة (نشز) تدلّ على الارتفاع، يقال: أرض ناشزة، أي مرتفعة، وفي حديث خاتم النبوّة: «بضعة ناشزة»، أي قطعة لحم مرتفعة عن الجسم، والنشاز هو الأمر المنقطع عن غيره لسبب من الأسباب، فيقال: زوج ناشز، إذا ترفّع واستعلى على زوجته وترتّب عليه سوء المعاملة والتكبّر، ويتّصف به كلّ واحد من الزوجين.

والإعراض: هو الميل والانحراف عن الشيء.

وللنشوز والإعراض مظاهر مختلفة متفاوتة، ولا يمكن الأخذ والحكم شرعاً بكلّ مظهر، إلّا إذا ورد من قبل الشارع أنّه نشوز أو إعراض. ولكن المتّفق عليه أنّ النشوز يتحقّق بترك المضاجعة والنفقة، والإعراض بترك الكلام والأُنس، والانحراف بالوجه عن الزوجة وسوء المعاشرة، وسيأتي في البحث الفقهي تتمّة الكلام إن شاء الله تعالى.

والبعل: الزوج، وأُطلق على المأذون شرعاً أيضاً من باب الملازم الغالب، كما في حديث التشريق: «إنّها أيّام أكل وشرب وبعال» وجمعه بعولة، كالفحل والفحولة، وبما أنّ الذكر من الزوجين ـ الذي هو البعل ـ له استعلاء على المرأة كما قال تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**﴾[1] سمّى كلّ مستعل على غيره ولذا سمّى العرب معبودهم الذي يتقرّبون به إلى الله تعالى بعلاً، قال تعالى: ﴿**أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ**﴾[2].

والمعنى: وإن خافت امرأة بأن ثبت لها من بعض الأمارات، وتحقّق لها ذلك من بعلها نشوزاً، كترك مضاجعتها ولا يرغب في مباعلتها، أو إعراضاً بأن لا يتحدّث إليها وينصرف بوجهه عنها في المضجع.

ومن أُسلوب الآية الشريفة وإيجازها البليغ حيث جعل الفعل المذكور فيها: «خافت» مفسّراً لفعل محذوف مثله، وذكر الزوج بالخصوص وتعليق الخوف عليه فقط دون غيره، واختصاص لفظ البعل بالذكر دون غيره من الألفاظ المستعملة في هذا المقام، لتذكيرها بأنّ الزوج إنّما يكون بعلها ورئيسها، فلابدّ وإن تحسن المعاشرة معه، وعلى الزوج مضاجعتها وإدارة شؤونها بالعدل والإحسان، كلّ ذلك لأجل تنبيه المرأة بأنّه لابدّ لها أن لا تكتفي بالوهم والوسوسة اللتين تكثران في

---

١ . سورة النساء: الآية ٣٤.

٢ . سورة الصافات: الآية ١٢٥.

النساء، فلا يعتمد عليهما في هدم كيانهن وتقويض صرح الأُسرة التي أكّد الشرع على إقامتها بأفضل وجه، وقد أخذ من الزوجين العهود والمواثيق على إشادتها بالعدل والإحسان، فيجب أخذ الحيطة والتثبت و التبيين في ما يظهر لها من أمارات النشوز والإعراض، وتحقّق الخوف الفعلي عندها، فإذا ظهر لها ذلك، فحينئذٍ يأتي الإصلاح.

قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً﴾.

أي: فلا حرج ولا إثم على المرأة وبعلها أن يصلحا على النحو الذي يتّفقان عليه بينهما، فإذا أرادت أن تغض النظر عن بعض حقوقها في حياتها الزوجيّة، جلباً للأُنس والأُلفة أو استعطافاً له أو احترازاً عن شدّة التباغض والشحناء ودفعاً للمفارقة والطلاق، جاز لها ذلك ولا حرج عليهما.

وإنّما عبّر عزّ وجلّ بالجناح للتنبيه على أنّه لا يجب على الزوجة، بل ليس لأحدهما جبر الآخر وإلزامه، وإنّما هو أمر احترازي أدبي، وأن المقصود هو المعاشرة بالمعروف والتراضي بالإحسان؛ أو لنفي ما يتوهّم أن ما تعطيه المرأة للزوج من المال ـ مهراً كان أم غير ذلك ـ إنّما هو محرّم ولا يحل له أخذه.

قوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

جملة معترضة تبيّن حكما اجتماعيّاً عامّاً ترشد إلى أنّ الصلح في جميع الأحوال خير وحسن، خصوصاً في مورد الخصومة والتباغض والتباعة بالافتراق وغيره؛ لأنّ في الصلح سكون النفس وهدوء البال وراحة الضمير، وبه تتحقّق السعادة وتزول النفرة والاختلاف، وعلى هذا تكون كلمة «خير» لبيان خيريّة الصلح لا لبيان الأفضليّة، فإنّ الصلح والوئام خير في حدّ نفسه، سواء كان هناك خلاف وتباغض فيرفعان بالصلح أم لم يكن.

والإسلام يدعو إلى المصالحة وإنّ دينه دين الصلح والسلام، وقد شرّع عزّ وجلّ من الأحكام والسنن والآداب والتوجيهات ما يتحقّق به العدل والمساوات في هذه الحياة المليئة بالاضطراب وهضم الحقوق والتباغض بين الأفراد.

قوله تعالى: ﴿**وَأُحْضِرَتْ الْأَنفُسُ الشُّحَّ**﴾.

جملة اعتراضية أيضاً يذكر فيها عزّ وجلّ واقع الإنسان وكمونه، وتتضمّن السبب الذي يوقعه في البغضاء والشحناء والشقاق والسبب الذي يحول من الصلح والعيش بسلام.

وتبيّن الآية المباركة أنّ الشحّ والبخل غريزة من الغرائز النفسانيّة لا يخلو منها إنسان؛ لأنّ به يحفظ منافعه ويصون نفسه من الضياع، فإذا أُطلقت هذه الغريزة وخرجت عن صون العقل والحكمة صارت رذيلة مهلكة، وإن هذّبت صارت سبباً للضبط على المعتقدات والإرادة، أو تكون سبباً لحصن النفس في الوقوع في منزلق الرذائل وسفاسف الأُمور، بل قد يصير موجباً لحفظ الأموال من التبذير والإسراف، فالإفراط في هذه الغريزة مذموم كالتفريط، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ**﴾[1]، فالشحّ موجود في كلّ نفس، ولكن الإنسان عرضة له وهو يحضر عند ظهور المقتضي له إلّا إذا ملك زمام هذه الغريزة بما يريده الله تعالى لها من الصلاح والسعادة، فإن تبع كلّ واحد من الزوجين الشحّ المكنون في نفسه، آلَ إلى التباغض والشحناء أو المفارقة والطلاق، فحينئذٍ لاجناح عليهما أن يصلحا بينهما بكسر سورة هذه الغريزة وتهذيبها بالإرشادات الربوبيّة والتعليمات الإلهيّة، فيغمض كلّ واحد من الزوجين عن بعض حقوقهما. ولابدّ أن يتذكّر كلّ واحد منهما ـ بل كلّ فرد ـ أنّ الشحّ والبخل يرجع إلى الحرص

---

١. سورة الحشر: الآية ٩.

وهو ينشأ من ضعف النفس، ويجب علاجه بالبذل والتسامح والتفكّر في أنّ الشحّ من المهلكات وممّا يضرّ النفس ويصدّها عن الكمال. ومن أقبح البخل وأمضه أن يبخل أحد الزوجين على الآخر بعد أن ارتبطا بالميثاق العظيم، فكانت رابطتها أحقّ بالحفظ وأجدر بالوفاء، بل لابدّ أن يكون التسامح أوسع وأعظم، كما أمر عزّ وجلّ في الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾.

إرشاد إلى أنّ المقام لابدّ من أن لا يقتصر فيه على مراعاة الميثاق والعهد الذي أخذه كلّ واحد من الزوجين على الآخر، فإنّ مراعاته أمر مفروغ عنه، وإنّما تتطلّب هذه العلاقة إلى الإحسان زيادة على الوفاء بالعهد، فإنّه أجلب للقلوب وأدعى للتوفيق في العشرة والتقوى، فإنّها الضمان لتثبيت العدل والإحسان المطلوبين في هذا الموقف، وإرساء أُسس السعادة واستمرار هذه العلاقة آمنة مطمئنة بعيدة عن ما يكدر صفوها، وما يوجب إنفصام عراها، كالنشوز والإعراض؛ ولأنّ في التقوى الموعظة للرجال والنساء بأن لا يتعدّوا حدود الله تعالى.

وفي الآية الكريمة الذكرى للمؤمنين بأنّ الله تعالى خبير بما يعملون، لايخفى عليه خافية، وسيحاسبهم عليه، فيجزى الّذين اتّقوا وأحسنوا الحسنى ويثيبهم عليه، ويعاقب المسيء الذي ظلم في معاشرته مع النساء وأكرههن على إلغاء حقوقهن التي جعلها الله تعالى لهن.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾.

حكم آخر من أحكام النساء، وهو لزوم العدل بينهن بتطبيق ما شرّع الله تعالى لهن على الرجال في أوّل هذه السورة، قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا

فَوَاحِدَةً﴾[١].

وتبيّن الآية الكريمة حقيقة اجتماعيّة، وهي أنّ العدل بالمعنى الحقيقيّ، وهو التساوي بين الطرفين في جميع الجهات بحيث لا يقع ميل إلى جانب في شأن من شؤون الحياة الزوجيّة كالقسمة أو النفقة، والتعهّد، والنظر، والميل، والإقبال، والمؤانسة، وغير ذلك ممّا لا يكاد الحصر، فإنّه ممّا يتعذّر إقامته ولا يتحقّق وإن حرص عليه الرجل كلّ الحرص؛ لوعورة مسلكه ودقّة تطبيقه واشتباه اعلامه، فمن الصعب جدّاً تشخيصه، خصوصاً في إقبال النفس والميل القلبي اللذين لا يملكهما المرء ولا يتطرّق إليهما الاختيار، فلا يقدر أن يملك الآثار الطبيعيّة المترتّبة عليهما، فيبيّن عزّ وجلّ أنّ العدل بحقيقة معناه الذي أمر الله تعالى بإقامته في حياته الاجتماعيّة غير مستطاع ولا يتعلّق به التكليف، وإنّما الذي يمكن أن يملكه هو أن لا يميل إلى أحد الأطراف، كما سيأتي في البحث الروائي.

وتفسّر هذه الآية الشريفة الآية الكريمة التي وردت في أوّل السورة، التي أمرت باتّخاذ العدل بين النساء، ويكون هذا حكماً تخفيفيّاً امتنانيّاً منه عزّ وجلّ، لرفع التحيّر الذي أصاب الرجل المؤمن الورع نتيجة عدم إمكان تشخيص حقيقته وصعوبة مناله.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾.

بيان لما يمكن تطبيقه من معنى العدل، وهو التسوية بين النساء بإتيان حقوقهن من غير تطرّف، وعدم التعاسر معهم ونبذ الإساءة إليهن، فلا يجور على المرغوب عنها منهن بأن يميل كلّ الميل إلى المحبوبة ويعرض عن الأُخرى المرغوبة عنها، فيذرها كالمعلّقة لا هي متزوّجة ولا هي مطلّقة، وهذا هو العدل

---

١. سورة النساء: الآية ٣.

الذي يمكن تطبيقه، وهو الأقرب إلى العدل الحقيقي الذي نفاه عزّ وجلّ عنهم، فيكون عدلاً عمليّاً. وأمّا الميل القلبي الذي لا يدخل تحت الاختيار، فهو لا يتعلّق به التكليف.

وممّا ذكرنا يظهر أنّ صدر هذه الآية الشريفة ليس في مقام نفي مطلق العدل، بحيث إذا انضمّ إليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[1]، ينتج إلغاء تعدّد الأزواج في الإسلام، كما قاله بعض المفسّرين، فإنّ المنفي هو العدل الحقيقي، لا العدل العملي الذي هو الأقرب إلى العدل المأمور به، ويستحيل أن يتحقّق تكليف منه عزّ وجلّ ولا يمكن تطبيقه.

والحاصل: أنّ العدل المأمور به هو العدل التقريبي، وهو العدل العملي، مضافاً إلى ذلك أنّه عزّ وجلّ أباح التعدّد في قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾[2]، وحمله على مجرّد الفرض العقلي بعيد جدّاً يجلّ كلامه تعالى عنه، وسيرة الرسول ﷺ وبعض المؤمنين الورعين خير دليل على إمكان تطبيقه، وهو يدفع توهّم الفرض العقلي أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

تأكيد وترغيب للرجال في الإصلاح إذا ظهر منهم فساد وظلم، والضمان في ذلك كلّه هو التقوى التي هي الدعامة الأُولى في تطبيق الأحكام الإلهيّة، وأنّها هي التي تستتبع المغفرة لكلّ ما صدر من حيف وظلم، والرحمة بالتفضّل عليهم. وتقدّم مكرّراً أنّ الأمر بالتقوى في هذه الآيات المباركة لدقّة تطبيق هذه الأحكام والتباس معالمها، فكان التقوى هي الضمان لها.

---

١ . سورة النساء: الآية ٣.

٢ . سورة النساء: الآية ٣.

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ﴾ .

حكم علاجي بعد أن لم ينفع الإصلاح ولم يتحقّق الوفاق بوجه من الوجوه ، وحينئذٍ فإن أرادت المرأة وبعلها أن يتفرّقا بالطلاق خوفاً من الوقوع في الحرام وحفظاً للكرامة وصوناً لأخلاقهما لئلّا يقعا في السيء منها ، فإنّ الله تعالى يغني كُلّاً منهما بأن يجعله مستغنياً عن الآخر بسعة فضله وكرمه إن تفرّقا ، ويكفيه ما أهمّه من أُمور الدُّنيا والدِّين ـ أي الآخرة ـ وذلك لعموم الآية الشريفة ، فيُغني الزوج بأمرأة أُخرى خيراً من الأُولى ، تحصنه وتؤنسه وترضيه فتستقيم أُمور بيته ، كما يُغني المرأة بزوج آخر خيراً من الأوّل يقوم بأمرها ، يدبّر شؤونها بالنفقة والكسوة وسائر ما تتطلّبه الحياة الزوجيّة ، فإنّ الله تعالى واسع حكيم .

قوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً﴾ .

تعليل لما سبق أي : يُغني كُلّاً منهما؛ لأنّه واسع الفضل والرحمة حكيم في أفعاله وأحكامه ، يعلم أنّ ذلك أمر فاش في أفراد هذا النوع ، فوضع حدوداً وتعاليم لعلاج هذا الموقف ، فلم يتركهم سدىً من غير تكليف .

قوله تعالى : ﴿وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ .

تعليل آخر ، أي أنّ الله تعالى واسع؛ لأنّ له ما في السماوات وما في الأرض خلقاً وتدبيراً وملكاً ، وهو الذي يدبّر أمر الإنسان وينظم شؤونه ، فلا يتعذّر عليه الإغناء بعد الفرقة ولا الإيناس بعد الوحشة ولا الغنى بعد الفقر .

والآية المباركة تدلّ على عظيم فضله وكمال لطفه وسعة رحمته وعموم فيضه .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللهَ﴾ .

تأكيد جديد إلى مراعاة التقوى في جميع المواقف وكلّ الأُمور . ولم تكن

هذه الدعوة مختصّة بهذه الأُمّة بل الدعوة عامّة لجميع الأُمم، وقد أبلغت إليهم بأبلغ وجه وأتمّ أسلوب، فكان توصية منه عزّ وجلّ لهم بمراعاة التقوى وشدّة التمسّك بها؛ لأنّ بها تتزكّى النفوس وتنتظم الشؤون ويعبد الله تعالى ويصلح أمر الدُّنيا والآخرة، ومنه الحياة الزوجية التي هي أحوج من غيرها إلى مراعاة التقوى، لدقّة الأُمور التي تمسّ بهذه الحياة كما عرفت آنفاً.

قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾.

تشديد آخر لمراعاة التقوى، وتهديد على أنّ مَن أعرض عنها وتعدّى حدود الله تعالى كفراً بها، فإنّه لا يضرّ كفره بترك العمل بالأحكام الإلهيّة؛ لأنّه مالك الملك والملكوت وله ما في السماوات وما في الأرض، وإنّما وصّاكم بما يرجع الى خيركم ومصلحتكم رحمةً بكم لا حاجة إليكم، فلا يضرّه إعراضكم.

ومن ذلك يعلم أنّ المراد بالكفر هو الكفر العملي والإعراض عن طاعته عزّ وجلّ، وأنّ بالتقوى تتحقّق الطاعة.

قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ اللهُ غَنِيّاً حَمِيداً**﴾.

الحميد: أي المحمود بذاته لذاته، وهو من الأسماء الحسنى، وهو يدلّ على أنّ كلّ ما في الوجود يصدر منه تعالى، وإليه يرجع الحمد كلّه وهو مصدره. والآية الكريمة تقرير لما سبق وتأكيد لاستغنائه عمّن ما سواه، فإنّه الغني بالذات وما سواه يحتاج إليه، وهو محمود بذاته، لذاته، سواء حمده حامد أم لم يحمده.

كما أنّ الآية المباركة تتضمّن التهديد لمَن ترك التقوى والعمل بالأحكام الإلهيّة وأصرّ على المخالفة والشقاق، فإنّه تعالى قادر على العقوبة بما يشاء ولا نجاة عنها؛ لأنّه الغني الحميد.

قوله تعالى: ﴿**مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً**﴾.

جملة استئنافية، توطئة لما يأتي من إظهار قدرته، فإنّ له التصرّف في خلقه كيفما يشاء إيجاداً وإحياءً وإماتة، وتأكيداً لما سبق و إيذانا بأنّ جميع ما سواه مخلوق له تعالى محتاج بذاته لذاته، وهو الوكيل عليهم يدبّر شؤونهم ويرعى مصالحهم.

ولعلّ الوجه في تكرار هذه الآية الشريفة ثلاث مرّات، لبيان تمام قدرته واستجماعه لجميع صفات الكمال، ولإرشاد الناس إلى التفكّر لما في السماوات وما في الأرض ممّا فيها من آيات تدلّ على وحدانيّته وعلمه الأتمّ وحكمته التامّة.

والوكيل: من أسماء الله الحسنى، والمراد به القيّم على أُمور خلقه والمهيمن عليهم، واستقلاله بشؤون الموكل إليه، وذكره في المقام إرشاداً للناس جميعاً أو لمن أراد التفرّق من الزوجين بالتوكلّ عليه عزّجلّ وتفويض الأمر إليه، فإنّ من يتوكلّ على الله تعالى فهو حسبه ويكفيه من كلّ ما أهمّه ويغنيه من سعته، وكفى به وكيلاً فإنّه قادر على انجاز كلّ ما أوعده.

قوله تعالى: ﴿**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ**﴾.

تأكيد جديد على ملازمة التقوى وبيان لما استفيد من التهديد من سياق الآية الكريمة المتقدّمة، وتنبيه للناس إلى التأملّ في سنّتة عزّ وجلّ في الأُمم، وتوجيه أفكارهم إلى عظيم قدرته تعالى، وتصديره بقوله: ﴿**إِنْ يَشَأْ**﴾ للدلالة على استغنائه وعدم الحاجة الى أحد من خلقه.

وسياق الآية الشريفة بضميمة ما ذكرناه يدلّ على أنّ المراد من إذهاب الناس واتيان آخرين، هو إذهاب هؤلاء الّذين نكصوا عن الطاعة وأعرضوا عن التقوى بعد ما أوصاهم جميعاً بملازمتها، وإتيان أناس آخرين يطيعون الله تعالى ويتّقون ويقومون بما يحبّه ويرتضيه عزّ وجلّ، فإنّه المالك للملك والملكوت

والقادر على كلّ شيء، يتصرّف في ملكه كيفما يشاء بما يشاء ولما يشاء. وإطلاق الآية المباركة يشمل الإذهاب الدفعي والتدريجي، بأن يستبدل الله غير المتّقين المطيعين بإفناء الأوّلين وإهلاكهم بالمرّة وإيجاد آخرين، أو تبديلهم بآخرين متّقين على مرّ الزمن ـ كما يأتي في البحث الروائي ـ وهذا أولى من حمل الآية الشريفة على أحد الوجهين، كما ذهب إليه بعض المفسّرين؛ لعموم قدرته وسنّته في خلقه، فقد أذهب أقواماً أفنى الأوّلين منهم لما كفروا بربّهم واستدرج آخرين حتّى أفناهم، ثمّ أقام آخرين مكانهم فآمنوا وأطاعوه واتّقوه.

وأمّا ما ذكر بعض المفسّرين من أنّ المراد من قوله تعالى: ﴿بِآخَرِينَ﴾، أي جنساً غير جنس الناس، فهو بعيد عن سياق هذه الآية الكريمة، وإن كان يناسب قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾[1]، وردّه بعضهم بأنّه خطأ؛ لمخالفته لاستعمال العرب، أو لأنّه من قبيل المجاز ولا يتمّ به المراد، فهو غير صحيح، وسيأتي في البحث الأدبي ما يتعلّق به إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً﴾.

تعليل لما سبق، أي أنّ الله تعالى إنّما يفعل ذلك ويذهبكم ويأت بآخرين مكانكم أطوع لله تعالى وأتقى؛ لأنّه عزّ وجلّ قدير، أي بليغ القدرة. وإنّما أبقاكم لإظهار غناه عنكم.

والقدرة من صفات الذات، ولا يعلم كنهها ولا حقيقتها ـ كسائر صفاته ـ إلّا الله عزّ وجلّ؛ ولذلك إذا أُريد وصفها فلابدّ أن يكون على سبيل النفي، أي لا يعجزه شيء.

---

١. سورة إبراهيم: الآية ٢٠.

وإتيان الفل الماضي (الناقص) في المقام وأمثاله، لبيان الثبوت والتحقّق في مثل هذه الصفات، ولدفع ما قد يتوهّم أنـّه يحدث في ذاته وصفاته ، فهذه الأفعال منسلخة عن الزمان لتنزّهه جلّ شأنه عن الزمان والزمانيّات ، وقد ذكرنا ما يتعلّق بذلك أيضاً في ما مضى من هذا التفسير فراجع .

قوله تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ .

بيان للعلّة التي توجب صرف الناس عن التقوى، إعراضهم عن الطاعة ، وهي الإقبال على الدُّنيا والرغبة في متاعها ، أي من ترك التقوى وضيّع وصيته عزّ وجلّ التي أوصاها لجميع الأُمم ابتغاء ثواب الدُّنيا والرغبة في متاعها ، فإنّ ذلك خطأ وسوء تقدير منه؛ لأنّ الله تبارك تعالى مالك الدينا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ .

علاج لما وقعوا فيه من الخطأ وسوء التقدير ، أي أنّ الله تعالى عنده ثواب الدُّنيا والآخرة ، وهو قادر على أن يعطيكم ثواب الدُّنيا و خيراً منه وأشرف وهو ثواب الآخرة ، فلابدّ من التقرّب إليه تعالى وطاعته والعمل بتكاليفه حتّى ينال ما عنده ، فتكون سعادة الإنسان في التقوى ، ولا يمكن أن ينال شيئاً من الدارين إلّا ما يفيضه تعالى ، وهو منحصر بالطاعة والتقوى .

قوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ .

أي : أنّ الله سميع لأقوال عباده وما يهجس في خواطرهم ، بصير لأفعالهم ، لا يخفى عليه خافية . وفيه من التوبيخ ـ بتركهم ما عنده تعالى ، وإعراضهم عن الطاعة ، والاقتصار على ما يريدونه ـ ما لا يخفى ، فلابدّ من مراقبته عزّ وجلّ في جميع الأُمور .

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

ذكروا في (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ احتمالات ثلاثة من وجوه الإعراب.

الأوّل: الرفع إمّا على أنـّها مبتدأ والخبر محذوف، أي وما يتلى عليكم في القرآن يفتيكم، ويكون (في الكتاب) متعلّقاً بـ(يتلى) أو بمحذوف وقع حالاً من المستكن فيه، أي كائناً في الكتاب.

وإمّا على أنـّها مبتدأ و(في الكتاب) خبره، فتكون الجملة مستأنفة، والكلام مسوق لبيان عظم شأن المتلو.

وإمّا على أنـّها معطوفة على الضمير المستتر في ﴿يُفْتِيكُمْ﴾.

وأُشكل عليه بوجهين:

أحدهما: بأنّه لا يصحّ ذلك، كما هو المعروف في العطف.

وأُجيب عنه: بأنّه يصحّ للفصل.

ثانيهما: بأنّه يستلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز؛ لأنّ الله تعالى فاعل حقيقي للفعل، والمتلو فاعل مجازي له.

وأُجيب: بأنّه يصحّ الجمع بينهما في المجاز العقلي، وأنـّه شائع والإسناد فيه من قبيل الإسناد إلى السبب، ولا يصحّ العطف.

وأمّا على أنـّها معطوفة على الاسم الجليل ﴿قُلْ اللهُ يُفْتِيكُمْ﴾، والعطف فيه من عطف المفرد على المفرد كما هو المتبادر، ولكنّه بعيد لإفراد الضمير.

الثاني: النصب على أن يكون مفعولاً لفال محذوف، أي ويبيّن لكم ما يتلى،

وحينئذٍ تكون الجملة إمّا معطوفة على جملة (يفتيكم)، وإمّا معترضة.

الثالث: الجرّ إمّا على أنّ الواو في قوله تعالى: ﴿**وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ**﴾ للقسم، فتكون (ما) في محلّ الخبر على القسم الذي ينبئ عن تعظيم المقسم به وتفخيمه، ويكون قوله تعالى: ﴿**فِي يَتَامَى النِّسَاءِ**﴾ بدلاً من قوله: ﴿**فِيهِنَّ**﴾، والمعنى: أقسم بما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء.

وإمّا أن تكون معطوفة على الضمير المجرور «فيهن»، بتأويل الإفتاء إلى التبيين، **والمعنى**: قل الله يبيّن لكم ما يتلى عليكم في الكتاب، وهذا هو الوجه المعروف بين البصريين، فقد ردّ بأنّ فيه اختلالاً معنويّاً.

وإمّا أن تكون (ما) معطوفة على النساء في قوله: ﴿**فِي النِّسَاءِ**﴾.

هذه الوجوه المعروفة بين النحويين والمفسّرين.

والحقّ: أنّ بعضها بعيد عن سياق الآية الشريفة، ولا يخلو عن التعسّف، وعلى أغلب الاحتمالات يكون قوله تعالى: ﴿**فِي يَتَامَى النِّسَاءِ**﴾ متعلّقاً بـ(يتلى)، أي ما يتلى عليكم في شأنهن.

والأولى أنّها معطوفة على قوله تعالى: ﴿**قُلْ اللهُ يُفْتِيكُمْ**﴾. والمعنى: قل الله يفتيكم في الأحكام التي تُتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء.

وكيف كان، ففي إتيان صيغة المضارع: «و ما يتلى عليكم» للدلالة على دوام التلاوة واستمرارها، وأنّ جملة: «اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن» وصف ليتامى النساء. وأمّا قوله تعالى: ﴿**وَتَرْغَبُونَ**﴾ إمّا عطف على صلة «اللّاتي»، أو على المنفي وحده، ويحتمل أن يكون حالاً من فاعل «تؤتونهن»، وحينئذ فإن جوّزنا دخول الواو على الجملة المضارعيّة الحاليّة فالأمر ظاهر، وإلّا فلابدّ من تقدير مبتدأ، أي وأنتم ترغبون، وقد ذكرنا في التفسير ما يتعلّق بحرف الجرّ المقدّر في قوله تعالى: ﴿**أَنْ تَنكِحُوهُنَّ**﴾.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾، فالمعروف أنّه عطف على ما قبله، وجوّز بعضهم الرفع على أنّه مبتدأ والخبر محذوف، أي خير ونحوه.

واحتمل آخرون النصب من غير عطف بإضمار فعل، أي ويأمركم أن تقوموا.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ﴾، فالمعروف أنّه من باب الاشتغال، أي وإن خافت امرأة خافت، واحتمل بعضهم أنّ «امرأة» مبتدأ وما بعده الخبر، وقدّر بعضهم (كانت) لاطراد حذف (كان) بعد (ان).

والحقّ هو الأوّل لما فيه من التأكيد على تحقّق الخوف الفعلي، كما عرفت في التفسير، فراجع.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً﴾ فالقراءة المعروفة هي ضمّ الياء وتخفيف الصاد وكسر اللّام، وقرأ بعضهم (يَصّالحا) بفتح الياء وتشديد الصاد وألف بعدها، وأصله: يتصالحا، فبدّلت التاء صادا وادغمت وقرأ آخرون: (يَصّحا) بفتح الياء وتشديد الصاد من دون ألف بعدها، وأصله يصطلحا، فخفف بإبدال الطاء المبدلّة من تاء الأفعال صادا وأُدغمت الأُولى فيها. وقال بعضهم: إنّه أُبدلت التاء صاداً ابتداءً. وقرأ بعضهم: (يصطلحا).

وكيف كان، فإنّ (صلحاً) منصوب على أنّه مفعول به على القراءة المعروفة، أو يكون منصوباً بفعل مترتّب على المذكور، أي فيصلح حالهما صلحاً، أو منصوب على إسقاط الخافض، أي بصلح، يعني بشيء يقع بسببه المصالحة، أو التوسّع في الظرف لا على تقدير بينهما، وإمّا أن يكون مصدراً محذوف الزوائد.

واللّام في ﴿الصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ للجنس، ويحتمل أن يكون للعهد.

و(أُحضرت) في قوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتْ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾، متعدّ لاثنين، بخلاف حضر، فإنّه متعدّ لواحد، والأوّل هو (الأنفس) القائم مقام الفاعل، والثاني

الشحّ، أي احضر الله تعالى الأنفس للشحّ. ويحتمل أن يكون القائم مقام الفاعل هو الثاني، أي أنّ الشحّ حاضر لها لا يغيب عنها أبداً، ولا يضرّ تأنيث الفعل كما هو المعروف.

و(كلّ) في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ منصوب على المصدريّة، والمعروف أنّها بحسب مايضاف إليه من مصدر أو ظرف أو غيره.

وحذف النون في ﴿فَتَذَرُوهَا﴾ إمّا لأجل (أن) الناصبة المضمرة في جواب النهي. وإمّا لأجل الجازم؛ لأنّه معطوف على الفعل قبله، وهو الأصحّ.

و(أن) في قوله تعالى: ﴿أَنْ اتَّقُوا اللهَ﴾ إمّا على أنّها مصدريّة، بتقدير الجارّ، أي: بأن ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾، أو تكون مفسّرة للوصيّة؛ لأنّ فيها معنى القول، وهو يرجع إلى الأوّل أيضاً.

وجملة: «وان تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض»، إمّا جملة مستأنفة خوطب بها هذه الأُمّة إكراماً وتعظيماً لهم. إمّا عطف على ﴿وَصَّيْنَا﴾ بتقدير (قلنا)، أي وصينا وقلنا: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾، فالخطاب يكون للجميع ـ لهذه الأُمّة ولغيرها من الأُمم ـ. وقيل: إنّه عطف على ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾.

وأمّا قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ فقد وقع الكلام في لفظ الآخر، في أنّه هل يشترط فيه الاتّحاد في الجنس أم لا يشترط ذلك، فذهب جمع من العلماء إلى الاشتراط. وقالوا: بأنّ لفظ (آخر) و(أُخرى) وجمعهما، لا يوصف به إلّا ما يجانس المذكور قبله، وبذلك يشبه سائر وبقيّة وبعض، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾[1]، فوصف عزّ وجلّ مناة بالأُخرى لمّا جانست العزى واللّات، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ

١. سورة النجم: الآية ١٨ ـ ١٩.

﴿فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[1]، فإنّه وصف الأيّام بالأُخر؛ لكونها من جنس الشهر؛ ولذلك خطّأوا قولهم: (ابتعت عبداً وجارية أُخرى)؛ لأنّ الجارية ليست من جنس العبد؛ لأنّه مذكر وهي مؤنّثة، كما لا يقال: جاءت هند ورجل آخر.

وذكروا في وجه ذلك بأنّ (آخر) من قبيل (افعل) الذي يصحبه (من)، وتحذف غالباً لدلالة الكلام عليها وكثرة استعمال (آخر) في النطق، وحينئذٍ لابدّ أن يجانس المذكور بعده ما قبله وإن حذف ما بعده، فإذا قيل: قال المتنبي وآخر، أي: من الشعراء، وذكر هؤلاء أنّه من هناك جاء الفرق بين (غير) و(آخر)، فإنّ (غيراً) تقع على المغائر في الجنس أو الوصف، و(آخر) لا يقع إلّا على المغائرة بين أبعاض جنس واحد.

وتطرّف آخرون حيث ذكروا أنّ (آخر) إنّما يقابل ما كان من جنسه تثنية وجمعاً وإفراداً.

ولكنّه مردود بورود خلاف ذلك في كلام العرب، قال ربيعة بن يكدم:

ولقد شفعتهما بآخر ثالث ... وأبى الفرار إلى الغداة تكرمي

وقال أبو دحية النميري:

وكنت أمشي على ثنتين معتللاً ... فصرت أمشي على أُخرى من الشجر

وكيف كان، فقد ذهب جمع آخرون منهم نجم الأئمّة الرضي إلى عدم الاشتراط، واحتجّوا بأنّ الاشتراط لم يكن متّفقاً عليه، وأنّه يكفي الاشتراك بين المتقدّم والمتأخّر في عنوان واحد، ولذلك صحّ أن يُقال: جاءني زيد وآخر، على تقدير: ورجل آخر، أو يقال: اشتريت فرساً ومركوباً آخر، لاشتراكهما في عنوان

---

١. سورة البقرة: الآية ١٨٦.

المركوبيّة ونحو ذلك، بلا فرق بين التثنية والجمع والإفراد، ولكن ذلك يختصّ بما إذا كان حقيقتهما واحدة وإلّا فلا يجوز، فلا يصحّ أن يقال: رأيت المشتري والمشترى الآخر، تريد بأحدهما الكوكب وبالآخر مقابل البائع. وبناءً عليه لايشترط الاتّفاق في التذكير أو التأنيث، فيجوز: جاءني جاريتك وإنسان آخر، قال عنترة:

والخيل تقتحم الغبار عوابساً   من بين منظمة وآخر ينظم

والحقّ أن يقال: إنّ (آخر) إنّما يؤتى به في مورد يتوهّم اتّحاد ما قبله لما بعده، فتظهر به المغائرة، وحينئذ لا تختصّ الاتحاد في الجنس، بل يصحّ في غيره ولو على ضرب من التأويل، وبذلك يمكن الجمع بين الكلمات، فمن قال بالاختصاص ـ أي في ما لم يكن التأويل ـ ورفضه الذوق الأدبي، ومن قال بعدمه ـ أي في مورد صحّ فيه التأويل ـ.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللهُ يُفْتِيكُمْ**﴾ على أهمّية الأحكام المتعلّقة بالنساء ولزوم مراعاتها، فإنّ الإسلام اعتبر النساء كالرجال، فلهن من الحقوق كما للرجال، وأنّ عليهن من الحقوق للرجال مثل ما على الرجال بالنسبة إليهن، لأنّ بهما يقوم المجتمع، ولا يمكن نيل السعادة المنشودة إلّا بهما معاً، ويؤكّد ذلك افتاؤه عزّ وجلّ لهن بعدم الاستفتاء منهم، وهذا ممّا يدلّ على عظيم شأنهن، وقد تقدّم في سورة البقرة بعض الكلام فراجع.

الآية المباركة تدلّ على وجود عادات سيّئة في النساء، وعلى الخصوص يتاماهن والمستضعفين من الولدان، وأنّ الإسلام ينكرها أشدّ إنكار، ويضع

الحلول المستقيمة وإن كانت على نحو التدريج ، فقد ذكر عزّ وجلّ جملة منها في أوّل هذه السورة، وبعضها الآخر في مواضع أخرى ، ولم يذكرها جملة واحدة، لأنّ العادات كانت مستحكمة لا يمكن إزالتها وزعزعتها بسهولة . ومن هنا نرى أنّ الله تعالى في هذه الآية الكريمة يؤكّد على مراعاة الخير في هذا الموضوع المهمّ ، لأنّ الخير ترغب إليه النفوس، وهي مجبولة على حبّه، ولإرشاد الناس إلى أنّ تلك الأحكام والحلول إنّما هي من الخير الذي يعود نفعه إلى الأفراد وإلى المجتمع .

الثاني : يدلّ قوله تعالى : ﴿**وَالصُّلْحُ خَيْرٌ**﴾ على أنّ الصلح مبارك ، وهو جائز بين المسلمين في كلّ شيء، إلّا ما ورد من قبل الشارع ما يمنعه . ولعلّ ما ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ : «الصلح جائز بين المسلمين إلّا ما أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً» ، مأخوذ من هذه الآية الشريفة ، ولا غرو في ذلك لأنّ الله تبارك وتعالى أعطاه من الذوق الرفيع والذهن الثاقب، وأفاض عليه من العلوم ما جعله يعلم أسرار كلامه عزّ وجلّ ، ومنحه الفصاحة حتّى جعله أفصح مَن نطق بالضاد ، ويأتي في البحث الفقهي ما يرتبط بالمقام .

الثالث : يستفاد من قوله تعالى : ﴿**وَأُحْضِرَتْ الْأَنفُسُ الشُّحَّ**﴾ أنّ الشح كامن في كلّ نفس ، وهو من الغرائز المودعة فيها ، ويكون حاضراً إذا توفّرت المقتضيات ، ويؤثّر أثره عند زوال المانع ، والمقتضيات كثيرة منها الشقاق ، والنزاع والإعراض ونحو ذلك . وأمّا المانع من تأثيره فإنّما هي التقوى؛ ولذا ورد التأكيد على لزومها ومراعاتها .

وأمّا معالجة هذه الغريزة إنّما تكون بالإحسان بالمعنى الأعمّ الشامل لكلّ خير وإنفاق ونحوه . ويدلّ على ما ذكرناه قوله تعالى في ذيل الآية الشريفة : ﴿**وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً**﴾ .

الرابع : يدلّ قوله تعالى : ﴿**وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾

على وجوب القسمة بين الأزواج، وهي من المستطاع الذي يجب مراعاته، والمنفي إنّما هو الميل القلبي، وبعض الأُمور الخارجة عن الاختيار والآية الكريمة لا تشملها. وأمّا الذي يمكن أن يقع تحت الاختيار فهو واجب كما عرفت، وسيأتي في البحث الفقهي ما يرتبط بالمقام فراجع.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ﴾** على أنّ الفرقة والطلاق لم يكن مأمورا به من قبل الشارع، وإنّما هو أمر اختاره الزوجان، بقرينة إسناد الفعل إليهما بعد أن لم ينفع الصلح والاتّفاق، وعدم الرغبة من الزوجين على دوام الزوجية، وعدم إبداء الحرص منهما أو من أحدهما على استرضاء الآخر، وهذا ممّا يؤكّد على أنّ الطلاق أمر مبغوض في الشرع الإسلامي ـ كما عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» ـ ولم يؤمر به في حالة من الأحوال في القرآن الكريم، وأنّه لم يكن علاجاً ناجحاً إلّا إذا انسدت الأبواب في وجه الزوجين، ولم يمكن الزوج العيش مع الزوجة، وقد ذكرنا ما يتعلّق بذلك في سورة البقرة فراجع.

السادس: يدلّ قوله تعالى: **﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾** على وحدة الفعل الذي يدلّ على ثبوت الفاعل ووحدته لما عرفت سابقاً، ولأجل أهمّية هذا الدليل لكونه أقرب إلى الفطرة ولموافقته للطبع، أكّد عليه القرآن. وقد تكرّرت هذه الآية الكريمة المباركة في المقام أربع مرات: أحديها في ما تقدّم وسبق الكلام فيها، ولأجل دلالتها على استجماع الخالق المالك لما في السماوات وما في الأرض جميع صفات الكمال، ذكر عزّ وجلّ في ذيل كلّ آية صفة من صفاته العليا، وهي تدلّ على علمه الأتمّ وحكمته المتعالية وربوبيّته العظمى، واستغنائه عن مخلوقاته وقدرته التامّة.

السابع: يدلّ قوله تعالى: **﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾** على

أهمّية التقوى وعظم أثرها في المخلوقات، بل لها المدخليّة في الأُمور الكونيّة ـبقاءً وفناءً سعادةً وشقاءً ـ فهي تجلب الخير والبركة والسعادة، وأنّ في تركها زوال ذلك، بل قد يستلزم منه الفناء، وهذا ما يؤكدّ عليه القرآن الكريم في مواضع متعدّدة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[1]، وفي هذه الآية الكريمة الدلالة على أنّ الإعراض عن التقوى قد يوجب قلب الحقيقة واختلال النظام وفناء الإنسان، فلابدّ من التفكّر في عواقب ترك التقوى والإعراض عن طاعة الله عزّجلّ. ولا شك في أنّ ما أصاب الإنسان في هذا العصر من المصائب والمكاره ليس إلّا لأجل تركه التقوى وإعراضه عنها، فإنّه مع التقدّم في جميع الوسائل الماديّة، وبلوغ أعلى درجة المدنيّة والحضارة، ولكنّه يعيش في أسوأ حالته من الشقاء والتعاسة و الحرمان، وما أبعد الإنسانيّة عن الكمال المنشود لها. ولعمري إنّه لو بذل الإنسان هذا الجهد ـبل أقلّ منه ـ في طاعة الله تعالى وتقواه، لبلغ إلى ما وصل إليه الآن، ونال الزيادة ووصل إلى الكمال المنشود، وهو في راحة واطمئنان واستقرار وأمان، فالدين هو الوسيلة الوحيدة في جلب هذه الأمور وسعادة الدارين، وفي غيره الشقاء والتعب والحرمان والبُعد عن الحقيقة والواقع.

الثامن: يدلّ قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا﴾ على أنّ ثواب الدُّنيا والآخرة وسعادتهما إنّما هو من عند الله تعالى، وأنّ الطريق منحصر في التقوى الحاصلة من طاعته والعمل بدينه عزّ وجلّ، والتقوى هي التي تهيّأ العبد لإفاضة الباري عزّ وجلّ عليه بما هو خير الدُّنيا والآخرة، وهي الوسلية للوصل إلى مقام رضاه وجنّة اللقاء.

وهذه الآية المباركة ردّ على مزاعم مَنْ يذهب إلى أنّ الوصول إلى

---

١. سورة الأعراف: الآية ٩٦.

المقامات العالية، ونيل الدرجات الرفيعة، والتنعّم برضاه تعالى يكون بالمجاهدة فقط من دون دين وعقيدة، أو بالذكر المجرّد، أو بأفعال خاصّة، ونحو ذلك ممّا يقوله أهل ذلك الفن، فإنّه لا يصحّ ذلك ولا يمكن أن ينال ثواباً أو إفاضة إلّا من عنده تعالى، وإنّ الله هو السميع البصير، العالم بجميع شؤون عباده، والمهيمن على جميع خلائفه.

***

بحث روائي:

في «تفسير علي بن إبراهيم» في قوله تعالى: **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾**، قال: نزلت مع قوله تعالى: **﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾**، فنصف الآية في أوّل السورة ونصفها على رأس المائة والعشرين آية، وذلك أنـّهم كانوا لا يستحلّون أن يتزوّجوا يتيمة قد ربّوها، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فانرل الّله: **﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾** - إلى قوله - **﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾**.

أقول: لعّل المراد من التنزيل التشريع، أي شرّع ما يتعلّق بالنساء من الأحكام دفعة واحدة، ولذلك لا يضّر تفريق الآية الكريمة حينئذٍ، بعدما كان ذلك بتقرير النبيّ ﷺ أو المعصوم. و ليس هذا من التحريف؛ لأنّ الموضوع غير قابل له، والمراد من قوله عليه السلام: «على رأس المائة والعشرين» تقريبي لا دقّي كما هو معلوم.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم»: «عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: **﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾**، فإنّ نبيّ الله سئل عن النساء ما لهنّ في الميراث؟ فأنزل الله: الربع والثمن».

أقول: ذكرنا في الفقه ما يتعلّق بأحكام إرثهن، فالربع إن لم يكن للزوج ولد، والثمن إن كان له ولد، كما في الآية المباركة.

وفي «المجمع» في قوله تعالى: **﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾** عن أبي جعفر عليه السلام: «ما كتب لهنّ من الميراث».

أقول: الرواية من باب ذكر بعض ما كتب لهن في الإرث، وإنّ الآية الكريمة عامّة تشمل الإرث وغيره.

وفي «الدرّ المنثور» عن ابن عبّاس في قوله تعالى: **﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللهُ يُفْتِيكُمْ﴾** قال: «كان أهل الجاهلية لا يورّثون المولود حتّى يكبر ولا يورّثون المرأة، فلمّا كان الإسلام قال: **وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ** ـ الآية﴾».

أقول: وردت روايات كثيرة عن الفريقين في أنّ المرأة كانت محرومة عن الإرث في الجاهليّة، والإسلام أبطل هذه العادة ورفع شأنها.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم» في قوله تعالى: **﴿يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾** قال: «إنّ أهل الجاهلية كانوا لا يورّثون الصبي الصغير ولا الجارية من ميراث آبائهم شيئاً، وكانوا لا يعطون الميراث إلّا لمَن يقاتل، وكانوا يرون ذلك في دينهم حسناً، فلمّا أنزل الله فرائض المواريث وجدوا من ذلك وَجداً شديدا فقالوا: انطلقوا الى رسول الله فنذكره ذلك لعلّه يدعه أو يغيّره، فأتوه فقالوا: يا رسول الله للجارية نصف ما ترك أبوها وأخوها، ويعطي الصبي الصغير الميراث، وليس واحد منهما يركب الفرس ولا يحوز الغنيمة ولا يقتل العدو؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: بذلك أُمرت».

أقول: ذكر السيوطي في «الدرّ المنثور» روايات أُخرى قريبة لما تقدّم وإن

كانت تعابيرها مختلفة، إلّا أنّ معانيها متقاربة. والمراد من قوله عليه السلام: «وكانوا يرون ذلك في دينهم حسناً»، أي في عاداتهم السائدة في زمان الجاهليّة ولذلك شدّد الأمر عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: «بذلك أمرت»، وخصّصت الرواية بموانع الإرث والزواج المنقطع، كما ذكرنا في الإرث من (مهذب الأحكام).

وكيف كان، فإنّه يستفاد من الآية الشريفة بقرينة هذه الرواية أنّها في مقام ردع بعض العادات السيّئة التي كانت سائدة قبل البعثة.

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى: **﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾**: «إنّ الرجل كان في حجره اليتيمة، فتكون دميمة وساقطة ـ يعني حمقاً ـ فيرغب الرجل أن يتزوّجها ولا يعطيها مالها، فينكحها غيره من أجل مالها ويمنعها النكاح ويتربّص به الموت ليرثها فنهى الله عن ذلك».

أقول: ظهر ممّا ذكرنا من أنّ الآية الكريمة في مقام ردع بعض العادات السيّئة التي كانت سائدة عند العرب قبل البعثة، بتشريع أحكام خاصّة لهن ترجع شأنهن بقرينة هذه الروايات.

وفي «تفسير علي بن إبراهيم» في قوله تعالى: **﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾**، «انّهم كانوا يفسدون مال اليتيم، فأمرهم أن يصلحوا أموالهم».

أقول: القسط بين أن يكون في الأموال أو في الأنفس، وذكر الأموال من باب: لا فرق في الغالب، وليس من باب التقييد.

وفي «الكافي» بسنده عن الحلبي عن الصادق عليه السلام، قال: «سألته عن قول الله عزّ وجلّ: **﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً﴾**، فقال: هي المرأة تكون عند الرجل فيكرهها فيقول لها: إنّي أُريد أن أُطلّقك، فتقول له: لا تفعل، إنّي أكره أن تُشمت بي، ولكن أُنظر في ليلتي فاصنع بها ما شئت، وما كان سوى ذلك من شيء فهو لك، ودعني على حالتي، فهو قوله تبارك وتعالى: **﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ**

﴿يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً﴾ وهذا هو الصلح».

أقول: وفي هذا المضمون روايات كثيرة على جواز الصلح بظهور علامات الطلاق والفراق وعزم الزوج بذلك، باختلاف الدواعي والأسباب، وكلّها من باب التطبيق والجري.

وفي «سنن البيهقي» بسنده عن عليٍّ عليه السلام: «انّه سُئل عن قوله تعالى: **﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً﴾**، فقال: هو الرجل عنده امرأتان فتكون إحداهما قد عجزت أو تكون دميمة، فيريد فراقها فتصالحه على أنّه يكون عندها ليلة وعند الأُخرى ليالي ولا يفارقها، فما طابت به نفسها فلا بأس به، فإن رجعت سَوّى بينهما».

أقول: الدمامة (بالفتح) القبح، يقال: رجل دميم، أي قصير قبيح، سواء كان في الجسم أو نقص في العقل ـ كالحمق كما مرّ في الرواية السابقة ـ.

وكيف كان، فهذه الرواية من باب الجري والتطبيق أيضاً.

وفي «الكافي» بسنده عن زرارة، قال: «سُئل أبو جعفر عليه السلام عن النهارية يشترط عليها عند عقد النكاح أن يأتيها ما شاء نهاراً أو من كلّ جمعة أو شهر يوماً ومن النفقة كذا وكذا، قال: فليس ذلك الشرط بشيء، مَن تزوّج امرأة فلها ما للمرأة من النفقة والقسمة، ولكنّه إن تزوّج امرأة فخافت فيه نشوزاً أو خافت أن يتزوّج عليها فصالحت من حقّها على شيء من قسمتها أو بعضها، فإن ذلك جائز لا بأس به».

أقول: إنّ كلّاً من النفقة والقسمة واجبتان على الزوج مطلقاً، وإنّ كلّاً منهما محدّد في الشرع، فإذا كان الشرط على خلاف ذلك يكون فاسداً ـ كما ثبت في محلّه ـ لأنّه إمّا يوجب الضرر أو الحرج أو تغيير ما حدّده الشارع، بخلاف ما لو صالحت من حقّها باختيارها على شيء، كما في ذيل الرواية فلا بأس به.

وعن علي إبراهيم في قوله تعالى: **﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ**

إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً ـ الآية» قال: «نزلت في بنت محمّد بن مسلمة كانت امرأة رافع بن خديج، وكانت امرأة قد دخلت في السنّ وتزوّج عليها امرأة شابّة كانت أعجب إليه من بنت محمّد بن مسلمة، فقالت له بنت محمّد بن مسلمة: ألا أراك معرضاً عنّي مؤثِراً عليَّ؟ فقال رافع: هي امرأة شابّة وهي أعجب إليَّ، فإن شئت أقررت على أنّ لها يومين أو ثلاثاً منّي ولك يوم واحد، فأبت بنت محمّد بن مسلمة أن ترضى فطلّقها تطليقة ثمّ طلّقها أُخرى، فقالت: لا والله لا أرضى أو تسوّي بيني وبينها يقول الله: ﴿**وَأُحْضِرَتْ الْأَنفُسُ الشُّحَّ**﴾ وابنة محمّد لم تطب نفسها بنصيبها وشحّت عليه، فأعرض عليها رافع: إمّا أن ترضى وإمّا أن يُطلّقها الثالثة، فشحّت على زوجها ورضيت فصالحته على ما ذكرت. فقال الله تعالى: ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ**﴾، فلمّا رضيت واستقرّت لم يستطع أن يعدل بينهما فنزلت: ﴿**وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ**﴾، أن يأتي واحدة ويذر الأُخرى لا أيم ولا ذات بعل، وهذه السنّة في ما كان كذلك إذا أقرّت امرأة ورضيت على ما صالحها عليه زوجها، فلا جناح على الزوج ولا على المرأة، وإن أبت هي طلّقها أو تساوي بينهما، لا يسعه إلّا ذلك».

أقول: قريب منه ما عن الواحدي في «أسباب النزول»، ورواه السيوطي في «الدرّ المنثور» عن جمع، وعن الحاكم إلّا أنّ فيه: «فتزوّج عليها شابّة فآثر عليها، فأبت الأُولى أن تقرّ فطلّقها تطليقة، حتّى إذا بقي من أجلها يسير، قال: إن شئتِ راجعتك وصبرت على الأُثرة، وإن شئت تركتك؟ قالت: بل راجعني، فراجعها فلم تصبر على الأُثرة فطلّقها أُخرى وآثر عليها الشابّة. فذلك الصلح الذي بلغنا أنّ الله أنزل فيه».

وعن البيهقي عن سعيد بن المسيب: «إنّ ابنة محمّد بن مسلمة كانت عند رافع بن خديج فكره منها أمراً، إمّا كبراً أو غيره فأراد طلاقها، فقالت: لا تطلّقني

واقسم لي ما بدا لك، فاصطلحا على صلح، فجرت السنّة بذلك ونزلت الآية».

وكيف كان، فالرواية من باب التطبيق، وأنّ سبب النزول لا يصير مخصصاً للآية الكريمة، ولا يضرّ الاختلاف في المضامين ما لم يناف القواعد الشرعيّة، والظاهر وحدة القضية.

عن علي بن إبراهيم في قوله تعالى: **﴿وَأُحْضِرَتْ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾**، قال: «أحضرت الشحّ، فمنها ما اختارته، ومنها ما لم تختره».

أقول: الشحّ غريزة مطبوعة في الإنسان ـ فمنه الممدوح كما أنّ منه المذموم ـ وهو قابل للسيطرة عليه.

وفي «تفسير العيّاشي» عن هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام في قول الله: **﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾** قال عليه السلام: «في المودّة».

أقول: الحبّ أو المودّة أمرٌ قلبي غير اختياري، ولا يتعلّق التكليف بأمر غير اختياري، ولذلك قلنا مكرّراً إنّ الخواطر القلبيّة لا يتعلّق بها التكليف، كما دلّت عليه روايات كثيرة أيضاً. وكذا في المقام، فإنّ التسوية في المودّة أو المحبّة غير ممكنة، بل لابدّ من الرجحان في أحدهما.

وفي «المجمع» عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «إنّه كان يقسم بين نسائه ويقول: اللّهُمَّ هذه قسمتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك».

أقول: الرواية وردت عن طرق العامّة والخاصّة، كما ذكرها السيوطي في «الدرّ المنثور»، والمراد بقوله صلى الله عليه وآله: «فيما تملك ولا أملك» المحبّة أو الميل إلى إحداهنّ، ويستفاد منها أنّ الميل والمحبّة القلبيّة أو المحبّة التي لا تظهر آثارها على الجوارح، خارجة عن تحت الاختيار، فلا يُعاقب عليها المكلّف لعدم القدرة على ذلك كما قلنا، وأمّا سؤال النبيّ صلى الله عليه وآله فهو من أدب العبوديّة، نظير خطاب امرأة عمران مع الله سبحانه وتعالى: **﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾**[1]، أو يكون

---

١. سورة آل عمران: الآية ٣٦.

تشريفيّاً، كما في قصّة موسىٰ عليه السلام في سؤاله تعالى منه بقوله: **﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾**[١].

وفي «الكافي» بسنده عن نوح بن شعيب، قال: «سأل ابن أبي العوجاء هِشام بن الحكم، قال له: أليس الله حكيماً؟ قال: بلى هو أحكم الحاكمين، قال: فاخبرني عن قوله عزّ وجلّ: **﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾**، أليس هذا فرض؟ قال: بلى، قال: فاخبرني عن قوله عزّوجل: **﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾**، أي حكيم يتكلّم بهذا؟ فلم يكن عنده جواب فرحل إلى المدينة إلى أبي عبد الله عليه السلام، فقال عليه السلام: يا هشام في غير وقت حجّ ولا عمرة؟ قال: نعم، جعلت فداك لأمرٍ أهمّني، أنّ أبي العوجاء سألني عن مسألة لم يكن عندي فيهما شيء، قال عليه السلام: وما هي؟ قال: فأخبرته بالقصّة، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: أمّا قوله عزّ وجلّ: **﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾** يعني في النفقة، وأمّا قوله تعالى: **﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾** يعني في المودّة، قال: فلمّا قدم عليه هشام بهذا الجواب وأخبره، قال: والله ما هذا من عندك».

أقول: في «تفسير القمّي» ذكر الرواية بعينها، وقال: «سأل بعض الزنادقة أبا جعفر الأحول ـ إلى أن قال ـ: فرجع أبو جعفر إلى الرجل فأخبره، فقال: هذا حملته من الحجاز».

وكيف كان، فجمع الإمام عليه السلام بين الآيتين المباركتين مطابق للواقع، فإنّهم أعرف برموز القرآن ودقائقه لأنّه نزل في بينهم.

---

١. سورة طه: الآية ١٧.

وفي «المجمع للطبرسي» في قوله تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي: «تذرون التي لا تميلون إليها كالتي هي لا ذات زوج ولا أيم، قال: و هو المروي عن الباقر والصادق عليهما السلام».

أقول: وقريبٌ منه ما عن ابن عبّاس كما في «الدرّ المنثور»، وتقدّم في التفسير ما يتعلّق بذلك.

وعن عليّ عليه السلام: «كان له امرأتان، وكان إذا كان يوم واحدة لا يتوضّأ في بيت الأُخرى».

أقول: لابدّ من حمله على الفضل والرجحان، والمواظبة على ذلك من مختصّات مقامه الشريف وقداسة منزلته.

وفي «الدرّ المنثور» عن مجاهد، قال: «كانوا يستحبّون أن يسوّوا بين الضرائر حتّى في الطيب، يتطيّب لهذه كما يتطيّب لهذه».

وفي «الكافي» بأسناده عن عاصم بن حميد، قال: «كنت أبي عبدالله عليه السلام فأتاه رجل فشكى إليه الحاجة فأمره بالتزويج، قال: فاشتدّت به الحاجة، فأتى أبا عبد الله عليه السلام فسأله عن حاله، فقال: فاشتدّت بي الحاجة، قال عليه السلام: فارق، ففارق ثمّ أتاه فسأله عن حاله، فقال: أثريت وحسُن حالي، فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنّي أمرتك بأمرين أمَرَ الله بهما، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾».

أقول: الآثار الوضعيّة في الآيات المباركة غير قابلة للإنكار، فإنّ وعوده تعالى حقائق فعليّة ولا نقص في قدرته عزّ وجلّ، وإنّ التخلّف لو تحقّق إنّما يكون لنقص أو وجود مانع في الطرف، كما تقدّم.

وفي «مصباح الشريعة» قال أبو عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ في هذه الآية: «قد جمع الله ما

يتواصى به المتواصون من الأوّلين والآخرين في خصلة واحدة وهي التقوى، وفيه جماع كلّ عبادة صالحة، وبه وصل مَن وصل إلى الدرجات العُلى والرتبة القصوى، وبه عاش مَن عاش بالحياة الطيّبة والأُنس الدمث، قال الله عزّ وجلّ: **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾**».

أقول: تقدّم أنّ للتقوى مراتب متفاوتة ولكلّ منها درجة، فالإيمان هو التقوى ومَن لم يتّق فكأنّه ليس بمؤمن، بل هو كافر ـ حسب اختلاف مراتبه ـ فالتقوى هي الركيزة الأُولى في الانتساب العملي والقلبي (العقيدة) إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا ما يستفاد من الآيات الشريفة لمن تدبّر فيها.

وعن البيضاوي في تفسير قوله تعالى: **﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾** قال: «وروي أنّ الآية لمّا نزلت ضرب رسول الله ﷺ على ظهر سلمان رضوان الله تعالى عليه) وقال: إنّه قوم هذا».

أقول: يستفاد من الرواية أنّ قوم سلمان لهم الأهليّة بتبديل الناس بهم للصفة اللائقة لذلك فيهم، وهي التقوى كما مرّ في التفسير الرواية من باب ذكر المصداق.

***

بحث فقهي:

يستفاد من الآيات المباركة بضميمة الروايات الواردة في الأحكام المستفادة منها أُمور:

الأوّل: لا يجوز لأحد التصرّف في أموال اليتامى ولا في أنفسهن، إلّا بعد مراجعة الولي على اليتيم أو اليتيمة كالجدّ ـ أب الأب ـ لو كان، وإلّا فالحاكم الشرعي، على تفصيل ذكرناه في كتاب النكاح من (مهذب الأحكام)، ولابدّ في التصرّف مطلقاً من المصلحة تعود لليتامى للآية الشريفة، ولقوله تعالى: **﴿وَلَا**

تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]، وللروايات الواردة في هذا الباب، كما لا يجوز لليتامى التصرّف في أموالهم وأنفسهم للحجر عليهم شرعاً، كما ذكرناها في كتاب الحجر من (مهذب الأحكام).

الثاني: النشوز في الزوجة يتحقّق بأُمور:

منها: الخروج عن بيت الزوج بلا إذن منه إن لم يكن خروجها واجباً شرعياً، ويدلّ على ذلك روايات كثيرة ذكرنا بعضها في كتاب النكاح من (مهذب الأحكام).

ومنها: عدم تمكين نفسها للزوج فيما يجب عليها التمكين، ويدلّ على ذلك الأدلّة الأربعة، كما قرّرناها في محلّه.

ومنها: عدم إزالة المنفّرات المضادّة للتمتع بها والالتذاذ منها، للروايات الدالّة على ذلك، مضافاً إلى الإجماع.

وإذا تحقّق النشوز يسقط وجوب النفقة عن الزوج في النكاح، ويستمرّ السقوط ما دام النشوز باقياً، للأصل. وإذا رجعت عن النشوز وتابت رجع وجوب النفقة على الزوج وتستحقّها لتحقّق المقتضي ورفع المانع، فتشمله الإطلاقات والعمومات.

وأمّا نشوز الزوج فيتحقّق بإظهار الخشونة لها قولاً وفعلاً، ولا يوجب نشوزه سقوط النفقة الواجبة عليه.

ثمّ إنّ مقدار النفقة من الكميّة موكول إلى العرف المتداول حسب كلّ عصر وزمان، كما ذكرنا ذلك في كتاب النكاح من (مهذب الأحكام).

الثالث: يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾** قاعدة فقهيّة فيها البركة لعمومها، وهي: «جريان الصلح في جميع العقود دالاً ما خرج بالدليل»، كالنكاح

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٥٢.

مثلاً على ما ذكرنا في كتاب الصلح، وتدلّ عليها كلمة «خير» الساري في جميع العقود بلا تقييد ولا تخصيص، وللروايات الكثيرة، منها ما عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «الصلح جائز بين المسلمين إلّا صلحاً حرّم حلالاً وأحلّ حرماً، والمسلمون على شروطهم إلّا شرطاً حرّم حلالاً»، وغيره من الروايات المستفيضة، مضافاً إلى الإجماع.

ولا يختصّ الصلح بالعقود التمليكيّة ـ كالبيع والإجارة وغيرهما ـ بل يجري في غيرها أيضاً، فقد يفيد فائدة البيع أو الإجارة أو الهبة أو الإبراء وهكذا، ولا يشترط فيه أن يكون مسبوقاً بالنزاع.

والصلح: عقد لازم سواء كان مع العوض أو بدونه، لأصالة اللزوم في كلّ عقد إلّا ما خرج بالدليل، ولم يدلّ دليل فيه على الخروج، وذكرنا في كتاب البيع من (مهذب الأحكام) ما يتعلّق بها.

ويغتفر في الصلح ما لم يغتفر في غيره من الشرائط والأحكام المعتبرة في العقود؛ لأنّه خير، ولا قيد في الخير إن لم يقيّده الشرع.

الرابع: وجوب التساوي في القسمة بالمبيت عند كلّ واحدة من الزوجات، وكذا في النفقة حسب لياقة الزوجة وشرفها.

نعم، لو كان الرجحان خارجاً عن القدرة كالحبّ والمودّة فيسقط وجوب التعديل والتساوي، كما تقدّم في التفسير.

وعن ابن مسعود في قوله تعالى: **﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾** قال: «في الجماع». ولكن ذلك مجرّد دعوى منه لم تستند إلى معصوم أو دليل عقلي معتبر، مع أنّ الجماع قد يكون باستطاعة الشخص ـ لاختلاف الأمزجة ـ ولا يكون كالحبّ والمودّة، فالمناقسة فيما ذكره واضحة والله العالم.

والحمد لله أوّلاً وآخراً

***

« الفهرس »

سورة النساء الآية ٦٩ ـ ٧٠

سورة النساء الآية ٧١ ـ ٧٦

سورة النساء الآية ٧٧ ـ ٨٠

سورة النساء ٨١ ـ ٨٤

سورة النساء الآية ٨٥ ـ ٨٧

سورة النساء الآية ٨٨ ـ ٩١

سورة النساء ٩٥ ـ ١٠٠

سورة النساء ١٠١ ـ ١٠٤

سورة النساء ١٠٥ ـ ١١٥

سورة النساء ١١٦ ـ ١٢٢

سورة النساء ١٢٣ ـ ١٢٦

***